نساء الخيال

ممدوح عزّام

مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

رواية

نساء الخيال

ممدوح عزّام

نساء الخيال

روايـــة

نساء الخيال ـ رواية

ممدوح عزّام

الإخراج الفني: فايز علّام

تصميم الغلاف: تمام عزّام

خط العنوان: منير الشعراني

صورة الغلاف: نصوح زغلولة

الطبعة الأولى ـ 2011

ISBN: 978-9953-417-89-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:

أطلس للنشر والإنتاج الثقافي ش.م.م

حمرا ـ الشارع الرئيسي ـ بناء الميزان ـ

ط4 ـ ص.ب: 11452 بيروت، لبنان

هاتف: 739328 1 961 +

فاكس: 739327 1 961 +

بريد إلكتروني:

atlasbooks@gmail.com

التوزيع:

الفرات للنشر والتوزيع

حمرا ـ بناء رسامني

ص.ب: 6435 / 113 بيروت ـ لبنان

هاتف: 750054 1 961 +

فاكس: 750053 1 961 +

بريد إلكتروني:

daramwaj@inco.com.lb

التوزيع عبر الإنترنت:

www.aflurat.com

إلى سلمى

سأجلس وحدي كأني على موعد مع إحدى
نساء الخيال.

محمود درويش

في النسخة التي كتبتها قبل أكثر من عشرين عاماً، من هذا النص، كنت قد أبرزت العناصر المرتجلة، في المغامرة التي قمنا بها، أنا ورفاقي الثلاثة، خوفاً من أن يضفي أي واحد منهم، أي صبغة سياسية، أو فكرية على الأحداث. أو خشية أن يدعي أي بطولة منافقة، من تلك المزاعم التي يدعم الناس بها عادة، حكايات الماضي، حين يعتقدون أن الذكريات المشتركة قد خفتت، أو يظنون أن السنوات محت وحتّت أطراف ما جرى، أو مزقت الأجزاء العميقة منه.

غير أنني لاحظت، فيما بعد، أن علي أن أشير، مثلما أفعل الآن، إلى بضعة أمور تتعلق بالموضوع ذاته، لا يجوز تجاهلها، أولها: انعدام الأصالة في ذلك الاختبار الخفيف المتعجل الذي أردنا أن نمتحن به مزاج البنات من جيلنا، وثانيها: حماقة السلوك الذي اتبعناه، كي نلعب بالمشاعر الغضة لهن، وقصدنا الوحيد، هو المتعة، والإثارة، وسحر المفارقات. وقد غاب عنّا (وهو ما لفتني بقوة حين عثرت على الملف) أمران: الأول هو أننا كنا ندوس بلا حذر، ولا تفكير، ولا حرص، ولا عناية، ولا رحمة، ولا تفهم، فوق الأضلاع الطرية، والرخوة من الروح الإنسانية، والثاني هو أن مثل تلك الفكرة، لا ينفذها، في ذلك الزمن، (وفي أي زمن آخر أتى من بعد أيضاً) أحد، سوى البلهاء، أو المجانين، من أمثالنا، بعد أن أفسد الطيش (على الأرجح) عقولنا، بحيث صرنا عاجزين (بل كنّا) عن رؤية الأخطار المهلكة التي (لن يعرف أحد كيف

نجونا منها) كان يمكن أن تضيعنا، لو انكشفت خطتنا التي نفذناها بروح مزهوة جديرة بالأغبياء والجهلة وحدهم.

كان علي أيضاً، أن أشير إلى الطابع الكوميدي الذي طغى على الخطة من البداية، دون أن أفكر، لمرة واحدة، بأن الكوميديا يمكن أن تخفي، أو تحجب الموضوعات الأكثر خزياً، ومرارةً في التاريخ. وهو ما لاحظته، هذه المرة، حين احتجت إلى شهادات رفاقي الثلاثة، (قيس وجميل ووضاح) من أجل إعادة ترسيم حدود النص، وضبط تقاطعات الحكاية، وتعويض النواقص، ولحم الحقائق، والأحداث، وكشف الغامض والمستور والمخبأ، بعيداً عن التباسات، وشطحات المحررين الذين كتبوا أوراق الملف، بلا أسانيد، ولا وثائق، ولا معطيات منطقية. فإذا بكل واحد منهم (من رفاقي أنا) يقفز فوق الأحداث، ليعيد سرد الماضي بروح لاهية، دون أن يعبأ، أو يخطر بباله، (أفكر أن أكتب: دون أن يصدق) أن ما قمنا به، نحن الأربعة، تسبب ذات يوم، بزعزعة روح حية، ووضعها (أو دفعها، أو رميها) أمام اختبار عجيب (ظل ناقصاً) لم يردم قط، ولن يردم أبداً.

أقر الآن أن هذا أفادني، أنه لن يكون بوسع البشر (الصحيح أنه لن يكون بوسعي وحدي) أن يعيدوا سرد الحكايات، دون أن يلجؤوا إلى الكذب أو إلى الخيال. وهي فائدة، أو استنتاج، كلفني سنوات طويلة (على الرغم من بساطته، وبدهيته) من الانتظار، والتأمل، والتفكير، إلى أن عثرت على الملف. وقد ظل النص ناقصاً، خاوياً، أو مضعضعاً، مكتوباً بأسلوب ركيك، مطفأ، خال من التفاتات المخيلة، وشطحات القص، لا تنفعني العودة المتكررة إليه، ولا الاستشارات الخفية أو الاستبصارات المصطنعة، طوال تلك السنوات، ينتظر جواباً على سؤال لم يُسأل قط، إلا اليوم: لماذا لم نرسل إليها رسالة؟!

لم أكن مؤهلاً للمهمة التي نُدبت إليها، فلا خبرة عندي بالأرشيف، ومزاجي ذاته ليس أرشيفياً البتة، وأنا فاسد في ترتيب محتويات حياتي كلها، ولم يكن لدي أي ميل لتنظيم مكتبتي مثلاً، ولا أملك أمجاد أولئك العقلانيين الحريصين على حفظ إيصالات دفع أقساط المصرف العقاري، أو مصرف التسليف الشعبي، أو محلات بيع المفروشات المنزلية، والأدوات الكهربائية بالتقسيط. في حين أن الكتاب الإداري ينص في بنده الأول، على تكليفي بإعادة تصنيف الوثائق، والملفات والصور (إن توفرت) وجدولتها، وترقيمها، وتحديد هويتها، والتعرف على قيمتها، ووصفها وفهرستها، في أرشيف مديرية التربية، الذي ما زال موجوداً في البناء القديم. ومن ثم العمل على خزنها من جديد، في خزائن البناء الجديد للمديرية، كما يطلبُ في بنده الثاني، إتلاف المواد الأرشيفية المستهلكة، أو عديمة النفع، وهي عبارة مطاطة تتطلب عقلاً متطرفاً، قادراً على حسم الأشياء، وإخراجها، بلا رحمة، من جرن التاريخ، كما عرفت فيما بعد أن الفرنسيين يسمون مقرات الأرشيف، لرميها إلى مزبلته. ثمة بند ثالث خذلني أيضاً، إذ يأمرني بإجراء مسح إحصائي شامل للملفات والوثائق، وتسجيل ذلك في جداول رقمية وحسابية دقيقة.

لا أنكر أن بوسع المرء أن يستقي معلومات كثيرة عن الأرشيف من جهات مختلفة. ولكن علاقتي مع الحسابات كانت مضطربة دائماً،

ابتداءً من رذائل عمليات البيع والشراء والفائدة والفائدة المركبة، في مراحل الدراسة، وانتهاءً بكآبات حساب قيمة السلع التي أشتريها بداية كل شهر من أجل مؤونة البيت.

لا خيار بالطبع، إذ لم يستشرني أحد قبل ندبي إلى هناك، ولم أكن أستطيع رفض تنفيذ مضمون الكتاب الذي أوصله إلي مراسل ناحل بدا لي أنه لم يقرأ التكليف وحده، بل ما وراء سطوره أيضاً. فقد ارتسمت في نظرته، وهو يقدم لي سجل البريد، كي أوقع الإشعار بالاستلام، سمة تأديبية، لم أتمكن من التأكد فيما إذا كان يزدريني بها، أم يشفق علي. كانت تلك واحدة من امتيازات المراسلين الداخليين، في الدوائر الحكومية، الذين يشاع أنهم كلهم (ربما معظمهم) يعملون سراً لدى أجهزة الأمن، وأن وجودهم، الذي يقسم إلى حصص توزع على تلك الأجهزة، يتعدى الاختناق في بذلات العمل الرمادية، ويزيد عن التنقل المكوكي بين حجرة وأخرى، وهم ينوءون تحت وطأة دفاتر البلاغات والسجلات، ورزم التقارير، والكتب المتبادلة بين أقسام الدائرة، إلى المراقبة البصرية، والسمعية لأنفاس الموظفين ورؤساء الأقسام، ومدراء الدوائر، بلا استثناء.

المضحك أن هذا التكليف جاء رداً (كما يُخيل إلي) على نضالي الذي استمر عدة أعوام، واظبت فيها على الاحتجاج والمطالبة بإخراجي من عسف القرار الذي قضى بنقلي من التدريس إلى الإدارة، وأرغمني على ملازمة خواء كرسي الخيزران، وراء طاولة فارغة، بلا عمل، يسفحني الوقت وتختلس الأيام مني صبراً، لم أعد أقوى على احتماله، في غرفة صغيرة كتيمة من الطابق الأرضي لمبنى مديرية التربية الجديد، وحيداً تحت يافطة معدنية سوداء، كتب عليها بالخط النسخي الأبيض اسم

مبهم هو: الحوالات. حيث كانت تهب علي، في أيام الصيف، والخريف، روائح وقود، وزيوت معدنية قاتلة، من قبو مرآب السيارات، أو أرزح تحت وطأة الاستماع إلى نمائم ثلة من السائقين والحراس، الذين اختاروا مظلة تحت نافذة الغرفة، لاستراحاتهم البليدة. وبالنظر إلى أنني لم أكن موظف إدارة أصيلاً، وأني نقلت إلى هنا بقرار سياسي وأمني (كما يُشاع). فإنَّ أولئك العتاة كانوا يتعمدون إنشاء مشاهد استعراضية صاخبة، يهزؤون فيها من وجودي العليل في تلك الغرفة الانفرادية التي أُرجح أنها بنيت كي تكون زنزانة تأديبية.

وإذا كانت مثل هذه الفظاظات مفترضة في أخلاق الشوفير الذي يلحقون أخلاقه بأخلاق الشرموطة والشرطي في العرف الشعبي، فإن تفسير تخابث الحراس ظل عصياً، وغير قابل للفهم لدي.

لكن الفراغ كان خميرة مناسبة كي أفكر في حشر هذه الفئة داخل السلالة السابقة المنحطة. ولم يبق سوى أن أجد مفردة مرادفة أخرى، لوصف الحارس، تبدأ بحرف الشين، حتى لو أدى ذلك إلى انهيار صورة الحارس المنعشة في ذاكرتي، منذ أيام الفتوة، أي منذ ذلك الزمن الذي كان فيه الحراس الليليون ما يزالون صالحين للخدمة، إذ كانت صافراتهم التي تمشط شوارع المدينة، وأزقتها، ما تزال قادرة على بث طمأنينة سرية في نفس ذلك الشاب (أنا) الذي كان يعسر الليل عليه، وهو مكره على النوم وحيداً، برفقة نباح الكلاب في طرف الدار المطلة على جرود حي السورية الموحش.

في ذلك الوقت، كان أخي الأكبر شريكي في غرفة النوم، لكنه ما كان يؤوب إليها، إلا في ساعات الصباح، بعد ذهابي إلى المدرسة. أعرف اليوم أنه كان يمضي الليل في فراش عاهرة سرية، كانت تمنحه

دروساً في الحب، مقابل بضع ليرات يقتطعها عنوة من أرصدتي، بعد أن يستهلك مدخراته. أظن بأنه كان يتدرب هناك، لا من أجل اللذة وحدها، بل من أجل إرضاء فتاة سمينة عوراء رأيتها ترتطم به في الشارع، وتهتف: عفواً! آسفة! وهي تبتسم وترمقه بدلال. وحين أعود من المدرسة، أمشي داخل مربع الغرفة الضيق مثل جرذ. ومع ذلك، يحدث أحياناً أن اصطدم بكرسي، أو طاسة ماء، أو أكسر كأساً. وعندئذ يرفع رأسه عن الوسادة (كان ينام منبطحاً على بطنه) ويدمدم بصوت مخنوق: «جيت يا كلب؟!» ثم يعود إلى النوم مجدداً، بعد أن يأمرني «روح عَ المطبخ ولا». لم يكن مطبخاً، بل رواقاً (أو زقاقاً) ضيقاً، اقتطع بحائط من البلوك، من المسافة الفاصلة بين شاحط الدرج الصاعد إلى السطح، والجدار، وله باب من الصاج السميك بلا نوافذ. فأسرع إلى هناك، بلا تذمر، راضياً بالنجاة من احتمال آخر يمكن أن يشمل صفعة بقفا اليد على وجهي، أو ركلة بمشط القدم على قفاي.

لم تفد الأعشاب المغلية التي شربتها في وعظي، وتهدئة خواطري، فقد خامرني - هذه المرة - شعور عميق بالخزي والذل: فبدلاً من غرفة التأديب، اختاروا سرداباً آيلاً للسقوط، وبدلاً من كرسي الخيزران المثقوبة، أرسلوني إلى الغبار، وبدلاً من المباشرة الفورية في العمل (وهو ما اشتهيته من أجل التغيير) وجدت ملاحظة مكتوبة بخط غير مرئي أسفل الأمر الإداري، تنص على تأجيل التنفيذ بضعة أسابيع دون أي تفسير، لماذا؟!

لم أفهم، ولم تنفع التحريات الخارجية التي أجريتها في الموقع، في توضيح أي سبب، فقد جلت حول المبنى القديم، أكثر من مرة، وحاولت أن أتلصص من النوافذ، واستجوبت ثلاثة أشخاص من بينهم

موظف الاستعلامات القابع قرب المدخل الرئيسي، وزميل لي صار رئيساً لدائرة الامتحانات، وثالث، لا أعرفه، كان يجلس أمام بوابة المبنى، دون جدوى. إذ تأكدت من أن الإدارة، رحّلت جميع الموظفين، والمستخدمين، والمكاتب، والأثاث إلى مقرها الجديد. عندئذ ملت إلى الاعتقاد بأن محرر الكتاب، أو أن من أملاه ووقعه، وهو مدير التربية، أراد أن يثقلني بالمزيد من المرارة، والقهر والغيظ، والحنق. وزاد من يقيني بهذا الاعتقاد، أنه رفض أن يقابلني (الذريعة المعتادة هي أن لديه اجتماعاً) كما رفض طلبي الخطي المسجل وفق الأصول في الذاتية للمباشرة الفورية.

غير أن مثل هذه الاستنتاجات المبهمة لا تقدم أي عزاء، وقد زادت من فاعلية الكمد الذي تجرعته منذ أن وجدت اسمي ضمن لوائح المنقولين من التعليم إلى الإدارة، قبل بضعة أعوام، في إحدى حملات التطهير التي بدأت تنفذها أجهزة الأمن داخل وزارة التربية التي اعتبرت ممنوعة ومحرمة على أي تنظيم سياسي، في معاهدة التحالف الشهيرة التي أنجزتها الأحزاب السورية تحت شعار العمل الجبهوي، واكتشفوا فيها أن على الطلاب، والمعلمين، ألا ينخرطوا في أي تجربة سياسية، عدا البعث، يمكن أن تتسبب في خلق التناحر وتعميق الانقسام.

ربما، قلت لنفسي ذات يوم، هم أحرار، وليوقع كل من يريد أن يوقع على أي خيار يخصه. دون أن يخطر ببالي أبداً، أنني سأكون أحد ضحايا هذه الوثيقة. ولذلك فقد رأيت أن وجود اسمي في تلك اللوائح عمل ظالم (ويمكن أن أقول جائر أيضاً) نجم عن الخبث، أو الطيش، أو سوء الفهم، فأنا لم أنتمِ لأي حزب منذ الشباب، ولم تكن

لدي فضائل العمل الجماعي التي كانت ـ وما زالت ـ تحثنا عليها الكتب المدرسية، والنظريات السياسية المتطايرة كالفطريات، منذ الاستقلال. وحتى لو أردت أن امتثل لذلك السعي الزاحف، فإنني لم أكن أملك حصافة مبادرات أو طموحات المواطنين الساعين إلى ممارسة النفوذ في الأوساط الاجتماعية. وغالباً، فإن أفكاري تتبلد، وتتحل، وتميل إلى الهتاف، إذا ما أحرجت في سياق عمل جماعي، وطلب مني أن أشارك في صياغة قرارات أو اقتراحات، حتى لو كنا نخطط لرحلة مدرسية، أو نزهة خلوية، أو مشوار فاسق خلف الفتيات المنصرفات من مدارسهن. وحين حاول عضو في أحد الأحزاب إقناعي بالانتساب إلى تنظيمه، رفضت بشدة، وأنهيت اللقاء معه فوراً، لأنّ خيط لعاب أبيض ظل يصل بين شفتيه طوال الوقت، وفكرت أن هذا الوضع سيكون كارثياً إذا ما قدر لي أن أعمل معه، وأضطر لأن أراه يتلو أمامي البيانات ويشرح لي السياسات في ظل خيطه اللعين! ومنذ أن خط شاربي، وهي إحدى علامات الرجولة التي تضع المرء قسراً داخل التزامات الجماعة. وحتى اليوم، راكمت تلالاً من الانتقادات التي تفاوتت بين اللوم أو التأنيب، أو المؤاخذة، أو المقاطعة التامة، من قبل أصدقائي، وأقاربي، بسبب خمولي وانعدام الرغبة لدي في تقديم فروض الواجب الاجتماعي الحصيف.

والغريب هو أنه على الرغم من إخفاقاتي المتكررة، فإن دعوات كثيرة ما تزال تصلني من أجل المشاركة. إما لأن أصحابها لا يعرفون شيئاً عن دائي اللا اجتماعي، وإما لأنهم ما زالوا يأملون (يا للأمل) في أن يتمكن الإحراج من إخراجي من الشرنقة (وهكذا وصفت هند علواني حالتي، مستخدمة المفردة الأكثر شيوعاً لتشخيص حالة المنعزلين، والمتوحدين، والراغبين عن الانتماء الجماعي) التي حبست نفسي فيها. غير أن القسم الأكبر من الناس (منهم شقيقي

فايز نفسه) يجدون أن انقطاعي عن نشاطات الجماعة، من صندوق العائلة إلى العمل السياسي، انحراف عن المعايير الإنسانية، وضعف في الخبرة، ومؤشر على مرض الفردية (وهذا وصف ألصقه بي أمين اللجنة الحزبية في الحي) المتسم بالضحالة، وانعدام الثقة بالنفس.

رغم ذلك وجدت نفسي مشمولاً بلائحة الوجبة الأولى من المنقولين إلى الإدارة، (أفكر أحياناً أن أكتب بحثاً عن استخدام كلمة الوجبة، من قبل المسؤولين الذين أعدوا اللوائح، فالمفردة مثيرة جداً، ومغرية).

الأرجح، كما حاولت أن أفسر الأمر لنفسي، أنني كنت ضحية سوء فهم. فإذا كنت أرفض الجماعة والتنظيمات السياسية المتناحرة في البلد، لأي سبب، فإنّه من غير المفهوم، أن أبقى خارج البعث، في وقت كان الاتجاه العام للمجتمع بأسره ـ تقريباً ـ هو الانخراط في هذا الدرب، من قبل الشباب، والرجال، والبنات، والنساء، درءاً للشبهات من جهة، أو بحثاً عن فرص العمل (وهي فرص صارت تبدو من حيث الشكل، نادرة بالوسائل القانونية، ومتوفرة بكثرة، بهذه الواسطة). وقد بدا تصلبي، الذي لم تكن له دوافع سياسية قط، عناداً أعمى لا معنى له، أو حيونة، حسب رأي والدي المباشر، الخالي من أي دبلوماسية. غير أنه فُهم لدى الجهات الأمنية، كما افترضت بعد أن وقع الفأس في الرأس، على أنه حماقة تنم عن موقفٍ معادٍ مبطن بالادعاء المشؤوم عن الاستقلالية.

لم أكن مستقلاً من الناحية السياسية، أبداً، فالاستقلالية في نهاية الأمر، موقف قد يضمر العداء، وقد يبشر بالحياد. أما أنا فكنت خارج اللعبة تماماً، واقتصرت اهتماماتي على رعاية أمي المريضة (قبل أن تموت) والقراءة.

لا ريب أن زوار بيتي من الأصدقاء (لا تظنوا أنني بلا أصدقاء) أو الأصحاب والمعارف أو المتطفلين الذين يأتون مرة واحدة، برفقة قريب أو صديق، لاحظوا خزائن الكتب التي أبعدتها عن الصالون (ليس لدي مضافة في بيتي خلافاً للأعراف أيضاً) وأن واحداً منهم سرَب وصفاً لمنزلي إلى إحدى الجهات المولجة برعاية المعلمين، يتضمن إشارة إلى هذه الكتب. لا يمكن أن أخمن من هو صاحب الوشاية، فقد أرسلت في زمن ما، لا سبيل إلى ضبطه، من قبل شخص استطاع أن يتفحص المكتبة، ويستقصي العناوين فيها، ويدوِّن في ذاكرته أسماء المؤلفين.

مكتبتي كانت هجيناً من المؤلفات الشائعة. هذه هي الحقيقة، إذ إنني لم أتمكن في أي يوم، من مقاومة الرغبة في الاطلاع على الكتب الرائجة التي تشغل أحاديث الناس المتعلمين. ولهذا السبب، يجد الفضولي، أو الواشي، حشداً لا انسجام فيه، من الكتب والمؤلفات، لا امتياز لأي واحد منها، أو لأي واحد من مؤلفيها، أو مكانة خاصة، عندي، عدا غواية انتشاره، أو جاذبية عدواه، في الزمن الذي تردد فيه اسمه بين الناس.

أما قراءاتي، فكانت في المجمل، متعثرة ومتخاذلة، لا غاية، ولا هدف لها، سوى التسلية. ولذلك فإن اختياراتي كانت متنوعة، لا ولاء فيها لأحد، ولا خشية فيها من أحد. لم يكن الكتاب مكلفاً قط بالنسبة إلي، وقد يسر لي وجودي في دار المعلمين التي كانت تمنحني راتباً شهرياً رائعاً، كما ضمن لي التفرغ، والعزوبية، إذ لم أتزوج أبداً، اقتناء الكتب دون عوائق مطالب الأسرة، أو نكبات الخضوع لاحتياجات الأولاد. وكنت أشتري الكتب من ورَاق متنوَر، له اسم طويل هو طعمة الله شمس الدين، افتتح مكتبة مطالبنا منذ الخمسينات، في أحد شوارع المدينة

القديمة. وكان يعرف معجماً من أسماء الكتاب والمؤلفين والأدباء والشعراء العرب والأجانب، كما يعرف معظم مؤلفاتهم، ويستطيع أن يحدد تاريخ إنشاء، أو نشر كل واحد من تلك الكتب. ولم تكن معلوماته في مسائل التراث، أقل عمقاً. وله غرام خاص بتاريخ ابن الأثير (وهذا ما لم أجد له معنى حتى اليوم) ولكني أشك، فيما إذا كان قد قرأ أي كتاب من تلك الأمهات (كما كان يسميها) الكبرى، وإنما اكتفى بأجزاء منها، أو بقراءة الكتب الوسيطة التي تسّرب نتفاً (النتف المتوهجة) من موضوعاتها، فكان يستطيع أن يلقي جملاً منسوبة إلى هملت، وعبارات قالها الملك لير (الذي يتحدث عنه بمهابة خاصة) أو يردد حكماً وتوجيهات من الكامل في التاريخ، فيما بدا أن لتشيخوف، وميخائيل نعيمة (وكان يدعي أنه التقى به ذات يوم في دارته في بسكنتا) مكانة الأنبياء عنده، بينما كان يكنُّ لغوركي وحده مشاعر الصداقة. غير أن طعمة الله استطاع، بفطنة ثعلب، أن يفلت من ورطة التفاصيل، ومماحكات النقاشات في قضايا الشكل والمضمون والمعنى والهدف والمغزى والغاية وغير ذلك من هموم المثقفين الذين كان يسخر منهم بلا رحمة، على الرغم من أن رزقه يسيل من بين أيديهم.

من جهة أخرى، لم يكن يتردد أبداً في تلبية أي طلب. قد يتأخر قليلاً في إحضار الكتاب، لكنه يأتي به دائماً قبل أن تكون فاعليته قد اضمحلت أو تلاشت. ولدي شكوك بأن مثل تلك الكتب كانت موجودة في مكتبته باستمرار. لكنه يخفيها عمداً كي يزيد الطلب عليها، ثم يمنحها لكل طالب لها، كأنه يمنحه عروسه الوحيدة التي لا مثيل لها في الكون، فيما يبقى مهيمناً على السوق، وممسكاً برسن الأسعار.

عدا ذلك فإن مكتبته ظلت تفي بالمتطلبات الأخرى من الكتب،

خاصة تلك التي تساهم في إدارة شجار الايديولوجيات على الأرض. من الماركسية، إلى القومية، إلى الوجودية. دون أن يغفل أسماء الكتاب ذوي الشعبية، مثل ماركس وإنجلس ولينين وسارتر وكولن ويلسون الذي كان كتابه «اللامنتمي» نصاً مقدساً لدى الشباب. أظن اليوم، دون أن يلحق بي أي إثم، أن المئات من متكلمي تلك الأيام لم يقرؤوا اللامنتمي، واعترف أنني لم أقرأه أيضاً، ولكنني اشتريته، ووضعته في صدر المكتبة كي يظهر غلافه علانية، كدلالة أو إشارة إلى أنني فسخت عقودي مع جميع الدعاة الذين كانوا يأملون أن يقنعوني بالانتماء إلى فريقهم.

ومن هذا الباب، أحضر لي طعمة الله كتباً لسارتر، وقد أغواني هذا القديس الذي كان شبان الوجودية يزهون به، ويضعونه في مواجهة ماركس، ورفاقه، بحديثه عن الحرية والنزعة الإنسانية. وجذبني أكثر من ذلك، شكل الشاب الجميل المزين بنظارة طبية وشعر مسرح بعناية، وابتسامة عذراء بسيطة، تجعله يختلف تماماً عن أولئك الثلاثة، بلحاهم الكثيفة، وجهامتهم، وتربصهم، بالعدو الطبقي.

كالعادة، لم أكمل قراءة أي مؤلف له أيضاً، واكتفيت، مثل معلمي الورّاق، بالنتف الخالدة عن الحرية، والغيثان من العالم. إلى أن أبعدتني عنه، إلى الأبد، حذلقته المذهبية عن الالتزام. حتى إذا سُجن الشبان والشابات الذين انتموا إلى خطته، وسموا أنفسهم: «الوجوديون» في بداية سلطة البعث، قدم لي طعمة الله كتاباً غريباً، يتصدره عنوان سجالي هو: الوجودية ليست فلسفة إنسانية. وتحتها عبارة لا رحمة فيها، لكاتب لا أعرفه، تقول «لا يجدر بنا أن نأخذ محاولة كهذه بذرة واحدةٍ من التسامح». وبصرف النظر عن مضمون الكتاب، أو قوة القعقعة في عبارته التصديرية، فقد ازدادت ثقتي بطعمة الله، وأدركت

أنه يستطيع، بسعة إطلاعه، كوراق، أن يحميني دائماً من أن أنقاد إلى حمّى المخدرات الجمعية التي كانت تتكاثر كالمصائد، وراء كل انعطافة نلتفت فيها إلى العالم من حولنا.

سأضيف إلى أسباب خروجي من لعبة الانتماء، طباعي الأخرى التي كنت أخجل، من قبل، في إعلانها. وهي خوفي الطبيعي من الشرطة، الذي اعتقد أنه نوع من الجينات الأصلية غير المكتسبة. فمنذ الطفولة. كان مرأى ذلك الرجل الذي يلبس الكاكي، ويعتمر القبعة، يسبب لي حكة في دماغي، واختلاجة طارئة في جفن عيني، وذعراً أو هلعاً، إذا ما فوجئت به، أي يوم، يقرع باب بيتي، حتى لو كان من شرطة البلديات غير المسلحين. وحين صرت شاباً، حافظت على خوفي منهم، بالإضافة إلى انضباطي التام تجاه جميع أجهزة الأمن الأخرى التي كانت تتوالد من نقيِّ عظام السلطة، بلا توقف، يجذبها النشاط الجانح للأحزاب، والتنظيمات، والجمعيات، والأفكار، والتيارات السياسية، فتستدعي وتستجوب، وتحقق، وتعتقل، وتسجن أي شخص تشتم منه رائحة الاعتراض على أي مظهر أو أداء.

عندئذ استهواني دور المتفرج الذي اخترته لنفسي أكثر، وبدا إحساسي بالبراءة مثل مظلة تعلو رأسي لتحميني من آثار تلك الأقبية المرعبة التي كنت أسمع أن أولئك التعساء من أعضاء الأحزاب، يذهبون إليها.

هذا هو السبب، أو الأسباب التي دفعتني للقول بأنِّني كنت ضحية سوء فهم، أو خطأ جسيم ارتكبه أحد العملاء الطائشين. ولكن هذا المسوغ لم ينفع مع أحد، كما لم تقدم الرسالة التوضيحية التي سردت فيها سيرتي الحياتية، والمهنية، في إعادتي إلى عملي الميداني في

التعليم. وذلك لسبب بسيط، هو أنها لم تصل إلى الجهة المخولة اتخاذ القرارات في هذا الشأن (هذا ما افترضته) إذ إن المراسلة المباشرة مع أي جهاز أمني مستحيلة، وقد اضطررت أن أتبع السبل القانونية التي تعرف بـ «ع. ط. التسلسل». ومع ذلك فإن القرار ذاته يثير الشكوك عندي، في أهلية الأجهزة الأمنية التي استطاعت في العقود الأخيرة من القرن العشرين، أن تخترق حصون الأحزاب السياسية بلا استثناء (يتضح هذا من الأعداد الكثيفة للمعتقلين) وتطَّلع من الداخل على خططها، وبرامجها، ومطبوعاتها السرية، بحيث بدا أن أي غمغمة أو همهمة، تخطر على بال أي حزب، سرعان ما تظهر على صورة دوريات اعتقال، أو كتب استدعاء، أو زيارات تهديد ووعيد، تخلخل، أو تدمر الفكرة الوليدة. كيف يمكن إذاً، في ظل هذه المهارات أن يُرتكب خطأ فادح من هذا النوع؟!

مازلت أجيب بأن أحد عملائهم الجهلة، ظن ذات يوم، أن وجود أولئك السادة الملتحين في مكتبتي، دليل كاف لإدراجي في سجلات الحمر الملعونين، وتصنيفي كعدو ساخط على النظام السياسي الحاكم. الحقيقة هي أنني لم أكن معادياً لأحد (سأظل أكرر هذا) ولكني بالمقابل لم أتمكن من أن أروض نفسي على استقبال أي سلطة آمرة، فضلاً عن أنني أجد الأمر برمته مضحكاً، حين ألتقي شخصاً يقاتل من أجل أفكار اليسار، بالقوة والإيمان، والطهارة التي يقاتل بها شخص آخر من أجل قيم وأفكار اليمين، دون أن يعلم أي منهما أن الخلاصة ليست في طيات الكتب، وأبيات القصائد، وأدبيات التمجيد، أو الرضى الإلهي، (حيث قد يذهبون) (بعض الموتى يمضون إلى النسيان) بل هي في نعيم أرضي يحظى به الأحياء الذين غذوهم بالفكرة ذاتها،

في غيابهم هم. ولهذا فإن مسألة الأفكار ما تزال ملتبسة عندي: كيف يمكن أن يرضى إنسان بالسجن من أجل فكرة؟ إذ لم يجبني أحد حتى اليوم على سؤالي المبتكر: متى سُجنت فكرة من أجل إنسان؟ ومع هذا ما أزال أرى المئات يمجدون الموت. لا السجن وحده. من أجل فكرة، وهو عزف فظ (كوميدي بالطبع) على اللحن الإنساني الذي لم يؤدِّ في أي يوم، إلى الفردوس المشتهى.

لم أجرؤ على كتابة هذه التأملات في رسالتي، فأنا أعلم أنها إذا وصلت إليهم، فسوف تعتبر هرطقة من جهة، وتدنيساً من جهة ثانية لحفلة اللافتات، والإعلانات المنهمرة، في كل وقت وكل مكان، على شوارع المدن، وفي كل مناسبة، بما في ذلك احتفالات ملكة جمال العنب، مكرَّرة، بلا كلل، فضائل الموت والتضحية والشهادة.

الموظف الذي استلم الرسالة مني، بعد أن أخذت حظها من الأختام والتواريخ والإحالات، قرأها ببطء، ومط شفتين غليظتين (كعادة معظم الموظفين المتمهلين) كشفتي قرد، ورمقني من وراء حافة نظارة طبية سوداء سميكة، ثم وضعها بين رزمة أوراق وقال: «وصل!» بعربية فصيحة، لا رعشة فيها. كان هذا يعني أمراً بالمغادرة، فغادرت. وهذا الموظف نفسه، هو الذي سألني، بعد شهر، حين عدت للاستفسار عن مصير الرسالة: «هل جاءك رد من أحد؟»، «لا» قلت بحماسة، وأنا أتوقع أن يكون لديه علم، أو خبر يزفه إلي. غير أنه رفع حاجبيه، وغمغم، أو همهم بكلمة غامضة، وأضاف بالفصحى ذاتها الخالية من التعاطف: «إذاً! عدم الجواب... جوابٌ!» ثم التفت نحو جاره القريب، وسأل: «ما الذي يجعل أوراق شجر التين تصفر وتسقط؟»، «العناكب» قال الجار بلا تردد، وهو يكتب في دفتر سجلات ضخم، ثم رفع رأسه، ونظر إلي،

وقال: «أستاذ ناولني المصنف الأخضر في الخزانة وراءك!» قلت: «لا! هذا ليس شغلي»، فحدجني بالبغضاء ذاتها التي كان يسجل فيها أوراق الوارد والصادر. وحين خطوت خطوتي الأولى خارج الباب، سمعت الموظف الأول يدمدم: «يستأهل الرش بالمبيدات قبل العناكب!».

غير أن الرد وصل فيما بعد، تصاحبه جرعة جديدة من الاحتقار حملها إلي المراسل القديم، لابس البدلة الرمادية، الذي رمى الرفض على الطاولة أمامي واستدار ومضى. لم أكن قد تأخرت كثيراً قبل أن أدرك انعدام الأمل في اعتراضات من هذا الصنف. ولأنه لم تكن لدي أي دوافع بطولية، فإنَّني سرعان ما استسلمت للأمر الواقع، وبدأت أستعد لتنفيذ المهمة في الموعد المحدد.

لم يكن طعمة الله موجوداً، فقد هُدم السوق القديم، حيث دكان الكتب، وأقيم مكانه مجمع حكومي قبيح، ضخم، ولم يعد في المدينة مكتبة واحدة لبيع الكتب. وكتعويض عن ذلك، اقتطعت المكتبات التي تبيع القرطاسية خزائن صغيرة، في أحد أركانها، لعرض الكتب. غير أن جميع الباعة فيها كانوا شباناً هواة، بدؤوا يعرضون روايات من طراز روايات عبير عن الحب، وكتب الأبراج، أو يجلبون للأثرياء العائدين من الخليج العربي، أو من إحدى دول أمريكا اللاتينية، أغلفة فاخرة، وفارغة من الداخل، تحمل أسماء أشهر المؤلفات التراثية، مطرزة بماء الذهب، أو الفضة، أو يسوقون كتباً محلية تؤرخ للبطولات الغابرة. غير أني وجدته، قبل أن تنقضي المهلة. دلني على مكان سكنه ضابط متقاعد، أو محال على المعاش، حسب تعبيره، أصيب بهوس اقتناء الكتب، والمطالعة، حين وجد أنها تنفع كعلاج مضاد للفراغ، ومشاعر الخيبة. وقد التقيت به مصادفة في منزل حسن أبو السعد، فسألته عما

إذا كان يهتم بالأرشيف. قال: لا، وسألني إن كنت أريد أرشفة الواقع، وتسجيل الحوادث اليومية. فقلت: لا. رداً على لائه. ثم حدثته عن أمر النقل الموجه إلي، وعن مضمون التكليف الجديد، والمهام المنوطة بي. قال هل تظن أنهم أرسلوك إلى هناك بلا سبب؟ لم أكن أريد أن أجادل في الأسباب، فضلاً عن أن السجال السياسي يضجرني، خاصة أن من يخوضونه من أمثال المقدم، هم غالباً، رجال هامشيون، منبوذون خارج السلطة. ومع ذلك يدأبون على إخضاع مصير البلد، لماركات وشعارات، وتحليلات، ومقررات، لا يستطيع أحدهم الدفاع عنها تجاه شرطي. لذلك قلت بعجلة «نعم؟!» كي أعيده إلى غرضي. فمعلوماتي عنه أنه واظب على إدراج السياسة في أي حديث أو حوار، أو لقاء له، حتى لو كان يشتري بصلاً، لكي يلقي حكمة متأخرة استقراها من تجربته، هي أن كل سلطة تسطو على التاريخ، وتختلس الحاضر، وتسرق المستقبل، أو أن كل سلطة جنازة، أو أن كل سلطة منشار. ولأن أحكامه عامة، فلن يكون بوسع أحد أن يثبت خطأ أو صحة فرضياته أو استنتاجاته. قلت له من جديد، إن انشغالي بالأرشيف عمليٌّ محض، ولا علاقة له بالسياسة. وأرجو أن يكون لديه مرجع مفيد في هذا الشأن، فضحك، قهقه بلا بهجة في الحقيقة، إمعاناً في إظهار احتقاره، ثم نصحني من جديد أن أدوس على أوراق الماضي بقدمي. فمثل هذا الأرشيف، أكد بيقين العارف، ليس فيه سوى الوثائق المخجلة التي تتصدرها عبارات الولاء لكل الحكام والطغاة الذين تتالوا على حكم البلد. بل إنك سوف تجد أوراق ولاء، وخضوع للمستعمر نفسه. أحرقها. أتلفها فقط. نظف المكان منها. وعدته أن أفعل شيئاً ما تجاه استنتاجاته. حقائق قال. وعندئذ سألني إن كنت أعرف طعمة الله.

كنت قد نسيت الرجل تقريباً. فالمصدر البديل، أثناء وجودي في دمشق، في العقود الماضية، كان كتبياً شهيراً، يوفر لي ما أريده دون أن يدعي في أي يوم حذاقة قيم، أوشطارة أمين مكتبة، وإنما كان يظهر كرجل أعمال يعرف كيف يروج سلعة صالحة للاستعمال. أضف إلى ذلك، أن طعمة الله لم يعد إلى دكانه، بعد الهدم. لكني قلت: طبعاً، لماذا لم تزره إذاً؟، أين هو؟، يا حيف! قال بأسف، ثم رسم لي على الورق مخططاً بسيطاً، يوصلني إلى هناك، لكنه لم يعطني إياه، إلا حين وعدته أن ألعب معه طاولة الزهر. قال إنه سيغلبني في المغربية، والمحبوسة دون مصاعب، وإن علي أن أعد نفسي جيداً لمواجهة منهجية لا تعتمد على الحظ. فالزهر ينقلب في يده إلى حساب عقلي دقيق. قلت: سنرى. قال: سأضعك في خانة اليك!.

لم أصدق أن السنوات العشرين التي لم أرَ فيها طعمة الله، قد استطاعت أن تلتهمه. فبدلاً من ذلك المكتبي الحاذق القادر على ترويض الزبائن، واجتذابهم إلى فخاخ الكتب، في التاريخ والفلسفة والفكر السياسي، والنقد والشعر، والرواية، والقصة، والمسرح، والأديان، وجدت عجوزاً متهالكاً عليلاً، نبتت له لحية تيس متهدلة عند أطراف ذقنه، وشارب هر اصطبغت أطرافه بلون كموني مصفر من الدخان. لم أر شفتيه، ولا أسنانه التي افترضت أنها ستكون متآكلة، متسخة ومنخورة، وقد اقتُلع نصفها على الأقل. فكرت أن أمازحه، مثلما كنت أفعل من قبل، لكنه لم يبد أي استجابة طيبة تجاه ذلك. بل بدا لي أنه لا يعرفني، أو أنه لم يتذكرني، فارتكبت أول حماقة في اللقاء، إذ بادرت إلى تعريفه بنفسي: أنا... فنظر إلي من الأسفل، أي من وضعية الاستلقاء التي لم يبدلها، بعينين حانقتين، لا أثر فيهما لأي

مودة: تظن أنني نسيت، أو أنني دفنت معي، في هذا القبر، كلَّ من عرفتهم من قبل؟ أو: تعتقد أنني أطفأت الماضي في منفضة سجائري، ونمت على طراحة الخرق بانتظار الصفحة القادمة. تريد أن تقول لي من أنت، لأنك تظن أنني لا أعرف من أنا؟! أردت أن أعتذر، فوضع كفه (كانت متسخة أيضاً) في وجهي. تريد أن تعرف اللغز؟! انتابني الندم لأني جئت إلى هنا. ليس هذا هو طعمة الله شمس الدين أبداً، بل نسخة ورقية، أو تنكية، أو خشبية، أو بلاستيكية منه. طبعة مزورة من ذلك الرجل العتيد الذي كنت أعرفه. دائماً يأتون إلي. سمعته يهمس لنفسه، وهو يهرف حبة خيار مقشرة، ويتلو ثلاثة أبيات من الشعر، يهجو فيها الأبناء العاقين. لا أذكر أنني قرأت مثيلاً لها في أي كتاب من المختارات التي بحوزتي، وافترضت أنها من نظمه، ففيها اسم ابنه الكبير، حاتم، لكني لم أعلق بكلمة. الحقيقة أنني قمت باسترداد الماضي البعيد في تلك اللحظة، وفكرت أنه لن يكون بوسعي أن أضيف إلى سجلي خصماً جديداً، فيما يجب علي أن أكسب صديقاً. الحقيقة الأخرى هي أنني فكرت أيضاً أن طعمة الله يستضيف شخصاً آخر بداخله، ريثما يحل مشاكله الطارئة مع الحياة. ثم لاحظت أن أمراً مماثلاً قد حدث في الكتب أيضاً، فبدلاً من تلك المكتبة المشغولة بالاستجابة لاستبصارات الحاضر، تكدست أكوام من كتب عتيقة ومستعملة في فناء واسع كمخزن غلال، يفوح منها شياط ورق، وعطن جلود امَّحى دباغها، أو تفكك نسيجها. وفي الطرف الذي كنا نقف فيه، كان قد صنع لنفسه سقيفة من عوارض خشبية متفحمة، مغطاة بمشمع مضاد للماء، ومفروشة بحشية من القش، حيث وجدته نائماً حين جئت، وبقربه بقايا أطعمة، ومعلبات فارغة، وقناة ماء آسن، يحتشد الذباب، والنمل، والفراشات

حولها، وفي وسطها. ووراءه، كان ثمة برج صغير، أسند إليه سلم خشبي. رجحت أنه كان يصعد منه إلى سور قديم، يطل على الوادي العميق الذي ينتهي إلى القصر الذي كنا نلعب حوله، أيام الطفولة.

رفض أن يرد على طلبي، وراقبني بغيظ وهو يسفح الماء على ذقنه المشعرة، ورقبته الناحلة بتفاحتها النافرة ككرة، وخطوط التجاعيد المتقاطعة التي تتغلغل فيها الشعيرات. ثم سمى لي (أعتقد أنه بدأ يستعيد حس الساخر العظيم الذي أعرفه) فهرست ابن النديم. ليس للفهرست أي فائدة في مهمتي بالطبع، فرجوته أن يدعني أبحث وحدي في عناوين الكتب المكدسة، فزفر بكبرياء، وأقحم أصابع كفه، في شعر ذقنه، ومسدها، وقال: طيب، شرط أن تشتري نسخة من كتابي. فوافقت، واشتريت كتيباً صغيراً مطبوعاً على الجستتنر، ومغلفاً بكرتون من علب البسكويت، عنوانه: أحزان الملك لير. رفضت أن أسترد ما تبقى من المئة ليرة، فأخذها دون أن يشكرني.

طعمة الله الذي خسر دكانه القديم في السوق، لم يؤثر فيه أنهم أعادوا إليه محلاً أصغر مساحة بعد خمس سنوات، وهي المدة التي استغرقتها إعادة تشييد المبنى التجاري الجديد، بل اكتشافه أمرين: الأول هو تبخر رواد الكتب، أو ضحالة طلباتهم، والثاني كساد التجارة ذاتها. كان خلال ذلك، قد اشترى أكثر من مكتبة خاصة، من بينها واحدة أقسم لي إن محتوياتها أربت على ألفي كتاب، من أحد هواة الكتب الذين كانت تعج بهم السويداء في الستينيات، وقد ادعى أنه سيهاجر إلى البرازيل، وتخلى عن المكتبة بثمن بخس، أغرى الثعلب طعمة بشراء مكتبة أخرى، باعها مقتنٍ آخر. ولأنه لم يعد موجوداً داخل السوق، ولا في مناخ القراءة، فقد انزلق أكثر من ذلك، وبدأ حملة شراء

شملت المحافظة كلها، ودرعا، ودمشق أيضاً، مبذراً مدخراته كلها، آملاً أن يستعيدها مضاعفة، حين يفتتح مكتبة من جديد، بعد انتهاء أعمال بناء المجمع الجديد. غير أنه لم يجد أي تعويض، إذ كان لدى أبنائه خطط أخرى لا تقلقها الكتب. ففي بداية السنوات الخمس، كان حاتم مراهقاً في السادسة عشرة أو أكثر بقليل، يعجز عن مجابهة طعمة الله، في أي أمر. لكنه ظهر في نهايتها ابن الواحد والعشرين الذي يرى أن الكتب تفاهة، وأن المتاجرة بها هراء، لا يمتهنه سوى المخبولين، كان هذا هو اكتشاف طعمة الله الثاني، وفيما كانت الكتب قد اختفت، كانت أعمال النوفوتيه تزدهر، وتزداد غنى وتنوعاً مع دخول بضائع جديدة، أغرت المئات من الشبان، والشابات، بالاستدانة من المصارف الحكومية التي بذلت القروض بلا حساب، لافتتاح المحلات الجديدة التي تحمل فضائل الرفاهية، بدلاً من هموم الكتب، دون أن يفكروا، أو دون أن تتأثر أحلامهم بأسعار الفائدة المرتفعة التي تتقاضاها تلك البنوك.

عندئذ بادر حاتم شمس الدين لتحويل المكتبة إلى بوتيك. وهو اسم طارئ جديد أيضاً، زحف على الأسواق المحلية والمخيلة الشابة، بكل ما يثيره من طاقة عصرية مخايلة ومغوية. كان طعمة الله قد ارتكب الغلطة الشهيرة التي ارتكبها بطله العزيز لير، بالغباء ذاته الذي أدى إلى هلاك ذلك الملك المجنون، فسجل الدكان باسم ابنه، وبات عقب ذلك، يبحرُ في جحره وحيداً، وخائباً، وخاسراً وسط زحمة مؤلفات ما عاد أحد يريدُ اقتناءها، أو قراءتها، سوى بضعة متقاعدين متبطلين يريدون قتل الوقت.

وجدت ثلاثة كتب هي: علم إدارة الأرشيف، ومحاضرات في الوثائق، وتنظيم المعلومات الصحفية. دفعت ثمنها، ووعدت طعمة

الله أن أزوره. فلم يبد أي تعبير. اكتفى بعد المال، ثم رمى الأوراق النقدية على الفراش أمامه، وأنشد بيتاً من الشعر نسيته حين صرت في الشارع.

وفي البيت اكتشفت أنه يكتب القصص. معظمها نصف مجنونة، ومن بينها واحدة اسمها: النقيض، وفيها يقف أربعة رجال مجهولين في مكان ما، غير محدد، أمام صف من أربع كرات، يقذف الأول منهم إحداها نحو الشمال، ثم يلحق بها، ليقذفها كلما استقرت على الأرض. ويكرر ذلك إلى أن يختفي تماماً عن أعيننا، يليه الثاني ليقذف الكرة نحو الجنوب، ويكرر ما فعله الأول، بالإيقاع ذاته، إلى أن يختفي أيضاً، ويلحق بهما الثالث، ليقذف الكرة نحو الشرق، ويكرر ما فعله رفيقاه، ثم يلحق بهم الرابع، ليقذف الكرة نحو الغرب. ينبهنا طعمة الله قائلاً إن اختفاء أي رجل من الرماة الأربعة، لا يعني أنه توقف عن التقدم نحو الجهة التي رمى الكرة إليها. فجأة ينقطع السرد، يقف الكاتب ليسأل إن كانت الكرة الأولى وصلت إلى الشمال؟ ثم ماذا سيفعل الرجل حين تصل الكرة إلى الشمال؟ ثم هل هناك شمال أو جنوب أو شرق أو غرب؟ ثم هل هناك كرة؟ ثم هل ثمة رجل؟.

***

المبنى الجديد لمديرية التربية، كان جزءاً من مجموعة مبان تشكل الضلع العرضاني لإحدى البؤر العمرانية ذات الطابع الفرنسي، التي بنيت على نجد يشرف على حوض مائي ضخم مسور بالحجارة، ترسو فيه مياه الأمطار. وقد سمي بركة الحج، حيث كان مستقى لقوافل الحجاج المتجهة إلى مكة، حتى أواخر القرن التاسع عشر. وربما حتى رحيل الإمبراطورية العثمانية، في العقد الثاني من القرن العشرين.

لم يخلِّف الأتراك آثاراً عمرانية لافتة، في المدينة، على غرار ما فعلوا في دمشق مثلاً، سوى القلعة التي لم تستطع، في أي يوم أن تكون جزءاً منها، فقد بنيت بعيداً، في رأس أكثر التلال المشرفة على المدينة ارتفاعاً. وكان الغرض منها إخضاع التمرد الشهير المعروف باسم ثورة العامية، وقطع الطريق على أي محاولة محتملة يمكن أن تقوم بها جماعة ما، هنا ضد السلطنة، أو ممثليها. أما الفرنسيون، فقد كسروا من البداية أبسط الشروط العمرانية المحلية؛ فلم يأخذوا من العناصر البيئية أي مادة، واحتلوا التلال، والهضاب، والنجود أسفل القلعة (التي حافظوا على أسوارها، ورمموها. غير أنهم بنوا مكاتب، وإدارات أنيقة لضباطهم، ومهاجع مشمسة لجنودهم، وإسطبلات مريحة لخيولهم، ومطابخ، ومواقد مجهزة بأدوات حديثة، وخزانات للمياه، وأقنية للصرف الصحي، ثم قسموا المناطق إلى بؤر عمرانية ضمت ثكنات، ومراكز قيادة عسكرية، وسجوناً، ومنازل للضباط، والرقباء، ومستوصفاً، وداراً للعرض السينمائي، وكرخانة. وفيما كانت السينما والكرخانة ضمن المجال الحيوي لثكنات الجنود (وهي إشارة حصيفة إلى الأغراض الترفيهية المنشودة منهما) أُبعد نادي الضباط إلى النجد المطل على بركة الحج، حيث شكل، مع جواره من المباني العسكرية، الضلع الطولاني للبؤرة السابقة. وفي الجهة المقابلة، المفصولة عنها بشارع، بني قصر الحاكم الفرنسي (استُعير منذ أول عهد الاستقلال ليصبح بيتاً للمحافظ)، وبجواره إلى الشمال، دار الحكومة التي ما تزال تسمى (السراي) وهي مقر الحاكم، والبطانة التي تساعده، وأعضاء حكومته، وموظفي الدولة الناشئة آنئذ.

في الغالب راعى الفرنسيون أن تكون أنماط العمارة التي بنوها

متباينة عن الأنماط المعمارية المحلية، التي جمعت بين الطراز الروماني (وهناك عشرات الأبنية والكنائس من ذلك العصر) والأشكال المحلية التي تستجيب للمتطلبات الدينية، والاجتماعية لسكان المنطقة. ومن الجائز أن يكونوا أرادوا تغيير هوية المدينة، غير أن أحد المهندسين (سيرد ذكره فيما بعد) أكد في محاضرة له، أنهم رغبوا في تقديم جرعات معمارية حديثة، تكسر المعتاد والمألوف، وتراعي المناخ، ونسب الأمطار (السقوف القرميدية المائلة مثلاً) ووضع المطابخ والمراحيض داخل الأبنية، وتزويدها بأنابيب للصرف إلى حفر ضخمة مسقوفة. وقد زعم هذا المهندس أن أسمهان استحسنت هذا النمط كثيراً، وقطنت ذات يوم في أحد هذه الأبنية الفرنسية، برفقة زوجها الأول الأمير حسن الأطرش.

لم يطرأ على المنزل الذي ضم المطربة الذهبية، أي تغيير من الخارج حتى اليوم؛ فما يزال البناء يحتفظ بألوانه، وسوره، وقرميده الفرنسي، لكني لا أعرف ماذا حدث في الداخل، فقد احتلت قيادة الجيش الشعبي المنزل، منذ تأسيس هذا الجيش في الستينات.

الحكومة الاستقلالية الأولى استولت بعد جلاء الفرنسيين، على الحي الفرنسي بكامله، ولم تبدل في استخدامات الأبنية ذات الطابع العسكري إلا قليلاً. ومنها هذا المبنى، والمبنى المجاور له. وفيما صار المبنى المجاور مركزاً للهاتف، سمي هذا المبنى مديرية المعارف، وهو المرادف الرسمي في تلك الحقبة، لما أضحى يسمى اليوم: التربية.

لم يضف مديرو المعارف المتعاقبون أي ملحق على البناء، ولم يتدخلوا في بنية طرازه المعماري. وربما أصلحوا، في إحدى السنوات من حقبة الستينات، الأجزاء المدمرة والمقتلعة من قرميد السقف، دون

أن يؤثر ذلك في ألوانه، وطلوا الجدران والأبواب والنوافذ من الداخل، كل سنة أو كل سنتين مرة. كانت الألوان المختارة للمنشآت الحكومية تشمل درجة أو درجتين من الرمادي، ومثلهما من الأصفر، أضيف إليهما في مراحل لاحقة القرميدي الناشف. أذكر أن أحد المدراء كسر ذلك التراكم العاطفي الممل، وطلى الجدران من الخارج بالأزرق السماوي، والأبواب والنوافذ بالأزرق البحري. اعتقد أنهم وبخوه، ثم ألغوا طلاءه بعد عام، واستعادوا ألوانهم الحكومية. وحين كنت طالباً في دار المعلمين، راجعت ذلك المدير مرة واحدة، ولاحظت أنه اختار لجدران غرفته لوناً فستقياً مثيراً. بينما طلى النوافذ بالأخضر الطحلبي العميق. أظن أن ما فعله ذلك المدير، كان آخر اجتهاد لوني يشطح نحوه مدير دائرة. فابتداء من حقبة السبعينات أمر باستعادة الرمادي والأصفر للجدران الخارجية والداخلية معاً، في جميع الدوائر الحكومية بلا استثناء. وعندما وصلت إلى ذلك المبنى المقرر هدمه، لأبدأ عملي الجديد في الأرشيف، كان ما يزال يحتفظ ببقية من لون شاحب سفحته الرياح والأمطار، وبدأت عفونة خضراء باهتة تتراكم على جدرانه، قريباً من الأرض، بينما تقشر الطلاء من الأعلى، وانطوت بعض القشور دون أن تسقط. وبدأ صدأ خفيف يلتهم الأبواب (هما بابان في الحقيقية، واحد عريض في المدخل، وآخر أصغر منه في الجانب الأيمن، يفتح على شرفة تظللها أشجار أكاسيا وكينا) والنوافذ الحديدية في الأقسام المعرضة لآفات المناخ. ومن جميع أطرافه كان يحيط به هشيم من الحشائش والأعشاب ذات الأزهار والأوراق الشوكية. كانت درفة من باب المدخل الرئيسي ذي المصاريع المتعددة، مفتوحة على مساحة تتسع لدخول شخص واحد.

المشهد في الداخل كان مختلفاً تماماً، إذ بدا كأنما هُجر منذ قرن، بل إن الآثار دلت على أنه تعرض لتخريب متعمد، فامتلأت باحة البهو الداخلي، حيث كانت تصطف مقاعد الانتظار الأبدية المثبتة إلى البلاط ذي الزخارف النباتية الحمراء، في نسقين متقابلين، بنثار من زجاج النوافذ، إلى جانب أحجار مدببة، أو كروية قذفت من الخارج، من قبل شبان، أو أولاد عابرين، تدربوا على الإصابة من الشارع الجانبي الخفي. وتناثرت في كل مكان، رزم من الأوراق التي امَّحى حبرها، أو تلاشى، مخلفاً لون قهوة ناصلة، وفي كل مكان كانت أكوام من الصناديق الكرتونية المعلمة بأرقام أو حروف تتراكم بلا نظام، أما الغرف فكانت مرتعاً لنفايات نتنة من بقايا ملابس مستخدمين قضمتها الجرذان، ولحثالة موائد متعفنة، تنخرها الزواحف، أو تطوف فيها حشرات نشوى بالمخلفات الملفقة. ولم تكن الممرات الداخلية أفضل حالاً، إذ بدت في العتمة العكرة، مشبعة بزنخ رطوبة، وبول، وبراز، وماء ضحل آسن يفيض من مجارير خفية في آخر الرواق.

لم أجد أي إشارة تدل على وجود الأرشيف في أي قاعة من قاعات الطابق الأرضي، فصعدت درجاً لولبياً ظهر في آخر أحد الأروقة. كان المكان خالياً من أي أثاث، أو أثر يدل على الحياة. أذكر الآن أنني التقيت بليلى، أول مرة هنا في هذا المكان، أي أمام باب الغرفة الشمالية المطلة على أشجار الأكاسيا، وشارع السينما، وساحة السراي الحكومية، من الطابق الثاني. كان القسم آنئذ يضج بحركة موظفي الإدارة المكلفين برعاية شؤون المتقدمين إلى دار المعلمين والمعلمات، وبالطلاب، والطالبات، الحالمين والحالمات، بالانتساب إلى المعهد الوحيد الضامن لعمل المستقبل.

حتى تلك اللحظة، لم أكن أرى أي ملامح شخصية في الفتيات

اللواتي ألتقي بهن. كانت كل واحدة منهن ملخصاً لرغبة جنسية ذات طابع افتراسي محض، يمتلئ بها جسد مراهق قاحل (هو أنا) لا يقهره أنه لم يلمس قط يد أنثى وحسب، بل إنه لم يتبادل كلمة فصيحة مع فتاة غريبة، من خارج دائرة المحرمات. ولهذا وجدت نفسي أرتعش تقريباً، وقد شُل لساني، وأنا أسمع، وأرى، فتاة يانعة، ذات وجه طحيني فاتن مزهو، تسألني عن مكان المراحيض.

رفاقي، من ذوي الخبرة، أقسموا إن ذلك الاستفسار (الذي سأعرف أن صاحبته كانت تظل مثقلة بمثانة منتفخة على وشك الانفجار) ليس سوى دعوة سافرة إلى جنس فاحش مجنون، أو هو سؤال بذيء تلقيه فتاة مجربة لتصفُّح احتمالات اجتذاب شاب طري غشيم مثلي.

اكتشفت أن المبنى لم يكن قد هُجر تماماً، حين قابلني رجل غاضب سألني ماذا أريد، فأوضحت له أنني أبحث عن الأرشيف. نظر إلي حانقاً، ودمدم: «تحت.. الأرشيف تحت» ثم سمعته يهتف: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويدعوني إلى كأس شاي. بدا هرماً يزيد عن الخمسين عاماً بكثير، ناحلاً، قصير القامة، أبيض البشرة، يتحدث بسرعة فيأكل الكلمات، أو يبتلع أحد الحروف، دون أن يلاحظ نقصاً في المعاني. وبسبب حول طفيف في عينيه، فإنه يستمر في التحديق إلى محدثه، كمتهم، طوال الوقت.

عرفت أن اسمه خالد الطبال، وأنه كان أحد أسباب تأجيل مباشرتي هنا. فقد كُلف، بصفته أميناً للمستودعات، بأن يعيد جرد، وحساب، وتسجيل، وترحيل، ونقل جميع الموجودات في المستودع الضخم الذي يشكل جزءاً من أقبية البناء، فاحتاج إلى بضعة أسابيع من أجل استقصاء أعداد الأرائك والمقاعد والطاولات والكراسي والخزائن

الصالحة للاستعمال، أو المحطمة، وحساب القرطاسية من ورق أبيض للكتابة، وورق نشاف وأقلام ومحابر وفتاحات رسائل وظروف من قياسات متعددة وأختام وستمبات ومحايات وبرايات ودبابيس وورق. وكان يسجل ذلك كله في دفتر ضخم مجدول ومرقم ومقسم ومصنف بحقول توثيقية، بدت كلها بغير نفع. فقد حصر نشاطه في الموجودات المتحركة، أو المتنقلة أو القابلة للإتلاف والتلف، ولم يفكر أبداً أن الموجودات الثابتة، منذ العهد الاحتلالي، حتى يومنا ذاك، ومنها ما لم يسجل قط ضمن سجلات المخازن والمستودعات، هي جزء من العهدة المكلف بجردها، دون أن يستلمها من قبل. بدا الرجل مسحوقاً تحت وطأة تلك النكبة. فقد تسلل اللصوص إلى المبنى من مكان ما (اكتشفنا معاً دهليزاً في الأسفل يقود إلى مخرج صغير مغلق بباب حديدي مخفي داخل دغل من الريحان، يصل إلى بركة الحج مباشرة) وأخذوا المغاسل، والمباول الحائطية، والمرايا، والصنابير، وانتزعوا مفاتيح الكهرباء، والوصلات، والكابلات، واقتلعوا رخام مطبخ ملحق بمكتب المدير، وخشب الخزائن الحائطية، والأدراج. هذا عدا تلك الأشياء والموجودات (صارت مسروقات) التي لم يتمكن من تسميتها أو تحديد موقعها. لم يكن آسفاً على المسروق، وإنما كان ضحية وزر ليس عليه أن يتحمله. قلت له إن الأمر كله مرتبط بطبيعة النظام الذي يرغب في إلقاء تبعات أخطائه، ونواقصه، وطيشه، وجشع الأفراد فيه، والموالين له، على كاهل الأبرياء. وإن المسؤولين فيه، وأصحاب النفوذ، لا شغل لهم سوى البحث كل مرة عن كبش فداء، أو ضحية بديلة، يمسحون بها العفن والوسخ والقذارات التي يخلفونها وراءهم، وهم ينتهكون القوانين والأعراف. لم أنتبه إلى الرجل أثناء إلقاء خطابي، وشعرت أنه يحتضر

عقب ذلك. شحب وجهه، وبدت شفته السفلى تختلج، وأخذ يمسح عرق جبينه، وصدغيه، بمحرمة قماشية متسخة، ثم كرع كأس الشاي الذي كان بيده، كاملاً، ووضعه على حافة النافذة القريبة، فتمكنت عندئذ من ملاحظة يده التي كانت ترتعش، ورأيت أنه يحدجني بنظرة مستغيث. وحين لم أتوقف عن الكلام، وهي واحدة من المرات القليلة التي يفلت فيها لساني بلا قيد، وأخالف فيها عقائدي في الحياة، وأقلد المعارضين الهواة، أوضح لي أنه ظل طوال حياته قادراً على التملص من رذائل السياسيين المعارضين، ومن أحابيل المخبولين الذين يريدون أن يفسروا أي خطأ إداري، أو أخلاقي بمفاسد النظام، وخرابه، وأن ما حدث في مستودع المبنى، وما تبع ذلك من ملاحظات ضده، أو احتمالات إرغامه على التعويض للدولة عن خسائرها المادية، ما هو سوى لؤم وحقارة ينفرد بهما مدقق الحسابات في الهيئة المالية، وأنه الآن بصدد تدبير تسوية عادلة تعفيه من الغرامة، يقوم بالواسطة فيها قريب له، وهي أفضل من مئة كيس كلام مُعلَّم بالقلم الأحمر.

أدركت أنني ارتكبت للتو الخطأ الذي أمضيت عمري كله، وأنا أتحاشى أن أنزلق إليه. فعباراتي اللاهبة (وهي في الحقيقة تعبير عن رغبتي اللاواعية في التنديد بالإجراءات التأديبية المتخذة ضدي) كانت إعلاناً سافراً بالعداء للنظام السياسي برمته، استناداً إلى جرائر موظفين نابحين تحت المظلة المقدسة للقوالب، أو إداريين حاقدين يكتنفهم سعار التعليمات. ثم إنني تجاهلت أمرين: الأول هو احتمال أن يكون أمين المستودع المنكوب متورطاً أو متعاوناً، أو عضواً في الجيش السري لأحد أجهزة الأمن، مع ملاحظة أن كلامه عن أكياس الكلام المعلَّمة بالقلم الأحمر، يستبطن معنى مجازياً، قد يشير

إلى اللون السياسي الذي اتهمت به، وهذا يعني أنني وشيت بنفسي، وسحقت بلساني آخر أمل لي في استعادة عملي السابق. والثاني هو احتمال براءة الرجل من أي شكوك أو وساوس تقترن عادة، بالأخطار اللاحقة للثرثرات، وأن انتماءه الحقيقي هو إلى الملايين من مواطنينا الذين لا غاية لهم في هذه الدنيا، سوى العيش. وهي غاية أكثر سمواً ونبلاً من أن تدنسها حذلقات السياسة، وصلف المتعجرفين (أمثالي تلك اللحظة) الذين يوظفون الألم، والخيبة، والخسارات في البازار الأحمق لميولهم، وأهدافهم. اعتذرت من خالد الطبّال، وقلت له إن المفردات والعبارات التي تفوهت بها، كانت شطحات بلا أسانيد، وطلبت أن ينساها حالاً، أو يغفرها، لأن الهدف منها، كان تقديم عزاء ما، يعوضه عن الجور الذي لحق به.

أسعدني أنه صدقني، وعرض أن نشرب الشاي من جديد، وابتسم لي، فظهرت أسنانه الملونة بخليط من قرميد شايه، وصفرة نيكوتين السجائر التي كانت تتقد في طرف فمه باستمرار.

كان الأرشيف يحتل ثلاث أو أربع (أربعاً كما تأكدت فيما بعد) غرف من الأقبية العديدة التي نزلنا إليها عبر درج طويل مؤلف من ثلاثة أضلاع قائمة الزوايا. لم يكن على الباب الحديدي الذي فتحناه أي علامة تدل على محتوى المكان، ولم أدرك طبيعة المحنة التي حشرت فيها، حتى رأيت حضور قرائن الخراب في الداخل: فعلى ضوء مصباح كهربائي فاتر، ومغبر، ولجت إلى سرداب خانق تفوح منه رائحة السردين. أضاء خالد مصباحاً آخر، فظهرت أرتال خزائن معممة بأكداس من الأوراق والملفات في صدر المكان، وفي الجانب، إلى يميننا كانت أكوام هذيانية من الملفات والأضابير والمصنفات الغبراء

تفترش سطح ثلاث طاولات خشبية مستنفدة، بعد أن نخرها سوس خشب أسود هُمام، تمكنت من تمييز قطعان هائلة منه كانت تتسلق الحائط، أو تنتشر على حواف وأسطح الملفات. أما في الجانب الأيسر فكان هناك سرير نوم عسكري، وعليه فراش نهبت الجرذان قطنه، ودثار عتيق من القماش، وكلة مهترئة الأطراف معلقة إلى السقف، دون أنْ يبدو أنَّ كائناً ما كان مر من هنا؛ فلا آثار طعام، ولا أوان، ولا أدوات استخدام شخصي: لا مشط، ولا مرآة، ولا ماكينة حلاقة، ولا منشفة. لا شيء.

أخذ خالد ينظر إلي بشفقة خالية من التعاطف، سألني ما هي الشهادة التي أحملها. وتراءى لي أنه ابتسم، والأرجح أن إحساساً بالتفوق جعله يزهو فوق المآل المخزي الذي يدفع إليه حامل شهادة أهلية تعليم يسقط إلى مستوى زبال أوراق متعفنة! وبدا أنه لم يعد راغباً في مرافقتي لرؤية ما تبقى من المتاهة شبه العذراء، التي ترتع فيها الهوام، والأرضات، وتشتبك بداخلها آلاف الوثائق والأوراق الحكومية البائدة.

كان انسحابه جارحاً، على الرغم من أنه لم يكن مكلفاً بمساعدتي. ولكن من هو المتعاطف اللطيف الذي يمكن أن يقدم مساعدة لمثل هذا العمل، دون أن يتهم بالحماقة أو بالغباء؟ هذا فضلاً عن أنني لم أكن قد استفسرت بعْدُ، عن درجة السرية التي يجب أن تسجل في وصف المهمة، وكنت مضطراً للعودة إلى مدير الإدارة، لسؤاله بشكل مباشر وحي عن طبيعتها أو تسطير ديباجة جديدة، أرجو فيها، كما هو معتاد، ومقرر، في الكتب الموجهة إلى المسؤولين الأعلى، إيضاح تلك الدرجة، ع. ط. التسلسل.

لكنني لم أكن محتاجاً لتدوين هذه التجربة المذلة من جديد، في

السجل الملتبس، من جهتي على الأقل، في العلاقة مع أي جهة عليا، من جهات الدولة، دون أن أخفي إحساسي بأني منبوذ هنا، أو دون أن أداري جزعي من أن أتورط، بلا أمل، في قضية ما، تختبئ داخل ملف أو إضبارة أو محفوظة من هذه الكتل النتنة من مخلفات تاريخنا الحديث. وفي الوقت ذاته، خامرني شعور بالثقل والغرابة، لكوني مسؤولاً وحدي، عن إنعاش أو تدمير أو تفقد أي لحظة ماضية من تاريخنا المعاصر (تعود أقدم الوثائق إلى نهاية الزمن الفرنسي) دون أن يكون بوسع أحد الادعاء علي أو تأنيبي أو فحص ولائي أو امتحان إخلاصي وحبي أو تسجيل ملاحظة عن زمرة دمي، خاصة أن مهمة الاستغناء عن الوثائق أو إتلاف ما لم يعد له عمل، وإخراج ملفات من الخدمة، إنما توكل عادة ـ لدى الأمم المتقدمة ـ إلى مجلس قومي شبه محلف. وهكذا فإنني حين قلبت نصف دزينة من الملفات، كعينة، أجرب من خلالها معايير العمل، اكتشفت أن الذي أشرف على تخزين المحفوظات، لم يراع الزمن، ولا المرتبة، ولا القيمة، ولا الأهمية، ولا الضرورة، في تصنيف الوثائق، ولم يضع في أي مكان، قواعد للحفظ، أو شروطاً للاطلاع والقراءة. وخلط المراحل التاريخية، من غير أي معادلات حسابية، أو هندسية، بحيث وجدت في العينة الأولى وثيقة من عهد فرنسا، ترقد بسلام مع واحدة من عهد حسني الزعيم، وثالثة من زمن الوحدة السورية المصرية، واثنتين من الزمن الليبرالي (أي عهد خالد العظم حسب قراءة طعمة الله شمس الدين) وسادسة مؤرخة في عام 1967. وعلى الرغم من أن تلك الإجراءات العشوائية، كانت منافية للقواعد والصراط المستقيم، فقد بدت لي نعمة ربانية، هبة من الخالق. فغياب التنظيم يعني أن الدائرة أخرجت نفسها من مدونات الماضي، ونأت عن آثاره، وتبعاته،

وتخلت عنه، وأغمضت عينيها عن مراقبة التنفيذ. وهذا أمر مشوق، إذ يترك لي حرية وضع تصور قائم على الانطباع الشخصي، لإعادة ترتيب تاريخ التربية في المحافظة، وهي عينة من البلد كله، بعيداً عن عجرفة المتآمرين الذين أرادوا تمريغي في غبار هذه المخازن العمياء. وتأكيداً لهذا الاستنتاج، رميت كتب الأرشيف في أحد الصناديق، وأتلفت المقبوسات الأكاديمية التي استللتها منها، ومزقت غلة سمينة من البطاقات المساعدة، لأواجه اضطراب الملفات في قبو الأرشيف بفوضى أفكار لا قافية لها، ولا نظاماً للبناء.

وبعد يوم أو يومين من بدء العمل، لم أكن قد سامحتُ خالد الطبال وحسب، بل قلبت أدوار البطولة، واستطعتُ من موقعي الجديد، أن ألاحظ الفرق بين صورتينا: هو كخازن لجمادات من الخشب والحديد والبورسلان والجلد المدبوغ والقش والأوراق والكرتون وثقابات الورق، وأنا كربان لتاريخ أو لذاكرة الجنوب بأسره. وإذا كنت قبل أيام من حدوسي هذه، قد صدعت رأسه بالكلام السقيم عن مسؤولية الإدارة، والمشرفين على شؤونها، عن نواقص عهدته، وعن فسادهم (في إحدى التجليات أشرت إلى احتمال أن يكون أحدهم أحضر لصاً مأجوراً وخبيراً في السطو، وقاسمه موجودات المبنى كلها) فقد صرت الآن ميالاً إلى الشك به شخصياً، خاصة أن سيرة أمناء المستودعات أخطبوطية ملوثة بحكايات مشينة عن النهب والسرقة، في جميع الدوائر الحكومية. وساعدني هذا على استرداد معنوياتي الهابطة، وغامرت بعد يوم واحد، بسؤاله، دون أي اهتزاز في نبرة الضمير، إن كان قد وجد المباول المسروقة. وقهقهت بلا رحمة، وغادرت المبنى، تاركاً ورائي رجلاً مهزوماً، مشوشاً بلا أي شك.

وفي ذلك النهار، كانت شمس شباطية فاترة تضيء مياه بركة الحج، وكان الشارع يضج بجمهرة من فلاحين وجنود وباعة يانصيب ومتسوقين ومتسكعين أو متسكعات من طلاب وطالبات الثانويات الخارجين على قواعد الدوام والحصص، وموظفين هاربين من الخدمة، وشرطة وسائقين يقفون قرب أبواب سياراتهم. وفيما كان شاغلي، قبل أيام، تفادي الشوارع المزدحمة، خشية اللقاء بأحد المعارف أو الأصحاب، ممن يرمقونني بنظرات مشفقة أو شامتة أو متسائلة تزخر بالشك عن الجريمة السرية التي ارتكبتها ضد البلد ومصالحه، أحسست أنني مترع بالرغبة في الانخراط داخل ذلك الحشد. ولم تكن رغبتي تلك نابعة من حب طارئ لداء العزلة أو من شفاء مستعجل لعلله. بل من شعور بالسمو والنبالة تجاه اليومي والتافه الذي يقود هؤلاء الغوغاء، أو يسلمهم إلى العادي والمكشوف، دون أن يعلموا جميعاً أن جزءاً من تاريخهم، وقسمات من حياتهم الشخصية، وملامح من نشاطاتهم، وفقرات طويلة أو قصيرة تصف طباعهم وخصالهم وشمائلهم، ووصفات مدرسية موجهة إلى ذويهم صارت منذ الآن بحوزتي. صرت أحسُّ أنني أمسك التاريخ من يديه كطفل، أعزله، أعريه، أمسح خراءه، أخوزقه، أبتر ساقه، كما أشاء.

وبدلاً من أن أكون، كما قبل أيام، موضوعاً لحذلقات المتفلسفين من منظري الشوارع، الذين كانوا يمسكون بي فجأة، أثناء عبوري، ليلقوا خطابات مليئة بالضغينة والحقد على السلطة، أو يثرثروا بمواعظ باهتة ممرغة في أوحال الحكي المتوارثة، عن ضرورة الصبر ومسايرة الأوضاع، أو يلقنوني دروساً في الوطنية، صرت الآن قادراً على كشف ومراقبة الجميع، استناداً إلى ما سأعثر عليه في ملفاتهم الشخصية

التي ترصد طفولتهم وفتوتهم وشبابهم. وهو امتياز جاذب سيمنحني القدرة على فهم أسباب أو أحد أسباب قوة السلطة.

ليست أي معرفة بالطبع، أي ليست تلك المعلومات المتاحة والمرمية على طريق الجاحظ مثلاً، بل هي معرفة جوانية محملقة، متفحصة، كتومة، صالحة للاستخدام في الأوقات المناسبة للمالك وحده. هذا ما كنت أحسه في المرات القليلة التي تم استدعائي فيها إلى أحد أجهزة الأمن، فعلى الرغم من أن المحقق، لم يكن يحمل سوى الشهادة الابتدائية، ويكتب بخط رديء ملتو، خانع، فقد استطاع أن يطوح بي في مهب الريح الشمالية، منذ الدقائق الأولى. لم يكن السبب فجاجة أسئلته، ولا لهجته الازدرائية الحانقة، ولا بشرته البيضاء الملطخة ببقع البهاق ذات اللون الملحي الأجرد، والحواف الترابية، بل زلزال الأسرار التي يعرفها عني. لقد اجتاحني، ونبش ماضياً شقياً كنت أطفأته بالنسيان، أقفلت عليه بالحجارة، حين سألني فجأة بعد أن وضع القلم الأزرق الناشف داخل الدفتر الذي كان يكتب فيه محضر الاستجواب، وأغلقه بهدوء، وأسند ذقنه إلى كفه المفتوح المتكئ على سطح الطاولة: «هل أحببت هند علواني؟!»

ليس مهماً أنني تحامقت في البداية، وأنكرت معرفتي بها. فالمحقق يعرف ردود أفعال المستدعين الطائشة، الناجمة عن الذعر من لحظات الحقيقة الخفية التي يواجههم بها. المهم هو أن سؤاله لم يكن يسعى إلى تصديق الوثيقة التي يملكها عن حقيقة علاقتي بتلك المرأة، بأختام خارجية (المدهش أنني سأعلم فيما بعد، أنها كانت صديقة ورد أم ليلى) وإنما كان ينصب شركاً، يبني فخاً، لتوضيح موقعه. وفي الوقت نفسه لم أكن أنا في الكرسي المناسب لأستفسر عن الرابطة التي تصل

بين تلك العلاقة التي لم أذكر وقائعها أمام أي شخص طوال حياتي، وبين موضوع طلب الحصول على جواز سفر من جهة. كما لم يكن ممكناً أن أستفهم عن حاجة المخابرات للتأكد من عاطفة مراهق سقيم تم اصطياده وتكبيله من قبل امرأة جامحة قبل أكثر من خمس وعشرين سنة؟!. ولدهشتي، اكتشفت أنه كان متأهباً لرفض التسليم بأي جواب. فما كان يبتغيه هو أن يجرعني بالملعقة الساخنة، حقيقة أن علي أن أعرف أنه يعرف عني أكثر بألف مرة مما أظن أنه يعرف. وأن معرفته هو، لا موقعه كمحقق بوليسي، أو مخابراتي، في أكثر أجهزة الأمن رهبة، هي التي تمنحه القوة والحضور. ولهذا فقد أبدى فتورَ هرٍّ حين أجبته «لا!» ونظر إلي نظرة مواربة من وراء الطاولة وقال: «ما الدليل؟». لا دليل لدي قطعاً، ولكن كان من المستحيل أن أحب هند علواني. ففي ذلك الوقت، كان الزمن نفسه يمنع أي شاب من أن يحب فتاة تبادله القبلات، فكيف إذا كانت امرأة متزوجة ترضى أن يضاجعها شاب مغتلم، مشبع بثقافة فحول، ليست النساء فيها سوى حقول لذة؟!.

عبثية السؤال نزعت حماياتي، وقدمتني فريسة سهلة له. حتى إذا أردت أن أخوض تجربة البحث عن دليل، وضع كف يده مفتوحة أمام عيني، وقال: «بس! خلص!».

لن أستطيع أن أجاري خيلاءه، فأنا لا أملك سلطته المادية، ولن أتمكن من جلب أي شخص إلى كرسي الاعتراف أو الاستجواب، ولم يكن لدي طموح في هذا الشأن، لكن هذا كله لا يمنع من أن تكون المعرفة وسيلة جيدة، تضعني على درجة آمنة شبيهة، من حيث الشكل، على الأقل، بمقام أولئك العارفين.

اللافت في الأمر، أن هذه المشاعر الجديدة والطارئة، انعكست

بسرعة على علاقتي بالسرداب. فبدلاً من أن يبدو سجناً تأديبياً أو مجرد قبو آسن، مشبع بأبخرة الرطوبة النتنة، بات مكاناً صالحاً لتجاوز النفي من جهة، ولترسيخ الوجود الجديد المشع باحتمالات لا حد لها، من معرفة حيوات الآخرين، من جهة ثانية.

هذا الموضوع صار في الأيام التالية، مصدراً لتساؤلات عديدة أجريتها مع نفسي، حول فضيلة الاهتمام بحياة خارجية لشخص ما، رجل أو امرأة، صنعها، أو دبلجها آخرون ادعوا ذات يوم أنهم يملكون أهلية إبداء ملاحظات نفسية أو فكرية أو سلوكية أو سياسية، غدت اليوم مجرد قمامة مكدسة داخل دهليز مريب، تسطو عليه الفئران والجرذان والأرضات والحشرات، وتقطن فيه الصراصير!

حسناً إذاً! سأكمل، وقد أحضرت معي لأغراض العمل، بوتوغازاً صغيراً من ماركة سفير الشعبية، وكأسين (أعتقد أنني فكرت ضمناً بخالد على الرغم من سوء التفاهم) فرنسيي الصنع، وشاياً سيلانياً من نوع باش الذي كان ينصحني به والدي رحمه الله، وركوة قهوة نحاسية دمشقية الصنع، كنت مولعاً بها، وقهوة غامقة من أجل المساعدة في الإنجاز. ثم أعدت دراسة الفوضى من جديد، لتفكيك الإهمال المزمن، وقراءة المحو، فاكتشفت أن على المرء أن يعمل بلا نظام كي يستطيع تتبع تلك البلادة الجسورة التي راكم فيها موظفو الإدارة التعليمية طوال عقود من الزمن ملفات العابرين داخل تلك السراديب. وهو أمر (أقصد أمري أنا) مريح. إذ إنه يتيح أشكالاً من التنوع لم تكن لتضفيه عليه الوثائق المرتبة حسب الأنظمة الأرشيفية. وقد يبدو من قبيل المباهاة، أن أدعي أن جميع تلك الأشياء ستبدو فيما بعد، طقوساً أو نذوراً أو تفاصيل قدرية ستفضي بي إلى اكتشاف الملف.

وعلى الرغم من أن هذه العبارات قد تبدو نوعاً من الجبرية البلهاء، أو القدرية المستسلمة، وأن بمقدور أشخاص كثيرين نقضها، وإثبات أنها مجرد ادعاءات فارغة لا سند لها، وعلى الرغم أيضاً، من أن كل كلمة فيها تناقض يقينياتي وأفكاري ومواقفي، فإنني أقسم إن هذه هي الحقيقة.

أكثر من ذلك، يخيل لي أن التاريخ نفسه قد استُخدم بطريقة قدرية من أجل لحظة الاكتشاف التالية. بل إن ميثاق الجبهة وإجراءات نقل المعلمين التعسفية (تبدو كذلك) إلى الإدارة، وارتكاب الخطأ التكتيكي بحقي، ليست سوى أعذار يفتعلها هذا القدر، أو يسخرها كآلية تنفيذية لغرضه، وأن البشر الذين انخرطوا في أي عملية من تلك العمليات (بمن فيهم شخصي) كانوا أدوات الضرورة. وفي مثل هذه اللحظات فقط، يمكن تفسير وفهم التسمية الفرنسية لسرداب الأرشيف، بجرن التاريخ.

وهكذا، فإن اكتشاف الملف حدث فجأة؛ فقد انهارت مجموعة الوثائق والملفات المكدسة قرب الحائط الأيمن، حين حاولت أن أسحب الأعلى من بينها. لا أنكر أنني لاحظت الوضع القلق غير المتوازن للرزم الورقية هناك، وأنني كنت متسرعاً، ودون حكمة أو تبصر، في النظر إلى يدي، أو إلى الملف معاً، وأن الانهيار قد بدأ بعد ثوان فقط من استدارتي عائداً إلى طاولتي، حاملاً تلك الأوراق المحزومة بخيط قنب. ووفق ما أذكر، فقد تناثرت المحفوظات من حولي بلا نظام، تاركة فجوة يسقط فيها شعاع شمسي ساطع من النافذة الجنوبية ليضيء اسم ملف غريب ضخم يربو على خمسمئة صفحة، مكتوب على سطحه بالخط العريض: الأرشيف السري لعصابة الكف الأسود.

بعد لحظات وجدت نفسي مغلولاً إلى أوراقه الصفراء، وصفحاته الصاخبة الحاشدة بعشرات الآلاف من المفردات العجيبة، المحققة، الباحثة عن العصابة ووجودها. لا أستطيع أن أؤكد أن ما شدني إليه هو عدد الأسماء التي كنت أعرفها ذات يوم، أو هو الوقائع التي عشتها، فقط، بل هو وجود اسم ليلى السومري، الذي انبثق من داخل الأوراق مثل النور، يتكرر كل صفحة تقريباً، أو تعود إليه التقارير والكتابات المترددة بلا توقف. فقد كانت هذه الفتاة حبي الأول (فيما بعد سوف أعرف أنها كانت حبي الوحيد أيضاً) ذلك الحب الذي ظل مطموراً أو مخبأً في مكان ما سري، محاطاً بهالة كتيمة من النسيان المغشوش، ملفوفاً مثل كنز بأقمشة السنوات الماضية، بحيث بدت تلك الأوراق التي ظهر فيها اسمها ثانية، مثل مُدى كشطت بقايا طبقات الزمن الميتة، وأزالت العطب أو العطن عن الأحداث والذكريات.

أعترف أن هذه العبارات قد تبدو لغواً يزفره رجل تجاوز الخامسة والأربعين من عمره. مضى خلالها بعيداً جداً عن طهارة عواطف المراهق، وفردوس آماله، ليدعي حنيناً فاجعاً إلى حب ضائع. لكنها الحقيقة مرة أخرى. فمنذ أن فاجأتني بسؤالها البريء عن مكان المراحيض، التقيت بها أكثر من مرة ذلك الصيف، حين كنا نعد الطلبات اللازمة للانتساب إلى دار المعلمين، أو إلى دار المعلمات. وقد بادرت وسألتني في المرة الثانية، عن صحتي، مستخدمة كلمة واحدة شائعة هي «كيفك؟». ومثل أي غشيم هالك، أجبت بكلمة واحدة مقفلة هي «بخير». وكنت سأندم إلى الأبد لو أنها كانت من طينتي، واكتفت من المصادفة بكلمتي المجاملة. خاصة أن عالم الفتيات، كان في ذلك الزمن، يبعد سنوات ضوئية عن عالم الفتيان. وسوف يبدو أيٌّ اقتراب،

أو رفقة، بين شاب وفتاة، فجوراً يحظره المجتمع تحت طائلة انتهاك السمعة. فيما ينفرد الآباء والأمهات، بعد ذلك، بالخطوات العقابية المباشرة، بحق الفتيات حصراً. لكن ليلى كانت قد شطحت باكراً، بعيداً عن الضوابط المحيطة بنا. كانت تملك شجاعة مراهقة ناضجة ومتحررة من مظاهر الكبت والمنع السائدة. وقد عرفت، متأخراً بضع سنوات، أنها لاحظت حركاتي الخرقاء، وحيائي الأنثوي، فقررت أن تخطو باتجاهي، راغبة في الصحبة. اعترفت لي بذلك بعد سنتين، أما ما لم أعترف به أنا، فهو أن ذلك الفتى الخانع، الميال إلى العزلة، كان يخفي تحت قناع الحياء، عيني صقر متصفح. وقد لمحت تحت القميص الحشيشي، ثدييها المنتفخين، وجسدها الممتلئ، وتمكنت من التقاط ملامح وجهها، بعينيها السوداوين المكحلتين، ورموشها المقلوبة، وقصبة أنفها المستوي، مع حركة قضم السبابة المبتذلة والمضادة لجرأتها. ولم أتوانَ حين انصرفت، بعد أن بقينا أكثر من ساعة في بهو المديرية، عن تأمل ساقيها، وهما معيار الجمال المثير والمبهر عندي منذئذ، وحفّظ شكلهما الانسيابي المتكامل.

وكنت قد كتبت أيضاً أنني لن أبوح بحبي لها، إذا ما التقيت بها مرة ثانية. فالبوح بحب قديم، لا أمل فيه، أمام المرأة التي أحببتها، لن يثير فيها سوى شهية التباهي. ومع ذلك فإن ما لم أذكره من قبل، أسجله هنا بلا تحفظ: أعتذر لك يا ليلى عن ترددي القلق، وامتناعي الغامض عن مصارحتك بحبي في تلك السنوات العجيبة.

المرة الثالثة كنت أقل حظاً. فقد كان برفقتي فتى آخر، صديق لي، لكنه سرعان ما بدأ يلفق قصصاً عن نفسه؛ فادعى مثلاً أنه حصل على أكثر من مئتي درجة في امتحانات الإعدادية التي أنجزناها في

حزيران، من ذلك العام (ذكر لي رقماً أقل من ذلك بكثير) وحكى لها نكتة زعم أنها من مغامراته، وهي طرفة شهيرة كنا نتداولها في الإعدادية، فضحكت ليلى بصوت مرتفع، وقالت لي، بعد أن شدتني من كم قميصي، إنه مهضوم. وهي المفردة التي استخدمتها، فيما بعد، في لقاءاتنا المتعددة، لوصف أي شاب تافه من أولئك المتظارفين الذين يرددون نكاتاً رمادية مبتذلة بحضور البنات. رغبت في تحذيرها من انجرافها المتسرع، من طبعها الزهراوي غير المحصن بالشكوك، تجاه أولئك الشبان الفاسقين الذين يعتقدون أن السرير هو مآل أي بنت تخاطبهم بكلمة. لكنني لم أفعل، واكتفيت ببهجة مرافقتها في أروقة المديرية، وممراتها، باحثين عن الموظفين الشاردين، من حملة الأختام، أو أصحاب التواقيع.

ولأول مرة تبدو البيروقراطية جذابة ونافعة. فعبدة الأوراق من رؤساء الأقسام أو الموظفين الذين يرتدون أنصاف أكمام سوداء، كانوا يكتشفون كل مرة، نقصاً في الطلبات، أو هفوة في أحد الجداول، فيطردوننا خارجاً لاستكمال النقص، أو تصحيح الخطأ. ومعنى هذا في حساباتي الخفية المتخابثة (دون أن أكون لئيماً) هو أننا سنلتقي في الغد. وهكذا فإن بعض القواعد والأنظمة التي يضعها بعض البشر من أجل كبح أو ضبط أو تقييد الآخرين، تغدو فجأة مناسبة من أجل مواعيد الحب. لم تكن ليلى تعلم أي شيء عن المؤامرة المخزية التي عقدت ضمناً بيني وبين رياء القوانين. لهذا لم تراعِ في تذمرها (الحقيقة أن رد فعلها كان أقرب إلى الغضب القاتل) مشاعري في هذا الباب؛ فرفضت قبول ملاحظات الموظف المتعجرف الذي رمى الأوراق وقال: هاتي سند إقامة. فأجابت بلا تردد: «إذا كان الموظف أعمى لا

تنفع عشر سندات». لم يكن هذا رد طفلة ولا مراهقة، بل امرأة جسورة تعلم أن السند المطلوب موجود داخل الإضبارة.

في ذلك الزمن، كان الموظفون أقل شراسة، مما آلوا إليه في العقود التالية. ولا شك أنه أدرك بخبرته كإداري، أن السند موجود بالفعل في طيات الأوراق، فاكتفى بتأجيل قبولها إلى يوم آخر، كإجراء عقابي، ورغبة مكتومة في المصالحة. لا أحد يستطيع معاندة موظف يستوي على عرش طاولته، خاصة إذا كنت قريباً من نهاية الدوام الرسمي، ولا أحد يستطيع أن يجاري عاشقاً في السطو على الفرص المناسبة.

اختطفتُ أوراقنا، وقدتها من بنصرها، خارج المكتب. لم تقل شيئاً، ورافقتني بصمت، ثم سحبت أصبعها من بين أصابعي، حين صرنا في الرواق بخفة عصفور. ولكي تبدو حركتها بريئة، وتلقائية. قالت: شفت ما حدث له؟! قلت: نعم. أذكر أن وجهه شحب واختلج خده تحت العين اليسرى، وحرك يده حركة عشوائية. فأسقط حمالة أقلام سوداء عن الطاولة. كان في سؤالها بريق منتصر، ولم يخلُ جوابي من نزوع مماثل، ولكن أسبابها كانت مختلفة؛ فقد انتصرت أنا على الوقت، وكسبت جولة أخرى لمرافقتها، وتغلبت هي على موظف بيروقراطي ملول ومتعب، دون أن تنسف موعد الغد.

لكن الليل لم يكن على قدر يد الحرامي. فقد جاءت ليلى بصحبة ثلاث بنات أخريات ممن يقدمن طلبات القبول إلى دار المعلمات (إحداهن هي هند قمر الدين) فشتمتها في نفسي، وهذه عادة سرية جامحة لا يردعني عنها أي حاجز، أستخدمها بلا حساب كلما عاندني أحدهم، أو خالفني الرأي، أو ساند خصماً لي، أو تسبب في إزعاجي. دون أن يكون للشتائم أي معنى حقيقي، فقد أصف شخصاً بأنه ابن

قحبة من غير أن أتهم أمه بالعهر. كما أن الشتائم لم تؤثر قط في مشاعري تجاه أي صديق، (نعم كنت أشتم الأصدقاء، وما زلت أفعل ذلك) إذ كنت أروي غليلي وحده كل مرة.

أدرت كتفي لها، بحيث أبدو لاهياً وفاتراً، ولأتمكن في الوقت نفسه من رصدها، واصطيادها، إذا ما شردت من بين رفيقاتها. وهذه مراوغة عليلة أُحبطت بالتفاتة من ليلى التي نادتني من بعيد بحماسة، كأنما افترقنا منذ دهر. أكتب «بحماسة» لا بشوق، لأني لا أجرؤ على استخدام هذه الكلمة الآن. فقد نادت شخصاً آخر بالنبرة والنفس الخطابي ذاتهما، بعد أن تقدمت وصافحتها. كانت القاعة الرئيسية تعج بالطلاب والآباء والأمهات والموظفين والمراجعين الآخرين. وهو حظ طيب، شتت انتباه الفتيات الثلاث، فلم يرينني، ونجوت من احتمال تحيتهن، وخطورة مرافقتهن جميعهن. تمنيت لو كان بوسعي أن أدعوها إلى مكان ما. ولكن ذلك كان مستحيلاً. ففضلاً عن أن المدينة آنذاك كانت تخلو من المقاهي أو الحدائق أو الكافتريات، فإن تلك الدعوة كانت جرأة أكبر من طاقتي، ومن أغلال التقاليد أيضاً. أمر واحد ظل ثابتاً وراسخاً في ذاكرتي، وهو أنها داست على مشط قدمي بكعب حذائها، وهي ترجع خطوة إلى الوراء. بعد أن سلمت أوراقها الكاملة إلى الموظف الذي سمته ضاحكة سند الإقامة. لم تقل عفواً، كما هو معتاد، بل غمغمت بحزن شفوق: يقصف عمري! فقلت لها، كعادتي في اختيار الإجابات المغلقة: لا يهمك، فيما كان علي أن أقول لها: سلامتك. مررت راحتها على ظهري، ورسمت ظل ابتسامة غامضة على شفتيها.

وجدتُ أوراقها في كومة مهملة، التهمت الرطوبة والعفن والطحالب

المصنفات الدنيا منها، في الركن الأيمن من قبو الأرشيف. كانت صورتها من زمن الأبيض والأسود، سليمة معافاة، كما رأيتها من قبل، في ذلك الزمن. بدت ابتسامتها الظافرة من زمن آخر أيضاً، كانت ليلى فيه ما تزال خارج توقعات المصير الذي أربكته دسائسنا فيما بعد. غير أن قيس قال إنها تنتمي إلى تلك السنوات التي كان الناس يميلون فيها إلى التقاط صور لأنفسهم، تتسم بالتكلف والاستعراض والخوف من أن تؤبد عيوبهم الخَلقية أو النفسية على سطح ورق لامع عديم الشفقة. ولهذا لن ترى صورة هوية أو جواز سفر أو طلب توظيف، أو جلسة سمر عفوية يظهر فيها أي شخص كما هو.

قيس ذاته، كان شعره اليوم، ما يزال كما عرفته تلك الأيام، ومثلما وجدته داخل إضبارة ذاتيته. كثاً، فاحماً، منتصباً كالأشواك، وكان يبتسم تقريباً داخل الصورة، وهو ينظر دون أمل، إلى كاميرا المصور نجار، الذي كان أحد مصورين اثنين افتتحا استوديوهين حديثين جلبا لهما كاميرات ضخمة تستقر على قاعدة ثلاثية الأرجل، قابلة للرفع والخفض والتقدم والتراجع، حسب موقع وقامة أي زبون، وزودا غرف التصوير بستائر ملونة، وخلفيات زاخرة بمناظر غابات، ورياض يانعة. وأشجار غريبة ذات ورق أحمر. كان قيس أكثرنا قدرة على اختلاس الأوضاع الحاذقة (التي كنا نعتقد أنها ملائمة لاجتذاب الفتيات) أثناء التصوير. وغالباً فقد كان هو الذي يسيطر على حجرة التصوير المظلمة، ويتحكم بالإضاءة، بحيث استطاع أن يستقصي معظم الأوضاع والبوزات، والأشكال المحتملة لجلوس أي شاب أمام الكاميرا.

وقد رشحه نشاطه هو ليصبح موديلاً حصيفاً، يفخر كلا الاستوديوهين بعرض صوره في الواجهة، كدليل على مهارة كل واحد

من المصورين في المهنة. ومنحه، مقابل ذلك، نعمة أن يكون زيراً مرغوباً من البنات اللواتي وجدن أنفسهن مرغمات على تأمل صوره التي تحدق فيهن (وهن يعبرن الشارع قادمات من مدارسهن) وهي تتنفس رغبة وشهوة، وتناديهن إلى فردوس ذلك الجموح المخبأ خلف الزجاج. غير أن صورة قيس المخروزة إلى طلب انتسابه، لم يكن فيها أي ملمح حيوي يخص ذلك الفتى الأزعر، المتأهب للقفز خارج الفاترينة، إلى حضن الفتاة التي تتأمله. شيء ما هامد وفاتر كان يعكر جسارة قيس الشهيرة. هل هو التزام الحضور في دوائر الحكومة؟ أم هو راحة المحارب؟. لم أر هذه الصورة من قبل، قط، وفي أحد ألبوماتي صورة واحدة له (غريب! واحدة فقط؟!) تنتمي إلى عائلته الأثيرة من صور القوالب المغوية، أهداني إياها يوم كنا ما نزال نثق بالنواقيس (فنكتب إن الذكريات ناقوس يدق في عالم النسيان) في الصف الثالث من دار المعلمين (وهي السنة التي خضنا فيها مغامرة تشكيل العصابة) وقد حاول أن يقدم فيها، قدر المستطاع، النمط الأكثر بلاغة لشاب العصر: أنيق كدمية، وغامض كملك، ومتعجرف يلقي نظرة خاوية ومبددة إلى العماء. أذكر أن هذه الصورة بالذات، حازت ذلك العام على شعبية تفوقت دون أي مصاعب، لدى الفتيات، على شعبية صورة غيفارا التي ستنتشر بعد ذلك، حين يغتاله جيش بوليفيا.

الأرجح أن الفتيات لم يعلمن أن ذلك الشاب الغاوي المتربص بهن، الشبيه بشاعر متخيل، المتلئ بسمات محلية تبعده عن صورة غيفارا بنظرته النارية، ولحيته المهلهلة، إنما كان من مدينتهن، وبجوارهن. وقد عمد المصور إلى تدبيج كل ما أمكنه من فنون التزوير، والغش، ليطهر صورة قيس من احتمالات الانتساب إلى هذه المدينة، فدفع له

عشر ليرات شهرياً، لكي يمتنع عن المرور من الشارع ذاته، وخمس ليرات لقاء الاستجابة الفورية لرغبة المصور في التقاط صورة جديدة، أو فيما إذا تمكن كلاهما من ابتكار إطلالة جديدة (بوز) ومهيجة يمكن المتاجرة بها، أو جذب الزبائن إلى الاستوديو بفضلها.

أما منزله، فقد كان (حين زرته بعد أكثر من عشرين عاماً من الغياب) يحتشد بصور مؤطرة له، ومعلقة على الجدران، وفق نظام هرمي، أو بياني محسوب ومترافق مع العمر. وكانت صالة الاستقبال مؤثثة بأرائك من خشب الجوز، مزخرفة بنباتات وكلمات مبهمة. أما هو فقد استقبلني بكامل أناقته، مرتدياً قميصاً زهرياً من الحرير، وبنطلوناً أسود، بذقن حليقة ومنتوفة، وحاجبين مشذبين كحاجبي امرأة، وحذاء بني لامع. كان يدخن بتلذذ، ويستخدم مسبحة كهرمان ذات حبات كبيرة، بإيقاع ثابت ممل. وقد رحب بي بلا مغالاة، ودعاني للجلوس، ثم أوصى على فنجاني قهوة، دون أن يسألني عما إذا كنت أشربها بالسكر أم بدونه. ثم أخذ القهوة من يد امرأة لم أرها (المؤكد أنها زوجته التي لم تسلم علي ولم ترحب بي).

خيل إلي أنه يتصرف كصورة، بافتراضات مسبقة عن نفسه، وحركات ألبومية متربصة، يراقب من خلالها كل من ينظر إليه، أو يحتمل أن يكون يراقبه. ربما كان يريد أن يعرف رأيي في هندامه. فما لم يكن سعيداً فيه (كما سأعلم فيما بعد) هو أن حاسديه، أو أعداءه، اعتقدوا أن قيافته تعمدت بماء المناصب التي تبوأها في نطاق عمله، دون أن يعلموا أنها عادة ورثها من إشراقات ستينيات القرن، وهي مفارقة هددت دائماً سعادته بمكانته الوظيفية والاجتماعية، إذ نزعت عنه أصالة أناقته وجاذبيته اللتين كانتا جزءاً من بنيته النفسية.

عرفت السبب متأخراً قليلاً، إذ كان قيس قد انقلب فجأة بعد تخرجنا من دار المعلمين بسنة تقريباً، على الشيوعيين الذين انتسب إلى حزبهم (جميل يقول أن قيس كان عضواً خاملاً في اتحاد الشباب الديمقراطي وهو المنظمة الرديفة التي كان الشيوعيون يؤهلون الشباب بداخلها ليصبحوا أعضاء عاملين في الحزب. بعكس ما يشيع اليوم من أنه لم يذهب إلى اجتماعاتهم إلا من أجل التعرف إلى الفتيات) بطريقة مسرحية بالغ فيها في إعلان التوبة، ليتسنى له الانتساب إلى حزب البعث. ونال بفضل ذلك (لن أولي الأكاذيب التي ينشرها بعض المغرضين من أنه كان مدسوساً من قبل المخابرات داخل المنظمة الشيوعية، أي اهتمام) حظوة أثارت حسد كثيرين، بمن فيهم أعضاء قدماء في الحزب يعرفون ميشيل عفلق شخصياً، أو آخرين قدموا طلبات انتسابهم على يد شبلي العيسمي.

مشاغله لم تعد تهمني، ولم آت لزيارته من أجل تقديم المناصرة، أو تسجيل العزاء في الخصوصيات، أو جسر ألفة الماضي الميتة، ولم يكن في نيتي تأنيبه أو لومه على طيشه السياسي، أو ريائه، كما يشاع هنا. بل أردت أن أستعين به من أجل استعادة أو استقصاء أو إعادة بناء تلك القصة الغريبة التي كنا بنيناها، ابتكرناها، ذات يوم، ثم أدرنا ظهورنا لها، دون أن نحفل بمصير أحد من الذين أرغمناهم على المشاركة فيها. لم يكن قيس يتخيل ـ كما حدث لي تماماً ـ أن الزمن الآتي يمكن أن ينبش من ماضيه حدثاً ـ تافهاً كما يراه ـ ليضعه أمام أي مسؤولية.

الحقيقة أنه لم يُعنَ كثيراً، بل لم يعن البتة، بالمسؤولية الأخلاقية، وإنما أذعره جداً (أي حتى حدود الهلع) أن يتسرب خبر ما، إلى أي جهة حكومية، فيشوه صورة الموظف المتفاني، التي عمل طوال حياته (أي

طوال السنوات التي لم نلتق خلالها) على صناعتها بكل الوسائل، وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من تأنيب أو لوم أو توبيخ سياسي ومسلكي.

كنت أعلم أن قيس لم يتعد المراتب الوسيطة في سلم المناصب الرسمية، داخل مديرية التربية. لكن لا ريب أن ذعره نجم عن استباق متسرع لاحتمال أن تؤثر أسرار الملف على طموحه من أجل تبوُّء مسؤوليات أكبر. وهو طموح شائع لا يتطلب من المرشح مؤهلات علمية أو تقنية، بقدر ما يفترض إخلاصاً مكشوفاً للسلطة، لا تشوبه الشكوك. المؤكد أن مخاوف قيس، لم تكن في محلها، فقد مضت خمس وعشرون سنة على تلك المغامرة من جهة، ومعنى هذا في علوم الجريمة أن قيودها وتدابيرها تمَّ ترقينها أو العفو عنها. ولم يكن في خاطري، أو في تطبيقاتي، أي نية لإذاعة أي تفاصيل من أجل التشهير بأحد. فكل ما أردته هو الحكاية وحدها، من جهة ثانية. وهو ما شرحته لقيس مرفقاً برغبتي في سماع ذكرياته عن الأمر، والإجابة على بعض الأسئلة التي يمكن أن تعترض السرد أثناء إعادة الكتابة.

تبدلت أساريره. زال عنه الكرب والذعر. والحقيقة لا أعرف لماذا ذعر، إذ كان بإمكانه أن يطردني، ويرفض التعاون معي، وينكر أي صلة له بالموضوع، ولكنه التفت نحوي بفتور، وهمس: «لن تذكر اسمي طبعاً». «طبعاً» قلت له. لا يمكن أن أذكر الاسم الحقيقي لأي شخص، كما أفكر. ففي التجربة الأولى من الكتابة احتفظت بالأسماء كما هي، دون تبديل الألقاب والكنى، بذريعة الواقعية، ثم اكتشفت أن الاسم يعطل الحرية، ويمنع الكتابة من الانحراف العرضي عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. هذا عدا عن التبعات المفاجئة، غير المرغوبة، التي يمكن أن تنشأ في وسط اجتماعي، سري، باطني يعادي الظاهر، والفصيح. عب

قيس الهواء بكل قوته، وابتسم قليلاً، ثم طوى ذراعه، ورفع كفه بفتحة استفهام من سبابته وإبهامه، وضحك، ثم قهقه بصخب، مستعيداً شخصيته الشبابية القديمة وسألني: وما هو اسمي الآن؟! قيس قلت. هكذا إذن؟!. هكذا إذن!

مراجعة قيس بشأن الملف، فتحت شهيتي للاتصال بكل من جميل ووضاح، لكني لم أجد إضبارتيهما في الخزانة الخاصة بدار المعلمين، وإنما في خزانة مكتوب عليها: تالف! الغريب أن هذه المفردة هي الكلمة التي كان جميل يحبذ استخدامها دائماً، لوصف خصومنا في الصف، أو في الصفوف الأخرى المتقدمة. وهي في كل الأحوال ظلت ملكه، على الرغم من أنها جزء من التقاليد المدرسية التي يحاول بها الطلاب إزالة الضجر، أو حك الملل، أو التلاعب بالكآبة لتحسين شروط الدراسة. وقد كان لدى جميل معجم من هذه اللغة المعكورة، لا يزود به إلا الطلبة الذين نثق بهم، ويحتفظ لنفسه ولنا، بسلالة حاذقة من الألقاب والتسميات التي تحجب الاسم الحقيقي لأي طالب زميل، أو أستاذ، وتحل عليه كلعنة.. وهكذا شهدت مرحلة الستينيات من القرن العشرين، انتشار أسماء مستعارة للتلقيب مثل: أبو خرقة، وتالف، وعمرون شاه، وعقلة الأصبع، وأم كامل، وفيخته، في المدينة إلى جوار الأسماء العظيمة التي صنعت أمجاد تلك الحقبة مثل: هوشي منه، باتريس لومومبا، جوليوس نيريري، وجمال عبد الناصر، وجواهر لال نهرو، وتيتو. وقد نشَّط حضورها (المستعار من أجل مناداة الأساتذة) في حياتنا، الطابع الكوميدي المضاد للتراجيديا المحاربة التي مثلتها أسماء القادة. وربما كان احتفال الناس بها، أو الطلاب والطالبات خاصة، نوعاً من محاولة لخلق توازن نفسي يقيهم ثقل الفواجع المتتالية

التي بدأت تظهر نهاية العقد. وبهذا فإنَّ جميل المتبطل سيكون رسول العناية الإلهية، لسان القدر. وبعكس قيس المتبرج، كان جميل يبدو مضعضعاً، يهمل هندامه دائماً، ويتأخر في حلاقة ذقنه إلى اليوم المخصص للتدريب العسكري. (كان جميل يكبرنا بعامين على الأقل) وإذا أراد كي بنطلونه أو قميصه، وضعهما تحت الفراش (وهو إجراء شبابي تعلمناه جميعاً في ظلال الفقر) وتباهى بهما في الصباح. ولم يكن أحد يزوره. وأعتقد أن السبب هو رائحة الموتى النتنة التي تتبخر من قدميه. ولكن جميل كان موهبة متنقلة، يغني لمحمد عبد الوهاب، بصوت أفضل من صوت محمد فوزي، ومصوراً بارعاً يستطيع رسم وجوه زواره من الذاكرة، وخطاطاً يكتب الديواني والفارسي والكوفي بحذق محترف، دون أن يدرس علي يد أي معلم. وبسبب ضجره وميله إلى الضوضاء، لم تكن لديه حوافز إبداعية دافعة، كي يغذي أي واحدة من هذه المواهب الفطرية. واكتفى فيما بعد، بافتتاح مكتب للخط، تجاوباً مع ما وصفه بطريقته المخادعة بـ عصر اللافتات. ساخراً، ومستفيداً من حمى الكتابة الإعلامية التي تحول فيها كل مسعى أو نشاط شخصي أو اجتماعي أو سياسي، إلى شعار مخطوط على قماش مثقب، معلق على محاور الشوارع والطرق والساحات.

زرته في مكتب الخط، فضحك بصخب، وضرب كفاً بكف، حين ذكرته بمغامرتنا. ما هذه المسخرة؟! سألني باستهتار. لم أعرف ماذا يقصد، ومن يعني. فقد ألقى السؤال دون أن يرفع رأسه عن لافتة كان يكتبها من أجل عيد العمال. ثم رمى الفرشاة من يده، داخل سطل طلاء فارغ، ومسح يديه بخرقة مبللة بسائل نفطي، وغمغم قرب وجهي، وهو يقلب كرسيه إلى الأمام، ويركب عليه كالحصان: «حكومة تخاف

من لعب أولاد؟!». لم يكن هذا قد أثار حفيظتي قط. ولم تكن لدي رغبة في بحث موضوع مستهلك من هذا النوع، واستغربت أن يكون خطاط لافتات الحكومة الثورية مناهضاً لها. لم تكن لدي أي معلومة عن منحاه الفكري الحالي، واستنتجت أن من المنطقي أن يكون صار بعثياً. غير أن أحد الموجهين في دار المعلمين، كان قد كتب ملاحظة خبيثة في سجله يشكك فيها بولاء جميل للحزب. أظن أنها من مخلفات الستينيات، ولم أذكر ذلك له، ولم أكتب إشارة إليها في المخطوط الأول، ولكني أظن أنها كانت سبباً في حرمان جميل (وهذا اسم مستعار له أسوة بقيس، ووضاح، وورد وليلى وغيرهم من شخصيات النص) من الترقيات المأمولة من وراء طلب الانتساب الذي كان يرفعه المئات من زملائنا إلى الحزب. فجميل لم يكن يهمه أي من وابل الشعارات التي انهمرت على الحقبة أو على ما سبقها من حقب قط. فما، ومن يشغله هو جنس حواء وحدهن. وحسب القصص التي كان يرويها لنا، فقد تمكن من معاشرة ثلاث عشرة فتاة خلال ستة أشهر، وخمس نساء خلال الأشهر الثلاثة التالية لها. كانت مكانته في الشلة مغوية وجاذبة بسبب امتيازات مواهبه. وكنا ندعوه إلى بيوتنا (شرط ألا يخلع حذاءه) ليغني لنا، وكان أجره يقتصر على تناول العشاء أو الدعوة لحضور فيلم في السينما. خاصة حين يعرف أنّه من أفلام الكاوبوي التي يمثلها جون واين.

كان هذا الممثل بالذات يثير احتكاكات دورية بينه وبين وضاح؛ فقد وجد الأخير أنّ جون واين قاتل عنصري مأجور، بسبب ذلك العدد الهائل من الهنود الذين يحصدهم في أفلام الكاوبوي، ولم نستطع أن ننحاز إلى أي منهما. فالقسوة المفرطة التي كان يظهرها مقاتلو الهنود الحمر تجاه الأبرياء من المزارعين الأميركيين الذين يزرعون

البطاطا والذرة، مثل سلخ فروة الرأس، وجز الأعناق، واغتصاب النساء، أو أسرهن، كانت مهلكة، إلى حد أنها لم تسمح لنا ببارقة أمل في مناصرتهم، أو تأييد مطالبهم. ولم يكن بينهم من يحب أو يغازل أو يرعى أسرة، بعكس واين الذي بدا دائماً منافحاً عن الحق والخير والجمال.

القضية الوحيدة التي أفحمتنا، ولم نستطع أن نتغاضى عنها، هي أن وضاح ابتكر ذات يوم حجة صادقة ومربكة تماماً، حين ذكر أن إبادة الهنود الحمر مثيل حصري لمحاولات إبادة الفلسطينيين. لم يكن هذا الأمر صالحاً للمناقشة، في جيلنا. فقد اكتسب الفلسطيني في وجداننا صفة غريبة تكاد تعادل المقدس. بل أظن أن هذه هي الكلمة المناسبة لوصف مشاعرنا تجاه هذا الاسم؛ تعيننا على ذلك حصافة دروس التاريخ التي حفلت بمتوازيين من الحكايات: الأول مأساوي يتربص بالأطفال والنساء والشيوخ الهالكين المشردين من فلسطين، باتجاه مخيمات لا نهائية ضائعة، باردة خاوية. والثاني بطولي يتقد بجمار الهبات، ورصاص الثورات، وأسماء الشهداء الذين شجبوا تقاعس الجغرافيا المحيطة ببلدهم. ولسوء حظ جميل، وحرج خياراته، فقد احتشدت حقبتنا من جديد، لا بالهبات المسلحة وحدها، وإنما بالشعر المدجج بالمتاريس، والمتأجج بخبز الأمهات، وقهوتهن، والساطع بأسماء محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وراشد حسين، وسالم جبران. نجوم أسقطوا رهانات جميل على جون واين، وجوليانو جيما، وضيَّقوا عليه أي محاولة لتلميع صورة الكاوبوي الرومانسي الذي مثله المستر واين. لكنه لم يستسلم، رفض تقريباً أن يقر بالهزيمة أمام الشعر والكتابة والتاريخ، وسرعان ما عثر على

تعويض طازج مجسد في الرومانسي العربي أحمد رمزي. وقد رأيت في مكتبه صورة قديمة لواين ذاته وهو يلبس أردية رعاة البقر، بقبعته المائلة ذات الحواف العريضة، وزنار المسدسين الضخمين الممسك بخصره، إلى جانب صورة أخرى لرمزي الأسمر، ذي الابتسامة المصرية الرائدة.

قد يكون من الصعب، أن أتقبل انحياز جميل إلى أي جهة سياسية، لو كنا ما نزال معاً في تلك الأعوام. أتخيل السنوات أحياناً مثل قارب، قد تستطيع المياه أن تحركه، غير أن الكائنات بداخله ثابتة، لا تتحرك، وفي ذلك الزمن كان جميل يسخر من كل شيء، ويقول إن التاريخ مثلاً (لأن الشبان جميعاً كانوا مهووسين بذكره) جد أصلع طويل الذقن وممل، لا عمل له سوى سرد الحكايات قبل النوم. ولكني غفرت له أن ينتسب إلى البعث، لظني (ولاعتقادي) أنه لا يفعل شيئاً أكثر من وضع رأسه على نطع الجماعة من جهة، ومن جهة أخرى، لشكوكي من أنه كان يقي نفسه خطر أن يكون خارج التيار (في هذه الأحوال استعمل عادة كلمة القطيع بدل التيار في بعض جدالاتي، لوصف الجموع، ولكن مقام الكتابة يستعصي على مثل هذه المسميات التحقيرية) ويحرم نفسه وعائلته من الثمار المخصصة للمنتسبين.

المفاجأة أن جميل لم يتزوج، وظل عازباً حتى اليوم. لا أعرف السبب، ولم يرضني التفسير الخرافي الذي اقترحه وضاح (وضاح من أشد الناس تعلقاً بالأساطير) وهو أن علاقات جميل النسائية المتعددة، التي بلغت مئة امرأة، حسب آخر إحصاء أجراه وضاح نفسه، وأقرَّ به جميل في احتفال خاص باليوبيل الماسي، زعزعت ثقته بالنساء. المؤكد ـ حسب وضاح أيضاً ـ أنها انتزعت من دمه آخر قطرة ميل إليهن جميعاً،

فآثر ألا يتزوج، كي لا يعرض نفسه لقلق أن تنبت له إحداهن قرنين على غرار ما فعل بالآخرين.

استبعد كلا الأمرين، وأظن أن معظم غراميات جميل وليدة مخيلة مخبولة، وثمرة تطويحات شهوانية ترتدي أسمال الحقيقة، أو هي جشع منحل إلى اللحم الطري الغض الذي كنا محرومين منه كلنا، في ظلال التزام قسري، أو طوعي، بالفضيلة من جهة، وتحت خيمة مجتمع محافظ يضع الرجال فيه السكاكين والمسدسات على صدور البنات من جهة أخرى.

لا روابط إذاً - كما أخمن - بين انتساب جميل، وبين خياراته العزوبية. ولا معنى لادعاءات وضاح، ولم أجد سبباً لتصديق الشائعة التي رددها طعمة الله، حين زرته قبل أيام، من أن جميل لوطي (المؤسف أن طعمة الله لم يكن ممن يبدلون المفردات لتخفيف وقع الكلمات، ولذلك فقد وصف جميل بأنه «منيك»، إلى أن أوضحت له بشيء من الدبلوماسية اختلاف معنى المفردتين) اخترقه بضعة زعران من عتالة المدينة، ثم فضحوه. كانت صورة اللوطي في مخيلتي تشبه رجلاً طحينياً ناحلاً، بفم معوج، وعينين غائرتين، وشعر خفيف، وأسنان متفرقة، له حرفة أنثى في المشي والقعود واستراق النظر. لكن لم تكن لدي أحقاد ضد أي شخص من بينهم، في الوقت الذي كان المجتمع يعتبرهم حثالة. لم تكن في شخصية جميل أي صفة جامعة مع افتراضاتي. وقدرت أن طعمة الله لم يكن سوى عجوز خرف، يكرر كلام الآخرين.

لم أفاتح جميل بأي موضوع من هذه المواضيع الشخصية، وقد خشيت أن ينفر مني، أو ينقض وعده لي بالمساعدة أيضاً؛ دون أن أنكر أن من الممتع أحياناً أن نسطو على تفصيل سري ما، في حياة واحد

من أولئك الذين نعرفهم، يكون قد خبأه تحت حجر في طريق العمر، معتقداً أن أحداً لن يعثر عليه، أو يتعثر به. وبعكس ما حدث لي تجاه قيس، فقد شعرت أن جميل قد خسر، أو أضاع شيئاً ما، ثميناً وغالياً في دربه، يجعله يغيب أثناء لقاءاتنا الجديدة، وراء ستارة كتيمة وبليدة من الصمت والشرود.

ومع هذا، فقد استطاع أن يسألني: هل كتبت شيئاً؟!. قلت: لا، ليس بعد. وفي مرة ثانية سأل: هل تظن أننا عبثنا بمشاعرها؟ قلت: نعم. فأضاف دون أن ينتبه لجوابي، وهو ينظر إلي الشارع من خلال زجاج باب مكتبه: مسكينة! أذكر أن جميل كان أكثرنا حماسة لخوض تلك الملهاة، وكان يبتكر كل مرة طرقاً جديدة، من أجل تنويع نشاطنا. يساعده على ذلك أنه يعرف أسماء البنات، ويحتفظ في ذاكرته بشجرة نسب لكل واحدة منهن، بحيث بدا لي أن هدفه الوحيد من الحياة هو هذا الفضول المهترئ، عديم المعنى. ومع ذلك فإنَّ معارفه كانت ذات فائدة لا تقدر، من أجل نجاح المهمة. وقد صار مرجعاً لنا بشأنهن، خارج المهمة أيضاً. خاصة حين ننتقل إلى السنة التالية. ونروح نترصد الفتيات الصغيرات اللواتي انتسبن إلى السنة الأولى، من أجل اصطيادهن.

استطعت أن أنبش من السرداب ملفات خمس عشرة فتاة من بينهن، أوراقها محشوة بفضائلهن ورذائلهن، حسب تقديرات المدرسات (هناك أكثر من ملاحظة وضعها مدرسون) والموجهات. ومن بينهن موجهة سماها جميل آنئذ: أم كامل. لم نكن نعلم آنها، أن أم كامل رجل اسمه أنور البابا، إلا متأخرين، أي قبل نهاية العقد. وحين رأينا صورتها، ذهلنا من قدرة جميل على اكتشاف الملامح المشتركة بين الممثل (الذي ما كنا نسمع سوى صوته عبر الإذاعة) وتلك الموجهة التي

كانت حاضرة بقوة، في ميكروفونات النصف الثاني من عقد الستينات. كانت السيطرة على الميكروفون في ذلك العقد ميزة لا يحظى بها إلا أولئك الذين امتلكوا موهبة خطابة معززة بصوت نبوي، وذاكرة شعرية يقظة تردد الأبيات البلهاء ذات المفردات المقعقعة عن الأمجاد الغابرة، والتاريخ البطولي.

فيما بعد، منحتهم الدولة والجمهور اسماً ظريفاً هو «العريف» وقد صار لكل مناسبة وطنية أو قومية أو حفل خطابي، عريف يرعى شؤونه، ويسد الثغرات فيه، ولكن كان من سوء طالع أم كامل أن أستاذ التربية وعلم النفس، خصص أسبوعاً للحديث عن موضوع سماه: أخلاق العريف. وحسب قوله، فقد استمد عناصر الدرس من فلسفة «كانت» وركز فيه على الخطر الذي يمثله أولئك الأطفال الذين يعينون في المدارس والصفوف كعرفاء، إذ يبدؤون بالسلوك مسلك كلاب الأمراء. كان الأستاذ سعيد الفرنك ينطق هذه العبارة بنبرة مثقلة بالاحتقار لأن العريف سلطة بلا فعل، وجه دون جسد. النظام لا يريدُ أن يلوث يديه، فيوكل الأمور الوسخة، إلى الكلاب.

ولكي يتحاشى أي خطر محتمل قد ينجم عن المطابقة بينه وبين محاضراته ودروسه، وبين الواقع، كان يتعمد تحضير أمثلة توضيحية عن الدول المجاورة، العراق مثلاً أو الأردن أو اليونان أو قبرص. وأعتقد أنه كان يكذب حين ذكر لنا أن أحد علماء التربية دعا المعلمين إلى أن يكونوا حذرين حين يدخلون إلى الصف، ويجدون لائحة بأسماء التلاميذ المشاغبين مسجلة على هامش السبورة. إذ إن عليهم عدم الانقياد وراء تلفيقات أولئك الصغار المتربصين بزملائهم الأبرياء في الصف، سعياً وراء حظوة الإدارة.

المفارقة هي أن أستاذنا كان خائفاً من عين أخرى، غائبة سرية، مراقبة، ومحشورة بيننا، دون أن يعرف أي واحد منا، من هو صاحبها، لا تقل خطراً وتربصاً بالعرفاء.

ولأنه كان مدججاً بمئات الأمثولات والاستنتاجات، فقد آثر دائماً، فيما بعد، أن ينسب ابتكاراته التربوية والفلسفية إلى مرجع غربي: قال أحد علماء التربية الأوروبيين. قال أحد الفلاسفة الفرنسيين، روسو، فيخته، لاكان، بياجيه. وقد صدقناه، بالطبع، عدا جميل الذي أطلق عليه اسم «فيخته» بلا رحمة، لينزلق هذا اللقب إلى باحة دار المعلمين أولاً، ثم ينتقل منها سريعاً إلى الصفوف، ثم يثب إلى الشارع، ليصير مشاعاً يطلقه الفتيان، من جميع الثانويات، في الفضاء، حين يمر الأستاذ في أي شارع يصادف وجود عدد منهم فيه هكذا: «فيخت.........ه!!»

وعلى الرغم من هذا الموقف المتهتك الذي عكس آنئذ مزاج جيلنا كله، لا من مدرسي التربية، أو من التربية كلها، بل من جميع المدرسين، فإن توصيات الأستاذ ترجمت إلى سلوك عدائي تجاه عرفاء الصفوف، عامة. لقد بَدَوا نتنين، متآمرين، ينضحون بالحقد والوضاعة، دون أن يمنع ذلك أحداً (وهذا سر غريب من أسرار النفس البشرية) من أن يتطوع، أو يسعى لدى الإدارة، أو لدى مكتب التوجيه، كي ينتقل إلى عرافة الصف.

أم كامل كتبت ملاحظات ملتبسة في سجل ليلى. وصفتها في إحدى السنوات، بأنها خاملة وانطوائية. ثم ادعت في سنة أخرى، أنها متمردة، وفوضوية، ودعمت رأيها، بقصة موجزة وضحت فيها شوطاً «فوضوياً» نفذته ليلى في المدرسة. (أظن أنه مجرد حقد لعين

صبته تلك المرأة المتعجرفة على ليلى) ولم توضح الموجهة ماذا تعني بالتمرد والفوضوية. ومن حسن الحظ أنها استبعدت المعنى السياسي سيء السمعة المرتبط بهذه المفردة لدى جميع الأنظمة الحاكمة، ولدى أجهزة مخابراتها بالطبع. ولم أستطع أن أعرف لماذا اختارت أن تستخدمها - في حين كانت تتوفر سلالة كافية من الكلمات في معجم التوجيه، أو في المعجم العربي عامة، لوصف الطلاب والطالبات. وحين بحثت عن تلك السيدة لاستيضاح الأسباب، اكتشفت أنها سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، برفقة زوجها، فقهقه وضاح بصخب حين علم بالخبر، وهتف: أم كامل؟! وإلى عقر دار الإمبريالية ذاتها؟! ثم أخبرني أن جميل ادعى ذات يوم أنه نام مع أم كامل، وأنها حملت الرقم تسعاً وستين، في إحصائه القديم.

لم يكن مهماً لدي أن يكون الادعاء صحيحاً أم كاذباً، ولكنه مثير جداً؛ إذ بدا لي أنه يخالف حكايات جميل الغرامية، التي اقتصرت على اختيار بطلات لا تزيد أعمارهن على العشرين عاماً، أي أعمار الزهور، كما كان يطلق عليهن. وضاح ادعى من جهته، أن جميل ادعى أن لقاءه بالموجهة حدث عرضاً، بعد أن صار زميلاً لها في إحدى المدارس. وقد بدا لي هذا الادعاء أكثر إثارة، فهو يعني أن الموجهة قد أُعيدت إلى التعليم. والمؤكد هنا إذاً أنها ارتكبت خطأً تكتيكياً ما، في إدارة التوجيه، استدعى نقلها (وهو نقل مختلف جوهرياً عن نقلي) أو إعادتها إلى التعليم، وهي عقوبة مبطنة بالوعيد وحده، تنفذها الجهات الأمنية، ضد الأنصار الذين يخالفون التعليمات، دون قصد مبيت، أو دوافع خبيثة أو معادية (قطعاً). أخطاء عابرة، أو كبوات. يرفض وضاح أن أُسميها بهذا الاسم الذي يخص عثرات الخيول الأصيلة، كما يشير إلى

شيم الفرسان المتسامحين الذين يعفون عن الحصان المتداعي الذي قد يخذل فارسه دون قصد. بل إنه هو نفسه، لم يبدِ أي تسامح تجاه الموجهة المطرودة. وأخذ يتحدث اليوم عنها، بالاحتقار القديم الذي ورثناه من أستاذ التربية عن العرفاء، حديثاً مملحاً بالشماتة من هزيمتها الصاخبة، حين أعيدت إلى التعليم (ثمة خبر لم أكن أعلمه، هو أن أم كامل، أعلنت أكثر من مرة، عن ازدرائها لمعلمي المرحلة الابتدائية، حين ارتقت من صفوفهم إلى كرسي التوجيه) ومعززاً بوصف العاهرة الذي أطلقه عليها، إثر حكاية جميل عن العلاقة التي أقامها مع السيدة التي تكبره بسنوات. وزاد في كراهية وضاح لها، أنها ارتكبت ذلك الفعل الدنس - دائماً حسب تعبيره - وهي متزوجة. وهذه خطيئة/خيانة، تعادل في رأيه خيانة الوطن أو القضية. كما كان يسمي مراجعه المبدئية.

وجدت وضاح بصعوبة. فقد اختار أن يشتري دونماً زراعياً خارج كورنيش المدينة، ويبني بيته بعيداً عن الضجيج والصخب كما قال. دلني عليه جميل نفسه، بعد أن حذرني من التمادي في استدعاء التراث في الأحاديث مع وضاح. أي تراث؟! الماضي. ماضينا. ولكن أي ماض أيضاً؟! لم أجد ذلك الفتى الأسمر، المسرح الشعر، المعافى الممتلئ الذي كان يرطن بلغة صلصالية مثقلة بالتبشير والآمال عن مجتمع الأمل الاشتراكي. وإنما اكتشفت رجلاً شاحباً، ناتئ عظام الوجه، منبوش الشعر، يتدارك الكلام، والأحاديث، بحذر بومة، ويدعك يديه، مربكاً.

أذكر أنه كان قد قدم لنا، قبل تشكيل العصابة، وبعد ذلك، جدولاً زمنياً يحدد فيه موعداً نهائياً، أو شبه نهائي، لاستتباب الاشتراكية في العالم، بما في ذلك سورية (فيما قدم لي اليوم نعياً) أقصاه نهاية القرن العشرين. إضافة إلى نموذج كلي يتضمن معالم المستقبل حسب

الرؤية الوضاحية. وهو عالم فردوسي، مطبوع بالقيم الإنسانية الحرة، الرفيعة. ثم أضاف ملحقاً مشبعاً بسلسلة من الوصايا والنواهي والعقود الملزمة الضرورية، حسب رأيه من أجل ضمان نجاح الأمل. أذكر أنها لم تكن مرهفة لنا، بقدر ما كانت مملة. فمعظم ما في كتاب الأخلاق الشيوعي، في طبعة وضاح، لم يكن يختلف آنئذ عن الميراث التربوي للمجتمع، إلا في بضعة بنود.

غير أن وضاح أضاف من عنده، سلسلة أخرى من الاستنتاجات ذات الطابع اليوناني. أخذها من دروس المنطق الذي درسنا إياه أستاذ للفلسفة، سماه جميل «أرسطو»، من هذا الطراز: من يسرق قشة يسرق جملاً. من يخُنّ صديقه أو حبيبته (لم نكن بصدد الخيانة الزوجية بعد) يخُنّ وطناً، من يظلم عاملاً يظلم البشر. وفي رأيه أن الصدق والنزاهة والإخلاص والوفاء والعمل، قيم خالصة، شفافة كالبلور، لا يمكنك أن تخدش أطرافها أو سطحها، بأي عذر. دون أن تكون قد عملت على كسر الكلية.

لم نكن سعداء بالطبع بمواعيد الأمل. فعند نهايات القرن سيكون كل منا قد زاد على الخمسين عاماً من العمر، أي أنه أضحى على مشارف العد العكسي، وعلى تخوم الإخفاقات المتوقعة لأعضاء الجسد، خاصة العضو الذكري الذي لم نستطع ترويضه بأي نداء فكري أو حزبي، وإرغامه على الخمود داخل غمده، وانتظار آمال الحب المتاح في روزنامة وضاح.

كان منزله جنوب المدينة، يطل من تبة وحيدة على سهل شطرنجي مبقع بالآلاف من غراس الزيتون التي بدأت تزحف على المنطقة منذ بضع سنوات. الغريب أن وضاح لم يزرع أي شجرة في حاكورته. فسألته

عن ذلك. قال: لن ألحق لآكل منها. قلت: عمر طويل. ثم أردفت الدعاء بترداد تلك العبارة التي قالها الفلاح الشهير في المرحلة الابتدائية أو الإعدادية: زرعوا فأكلنا ونزرع فيأكلون. عندئذ اكتسى وجهه مسحة من الشحوب، وبرزت عظمتا خديه، وأشاح بنظراته بعيداً يراقب المدى. علمت أنني أخطأت. إذ لم أكن راغباً، لا الآن، ولا في أي وقت مضى، في تبديد الوقت، بمسائل فكرية شاقة، أو بإحراجات إشكالية، لأي واحد من شركائي، يمكن أن تضر بهدفي المنشود من جهة، أو تسبب الضيق لأي واحد منهم من جهة ثانية. اعتذرت من وضاح فوراً، خاصة أن جملتي بدت اقتحامية، وخالية من التعاطف، وتلوح بالشماتة. فوضاح لم يكن يتطاول على الأحلام فيما مضى، ولم يخترع الآمال. آسف! قلت هذه جملة آسف، ملفقة خطرت ببالي دون تفكير. فقال بلهجة الخانع الذي اعتاد أن يسمع تعليقات مماثلة: لا يهم!

الحقيقة أنه كان يترجم وضعه، كما يخيل لي. فقد بدت الآمال القديمة ضامرة تماماً لديه. ويمكنني أن أقول: كاسدة أيضاً. وقد حلت محلها كسرات من قنوط مضمر، بدا في لامبالاته تجاه أي موضوع. كان الاتحاد السوفييتي، حبيبه، قد تهاوى تحت ضربات الإصلاحيين العتاة المهرولين نحو حرية مشتهاة، حرموا منها منذ عقود. وبرفقة ذلك البلد الجبار الذي كان وضاح يرمقه بخيلاء، لم تتهاوَ أفكاره وحدها، بل آماله وأحلامه كلها أيضاً. غير أن ذلك الموت لم يبلبل قيمه ووصاياه. وظل ينظر إلى الفعل البشري نظرة ناسك.

الطريف اليوم أنه صار يرى في ذلك البدد المخزي أمراً «علمياً»! انتابتني رغبة في الضحك؛ فقد كانت كلمة «علمي» مفردة وحيدة ورزينة، وقادرة لدى وضاح على تفسير أي شيء في المحيط الذي

كنا نعيش فيه: سلوك البشر. أسعار السلع. سياسات الدول. الحب. الكراهية. الصداقة.. الخ. وبالطبع فإن من الواجب أن نسعى لأن يكون تفكيرنا علمياً، وتربيتنا علمية، وتصرفاتنا علمية. وهكذا فإن انهيار إمبراطورية يمكن التماس أسبابه لدى العلم.

هززت رأسي راضياً، دون أن أعلن موافقتي، آملاً أن يكون انحيازي إلى صف تفسيراته كافياً لاستمالته. نجحت في ذلك كما أعتقد، لحسن الحظ. فقد اتقد وجهه، أضاءت عيناه، وخف توتره الذي نجم - ربما - عن خبطاتي الكلامية الطائشة. «أترى؟!» سألني «هذا ما حدث. فهمت؟!» لم أكن رأيت أو فهمت أي شيء، عدا أن هذا لم يكن يهمني، بل صار بودي أن أقول له إن السبب، كما أفكر فيه هو أن النظريات العلمية التي فلقنا بها، وظل يشيد بها طوال عمره، أكذوبة أو أنها مجرد غطاء تلطى خلفه كل أبناء الكلاب من اللصوص والانتهازيين والوصوليين ونصّابي الأفكار، ليخدعوا الأبرياء من المحرومين الذين يعتقدون أنهم إذا ما دفعوا ثمناً ما اليوم من أجل لقمة الخبز، فمن المحتم في الغد، أن يأخذوها رغيفاً كاملاً. لم أقل له ذلك أيضاً، لأنني صعقت حين قدم لي مخطوطاً من مئة وعشرين صفحة بعنوان: ملاحظات علمية حول انهيار الدول. وبرفقته ملحق من عشر صفحات بعنوان: رسالة إلى العراقيين[1].

1ـ ذهلت وأنا أقرأ الرسالة، فقد حاول وضاح فيها أن يقلد رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، حين كتب: لست أريد أن تجهلوا أيها الأخوة، أن العالم الذي حشد جيوشه وقواه، إنما أراد أن يحطم فيكم الإرادة وحدها، إرادة القوة الناشئة، والوجود المتجدد، والحضور داخل العالم الأرضي الذي تحكمه أخلاق المنفعة والسلطة والهيمنة. أو: لا تنسوا ماذا يحدث! فالقنابل والصواريخ والرصاص الذي يصب على رؤوسكم، وفي أجسادكم لا يراد منها استعادة الصحراء، بل تحطيم الخضرة، وبتر اليد التي امتدت

لاحظت حين قرأت المخطوط في البيت، أنه برأ جميع المشاركين في طقس موت الاتحاد، باعتبار أنهم كانوا أدوات منفذة لإرادة عليا هي إرادة القوانين العلمية (الغريب أنني توصلت إلى نتائج مماثلة ولكن عكس الطريق) عدا ذلك فإن المخطوط لم يكن سوى هذر دعي أخرق محشو بالترهات ذات الصبغة العلمية من نوع: كما تعلمنا المادية التاريخية. أو كما نستخلص من قوانين الديالكتيك. وكلما ذكر اسم شخص من أولئك التافهين الذين تصدروا عناوين الصحف، ونشرات الأخبار، أكدَّ بلا تحفظ أن الرجل ليس مذنباً في شيء. إنه استجابة، تنفيذ، درس يؤكد وجاهة القوانين. واضح أنه كان يكتب كمنتش، كظافر منتصر، متيقن من أن الخسارة والفشل باتا ربحاً صافياً لأنه عرف أسبابهما فقط.

وفي الفصل الأخير، جداول بيانية أكدَّ فيها أن جميع الأنظمة السياسية التي استعارت النموذج، سوف تلحق به، خاصة تلك التي تظن أنها إذا قفزت فوق القوانين العلمية، إذا استمعت إلى هراء المنظرين عنها، فإنها تستطيع تسمية نفسها كما تشاء، دون أن يلاحظها التاريخ، أو يشمها أنف الديالكيتك، وبجرأة متهورة، وضع لائحة بأسماء الدول، والأنظمة المرشحة للرحيل. أما الخاتمة فهي مخصصة للجانب النظري المحض. وعلى الرغم من معرفتي الأكيدة بأن وضاح سوف يعتبر عرضي لأفكاره هتكاً لأسراره، فإنني أبادر هنا لتقديم فكرة الحل

إلى التاريخ، بعد ألف عام من زمن الرماد، كي تعلن عن نفسها. أو: سيموت منكم كثيرون، ولكن لا حياة بلا موتى. ثم يختم الرسالة بمقطع مقتبس من رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: ولكنني أطلب إليكم أيها الأخوة، أن تقولوا قولاً واحداً ولا يكون بينكم انشقاقات بل كونوا كاملين في فكر واحد، ورأي واحد.

لديه: فهي قائمة على أساس دفع الطبقة العاملة في جميع البلدان لتأييد الرأسمالية، لا حباً بها بالطبع، بل استعداداً للمستقبل. وقال إن على العمال أن يكونوا أذكياء فيطمئنوا الرأسماليين في الدول المحيطة بالمركز ويجذبوهم إلى تبني صناعات ثقيلة، بدلاً من تضييع الوقت والزمن في تفاهات العلوك والبسكويت والشوكولاته ومحارم السيلولوز. مهارة تكتيكية تمكنهم من التحول إلى بروليتاريا حقيقية خارجة من لحية ماركس، لا إلى حشود غوغائية تتبع لينين أو ماو أو كاسترو أو غيرهم من أدعياء قادة العمال. وهكذا فإن قبول سياسات البرجوازية، يعني الانتظار ريثما تتوفر الشروط الضرورية للثورة، حسب المواصفات القياسية الماركسية التي صاغها المعلم الأول، لا حسب اجتهادات التلامذة الفاشلين الذين استهوتهم السلطة لا العدالة.

في البداية أظهر وضاح احتقاره لما فعلناه في الماضي، واتهم قيس وجميل باضطراب الأخلاق وفساد الضمير.

لم أستطع أن أدافع عن قيس أو عن جميل أو عما آلا إليه اليوم، ولكني وجدت مئات النتف، والجذاذات من تفاصيل الأيام التي أمضيناها معاً في سنوات الستينيات. دون أن يكون لدي مرافعة للدفاع أيضاً، أو حنين إلى «تلك الأيام». كل ما كنت أريده منه، أوضحته له، وهو أن أستفز الذاكرة.

من يستطيع استفزاز ذاكرة وضاح؟! لقد سبقني منذ البداية، وغلف ذكرياته بورق الصياغات الجاهزة، وكرتون القوالب، وثبَّتها بصمغ النسيان، أو الازدراء. هذا استنتاجي، إذ إن وضاح بدأ يؤنبني (على الرغم من أن السنوات الطويلة التي لم نلتق فيها، قد أعطبت نطاق الحميمية الذي كان بيننا) على لهاثي وراء هذا الموضوع العادي.

(أعتقد أنه قال: التافه. تعبيراً عن احتقاره للمغامرة الصبيانية (وهذه أيضاً من مفرداته) التي قمنا بها، فيما مضى).

هل أخفقت؟! سألت نفسي وأنا عائد إلى البيت. الأرجح عندي أن جميع البشر يصرون على ارتداء أقنعة تمثيلية في مواجهة المواقف الطارئة والصعبة، أو قبالة الغرباء. وإذا أضفت إلى ذلك أن اللقاء لم يتضمن سوى نصائح وضاح وادعاءاته، فقد أضيف إلى ترجيحاتي رأياً يقول إنَّه اقتصر على وضع نفسه مؤقتاً داخل إطار أنيق مشغول من أجل العروض الخارجية وحدها. ولهذا فقد عدت إلى زيارته مرة ثانية بعد ثلاثة أيام، كنت خلالها قد تمكنت من العثور على ملفه، وكان مرمياً خلف الملفات الخاصة بثانوية الأمير شكيب أرسلان.

لاحظت هنا أن التقارير المكتوبة ضده كانت مفجعة. فقد وصف في المرحلة الابتدائية بأنه أزعر. هكذا كتب معلم اسمه حسن دون أن يلتفت إلى أنه يستخدم كلمة عامية مثقلة بالرذائل، ومعبأة بالإشارة إلى السلوك المشين، لوصف طفل ميال إلى اللعب أو الشجار. الأدهى أنه كتب هذه الإشارة في حقل خاص بالإدارة، وأتبعها بثلاث جمل أخرى، انطوت على نزعة انتقامية جائرة كما أرى، إذ كتب: غير قابل للإصلاح. لا شك أن والد وضاح صُدم بملاحظات معلم الصف الرابع الابتدائي هذه التي نُقلت إلى الجلاء المدرسي، فلم يجب بأي كلمة، واكتفى بغمغمة توقيع متهدج في حقل ملاحظات الأولياء. أمر محزن، فما لا ريب فيه أيضاً أن الوالد المحبط، الخاسر، قد حاول ترويض ابنه بقسوة، وإرغامه على اتباع درب الأمان وحسن السلوك، بالضرب والتوبيخ. ولا ريب أيضاً أن وضاح وجد نفسه حائراً بين آراء المعلم، التي لم نكن نعبأ بها في الطفولة، ونكبة الأب الهائج بسببها.

أما الموجه في المرحلة الإعدادية، وهو غالباً معلم من طراز أم كامل، فقد أخذت ملاحظاته السلوكية منحى سياسياً. وهذا أمر لافت، ينمُّ عن ذكائه، إذا ما كان لاحظ ميولاً يسارية مبكرة لدى وضاح، أو عن خبثه، إذا ما كان استمدها من عجزه عن ترويض الفتى الريفي المشاغب المتربص بلحظات سهو الإدارة، أو انهماكها في أي عمل، كي يقفز خارجاً من المدرسة، باتجاه حرية اللهو في شوارع المدينة. لا أعرف في واقع الأمر، الحقيقة. ربما كان وضاح متمرداً بالفعل منذ فتوته. وهذا يعني أن شطحاته لم تتلاءم قط، مع ضوابط المدارس، ومحظوراتها. وفي هذه الحالة، قد لا يكون عادلاً أن نلوم موجهاً يعسر عليه تفهم تطورات المراهقة، ومصاعبها، وأحوال الفتيان النفسية والعصبية، وأمزجتهم المتقلبة. وفي كلتا المرحلتين بدا وضاح خارجاً عن القانون، كاسر نظام. وهذا سلوك غريب من شخص أضحى فيما بعد، يقدس مدونات وأنظمة المجتمع، والقوانين العامة، ويرهن حياته - أو شبابه - من أجل قيم الجماعة. متى حدث ذلك؟ وكيف؟!

المتوقع أن ينضم وضاح إلى فوج الشباب الذين استهوتهم أفكار الوجودية في بداية الستينيات من القرن. وقد كان في سن مناسبة للاندفاع نحو تلك الجماعة التي ضمت عدداً من فتيات المدينة أيضاً. غير أن أسباب رفضه كمنت في هذا المكان بالضبط.

حدث ذلك بعد شجاره مع الفتاة التي أحبها. لا أذكر أو لا أعرف كيف بدأت علاقتهما. فقد وجدناهما متحابين، وكانت صداقتنا في طور البداية، لا تسمح بالتفاصيل. لكني رأيته أكثر من مرة يسلمها رسائل حب، وهي خارجة من الثانوية. كانت في السادسة عشرة من العمر، طويلة تمشي مثل مهرة، رافعة الرأس، بثياب ضيقة، وشعر

خرنوبي يرفرف بعقصة ذيل الحصان الشهيرة التي كانت تبدأ بها من قمة الرأس. كان طقس تسليم واستلام الرسائل ينجز برعاية جماعية منا (نحن أصدقاء وضاح، وهن صديقات فوز). فقبل بضع دقائق من الانصراف، نستقصي نحن الثلاثة، قيس وجميل وأنا، الشارع الأمامي الذي تطل عليه بوابة ثانوية البنات، ثم نتصفح الشوارع الجانبية، بحثاً عن أي شبهة أو علامة تدل على وجود مراقب ما. وعند الواحدة إلا ربعاً يرفع أقرب واحد منا إلى وضاح إبهامه عالياً، معلناً اكتمال شروط التسليم. ستكون فوز في الشارع الآن، مقابلنا، تحيط بها ثلاث أو أربع فتيات، ويسرن كإجاصة، وهن يفسحن ممراً ينفذ منه وضاح المحموم، حاملاً بكف يده اليسرى رسالته (الملفوفة كبويضة) التي سوف يدسها، داخل راحة يدها، ويمرق خارجاً مثل غزال من كعب الإجاصة التي تنغلق بهدوء. مرة أو مرتين لاحظنا وجود مشبوهين في محيط المدرسة (لا أقصد طلبة الدار الآخرين، أو زعران الثانويات ممن أفلتوا خارج أسوار المدارس بالطبع) عندئذ افتعل جميل الشجاع شجاراً مع قيس المتهتك ذاته، شجاراً صاخباً تخللته شتائم مقذعة، وهجمات مجنونة لم تكلل أي منها بالضرب، فيما كان وضاح العاشق يتسلل إلى إجاصة الحب، ويضع بيضة العصفور في الراحة البضة المعروقة المشرعة.

ما أغوانا في علاقتهما، إضافة إلى ذلك الطقس الجسور، هو تلك العلامات والإيماءات الفاتنة التي بدأت تظهر على وضاح:

في البداية صار يكتنفه شرود أبيض فاتر، يقصيه عنا إلى غيب بعيد. ولن نتمكن من مخاطبته، أو إرغامه على الاستجابة، إلا إذا لكزه أحدنا، أو صرخ قرب أذنه. ثم بدأت بشرة وجهه تكتسي صفرة رملية عليلة وناعمة، وصار شفافاً وليناً ومطيعاً يسلم بأي اقتراح، ويقبل أي

طلب دون معارضة، ثم صار يأكل بلا حماسة، يتناول بضع لقمات، ويشرب جرعة ماء، ثم يخرج إلى الشرفة ليتأمل الفضاء. مرات كان يظهر مثل بول في رواية المنفلوطي «تحت ظلال الزيزفون»، ومرات أخرى يبدو مثل فرتر الألماني. نوع من حزن طروب لامع، اقتحم خبراتنا الضئيلة، وكان يشدنا إلى مجرياته الطاغية، كلَّ يوم.

لم يكن وضاح يحكي لنا أي أحداث. واقتصرت معلوماته على المشاعر وحدها، ولم يقدم لنا أي خبر عن حبيبته، عدا اسمها. وأظن اليوم أنه اسم حركي استعاره (مثلما أفعل الآن في هذا النص) من تراث العشق، ليستخدمه كواجهة آمنة تحصن البنت من أي خطر ناجم عن زلة أو هفوة أو حماقة قد ينزلق إليها أحدنا. أو أنه استعان به، منساقاً إلى المناخ العربي الذي كان يشهد كرنفالاً من الأسماء الرمزية، والحركية التي يتقلدها قادة أحزاب اليسار، وفصائل المقاومة الفلسطينية، والعناصر المنضوية في صفوفهم جميعاً.

ولهذا، لم نفهم ماذا حدث بينهما إلا متأخرين. فبدلاً من إجاصة الحب، شكلت البنات حارسات فوز اللواتي زاد عددهن عن الأمس كثيراً، تفاحة مصمتة لا يمكن اختراقها. ارتد وضاح إلى الوراء، بعد أن صدمه حائط الصد الأمامي، وطوحت به واحدة منهن إلى اليمين، نحو بقعة ماء على جانب الرصيف المحاذي للثانوية، فتعثر وكاد يقع. وحين تمالك نفسه، كانت المجموعة صارت خلفه، وبسبب الخذلان، أو قلة الخبرة، أراد أن يغيّر طريقه، ويتسلل من القوس الخلفي للتفاحة، غير أن ثلاث بنات كن يتربصن به هناك، عاجلته الوسطى بينهن، بلكمة على صدره، شتتت اندفاعته، وشلته، فوقف ذاهلاً يحملق في ثلة البنات الرهيبات اللواتي صرن بعيدات عنه، وعنا، إلى الجنوب من سور الثانوية، قريباً من ساحة المدينة الرئيسية.

سبب ذلك الانشقاق، كان عبد الحليم حافظ، هذه هي الحقيقة. ففي اللقاء الوحيد الذي دبرته اثنتان من رفيقات فوز، لم تجد العاشقة ما تقوله للفتى المعشوق، غير أن تغني له: نار يا حبيبي نار. ثم تفصح عن حب جارف لذلك المغني المصري البعيد، وتعرض عليه، إلى جانب ذلك، رسالة، بعثت بها إلى عنوانه، وكتبت فيها له، أنها نشأت منذ طفولتها على معاني أغانيه العذبة، وإنه تغلغل إلى كيانها، بحيث باتت تظن أنهما صارا معاً دائماً. قالت إنها صارت تشبهه، وقد أضحى تعويذة تحميها من الكائنات الزاحفة التي تحيط بها، وتهدد بخنقها.

وضاح المهجوس بمزاج جيلنا كله، رأى أن ذلك الاعتراف الكاشف داخل متن لحظة العشق، إهانة (أو خيانة). كان عبد الحليم حافظ عدو جيل الشباب هنا؛ فقد تمكن بغنائه الذي كانت تصدح به راديوهات العالم العربي كله، وصورته التي كانت تتباهى بها المجلات الفنية، وألقابه المتكلفة المشغولة بحرفية تجار الغناء والموسيقى، من الاستحواذ على قلوب قريناتنا من جيل البنات. ما كن يسمعن غناءه في الحقيقة (الحقيقة كما نراها نحن) وإنما يعبدن شخصه، يتسرب إليهن بصوته، وموسيقاه، وكلماته، كي يتقدن، ويتنهدن، وينتحبن وراء همهماته الفاجعة، أو صراخه النادب، أو ألطاف نداءاته الطافحة بالهوى. ولذلك فقد بدا في وعينا منافساً بغيضاً لا يجارى. بحيث لم يستطع أي واحد منا، القول أو الادعاء أو الزعم، بأنه حظي بمكانة الحبيب قبل عبد الحليم.

لكن وضاح المزلزل بالاعتراف المرير، حدج فوز بغضب، ودمدم بسخط، وبنزاهة: «خرى عليه!» فرمته بنظرة ازدراء، وردت عليه بالنزاهة ذاتها، وبلا تمهل: «خرى عليك أنت!»

أذكر أن ذلك الجواب الصريح كان أكثر ثقلاً وعنفاً من قدراتنا جميعاً على الفهم أو التفهم. لم يكن رداً، وإنما مقاماً جديداً وطارئاً على نظام حياة مستقرة وراكدة عند مستوى آخر مختلف. بدا الرد مثل كسر أو خرق غريب، مغيظ للجدار الأصم المعمر من العلاقة بين وضاح وفوز، أو بين الذكور والإناث. وربما كان هذا هو السبب الذي دفع بالطرفين إلى الأقطاب المتحاربة. يخطر لي أن أفكر أن الشقاق بين وضاح وفوز كان صورة مبكرة وملهمة لجميع الانشقاقات والانقسامات والخلافات التي استهلت بها حياتنا منذ حقبة الستينيات من القرن العشرين. فكل منهما انفجر ضد الآخر بلا رزانة، شاجباً تاريخ العلاقة، محطماً بأسنان الحقد لا صورة الآخر وحدها، بل صورة الحب نفسه.

ومنذ ذلك اليوم صار وجود البنات، في أي مجموعة، يصيب وضاح بالغم، ربما أكثر مما يصيبني بالعياء. والأسباب مختلفة بالطبع، يفتر وضاح، يمرض مرضاً خفيفاً، يخلخل توازنه، ويمتص قدراته، أو يصير ملولاً، ضجراً، لا يرغب إلا في المغادرة.

وقد عرفت منذ بضعة أشهر، أن اسم فوز كان من بين الأسماء النسائية التي اعتُقلت في الحملة ضد الوجودية. وليس لدي ما يثبت أن الجماعة رفضت انتماء وضاح إليها بسبب تدخل فوز ضده، أم بسبب كونه من الريف، أو قروياً بحسب مصطلحات وتوصيفات أبناء وبنات المدينة الذين انضووا تحت علم ذلك التيار.

لم أرَ وضاح برفقة فتاة بعد ذلك. ومع أننا لم نكن نلتقي بواحدة منهن إلا في مناسبات نادرة، فإن قرفه من النساء زوده بأوصاف حاسمة يطلقها عليهن بلا رحمة: فاجرة! عاهرة! بغي! خاصة حين تختلس إحدى الفتيات نظرة توق أو رغبة من أحدنا، أو حين تغامر أخرى

بضحك جهير، بلا حساب. سواء كان عفوياً يستجيب لنكت الشبان المتألقين في حضرتهن، أو مصطنعاً يسخر من ارتباكات أحدنا. أذكر أنه لم يلفظ كلمة شرموطة قط. وقد عرفت السبب حين زرته في بيته، برفقة قيس وجميل. كانت الزيارة فاتحة مشروع الصداقة الرباعي الذي نشأ بيننا. منذ الأيام الأولى لدوامنا في دار المعلمين، كان وضاح وحده من بيننا قادماً من الريف، بينما كنا نحن الثلاثة أبناء المدينة. وقد اقترح قيس توسيع نطاق الزيارات، ودفع الصحبة نحو الصداقة، بلائحة من الإجراءات، من بينها زيارات الأهل. اقترعنا على البداية (في خطوة مبكرة جداً نحو ديمقراطية الآراء) ففاز وضاح بالأولوية. بدا قيس سعيداً بالنتيجة، سعادة أطفال الكتب بزيارة الريف، وقد انطوى على رغبة معلنة في السهر على ضوء مصباح الكاز أو السراج، بسبب ما يضفيه الضوء من قتامة مبهمة مثقلة بالشاعرية. هناك جاءت للترحيب بنا امرأة ضخمة مجللة بفوطة بيضاء سميكة، تلفها من الرأس، حيث تتلثم بها، فلا يظهر سوى عينيها، إلى الكتفين، فالخصر، فوق ثوب أسود فيه ألف كسرة منتظمة. تلك هي أمه. وقفت بعيداً عنا، ولم تصافح أياً منا، وهي تخبئ كفها تحت أطراف الفوطة عند الخصر. وحين بدأت ترحب بنا، خمدنا، نحن الثلاثة، تحت وطأة صوت قاس مدبب كالحجارة، قوي وممتلئ كأنه يسقط من تل.

كنا نود أن نلعب أي واحدة من ألعابنا الصاخبة، غير أننا لم نجرؤ، ولزمنا الصمت، أو اخترنا الوشوشة مخدرين بالضربات الصوتية المجلجلة، أو مشلولين بالتحذير، الذي أجهز وضاح به علينا، من أننا قد نطرد، دون تردد، إذا ما سمعت هنا كلمة بذيئة واحدة تأتي من مجلسنا. لم يكن بوسعنا احتمال حدوث ذلك، فهو يعني أننا قد نمشي طوال الليل،

في وعر مقفر مسكون بالكواسر. كما يعني حرماننا من صباح الريف المشبع بالأفكار لمواضيع الإنشاء. لا أعرف لماذا كنا نستخدم المفردات البذيئة في أحاديثنا. ويبدو أنها كانت تضفي عليها مناخاً رطباً يكسر تربية الرزانة التي تلقناها، ويبدد الكلفة بيننا كأصحاب، ويضمن لنا كمراهقين، الرغبة في إعلان الانشقاق على أخلاق المجتمع.

لم نلاحظ إلا في ذلك اليوم، أن وضاح لم يشاركنا قط، من قبل في ذلك السلوك، وقد اختار كي يرضينا، ويظل واحداً منا، مفردات الفصحى كمرادف متعقل، يحظى بالقبول من طرف الرب المراقب، والمجتمع المهدد، والأم المعاقبة من جهة، والرضى من قبل الأصدقاء الفاجرين من جهة ثانية.

الموجه في دار المعلمين لم يكن أقل حنقاً من زميليه، تجاه وضاح، كأنهم يتوارثون الحقد ضده. أو كأنهم تكهنوا بمستقبله في نصوص استبطانية سرية، وأرادوا استباق تجاربه. ففي حقل التوجيه، أشير منذ السنة الأولى في دار المعلمين إلى أن وضاح يشكل خطراً على زملائه في الدار، وينصح بأن تتشدد الإدارة في مراقبته السنة المقبلة. لم نكن قد خطونا بعد إلى جبهة السبعينيات، وما كان بوسع مدير الدار فصل الطالب بسبب هواجس الموجه، أو بسبب انتمائه السياسي إلى جهة أو تيار أو حزب مناوئ للسلطة، أو تناوئه السلطة.

وعندما كنت في طريقي لزيارته في المرة الثانية، لم أستطع أن أتذكر لماذا كنا أصدقاء في تلك السنوات. وبعكس آرائه أيام الشباب، أو اقتراحاته في المخطوط، بدا في لقائنا ينوء تحت وطأة مشاعر متناقضة وطائشة. ففي إحدى اللحظات قال لي واصفاً حالنا: «إنه الجحيم!» ثم بدل رأيه بعد بضع دقائق هاتفاً: «ما أضيق حياتنا» ثم

أتبعها بدمدمة شعرية، حاول أن تبدو عقلانية: «قال السماء كئيبة وتجهما قلت ابتسم يكفي التجهم في السما». جاريته قليلاً دون أن أتورط في استعاراته التمثيلية، أو مواقفه البلاغية المجردة من الحس. (لم يكن السبب أنهم نالوا منه فيما بعد وطروده من التعليم. فوضاح كان قد استعد جيداً للمنازلة، ودرس الحقوق في جامعة دمشق، وانتسب إلى نقابة المحامين، بعد أن قدَّم استقالته من وظيفته، وافتتح مكتباً وسط المدينة). واستنتاجاتي محزنة بهذا الخصوص؛ فعلى الرغم من أنني لم أكن من أنصار حزبه أو خياراته، فقد بقيت طوال السنوات العشرين أكن لوضاح احتراماً نجم عن ذكرى تلك الحماسة الدؤوبة التي كان يضخها في شلتنا بلا كلل، شاجباً أي خذلان فينا قد يدنس صورة المستقبل. وقد تساءلت فيما بعد: من الذي تبدل منهما، وضاح أم المستقبل المشتهى؟! الحقيقة هي أنني لم أكن واهماً منذ وقت مبكر، بإمكانات الأيام القادمة. ولا يعود الأمر إلى قوة الحدوس، أو مهارة التنبؤ، بل إلى أنني عجنت سلالة من المطالب العادية البعيدة عن الخطر أو التهديد أو احتمالات الانكسار والإحباط القاسية. حلمت ببيت مثلاً، وتمكنت من الحصول على شقة في الطابق الثالث من بناية تابعة لجمعية سكنية بتقسيط مريح دام خمسة عشر عاماً. وهي شقة تتخللها الشمس صباحاً ومساءً، وإذا كانت نوافذها تطل من جهة الشرق على باحة داخلية للتجمع، فإن لها من جهة الغرب إطلالة شاسعة تصل بنظري إلى حافة سماء الجولان. ولم تتعد أحلامي الأخرى بضعة أشياء تقل عن قيمة البيت بكثير: براد ثلاثة عشر قدماً بدلاً من ثمانية أقدام، فرن كهربائي، مسجلة كاسيت، (رفعت درجة الحلم بهذه الماكينة بعد اقتناء واحدة إلى مستوى مسجلة سي دي)

خلاّط كهربائي، طقم أرائك من المخمل للصالون مع تلفزيون ملون. وفي الغالب فقد تمكنت من تحقيق معظم الأحلام، دون عسر، أو ببعض المشقة، وبعض التنازلات الطفيفة، غير الجارحة (رضيت مثلاً باقتناء مسجلة صينية بدلاً من اليابانية) وقد زاد في رغبتي أو سعيي أو اهتمامي بمشاريع المستقبل الكبيرة (المستقبل هوة فارغة حالكة متعجرفة تلتهم أي حلم) اكتشافي أن جميع من عرفتهم من أصحاب الأحلام الكبيرة، كانوا ذوي نفوس متواضعة، هامدة يتعصبون لغيب معبأ في معلبات صدئة من التنك. أحلامهم كانت نوعاً من الزهو أو الحنين إلى فردوس ما. غير أن خيالهم كان قاحلاً أو ضامراً في أحسن الأحوال، لا يستطيع احتجاز صورة حقيقية ملموسة، يمكن لأي شخص أن يتشبث بها. ومع ذلك فإن في المسألة، التباساً. فكلما كانت الصورة (صورة المستقبل) مغبشة، شاحبة، ازداد عدد الذين يضجون حولها، ويصخبون بالحديث عن جمالها. ولهذا السبب زاد إشفاقي على وضاح؛ فقد وصل إلى المستقبل (أنا أزوره الآن في المستقبل الذي بشرنا به، دون أن يتحقق من البشارة أي شوط) منهكاً أو متهالكاً. هذا ما رأيته في تناقضاته، أو في حيرته تجاه الحاضر الذي كان مستقبلاً لنا، للبشرية جمعاء، قبل عشرين سنة.

كنت أريد أن أواسيه، وأقول له: مسكين يا وضاح!، أو أشرح أن أحد أسباب خيبتهم أنهم قصروا المدة الفاصلة بيننا وبين الفردوس، حين لم تتجاوز إلا جيلاً واحداً. لكني لم أفعل.

المؤكد أن صمتي بدا إذعاناً، فأخذ وضاح يرسل تلميحات محرضة (ويا للغرابة) من نوع: ها ماذا فعلت؟ أو إلى أين وصلت؟ كي أبادر إلى وضع الحكاية القديمة في منتصف الجلسة. لم أكن أنتظر إلا هذا.

أعترف أنني كنت قد وصلت إلى حائط مسدود. نقطة ميتة، عجزت فيها عن ابتكار سلالة أحداث متخيلة تصلح الثقوب التي أحدثتها تدخلاتي على السياق الأصلي. صحيح أن الانحراف كان ضرورياً في الصياغة الكتابية، ولكن علينا في مثل هذه الحالة ضبط المعايير ومراقبة الشطحات العرضية. الخلاصة: اكتشفت أنني كنت بحاجة لهذه الجرعة التي زودني بها وضاح. وقد استجاب لجميع أسئلتي. وأضاف رزمة من المعلومات لم أكن أعرفها عن ليلى، وعن أبيها وأمها وجدها أو عن جديها. ثم سألني فجأة: هل زرت أمها؟ ورد؟!. نعم ورد؟!.

كانت ورد موجودة في الملف، رأيتها أكثر من مرة، ولكني لم أتفرس في الاسم أو في الصفحات، لسبب نصي هو أنني آثرت أن تشرف على الحكاية من الداخل، حين أتمكن من لملمة معلوماتي، ومن تدارك نواقص الملف، وجمع المواد الكافية للعودة بالقصة إلى البداية. وقد ذكرت اسمها من قبل، من باب التشويق فقط. غير أن ملاحظة وضاح، أخرجتها من إطار التقنيات إلى أرض الحقيقة، أو إلى المواجهة.

فالملف لا يذكر أي معلومة شافية عن هذه المرأة (سخرت من وجود امرأة هامشية داخل أرشيف خطير يُعنى بكتابة التاريخ التربوي، سخرت من كتبة التاريخ، لا منها، وخالط سخريتي، في اللمحات الأولى، الاستهجان والدهشة، من أن تكون هذه هي المرة الأولى التي يرضى فيها مؤرخ - من أي مستوى - باستضافة شخص عادي في حقل رهيب كالتاريخ!!) ولكنه في الوقت نفسه، يظهرها في الخلفية كلازمة لا تفارق وجود ليلى.

تذكرت أن طعمة الله ذكر اسمها مرة أمامي، من بين أولئك الذين كانوا يستعيرون الكتب من مكتبته، قبل أن تهدم، أو من بيته، بعد أن

نقل كتبه إلى هناك. كان المكتبي قد بدأ خطة الطوارئ التي أراد أن يعالج بها خمول القراءة الذي أخذ يرين على مناخ المدينة ابتداءً من منتصف السبعينيات، فوضع إعلاناً على زجاج الواجهة كتب فيه: مستعدون لإعارة الكتب. كانت خطته العلاجية تحاول إغواء الناس بالقراءة، وقمع الذرائع الضعيفة التي يرددونها حول عجزهم عن شراء الكتب، بسبب الارتفاع المفاجئ في أسعارها. ولذلك لم يطلب لقاء إعارة أي كتاب سوى عشرة بالمئة من سعر الغلاف. كنت أظن أنه قام بعمل أحمق، حين لم يطلب أي رهن مسبق، لاحتمال أن ينهبه القراء، فلا يعيدون الكتب المستعارة إليه. غير أن طعمة الله سخر مني، وهو يضرب كفاً بكف. لم يأت إلى مكتبه أكثر من خمسة عشر شخصاً، تناقصوا سريعاً بعد ذلك. فيما لم يبد أي واحد منهم ما يوحي (مجرد إيحاء) بأنه قد يستولي على الكتاب المستعار. لا أعرف كيف أبديت هذا التخوف الهوائي. وقد تأكد عندي من لهجة السخرية التي واجهني بها طعمة الله، أن الرجل بات يعرف مواطنيه أكثر مني، ولكني لا أخفي أنني شعرت بالخيبة، من حقيقة أنه لم يصادف زبوناً واحداً يطمع في كتاب. لم يكن للأمر علاقة بالأخلاق قطعاً، ولا بالتقاليد البشرية المتوارثة منذ أن اخترعت الكتب، وصارت طعماً يغوي بالاستيلاء عليه، بل بحالة اختناق، لم يعد فيها للكتاب قيمة أو أهمية. غير أني حاولت أن أجعل هذا الموضوع مدخلاً للاستفسار عن ورد بطريقة مواربة. إذ لم يكن في نيتي، أن أُطلع ذلك الوراق الثرثار على مشروعي، فأوضحت له أن الأمر مريب، ولا بد أن زبائنه كانوا من طينة ملائكية، كي لا تستهويهم تلك الغواية الأبدية، فيأخذ أحدهم كتاباً، ولا يعيده. قال إن ذلك حدث مرة واحدة. غير أنه لا يشك بأن

اختفاء الكتاب لم يكن ناجماً عن فساد أو رذيلة، وإنما عن مأساة[2].

كان صوته متهدجاً ومنكسراً. ولأنني كنت أعرف طعمة الله جيداً، وأعلم أنه قادر على ابتكار مواقف مرائية، فقد افترضت أنه يكذب علي في أحد أمرين: قصة الكتاب المسروق، أو مشاعر التعاطف. لكني نسيت ذلك حين ذكر اسمها فجأة. «تذكرها؟!» سألني بلهجة حانقة، وهو يدهمني بنظرة متفحصة بغيضة. قلت: «إي» بلا تردد. لم أعد مستعداً للمناورة، إذ أنها بدت لي غروراً فارغاً، ولا لإنكار اهتمامي بها، فقد جئت إليه لهذا الغرض بالضبط. رأيته يخرج علبة سجائر تنكية، فيها دفتر ورق الشام، وكمشة من تبغ غامض ذي رائحة عطنة. رمقني بابتسامة صفراء (صفراء بسبب أسنانه على الأرجح، إذ إن عينيه كانتا تلمعان ببريق مثير) وقال: ما رأيك بسيكارة؟! قلت: لا أدخن قال: لا! لا! قصدي سيكارة كيف. كانت قد بدأت تصلني أنباء عن توفر الحشيشة، وإقبال عدد من الشباب على تعاطيها، لكني لم أتخيل أن يكون المكتبي العتيق، موزع الثقافة، قد انحط إلى هذا المستوى. قلت له رأيي، فحدجني باحتقار، ورأيت يديه المتسختين ترتعشان، وغمغم قائلاً لي: أنت واحد تافه، لا تدخن، وترفض أن تجرب الحشيش، وتريد أن تكتب رواية. قلت: ما علاقة هذه بتلك. فضحك اللعين، وبدأ يسعل حتى كاد يختنق. أشعل سيجارة وسحب منها نفساً عميقاً وهمس: أنت حمار كمان، يعني تظن أنه لا توجد علاقة بين هذه وتلك، وبين الذي والتي، وبين الكان والدكان؟! قلت: لا. بل توجد علاقة. قال: طيب إذاً. سألف لك ضرب كيف، ونكرع معه كأسين من النبيذ أو من الشاي.

2ـ رفض طعمة الله أن يذكر اسم الكتاب الذي لم تعده ورد. لم أسأل أكثر من ذلك، فليس للحادثة أي دور في موضوع النص.

الشاي خاص بالمبتدئين، وبعد ذلك سوف نحكي (قال نتسولف).
شتمته في سري (كالعادة) دون أن أظهر اعتراضاً. ففضلاً عن رغبتي في سماع حكاية ورد، كانت لدي رغبة أخرى دفينة وقديمة في تجربة الحشيشة. أعترف بهذا. فالذين يتعاطونها من أصحابي وأصدقائي نصحوني أن أجربها. وأقدر الآن أن توبيخي لطعمة الله كان كاذباً، افتعالاً للحصافة والتعقل. لم يأبه له لحسن الحظ. كان ذلك العجوز المدرب أكثر حكمة من أن يصدق رجلاً مزايداً جاء إليه من الأيام العتيقة. ناولني سيجارة، وأشعلها لي من فتيل قداحة طويل له رائحة بخور. دخنت بحذر. ولكنني بعد النفس الثالث أو الرابع (لم أعد أذكر) أيقنت أنني أخطأت في قبول عرضه. فقد خرب منحى مشروعي. بلبل شكل الكتابة الذي كنت أزمع أن أشتغل عليه، ندمت بالطبع، فإذا كان من المستغرب أن تصدق كلمات عجوز بسبب خرفه، فماذا يمكن أن تقول عنها، إذا أضاف إلى الخرف، أنفاساً من زهرة الخشخاش؟!.
فقد ادعى وهو يسحب نفس الحشيش من سيجارة الحمراء الطويلة، أن حامد والد ليلى قد مات منتحراً. وهي معلومة مذهلة تمنح الأحداث المقبلة ثقلاً وبلاغة ودلالات لم تكن متوفرة في المخطط الأصلي الموجود لدي. وهذا سوف يتطلب خلخلة الشخصية الأصلية، أو إعادة تركيبها، ومساءلة خصائصها. إذ يفترض أن تبدل حامد من شخص متماسك، مزدحم بالعمل، والرغبة في الحياة، وحب العائلة وشهامة تنفيذ المهام اليومية، كما كان مرسوماً في الإعداد الأولي الذي أنجزته، إلى شخص مفكك، مكتئب (وهذه حالة غريبة لم تكن منتشرة في ستينيات القرن، قدر انتشارها اليوم) ينطوي على رغبة في الانتحار (حققها فيما بعد) يتطلب تغيير الخط السابق الذي كنت قد أدخلته إليه، كما يحتاج إلى جملة من المعلومات والأوضاع والحالات والأحداث، تفضي بنا وبه،

منطقياً للعودة إلى كل ما يتعلق بتاريخه الاجتماعي والعائلي والنفسي. لم أكن راغباً في ذلك، لاعتقادي بأن هذا النهج صار قديماً وعاجزاً عن تلبية احتياجات القص الحديث، أو أنه بات واحداً من نظام مدرسة روائية باهتة كانت تجد في المحيط والبيئة والوضع الطبقي، أجوبة على الأسئلة الوجودية الكبرى التي تشغل الإنسان.

ومع ذلك، لا أعرف إذا كان ما يقوله طعمة الله عن حامد، حقيقةً أم كذباً. تساورني الشكوك حول دوافع الرجل وأسبابه ونهجه وأسلوب تفكيره وأغراضه. وفي كل الأحوال فإن هذا الاحتمال يفتح أفقاً في النص، لم يخطر لي على بال من قبل. هل كان طعمة الله قريباً من أسرة حامد، أكثر مما هو معروف؟ هل بنى نظريته عن الانتحار، على معطيات ووقائع وعلامات شخصية، استنتجها بنفسه من النظر والمراقبة؟ لم يعترف بذلك. وقال إن رأيه (رأيٌ فقط؟!) مبني على الحدس من جهة، والريبة من جهة ثانية. قال إنه حدس غامض يمكنه دائماً من معرفة الحقائق والدوافع الكامنة وراء قشرة الأحداث، ووراء ما يظهر أمامنا. قلت إن الرجل مات منذ زمن بعيد، ولم يعد ممكناً التحقق من تقارير الأطباء، أو ضبوط الشرطة، ولكن أحداً لم يقل أنه انتحر. لقد مات باحتشاء عضلة القلب. كذب. لا توجد تقارير أطباء ولا ضبوط شرطة. ثم من قال لك هذا؟ عبد الله المصري قلت. شفت؟ هتف بجذل. كأنما اكتشف الآن وبغتة، أسرار فكرته. الغريب أنني رأيت في عينيه زهواً واعتزازاً، لم يستطع أن يخفيهما. شعرت بالحزن، بالمرارة من أن يكون احتمال، أو توقع شكل موت أي إنسان ذريعة للزهو أو إثباتاً للبصيرة، أو يقيناً يؤكد ريبتنا من أي شيء. أنا أرتاب إذاً أنا موجود. قال طعمة الله من وراء رائحة النبيذ الرخيص الناضح بطعم

الخل المنبعثة من شاربيه القذرين. كان كتاب ديكارت بجانبه فعلاً، على الفراش الملطخ بالزفر، وبقايا الأطعمة، وبقع الشاي والقهوة، والمشروبات الكحولية والغازية. أعرف الكتاب منذ أن عرض طعمة الله أن يبيعني إياه، في بداية السبعينيات أو نهاية الستينيات، حين كانت مجلة الفكر المعاصر تروِّج له، ولا سبينوزا وغيرهما من الفلاسفة. كان ديكارت، وما زال، الأكثر شعبية من بين فلاسفة أوروبا في ثرثرات المثقفين والمتعلمين بفضل جملته الشهيرة «أنا أفكر إذن أنا موجود» التي دوت في زماننا، أو اندلعت في الواقع، ملتهمة نصف ثقافتنا. وقد زاد في شدتها، أنها مركبة تركيباً لغوياً متقناً (في العربية بالطبع) بحيث تمكن المثقفون والمتعلمون من إيجاد عشرات العبارات الموازية لها، على غرار عبارة طعمة الله: أنا أرتاب. أنا أنام. أنا أحب. أنا أقبل. أنا أمص. أنا ألحس. كانت العبارة لينة، وقابلة للطي، والقولبة، حسب مزاج وحاجة وتطلعات ورغبات وأفكار وعلل وأدواء القائل. وقد اندس طعمة الله بين هؤلاء، لكنه جاء متأخراً جداً، أي بعد أن خُلل ديكارت: (ومن قبله كانت قد سُحنت عظام ماركس، ودُق لحم لينين) كان الرجل يعرف ذلك جيداً، يعرف أن غوايات جيلنا (صارت صفراء كالنسيان) لم تعد قابلة للصرف أو للاستخدام في أي حلقة من حلقات المجتمع. وقد تبيَّن للجميع أن الطبقات مثلاً، اختراع ماركسي، لعبة غميضة لعبها الكل إلى أن بان الصبح. وحينئذ غابت النغمة، نفخها أحدهم من آلته النحاسية الملحقة بأوركسترا الأحزاب. وصاروا يتحدثون عن صراع الحضارات، وصراع الإثنيات، وصراع المياه، وصراع الطوائف. ولهذا، وعلى الرغم من جملته الشكاكة، لم أصدق أن حامد السومري انتحر. علماً أن التفاصيل التي رواها الحشاش طعمة الله (سوف ترد

بالتتابع في السياق) تفتك حتماً بمخلوق من طراز حامد. والواقع أننا أمام خيارين في هذا الشأن: الأول هو الحقيقة فيما يتعلق بشخصية حامد، إذ كان تقريباً بلا كيان، دون أي حضور مميز في الحياة، رجلاً شبيهاً بخيال، يعيش بسلام تام مع وقائع الحياة اليومية البسيطة، بلا مصاعب، لا تقلقه أي مشكلة محلقة في الزمان، أو في المكان، بالقدر الذي لا تشغله فيه المسائل العامة أو الخاصة. لا يعني هذا أنه إمّعة، خائر، بل مجرد شخص قانع محايد، قلما يحفل بما تنجبه الأيام من مستجدات. وكنت قد كتبت من قبل أنه صورة نمطية عن السوري المغيب، المقصي، المختبئ وراء جدار سميك من طمأنينة العزلة والانكفاء. أما الخيار الثاني، فمستقى من تراث آخر، يمكن أن ننسبه إلى الأفكار والغايات والأهداف العامة، المبتغاة من رجل رافض، يكفر بالحاضر كثيراً، ويحب الماضي، بينما يظهر المستقبل في صورة المقدس. نمط آخر حضر بقوة في الحشود الجماهيرية الضخمة التي تدفقت على شوارع الستينيات وبداية السبعينيات. ولكن من الصعب أن يتحقق المرء من هوية رجل ميت، في غياب المعطيات الدافعة الكفيلة بتسميره على الصليب المختار. وسوف تبقى قصة الانتحار معلقة فوق أطراف الحكاية كلها منذ الآن. هذا حقيقي. وقد زاد في جاذبيته، وغرابته، أن تعليق ورد كان عنيفاً. إذ وصفت طعمة الله بأنه منحط وبلا ضمير. ثم أضافت «خسارة الخبز والملح!!» لم أبال بأوصافها، ولكن الإضافة أقلقتني. فلم يقل طعمة قط إنه كان صديقاً للعائلة، بحيث يمكن لأحد أعضائها أن يأسف على لقمة خبز شاركه بها ذات يوم. لا أعرف ماذا كانت ستقول، لو أنني ذكرت لها التفاصيل الأخرى التي وضح بها فكرته عن انتحار حامد؟ ليس مهماً، فبعد الوصف الذي نعتته به، لا توجد كلمة أخرى في سلم الانحدار الأخلاقي.

ومن الصعب بعد الآن، استكمال النص دون الإجابة على السؤالين التاليين: من هي ورد؟ ومن هو حامد؟ سوف أنسخ التفاصيل التي كنت أفكر بحذفها من المخطوط الأول، وأضيف إليها اختلاقات طعمة الله: فقد ولد حامد في قرية بعيدة في أقصى الشمال السوري، اسمها قبور البيض، لأب مغامر هو مصطفى السومري، كان قد ترك المنطقة هنا في أوائل القرن العشرين ورحل إلى القامشلي في البداية، ثم عاد إلى الحسكة، واستقر هناك في الأراضي الزراعية التابعة لشركة محلية، قريباً من نهر الخابور، حيث سيكون لهذا النهر دور كبير وحاسم في تقرير مصير وحياة عدد كبير من شخصيات الرواية. لا أعرف لماذا اخترت ذلك النهر حصراً، من بين الأنهار العابرة في سورية. فمن يراه اليوم لن يصدق أن هذا المجرى التافه المهلهل، يمكن أن يكون قد حكم أو قرر أي مصير بشري. ربما بسبب علاقتي أنا به أيضاً؛ فقد أمضيت في طفولتي أكثر من سنة ونصف، قرب ضفته، مع أبي وأمي وأخي، حين كان النهر يأتي من الشمال صاخباً، هادراً، متلوياً. ليس فيه على طول سريره، أي مكان صالح للعبور (هذا تفصيل ضروري أو توضيحي سوف يسهم في بناء قصة العلاقة بين النهر والبشر) إلا على متن قارب، أو على ظهر سبّاح. ولهذا ابتكر الناس الذين قطنوا على ضفتيه عبّارات حديدية، تقطر إلى كابلات غليظة مجدولة من الشرائط الفولاذية، وتعلق إلى أبراج إسمنتية على جانبي النهر. سوف تحتاج إلى مراكبي ضخم، نشط، مدرب، واقف على قيدوم المركب، ليمسك بالكابل ويجر المركب بالحركة المتناوبة لقبضتيه، ويوصل الركاب إلى الطرف الآخر من النهر.

ليس لدي أي معلومات أو أنباء عن الكيفية التي انتقل بها مصطفى

من العمل الزراعي إلى قيادة المركب. ولكن وجوده هناك علامة على قوته الجسدية الظاهرة التي رشحته لتلك الوظيفة المرهقة، كما أنه كان مقدمة لمعرفة الطريقة التي تعرف فيها إلى زوجته.

فقد حمل مصطفى معه ذات يوم فتاة آشورية، في قاربه لعبور النهر. تبادلا بضع نظرات كانت كافية لإشعال الشرارة السرية المولجة بمسائل العشق، داخل صدر كل منهما. لم يكن قد رآها من قبل، ولا تذكر هي أيضاً أنها رأت ذلك الشاب، على الرغم من عبورها المتكرر لزيارة العمة في تل الأحمر، على الجانب الآخر من النهر. وقد تكون عبرت النهر من أمكنة أخرى، أو من هذا المعبر في زمن قبطان آخر. ومن المستحيل أن تكون عبرت من هنا، بعد أن صار مصطفى قائداً للدفة (ينبغي أن تقول قائداً للكابل). فالنظرات التي تبادلتها معه (فكرت) كانت طازجة وبرية بحيث لن يشك أي منهما أنه رأى الآخر في أي مكان على الأرض (فيما بعد يذهب مصطفى وراء هذه الادعاءات ويزعم أنه يعرف وجه خوشيبا (هذا هو اسمها) منذ أن ولد، أو أنه رآها مئات المرات في أحلامه، وفي سلالاتها من تخيلات اليقظة).

لم يكن في هذا اللقاء أي جديد، عدا النظرات المتبادلة بلا توقف. وقد غادرت الفتاة البيضاء القارب، واتجهت نحو الشمال، في الطريق الصاعد نحو تل الأحمر. وسرعان ما اختفت عن عيني مصطفى الذي وجد ثلة من الركاب بانتظاره، ليعود بهم إلى الضفة الأخرى، دون أن تغيب الفتاة عن خياله، لحظة واحدة.

الجديد أنها عادت في اليوم التالي صباحاً، والمؤكد أنها قطعت زيارتها، وتركت عمتها مخذولة، ساخطة في اندفاعة مجنونة نحو قدرها. هذه المرة استطاع مصطفى أن يتأمل جسدها وهي تقبل نحوه.

بدت أكثر بياضاً من الأمس، بخصر لين متراقص، وكتفين مستويين، وصدر نافر ووحشي، وعينين زرقاوين مترقرقتين بالدموع. وفي ذلك الصباح لم تظهر فاتنة أو مذهلة أو ساحرة، لم تبدُ كأنما هي أجمل امرأة في الدنيا فقط، بل بدت كأنها المرأة الوحيدة على الأرض. أمسك مصطفى الكابل الفولاذي، وقاد المركب إلى عرض النهر، وهنا أفلت يديه، فتخبط زورقه الحديدي وسط أمواج النهر المتدفق، وصاح: (إما أن تتزوجيني وإما أن نبقى هنا) نداء تافه لم يكن له أي معنى، إذ أن الفتاة حين بترت زيارتها وعادت، كان سقف آمالها يقل كثيراً عن جموح كلماته. فقالت له وهي تضحك: «الأفضل هو أن تخطبني من والدي». شطبت من النص الأوراق التي أصف فيها الليلة التي أمضاها مصطفى، وهو يهجس بتلك الفتاة التي انجذب إليها، وكان قرر أن يترك عمله ويرحل بحثاً عنها، وهو تفكير يفتقر إلى الحكمة، ولكنه يطبع مزاج العاشقين في بداية كل حب. وكان من الممكن أن يحدث ذلك لولا مبادرة خوشيبا البصيرة. وبحسب ما أذكر فقد تخلصت من تلك الفقرات، لأن فيها قدراً من الهيام، يزيد على قوة الانطباع الذي خلفه اللقاء الأول.

لكن رد خوشيبا كان أكثر طيشاً من تهديدات مصطفى، إذ اتخذت ذلك القرار، دون أن تعرف شيئاً عن هوية الرجل الذي منحته نفسها. ولم يكن لديها أي فكرة عن أصوله الدينية حين أخبرها بذلك. وقد بدت حيرة أهلها، ثم رفضهم القاطع للزواج، غير مفهومين لديها. لكن مصطفى عرض عليها حلاً آخر، سرعان ما وافقت عليه، فهربا معاً إلى منزل صديق له، من أكراد القامشلي، وتزوجا هناك، ثم رحلا بعد أسبوع إلى قبور البيض، بعد أن التقى مصطفى بوكيل زراعي لأحد ملاك الأرض، وتقرر أن يعمل سائقاً لجرار ضخم من نوع كاتربيلار

الشهير (أذكر هنا أن وضاح نصحني بعدم استخدام اسم هذه الشركة التي تورطت في تمويل أنشطة صهيونية عديدة. إضافة إلى مشاريعها الزراعية في فلسطين قريباً من الحدود السورية. وهناك احتمال أن الكاتربيلار حرضت الجيش الإسرائيلي على شن بضعة اعتداءات على المزارعين السوريين واللبنانيين من أجل إبعادهم، أو طرد مواشيهم وأبقارهم عن حدود حقولها. «ربما» قلت لوضاح. غير أن إسرائيل نفسها لم تكن موجودة حين بدأ مصطفى السومري العمل في الجزيرة).

كنية السومري ليست حقيقية، إنها استعارة، اختار مصطفى أن يضعها وراء اسمه تكريماً لخوشيبا، كما أعتقد، دون أن تكون لدي فكرة عن السبب الذي جعله يضع «سومري» بدلاً من «آشوري». لا أذكر هذه الملاحظات لأمنح مصطفى أي أهمية، فدوره يقتصر على أمرين ثانويين: الأول هو الإشارة إلى قوته الجسدية المجربة، والثاني هو أنه سيصير بفضلها وحدها جداً لليلى.

وقد حدث ذلك أثناء الطوفان!

استأجر مصطفى بيتاً طينياً في البلدة التي وصل إليها. جغرافياً كان سكانها، قد اختاروا أن يبنوا بيوتهم في الأرض المنبسطة التي تنتهي إليها جبال طوروس: سهل أخضر خصب تتسرب إليه سواقٍ وجداول في الشتاء، مشكّلةً مجرى وادٍ عميق وراسخ يستطيع استيعاب المياه، وسقاية أو ري معظم أراضي البلدة. لكنه في الوقت نفسه، نموذج فريد من أجل كارثة. لكنها لم تحدث طوال أكثر من مئة سنة. وهو الوقت الضروري لتبديد أي عوالق، يمكن أن تكون قد تسلقت أو انغرست في جدار الذاكرة، عن الخراب الذي أحدثه سيلٌ ما سابق، يوماً ما. لم يستطع مصطفى أن يصدق أن عمر البلدة يربو على خمسمئة عام، بحسب

تواريخ العجائز. إذ خُيِّل إليه أنه ليس بوسع تلك البيوت المبنية من لبن الطين المقوى بالتبن، أن تكون قادرة على الصمود كل هذه القرون، أو أن يمتنع السيل عن المرور بها، هذه الفترة. كانت خصال النمط الجبلي المبني من حجارة البازلت، تشكل الفكرة الوحيدة الصالحة لمقاومة اختبارات الزمن، في رأيه. آراء العجوز الكردي شيخموس عن قوة التراب، كعنصر مكون، لم تقنعه أبداً. ففي الحقول حيث يعمل. كان يرى بعين فاحصة ومذعورة، كيف تتمكن ساقية جارية من تهديم سد ترابي معترض بلا يأس. لم تكن لدى مصطفى أي ذكريات طوفانية، وبدا أنه لم يكن لدى خوشيبا جارة الخابور، مثلُ هذه المخاوف أيضاً، إذ ادعت أن ذلك النهر الرهيب، حفر مجراه بقوة، خلال آلاف السنين، دون تركات كارثية جماعية، وأن ضحاياه هم الذين كانوا يأتون إليه دائماً. ولهذا لم تكن فكرة مصطفى عن أخطار السيل على البلدة التي قطنت فيها واضحة تماماً في مخيلتها، لكنها أذعنت لخياره، ورضيت أن تسكن في أعالي التل الترابي، مضحية بعادة المشي المسائية التي ورثتها من سنوات عيشها قرب ضفة النهر.

الطوفان الذي غمر البلدة، لم يكن شبيهاً بأي افتراض قدمه مصطفى، أو أي تحذير. فقد حوَّلها إلى خربة، في نصف ساعة. قبل ذلك ظلت الأمطار تهطل طوال يومين. وإذا كان بعض السكان لاحظوا ارتفاع نسبة الماء في الجداول والسواقي المحفورة قرب الشوارع والأزقة، عما هو معتاد، فإن مخاوفهم لم تصل إلى حدود الشعور بالخطر. فالوابل ما كان طارئاً، وأسانيدهم تدل على أن معدل المطر، زاد عما اعتادوه في السنوات العشر الماضية قليلاً. لذلك كان شكر الخير السماوي، والزهو بالموسم المقبل، يطغيان على القلق العابر،

أو التذمر المخزي الذي يمكن أن يصدر عن مسافر متأفف، أو تاجر مغتاظ، أو صبي مُقيَّد إلى نافذة انتظار.

ليس لدي وصف تفصيلي لذلك الطوفان. والأمر المهم في تلك الساعات هو أن مصطفى كان الوحيد ـ ربما ـ المترقب للكارثة. وقد حدثت بالفعل.

الرقم الأولي الذي تسرب إلى ذاكرة ليلى من ذلك الزمن، هو أكثر من ثلاثمئة قتيل، ومئات الجرحى، ودمار شبه كامل للبيوت المبنية في السهول، أو على السفوح المجاورة.

من بين أولئك الذين جرفتهم المياه، كان رجل طويل، ناحل، يمتطي جذع شجرة محطمة كحصان، ويصرخ مستغيثاً في غبش المطر الغزير المنهمر عند الضحى، ووسط أمواج السيل الترابية الحائرة في أزقة البلدة. كان هذا هو نسيب الحسيني الذي لم يكن قد مضى على مجيئه إلى الجزيرة من السويداء، ليعمل في الحقول الزراعية سائقاً لشاحنة، سوى ثلاثة أيام. لم يكن قد وجد مكاناً للإقامة، فأخذ غرفة في منزل منعزل، عند الطرف الجنوبي المواجه للجبال، وهي عليّة وحيدة مشرفة على المشهد الجبلي الضخم الذي يسد الأفق بلون أزرق مبقع بقرىً بيضاء، وغابات زيتية، لا تكاد تظهر في ذلك الطقس العاصف. لم يجد ما يفعله طوال تلك الأيام. وفي الضحى من يومه الثالث، لم تكن لديه شهية للأكل، فاكتفى بالفرجة على المطر، وتدثر بالأغطية حين أحس بالبرد، ونام نوماً متقطعاً، حلم فيه بصوت الطاحون في المدينة، إلى أن اكتسحت المنزل الدفعة الأولى الباسلة من مياه السيل. المؤكد أنها لم تضربه مباشرة، وإنما اقتلعت العلية بجدرانها الأربعة معاً، وسارت بها بضعة أمتار، قبل أن تفككها، وتذيبها، وتفتتها، وتفسخها وتعيدها إلى

أصلها. عام قليلاً بقوة الحياة، واندفاعة الرعب المباغتة، ثم بدأ يغرق، حين تدفقت إلى جوفه كتلة من المياه والتراب والتبن. التبن وحده، بطعمه الفاتر المعروف لديه، هو الذي ذكره بأنه حي، وحين فتح عينيه رأى في الأعلى وسط ضباب الماء اللزج المدوم، الجذع المنقذ. فامتطاه، وبدأ يصرخ.

هذه هي الأقدار، كما تخيَّلها. وليس في الأمر سوى المصادفات. ولم يكن بوسع أحد أن يتدخل في تلك اللحظة عدا مصطفى. ما كان يعرف الغريق، ولم يسمع باسمه من قبل. وهذا يجعل من الممكن لأي شخص أن يستنتج، فيما بعد، أنه رمى نفسه في الماء، مجذوباً إلى نسيب، بنداء المكتوب القصي المحجوب في تجاعيد الجبين، كي ينقذ هذا الرجل الذي سيكون شريكه الضروري في استمرار النسل. في استمرار نسله هو بالذات.

أفكر أحياناً أن تلك اللحظة (التي حدثت قبل أكثر من خمسين عاماً) المملوءة بصراخ نسيب الوحشي، وجرأة مصطفى الخرافية (بالتأكيد، ذلك أن اندفاعه إلى الطوفان يحمل طابعاً حكائياً خالصاً) وأمطار كانون الحاشدة، وطوفانه الخانق، كانت الأقدار الضرورية لمجيء ليلى. أفكر أحياناً أخرى، بأن ما حدث في تلك البلدة النائية في نهاية الشمال السوري، تحت أكتاف جبال طوروس، قد قرر بصورة نهائية، ما سيحدث بعد عشرات السنين في مدينة مقابلة، أقصى الجنوب السوري. صحيح أن المعادلة ناقصة، ومضحكة، كما ادعى وضاح، ولكن هل يستطيع أن ينزع عن الحدث ماهيته المستقبلية؟! لا. فنسيب الحسيني الناجي من الغرق، الذاهل، المتأمل في الحياة المكتسبة الممنوحة له على يد مصطفى، لم يعرف ماذا يفعل تجاه

منقذه. يستطيع المرء أن يلملم جميع المفردات المشكلة لمعاني الشكر والامتنان ورد الجميل والمعروف الطيب، ليضعها بين يديه، دون جدوى. كانت جمعيها أقل من أن تستغرق شخصيته الجديدة (ألم يعد من الموت؟!) المشدودة إلى مصطفى. كأنما التقط في تلك الساعات (التي تلت نجاته) مرض عمره الذي لا شفاء منه. بحيث ظل طوال السنوات الأربع التي أمضاها في تلك المنطقة يهجس باحثاً عن الفكرة اللاحقة التي تلبسته: كيف يستطيع أن يرد إلى صديقه جميله؟!. في الوقت نفسه لم تكن لدى مصطفى علل من هذا النوع. فباستثناء حادثة القارب الصاخبة والمخفقة، ظل إيقاعه الحياتي راكداً، وميالاً إلى الرتابة، بعد زواجه. كأن تجواله الدائم مجرد دورات وقفت عند هذا المركز، وإذا كان نسيب رأى في مبادرة الإنقاذ عملاً فدائياً، فإن مصطفى ظل يؤكد له ولكل من سمع الحكاية، أن قوته الدافعة جاءت بإلهام من الرب، لا بحصافة من عقله. ولهذا طلب من نسيب أن ينسى الأمر، دون أن يبدي ضجراً من رفيقه. بالعكس، كان للرجل رائحة المكان البعيد، حضور سيرة الأهل والأقرباء.

هذه كلها هي رواية نسيب عن العلاقة التي جمعت بينهما. فمصطفى مات منذ زمن بعيد، أي قبل أن يتمكن من تأكيد أو نفي أي رواية من روايات صديقه المتتالية عن ذلك. كيف مات؟! أسأل المكتبي: كانت لدى نسيب روايتان عن ذلك. الأولى هي احتشاء عضلة القلب (وهذا يعني أنه أورث المرض لابنه حامد)، الثانية هي تشمع الكبد. ولكن لم يتمكن حامد، وأخوه حسن من معرفة أي العلتين أودت بأبيهما. فنسيب كان يلفق حكايته عن ذلك الموت بحسب نوع المستمعين. فإذا لاحظ أن أحدهم قد يحاول التحقق من أسباب تشمع الكبد (وقد

نجمت عن إدمان مصطفى أو ولعه بشرب العرق حسب وصف صديقه) فإنه يميلُ إلى ذكر الموت الآخر، السهل، البسيط، المدون كمباغتة إلهية، أو كاختيار رباني عجول، للصديق المضطجع في قبر ترابي، بجانب شاطئ الخابور.

وإذا كانت شخصية مصطفى ستؤثر في مصائر الأشخاص الآخرين في الرواية، دون أن تحضر، فإن نسيب لن يكشف منها سوى الأجزاء المشرِّفة، أو العلامات الجذابة التي سيكون بمقدورها دائماً أن ترسخ صورة الشهم الجريء الذي أنقذ حياته. وهكذا فقد أغفل أو تجاهل أو ألغى الحديث عن أصل السومري. الغريب أن مصطفى هو الذي حكى كل شيء. وهذا يعني أن تاريخ الأسرة لم يكن يمثل أي ثقل على روح ذلك الميت. عكس ذلك، فقد وجد دائماً في التفاصيل مزايا يستطيع من خلالها، أن يجد لدى أبيه أو لدى أمه صفات زاخرة بالغرائب. فإذا كان الأب لصاً شهيراً، فإن زياراته المتكررة إلى السجون، زودته بذخيرة لا تنضب من الطرائف، ومنحته شعوراً طيباً بحب الحياة، ومعرفة واسعة باللغات، وخاصة الجانب البذيء المعكور من التركية والفارسية والانكليزية والفرنسية. أي تلك المفردات التي توجد في الأزقة فقط. أما الأم فالأرجح أنها كانت شرموطة، تمارس البغاء من أجل العيش، كما ارتضى نسيب أن يظن، أو من أجل الرفقة، كما أكد له مصطفى مراراً، وهي التي هاجرت إلى الحسكة بعد اختفاء زوجها آخر مرة.

ليس من الصعب التكهن بأسباب الهجرة. ففي ريف جبلي مكشوف فقير، لم يكن لديها مكان ملائم كي تشرع فخذيها بحرية. وفي الوقت نفسه لن يكون لدى عشاقها أو زبائنها، المجال المناسب لزيارتها.

أما هناك، فقد كانت غريبة، ووحيدة وحرة؛ فاستأجرت منزلاً في حي متطرف شرق المدينة، يعتقد نسيب أن اسمه غويران، وأقامت فيه. مصطفى كان يقول أمي شرموطة شريفة. وفي رأيه أن شرفها مستمد من غاياتها التي انصبت على أمور إنسانية مثل لقمة العيش، وكسر الوحدة، والبحث عن المتعة. نهج غريب بلبل نسيب تماماً، بحيث لم يستطع أن يصدق، أو أن يقبل أن منقذه المجد يمكن أن يكون ابن قحبة.

وضاح قال إن قصة طعمة الله عن انتحار حامد ملفقة تماماً، وإن الأفضل هو الموت المتوارث. وقد أيده جميل في ذلك، ولكنه وصف طعمة بأنه عجوز يقتات من افتراس سمعة الناس، ويعيش من تأليف الفضائح ونشرها، كبديل عن مشروعه الفاشل في نشر الكتب. لم تتوفر لدي بعد، المعطيات الكافية للتصديق على مطالعة أي واحد منهم. وهواجسي تقول إن جميل يرد، في الجوهر، على طعمة الذي يردد الشائعة عن لوطيته. ولكن اعتراضه على تدخل طعمة الله في النص لم يكن عادلاً. أفكر أنه ناجم عن الغيرة والحسد أو الخوف من حضوره القوي، واحتمال هيمنته على الماضي. ولكني أقول: لا! طعمة الله ليس يهوذا. فحين أردنا أن ننفذ مشروعنا، لم يكن لدينا أي مرجع ممتلئ صالح لتغطية الرسائل والأوراق التي سنرسلها إلى أكثر من مئة وعشرين فتاة من نساء الخيال، تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة، فلجأنا إليه ذات يوم من أيام تشرين الأول. ليس مهماً الآن أن أقول إنه كان حاراً ورطباً، وإننا تخلينا في تلك الظهيرة عن عادة التسكع في الشوارع التي تحتشد فيها بنات دار المعلمات والثانويات والإعداديات، أثناء انصرافهن إلى منازلهن. إذ أن ما حدث أثناء حوارنا مع طعمة الله، كان مداهماً لا يمكن نسيانه.

الحقيقة أن اقتراح الفكرة، المغامرة، النشاط، الذي أردنا القيام به، لم يُبْنَ على براعة روحية، أو اهتداء قلبي، أو زخم فلسفي، بل هو مجرد تسوية مع اللهو، لذلك طلبنا من طعمة أن يزودنا ببضعة كتب خفيفة من تلك التي يكتبها مؤلفون مجهولون، بعناوين لافتة مثل: مئة رسالة حب، أو كيف تبدأ رسالة أو رسائل المحبين؟.

لم نرَ مثل تلك الملامح التي ارتسمت على وجه المكتبي من قبل. بدا كأنه يشم رائحة جيفة. شزرنا من خلف حاجبيه السميكين، وضيَّق عينه اليسرى، ثم غمغم: «أمّا خراوات!». المرجح أن وجود سن مقلوعة في فمه، هو الذي أوهمنا أنه قال: «خرداوات» وبهذا المعنى بدت مجازاً لطيفاً من المجازات التي اعتدنا أن نسمعها منه. وهذه صفة لم أذكرها عن طعمة الله بعد، فقد استطاع طوال سنوات شغله، أن يمسح المسافة التي تفصله عن زبونه متى شاء. يقلصها، ويضغطها، بحيث يستطيع أن يقول ما يريدُ للزبون تعليقاً أو توبيخاً أو تأنيباً أو انتهاكاً لشخصيته. ثم يقطع الصلة فجأة، ويبتعد، إلى أن يصير وراء حجاب، فلا يجد الزبون ما يقوله لأحد، إذ أن طعمة الله قد يكون خرج إلى الشارع، وطلب شاياً. لا يطلب شاياً، وإنما يصرخ: هات كاسة كشك يا عطا. عندئذ يعرف الزبون المتروك أنه يقف على ظهر قنفذ. لا أشك الآن أن طعمة الله رأى في طلبنا سخرية، أما كوننا صغاراً أي دون سن الرشد، أو قربه، فإنه لا يعني له شيئاً؟ فالوقاحة لا عمر لها. هذه هي نظريته، والرد عليها لا يحتمل تسنين الوقح، ولا ينتظر بلوغه.

في العادة، كانت الكلمة التي نعتنا بها تعني الطرد من المكتبة جهاراً، ولكن سوء فهمنا لها، أدى إلى إرباكه، وتغييره لرأيه. لا يحدث مثل هذا الأمر عادة، ولا يسعى طعمة الله إلى تعويض المطرودين بأي

شيء، ولكنه أرسل في طلبي بعد يومين أو ثلاثة، وقدم لي رزمة من الكتب: «هنا الكلام، وليس في المراحيض التي طلبتموها».

أعرف التقاليد، إذ ليس من الحكمة، مناقشةُ الرأي المقرر، أو اعتراضه، أو السؤال عنه. فالسلوك النبيل الوحيد هو أن أحمل الرزمة بعد أن أدفع ثمنها (دفعت خمس عشرة ليرة ساهمنا فيها جميعاً بالتساوي) وأمضي إلى رفاقي: طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مصارع العشاق، تطور الغزل، شعر عمر بن أبي ربيعة، شعر قيس بن الملوح، شعر جميل بثينة. حتى الآن لم يظهر طعمة الله إلا كمكتبي جاد يرفض أن يهمل الثقافة الحقيقية، أو يتساهل تجاه أرباح التاجر أيضاً. وسوف يجد المرء عشرات النماذج من هذا الطراز في جميع المدن السورية، إبان حقبة الستينيات. ولكن طعمة الله تفوق عليهم جميعاً في موضوع آخر. فبعد شهر من تاريخ تسليمنا الكتب، زاره اثنان من المخابرات، وعرضا دستة من المختارات الشعرية والنثرية التي وزعت في دار المعلمات، وثانوية البنات، وبعض الإعداديات، آملين أن يقدم لهما كشفاً بأسماء الذين اشتروا الكتب التي اقتبست منها تلك الأشعار. تصفحها واحدة، واحدة، ثم أعطاهما إياها: هذه موجودة في الكتب المدرسية. ابتسم المسؤول بينهما شامتاً: صفر علامتك. صفر يا طعمة الله. بيتان فقط من هذه الأوراق مأخوذة من كتاب القراءة في الثالث الثانوي، في البكالوريا. لم يكن طعمة يستطيع أن يصرخ، هات كاسة كشك يا عطا. والمرجح أنه أمضى ليلة مؤرقة، مبدداً حيال ما يمكن أن تمثله الاحتمالات المتاحة أمامه (أو أمام المخابرات) ليأخذ أو يتخذ الموقف الذي يشبهه. فكتمان المعلومات عن تحقيقاتٍ أمنية تتعلق بإثارة الشغب، أو بلبلة الرأي العام، أو توزيع منشورات، حتى لو كانت عن الحب، سيؤَوَل من قبلهم على أنه إعاقة، أو إضرار بالصالح العام، أو

زعزعة هيبة الدولة. وأقل ما يمكن أن يواجهه إذا ما اكتشفوا ذلك، هو الاعتقال. المؤكد أن طعمة الله لم ينشغل بهذا الاحتمال أكثر من بضع دقائق. فالرجل الذي كان ينظر إلى نفسه على أنه المصدر الوحيد لثقافة المنطقة بأسرها، لن يسمح أن يواريه الزمن وراء كلمة وضيعة مثل: الواشي. وقد فاجأه أنه قرأ المستقبل قبل أن يقرأ الحاضر. وتخيل أنه ذات يوم سوف يحكي بالتفصيل، عن مأثرته في تزويد هؤلاء الشياطين الصغار اللاعبين في ملعب الهوى، بالمراجع المناسبة التي تمجد الحب. وقد أثارته تلك الاحتجاجات الاجتماعية والدينية، وأغضبه الشجب السياسي الذي شاركت فيه جميع الأحزاب، وأضحكه الإحراج الأمني الذي نجم عن عجز جميع الأجهزة في اكتشاف الفاعلين الذين ملؤوا المدينة بمنشورات الحب. الأهم من ذلك أن طعمة الله أخفى وراء هذه الإعلانات، رغبة حصان في إثبات تفوقه الأخلاقي، بالمقارنة مع الآلاف من الرجال الذين كان يمكن، بل من المؤكد، أن ينهاروا بكل خزي، ويشوا بلا رحمة بنا.

طيب.. إذا كان طعمة الله نجح في الخروج من الأرشيف، وأخرجنا، بموقفه الشجاع، جميعاً من هناك. فهل يخرج بذلك من التاريخ أم يدخل إليه؟! وهذا ما حير جميل ووضاح، إذ إن وصول طعمة الله إلى النص، أي إلى التاريخ الأدبي، تشريف لا يحظى به إلا قلة من البشر، وبالمقابل فإن لديهما شكوكاً بأن الرجل لم يكن يواجه الشر، أو يكافح من أجل حماية الأبرياء. طز بالتاريخ، قال طعمة الله حين زرته في سقيفته قبل أيام، أنا لم أدفع أي ثمن، ولم تكن لدي الرغبة في أن أقبض أي ثمن. كل ما في الأمر أنني خجلت أن أشي بكم. عيب! قلت لنفسي عيب على طعمة الله.

كانت هذه اللفتة الأخيرة جامحة ومثقلة بالمعنى، إذ لم يخطر ببالي قط، أن بمقدور شخص مثل طعمة الله، أن يحوِّل نفسه إلى كيان، أو إلى قامة، أو إلى ضمير، فهو أمر نادر، ليس بين البشر جميعهم بالطبع، إنما بين من أعرفهم. كنت أريد أن أسأل جميل هنا: إذا خُيِّرت بين ضميرك، وبين مصلحتك، فأيهما تختار. الضمير طبعاً. كذاب سأقول له. ولكني لن أجرؤ على مواجهته بهذه النتائج. فقد وجدت ورقة صغيرة محشوة داخل شق باب بيتي، يكتب فيها: جئت ولم أجدك (عبارة من الستينيات) أحمل لك أخباراً مهمة. تعال لزيارتي.

كنت أزور المقدم الطغمة الملقب بأبي عبد الله، وقد علمت مؤخراً، أنه كان ضابطاً في المخابرات، في السنوات الأخيرة من الستينيات. المبهج أن الرجل لم يبدِ أي تحفظ تجاه أسئلتي، وقد اضطررت بسبب ذلك إلى قبول جميع ادعاءاته عن نفسه برضى، ومنها أنه هو الذي اعتقل الضابط المتمرد سليم حاطوم، حين عاد من الأردن، بعد حرب حزيران. كما وجدت أن علي أن أجلس بأدب وهو يسرد الأخبار عن إنجازاته في زمن الخدمة. تحدث بمرارة عن معاناته من أعداء البلد، ثم تكلم باحتقار عن المخبرين والوشاة، وأعلن لي أنه كان يستقبلهم على مضض. أحسست أنني غشيم؛ فقد خيل إلي أن السنوات قد بددت عنفوانه العسكري، وبدلته بروح مدنية قادرة على تفهم البشر دون وصفات التخوين، أو جردات الازدراء. فسألته: لماذا كنت تستقبلهم إذاً؟!

قال بما يشبه التأنيب: هذا عملي. علي أن أكرمهم أيضاً، وأصدقهم، وإذا لم أصدق هذا الزائر أو ذاك، فلن أحصل على أي معلومة صادقة أو كاذبة. فالمهم لدينا هو المعلومات. كمية كبيرة من المعلومات نجري

لها غربلة أو تنخيلاً، أو نقبل بها كما هي. من يعلم؟ فالمخابرات بلا معلومات، مثل الإنسان بلا طعام ودخان وعرق وحب وجنس.

ندمت لأنني جئت لزيارته، فلم نلعب بطاولة الزهر، ولم نأت على ذكر العصابة، وقد اندفع أبو عبد الله للحكاية عن دوره في 23 شباط. تحدث عن تلك الحركة بطريقة صوفية، بنفس متدفق، لم أستطع أن أعترض على أي تاريخ قدمه. فقد أوضح لي أن عمري حينذاك لم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة، أم السادسة عشرة؟ سألني دون حياء. المقياس دائماً هو النتائج، لا تدخل في التفاصيل، رد علي حين قلت إنها كانت حركة دموية. الزاد إذا انفتش لا يؤكل. لا تفتش الطعام، المذاق هو المعيار، الطعم، النكهة، المنفعة. كل الثورات دموية. هل تريد ثورة بلا دماء؟ أين تجد ذلك الذي يقبل أن يتغير التاريخ بإشارة مرور خضراء أو زرقاء؟ تقول له انعطف إلى اليسار فينعطف؟ لا، التاريخ عنيد، كبير الرأس، متحجر، لا يلين إلا لأصحاب السواعد القوية. التاريخ.... لم أسمع ما تبقى من كلماته، شردت، كالعادة. ثم قلت له إنني في الحقيقة، جئت لزيارته من أجل بعض المعلومات. فضج ضاحكاً، وصفق، وقال وهو ما يزال يقهقه: شفت؟ أنت أيضاً تريد المعلومات! اصطادني بالفعل، ولكني لم أتراجع. فقد كانت الأوراق المرفقة بالملف مكتوبة بيد موظف مهمل ذي خط رديء. كلمات ممطوطة، وركيكة، وبلهاء، تتكرر فيها كلمة «قالت» مئات المرات. كتابة تحتشد بالأخطاء الإملائية والنحوية، حيث يكتب حرف الضاد ظاء أيضاً. رغبت أن أسأل المقدم، عما إذا كان كاتب المحاضر هو المحقق ذاته أم لا. فحين استدعيت إلى الأمن لم يستعن المحقق بأي كاتب. كان يسألني ويكتب: عندك كتب ماركسية؟ نعم. أنت ماركسي إذاً؟ لا. كيف لا؟ لماذا تقرأ الماركسية

إذاً؟ عندئذ خطر لي أن أوضح الأمر. إذا كنت أقرأ القرآن فهل أنا إخونجي؟! فنظر إلي بازدراء وقال: ما حدا طلب منك تاكل خرا. عرفت عندئذ أنني تحامقت فقط، ولاحظت أنه كتب: ماركسي. فرط المقدم من الضحك، قال: «تستاهل». في الملف كتب المحقق الكلمة ذاتها في تصنيف ليلى: ماركسية (هل كان الرجل نفسه هو الذي استجوبني بعد عشرين سنة؟) لا أعرف لماذا يكتبون «ماركسي» وليس شيوعياً، ربما لأن الثانية ساخنة، لافحة، مثيرة للاضطراب والقلق.

سألت المقدم فجأة: «هل تذكر شيئاً عن عصابة الكف الأسود؟» تأملني بخمول. ثم أعلن دون مواربة: «أذكر؟ أنا أذكر؟ أنا المشرف على التحقيق في هذا الموضوع. قال أنا المشرف، ولم يقل كنت المشرف».

أعترف الآن أنني ندمت على الزيارة. فشخصية المقدم مربكة، لقد بدأ يثرثر أمامي، بما لم يكتب في الملف أبداً عن العصابة. فالثابت لديه أنها جماعة تخريبية ممولة من الخارج، وأن ما فعله أعضاؤها ليس سوى لعبة تشويش على رادار البلد وتوجهاته الصادقة نحو المستقبل. هكذا فإن الجهات الخارجية أرادت أن تضع اللعب والخفة والابتذال، مقابل الجدية والثقل والعمق. سألته إن كان يعرف هوية العصابة، قال: حين تبدأ العداوات تختفي الهويات.

باستثناء هذه العبارة الجيدة، فإن كل ما ذكره المقدم كان تخريصات وولدنة واستنتاجات طائشة. لذلك قمت بمحو حوارنا كله من المخطوط أثناء التبييض. الحقيقة أن الكلمة الأخيرة بدت لي، لأول مرة، مؤثرة وقادرة على الإمساك (الاستحواذ) على المعنى المراد.

لكن طعمة الله ادعى أنني لم أشطب المقدم بسبب تفاهته، بل بسبب سطوه على جسد هند علواني قبلي. (لا يحتاج هذا الرجل (أقصد طعمة

الله) إلا لكراهيتي كي يصبح منبوذاً من العالم كله) غير صحيح البتة. فما كنت أعلم أن هند نامت مع هذا الرجل، ولم يخبرني أحد بهذا من قبل إعلام طعمة الله. وإذا ما صح كلامه، فهذا يعني أن المقدم كان يتسلل إلى حياتي قبل عام 67. لأن علاقتي بهند بدأت في حزيران من ذلك العام، وفي اليوم الأول للحرب بالضبط. كان مساءً حاراً وفاجعاً، فقد أغارت الطائرات الإسرائيلية قبل الظهر على أحراش الجبل. لا أعرف ماذا يوجد هناك، ولكننا رأينا من أسطحة المنازل، دخان الحرائق الأسود، يتصاعد من الأشجار شرق المدينة. هناك رأيتها، وحين سألتني ماذا يحدث (كأنها لا تعرف) لم يخطر ببالي أن الشروع بحياكة قصة غرام، يمكن أن يبدأ بشرح للحرب، أتقدم به بإخلاص للجارة التي كانت تقف على السطح الملاصق لسطوحنا، يفصلها عني، أو عنا (إذا كان أكثر من رجل وامرأة من الجوار يظللون أعينهم، ويراقبون الحرائق بحزن) حائط واطئ من الحجارة. هذا استنتاجي اللاحق بالطبع، استنتاج الكتابة الآن، الاكتشاف أو التفسير المتأخر. لأن استجابتي في تلك اللحظات، كانت تنطوي على خطاب حماسي يزخر بشعارات تلك الأيام. إذ كنت أستطيع أن أجزم أن النتيجة المحسومة لهذه الحرب، هي النصر. لم تكن لدينا أي أخبار من الجبهة، لكننا لم نكن بحاجة إليها. كانت لدينا آمالنا، واستحقاقاتنا الملزمة للتاريخ. كان لدينا الاتفاق المؤكد معه بأننا نخوض حرباً فيها من العدل ما يكفي قرناً من الانتصارات. أظن أن هند لم تفهم كلمة مما قلت، كانت تبتسم لي، وتنظر إلى عيني، وشفتي، وأذني، وأنفي، إلى أن قالت فجأة: تعال أشرح لي كل شيء الليلة. قالت ذلك بلهجة آمرة خالية من التشريفات، جملة تقال لمولى، أو لأجير لطيف، أو لمعلم مبتدئ، دون علامات وقف. جملة

فيها من القوة والجاذبية (والغواية أيضاً) ما يمنع أي شخص (مثلي) من أن يزعم مثلاً أنه متطوع في الحرس المدني المكلف بحماية المدينة في الليل، أو يدعي أن الوالدة تحتاج لرعايته. لم أستطع أن أسألها إن كانت وحيدة أم لا، ولم أستفسر عن زوجها، إذ افترضت أن الاستفسار سيكون ملغوماً بالنوايا الخبيثة. وقبل أن أتفوه بكلمة قالت: ضجرانة والله، حياة مقرفة، تعال! الله يخليك! ثم بدت يائسة قليلاً وهي تغمغم: أنا لحالي. زوجي هناك. مشيرةً إلى تلال الجولان المحاربة.

انتظرت الليل وتسللت إلى بيتها تحت جنح أضواء الحرب الزرقاء، التي طليت بها شبابيك المدينة كلها. كانت ترتدي كيمونو يابانياً أحمر ملبورو. رأيت واحداً مثله في السينما بالأبيض والأسود. قالت إن شقيقها أهداه لها بعد زيارته إلى طوكيو، ثم أدخلتني إلى حجرة مربعة لها باب يطل على شرفة صغيرة ذات إطار من الحديد المزخرف. رحبت بي، وقالت: تشرب متة؟ قلت: لا يهم. قالت: عندي عدة متة أرجنتينية! قلت: والله؟! بنبرة مداهنة، لم أستطع إحباطها، فلم تلتفت إلي، ومضت إلى المطبخ، ثم عادت بالعدة متقافزة. وضعتها على طرابيزة خشبية مزركشة، وجلست قبالتي. أذهلني ما رأيت. وما زلت حتى اليوم لا أستطيع أن أضع المفردات المناسبة لوصف المشهد. فما ظهر من باطن فخذيها، إذ بدا أنها كانت عارية تحت الرداء الأحمر، كان محجوباً في واقع الأمر، بأطراف الرداء، ملتبساً بعتمة خفيفة، وضوء شفيف يتسرب إليه من مصباح كهربائي شاحب، معلق في السقف. شعرت بالرعب. خفت أن أنظر إلى تلك الجهة، وأنا أظن أنها ناجمة عن الشرود، أو عدم الانتباه، وتلهفتُ للتحديق إليها، وأنا أقسم إنها تكشف أشياءها لي.

شربنا المتة بلا سكر، وقد رأت أن خلطها بالسكر عمل صبياني محض يفقدها طعمها أو مذاقها ذا المرارة الأصيلة. قالت إنهم يشربونها هكذا في الأرجنتين. لم أكن متحمساً لأحد، وآثرت الصبر، على الانخراط في سجال أو مناقشة مع امرأة لطيفة يظهر باطن فخذيها من شق رداء ياباني، إن كان علي أن أشرب المتة بخيال أرجنتيني، أم بشاعرية يابانية. لا أعرف، ولكن هند اقتربت مني فجأة، وعانقتني وقبلت شفتي. سلوك نبيل حسن وفّر على فتى بلا بصيرة نسائية مثلي، عثرات كثيرة في طريق المحاولات. لكنه لم يكن بلا ثمن. فقد أمضت أكثر من ربع ساعة، وهي تحاول، بعدئذ، كبح اندفاعتي المتأججة بالرغبة فيها. وهي اندفاعة هوجاء، ارتكبت فيها أول حماقة، في حياتي، مع امرأة. فقد دفعت يدي داخل ثوبها، وقبضت على فرجها (كان أول فرج أصل إليه منذ أن ولدت) المرجح أنني ضغطت هناك بطريقة فظة، إذ صرخت تقريباً، ولكمتني بقبضة يدها على صدري، ودمدمت باشمئزاز: «روح هيك!!».

لم يعلمني أحد ماذا علي أن أفعل، وما زلت أوبخ نفسي على تلك الحركة الرعناء، منذ تلك الأيام. آسف قلت لها. فأدارت وجهها جانباً، وطأطأت رأسها. هل فكرت أن تطردني؟ هل ندمت على مبادرتها المستعجلة تجاه هذا الغريب العجول؟ هل أجرت مقارنة سريعة بين الحماسة والمعرفة؟ هذه هي الأسئلة التي تراودني الآن لمعرفة ما الذي كانت تفكر فيه. أو لمعرفة هند. يخيل لي الآن، أننا عدنا إلى العناق مرة أخرى. كنت تعيساً ومحطماً، بسبب الخجل من سلوكي الجاهل، أمام حيويتها المشرقة. ولذلك فقد كان أدائي سيئاً. ومضجراً بالتأكيد؛ فبدلاً من الشبق الحماسي الذي بدأت به استجابتي جرجرت تكلفاً بطيئاً وملتزماً بالأصول المرعية، حسبما اعتقدت. وفي المخطوط الأول

كنت قد كتبت: داهمنا زوجها فجأة، اقتحم المنزل، اجتاحه تقريباً وهو يحمل كلاشنكوف ويطلق النار في جميع الاتجاهات، كان يصرخ: خونة! أنذال! أولاد كلب! ووراءه كان لغط، وضوضاء اختلطت فيها بصرخاته، ثرثرات نساء، وقلق رجال، وفزع أطفال. وحين ظهر في غرفة النوم، قفزت، ووضعت نفسي بين رشاشه وبين جسدها.

لم يحدث شيء من هذا قطعاً، بل إن هند هي التي أرغمتني على مغادرة منزلها بعد نهاية المضاجعة بدقائق. قلت لها إن دوريات الأمن تجوب الشوارع، ويحتمل أن يعتقلوني، فضحكت وقالت: أمامك خطوتان. دبر حالك!.

صحيح أنه لم يكن من المناسب أن يقبض الأمن على أي شخص، في زمن الحرب، ولكني كنت أمازحها، دون أن أنسى أن أصنف سلوكها في خانة الطيش رالاستهتار، مع خلطة من توابل اللامبالاة الناجمة، بالطبع، عن الشبع الجنسي، أو قضاء الوطر حسب المعجم العربي الرسمي، مع ذرة صغيرة من الرغبة في الهيمنة على غرٍ فتيٍّ خرج من بيضة المراهقة حديثاً. لكنها كانت مخطئة بالتأكيد، ومن الصعب أن نربت على كتفها قائلين: بسيطة. وإذا كان من المستحيل استعادة الزمن، أو تصحيحه، فمن الضروري أن ننصحها (وإن كانت النصائح الروائية، الآن، قد تفيد غيرها من النساء) أن عليها، في الحالات التي تتمكن فيها من معاشرة شبان صغار السن، أن تحذر من ذاكرتهم، أي أن تحذر من الزمن والمتخيل المحتمل. فهل كانت هند تظن أن طردها المتسرع لذلك الشاب المغتلم العادي، يمكن أن يُعذر بأنه نابع من الحذر، أو من الخشية من الفضيحة، أو من ضجر ما بعد المضاجعة. لا. وحتى لو ادعى أي معلق بأنها ارتباكات إنسانية عادية (نحن بشر في نهاية

الأمر، يقول الراغبون في الظهور كمتسامحين) فإن ذاكرة الشاب المتعطش للحب وللجنس، لن تستطيع أن ترضخ لهذه الأعذار ببساطة، وتعلن أنها غفرت الإهانة. ولهذا السبب قلت لرفاقي آنئذ انها همست لي، وهي تمر بجانبي في الشارع: «تعال الليلة» دون أن أفشي اسمها أو مكان اللقاء بها، وإنها كانت قد أعدت فراشاً وثيراً في الشرفة، في حر حزيران المهلك، بعد أن سترت المساحة المكشوفة التي قد يطل منها المتطفلون من هواة التلصص عن أسطحة المنازل، بشرشف ثقيل ذي مطرزات ملونة. كان الشاي جاهزاً حين وصلت، فرشفنا من كأس واحدة، قبل أن نبدأ جماعنا. أذكر أنني استخدمت معظم المفردات التي تعبر عن عنفي في مجامعتها مثل: هصرتها، وركبتها، ودخلت فيها حتى الخاصرة، وإنها صارت تعطيني شفتيها وأنفها وذقنها وأذنها، وتقول كلني، ثم ترفع كفلها كله وتهمس: «فوت لجوا! فوت لجوا!»، وأقسمت إنني عملت ذلك الشيء ثلاث مرات، حتى إذا راقبني قيس وجميل ووضاح بازدراء، ادعيت أنني أعدت الكرة ثلاث مرات أخرى حين بزغ القمر من وراء الستارة، وأطل علينا مضيئاً شرفتنا الحميمية. وقلت لهم إن ارتعاشتي كانت تستمر أكثر من نصف دقيقة، بينما هي تحتضنني وتغمغم: «أي أي أي» في المدة ذاتها. أدهشتهم هذه المعلومة، بل أذهلتهم تماماً، فبدأ وضاح يردد: «إي إي إي»، فيما كان جميل يراقب عقرب الثواني، وقيس يعد: واحد اثنان ثلاثة، إلى أن جحظت عيناه في النهاية وهو يقول: خمس وأربعون؟!.... يا بن الحرام!!. لا أعرف لماذا كنت أنا ابن الحرام، وليست المرأة التي تكاد تلفظ أنفاسها. وبفضل ذلك المشهد، توصل جميل إلى ابتكار نظريته في قسمة النساء إلى نوعين: ذوات النفس الطويل، وذوات النفس

القصير، واستنتاجه بأن النوع الثاني منهن يرغمن الرجل على العمل مثل حصان، أما النوع الأول فيتركنه عالقاً يختلج مثل كلب.

ليس هذا ما توخيته، فقد أردت أن أترجم شعوري بالمهانة، إلى أفعال جنسية، تنبض بالرجولة والقوة، ولكن الدور التمثيلي مال إلى الكوميديا، بسبب الكذب أو بسبب خلوه من صدق التجربة أو بسبب شحه المريع، وحسيته المفرطة. وهكذا أقلعت عن تسريب مثل هذه الحكايات اللئيمة إلى نصي، وآثرت، بدلاً منها (على الرغم من الجروح) أن أروي الحقيقة، وهي أنني لم أجرؤ على زيارة هند في الأيام التالية؛ فقد عرفنا أن جيشنا قد انهار تقريباً على الجبهة، وكان بيان القيادة أعلن أننا انسحبنا إلى خط الدفاع الثاني (وهو اصطلاح سمعنا به لأول مرة في تلك الأيام) بينما أعلن راديو إسرائيل أنهم استولوا على الجولان كاملاً. وبصرف النظر عما إذا كنا فهمنا أي شيء، أم لم نفهم، فقد ابتلعنا نبأ الهزيمة، كما يبتلع المرء قطعة تنك. أما بالنسبة لي، فكان هذا يعني عودة الجندي المحارب - حتى لو كان مهزوماً - إلى بيته وزوجته. متى سيعود؟ لا أعرف. وهذا الجواب يعني أمراً واحداً هو أن المقاتل قد يأتي في أي وقت. هكذا تجاهلتُ رسائلها، وهي عبارة عن إشارات بالمصباح اليدوي، أو إطلالات من النافذة التي تفتح لثوان، أو نظرات مدربة تنشط حين نلتقي في الشارع أمام دكان أبي مصطفى البقال؟ ما الذي دفعني إلى هذا الموقف؟ هل هي بصيرة باطنية محذرة من شرك الوقوع في مصيدة الزوج العائد من الهزيمة؟ أم هو قلق الجاهل؟ أم خمول ما بعد الحرب؟ أفكر أنني لو ذهبت إليها، ربما كانت ستعوضني عن الدمامة الروحية التي اكتنفتني، بعناق دافئ: لا تزعل، تقول لي، فما حدث هناك، يشبه ما حدث هنا، تهاجم بسرعة،

دون احتراف فتنتكس. لكنك تستطيع أن تعوض الخسائر بالتدريب والدراسة والاضطجاع بشكل صحيح، فيما بعد. ولكنني لم أذهب. وأعتقد اليوم أن السبب هو رفضي لهذا التعويض الغريب عن الهزيمة العسكرية، وربما كان اعتراضاً مبكراً جداً على الرموز والاستعارات الجنسية التي توازي بين الانتصار العسكري، والفحولة الجنسية، وتساوي بين الهزيمة الحربية (أو النكسة كما سميت فيما بعد إرضاءً لهند علواني) والفشل في الانتصاب. وإذا كنت قد انتكست، ونكصت، وفشلت قبل أن يقرر القدر إخراج جيشنا من المعركة بأكثر من خمسة أيام، فليس بوسع أحد أن يدعي أن ما حصل لي كان نذيراً بالكارثة.

لكن زوجها لم يأت، ولم يأت جثمانه أيضاً، ورجّح رفاقه في جماعة المشاة أنه لم يقتل، وإنما رأوه يذهب جنوباً باتجاه الأردن، هكذا قالت لي فيما بعد، وهي تأمل أن يعود ذات يوم. انتحبت وهي تردد أنه فرَّ منها لا من الهزيمة، ورددت أكثر من مرة، وهي تحضنني: «يقصف عمري»، لأنها لم تكن مخلصة له. وفي كل مرة كانت تروي لي قصة عن جادو. هذا هو اسمه قبل أن يختفي، قبل أن يُسجل مفقوداً في دفاتر الجيش.

فيما بعد، كبّرت هند صورة له بالزي العسكري، ووضعتها في غرفة القعود. لم أستطع المكوث هناك أكثر من بضع دقائق. كان ينظر إلي من وراء البيريه الخضراء المائلة نحو أذنه اليمنى، وكان حليقاً، يبتسم ابتسامة غامضة، وشابة، في وجهي أنا الذي صرت كهلاً. تخيلتُ أن الرجل من النوع الذي يستطيع أن يضع على وجهه البودرة المناسبة، من أجل إخفاء الوجل أو الغضب أو الإخفاق. كان يختلس النظر إلي من وراء شفاف الزجاج، أينما توجهت في أرجاء

الغرفة. فكَّرت أنه كان يرحب بي، ثم سخرت من نفسي حين عدت عند منتصف الليل؛ هل يمكن لأي ابن آدم أن يرحب ببديله في فراش امرأته؟ لا. قطعاً، إذ إن وجه العسكري الضائع كان خالياً من الغضون والتجعيدات، والخطوط. وجه قالب، افتراض شمعي حرمه قلم رتوش المصور من إنتاج أي معنى. لا أعرف كيف كان وجوده حين كان حياً، ولم أستطع أن أتأكد فيما إذا كانت هند تسفح دموعها على صدري مداجاة، أم تحاول ترخيم خيانتها له؟ أم ترثي شخصاً آخر، غير هذا المحبوس في الصورة؟. لكن الشكوك راودتني مرة أخرى، وأنا أستعيد التفاصيل من نظرته إلي. أعتقد أنني رأيت انتفاخاً بحجم ذبابة أسفل عينيه. وهذا يجعلني أميل إلى الظن بأن الصورة كانت قناعاً أخفى المصور به (المؤكد أن الأمر تم بالتواطؤ مع هند) تلك الملامح المرتابة القلقة التي كانت تتهمها. غير أن تقنيات المصور كانت عاجزة عن تلفيق نظرة العينين، ربما كان السبب ضعف الأدوات، واقتصارها، في تلك السنوات، على القلم. وكان مستحيلاً عليه أن يزيل الانتفاخ الدال على تسلط الشك. المؤكد أن هند كانت تستطيع أن تتغلب عليه بتجاهل وساوسه - حين كان موجوداً - أو بالمداهنة المعتمدة على نجابة الملامسات، أو الاستجابة الفورية الخالية من التذمر لدعوات الفراش أيضاً. ففي مثل تلك الحالات يرضى الرجل، وتغيب أخاديد الريبة، وتنزاح الاستقصاءات المنقبة عن الأدلة، وراء بودرة طمأنينة ناعمة وخفية، يصبغ بها غضونه المتهمة.

طعمة الله سخر من استنتاجاتي، وقال إن ما لم يظهر تحت خطوط التسوية التي أجراها المصور، هو وجه القواد، وأبدى أسفه لأن يقتصر السرد على الظن بأن الرجل مجرد زوج هالك تدعكه الريبة. فرائحة

هند كانت تملأ المدينة، إذ أنَّ أحداً لن يصدق اليوم أن تلك الفاسقة لم تكن محروسة ومصانة تحت عباءة ذلك القواد المفقود.

وحين التقيتها، قبل أيام، سألتها عن ذلك، فرمقتني بعينين عليلتين، وطأطأت رأسها: ستظل كل عمرك مغفلاً وحماراً. كانت ما تزال تقطن في البيت القديم نفسه. لم تبدل فيه أي شيء، على الرغم من أن الحي كله تبدل تقريباً، بسبب قربه من مركز المدينة المتوسع، حيث أخذت تزدهر الأعمال التجارية. كانت ما تزال تبدو شابة، إذ باستثناء بضعة غضون تظهر عند العنق، تحت الحنك مباشرة، وأخرى مماثلة حول الشفتين (تظهر فقط حين تبتسم)، فإن وجهها حافظ على نضارة نابضة ومتألقة، مثلما كان من قبل، حين رافقتها. (رغبت في أن أقول لها إنها ما تزال حلوة، ولكني لم أفعل، خشية أن يكون قد تسرب إليها الجواب المعاصر الذي اعتادت النساء أن يجبن به الرجال الذين يقولون لهن ذلك، إذا كن غير راغبات بهم: «عيونك أنت هي الحلوة») وكانت ما تزال قادرة على انتهاك قيمة أي رجل (بما في ذلك قيمتي) بالقدر الذي تستطيع فيه إغواءه وإرغامه على الصمت تجاه ألقابها المشينة له. وهذا ما فعلته حين لم أرد على ذلِّ تسميتي في لائحة المغفلين أو الحمير. والأدهى أنها اكتفت بالاتهام، ولم تضف إليه أي تعليق آخر. لكنها أخبرتني أن جادو ما يزال حياً، وقد رأت صورته بين مجموعة من الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين، نشرتها إحدى الصحف الأوروبية (ذكرت اللوموند) ونقلتها عنها الصحف العربية. فتحت درج كومودينة الخشب، وسحبت ظرفاً، ثم أخرجت قصاصات الصحف، وغمغمت وهي تشير بسبابتها الرفيعة البيضاء إلى وجه وضعت حوله دائرة بقلم أسود رفيع: هذا هو. أنا متأكدة. لكن مسؤولي منظمة التحرير

الفلسطينية في دمشق، أعطوها اسماً آخر لفلسطيني من مخيم عين الحلوة، اعتقل في السنوات الأولى من السبعينيات. مستحيل! قالت لهم، هذا جادو. فوعدها أحد قادة المنظمة (أعتقد أنها ذكرت أبو اللطف) بأن تعيد الجهات المعنية النظر في هويات الموجودين داخل تلك الصورة، أو غيرها من الصور. واحداً واحداً. وإذا ما تبين لهم أن ثمة احتمالاً ضئيلاً للشك في المعتقل المعني فإنهم سوف يزودون الصليب الأحمر بالأسئلة الضرورية للاستفسار عنه. وإذا كان هذا العرض قد أرضاها قليلاً، فقد راجعت سجلات الجيش، ومكتب رعاية أسر الشهداء والمفقودين لإطلاعهم على تحقيقاتها. ولكن وجه الرجل غير واضح حتى لو نظرنا إليه بمكبرة. قال ضابط برتبة رائد كان في المكتب: «شوفي!» ثم وضع المكبرة اليدوية فوق الصورة، فصرخت هند: هذا هو! هذا جادو! عرفته من عينيه.

بالضبط. قلت لنفسي ولها. فالكلمة الصحيحة الوحيدة التي لا يمكن أن تغش فيها، هي ذلك التاريخ المحتجب خلف عيني جادو.

لكني لم أكن واثقاً مما إذا كان استنتاجي السعيد هذا، ثأراً خفياً من تأنيبها لي، أم فكرة واقعية، لديها، منشؤها مشاعر ذنب عذبتها بعد اختفائه، أم إحساساً بعزلة متوحشة طوت حياتها حين انفض عنها العشاق، أم حباً متأخراً أججه الغياب.

هند قالت إنها أيقنت ـ منذ أن أبلغوها نبأ فقدانه ـ أنه مضى إلى تلك البقعة التي تبعث على القنوط، مختاراً. عرفت أنه انتظر طويلاً أن يشتبك مع العدو، دون جدوى، إذ لم يظهر أي عدو، كانوا موجودين في الجو فقط، يأتون من مكان ما خلف جبل الشيخ، أو وراء المرتفعات المحيطة بالحمة، ثم تسمع الدوي، وترى الحرائق، ثم تتدفق بعض

تكتكات مدفعية الميم طه، يتلوها هدير عميق يغرق غرباً، وراء الشمس. وهكذا لم يفلح في الموت. لا يعرف رفاقه لم كان متحمساً للموت. ظنوا أنه ملهم أو حالم أو راغب في الشهادة. وأنا كنت حائرة. جادو؟! قال أحد الضباط إن ذلك الجندي يحتاج إلى عشر قصائد كي نستطيع أن نفديه. لا شك أن ذلك الرجل لم يكن زوجها. زوجها كان رجلاً من لحم ودم، أما هذا المفقود فهو أكذوبة، مفردة في جملة ضابط. لكنها لم تستطع أن تتوقف عن محاولة استعادته أو إحضاره من جديد إلى بيتها، كي تعرف، على الأقل، من كان. لماذا أراد أن يموت. ولماذا اختار أن يذهب إلى الملل؟!

أعترف أن الموضوع أربكني. لقد بدا طوافاً حزيناً للأهواء الإنسانية الغامضة. وما زاد في ضغطه علي، أنه بدا شبيهاً برحلتي الفاسدة إلى الماضي، بحثاً عن ليلى.

تزعل هند من ارتباكي. أقول لها إنني أبحث عن الحب في الحكايات. ولم تجده؟. أحياناً أشعر أنني أفتش عن القبر في رمال الصحراء. اخترع لنفسك حكاية. هذا ما أفكر فيه. تطأطئ رأسها. وماذا عن حكايتي؟ أنت ترفض أن تجد الحب فيها. هل أقول الحقيقة؟! قل! أنت تعرفني، خدي تعود على اللطمات. يخيل لي أنه موجود دائماً. لا يمكن ألا يكون موجوداً، ولكنه يستعصي عليّ في الكتابة. لم أعثر عليه بعد، في أي مجموعة من الجمل. أشعر بالخيبة. أتعتقد أنني لا أعرف الحب؟ ليس هذا ما أقصده. كيف ستعرف ما تريد إذاً. كيف يمكن أن تكتشف إن كانت ليلى أحبتك أم لا؟. ماذا؟ أنت تعرفين؟!. أنت قلت لي. أنا؟! قلت إنك جبان، خواف، وعاجز عن إيصال كلمة واحدة إليها. أنا؟!. لم تكن تخاف منها، بل من رفاقك الذين أعلنوا أنهم يكرهونها،

وهددوا بطردك إذا ما أرسلت لها كلمة حب. لم أقل لأحد إنني أحبها! هل تذكرت الآن ما كنت تنكره منذ قليل؟! أنا؟! أنا لم أقل لك ذلك أيضاً. نظرت إلي بشفقة: هل تعتقد أن امرأة مثلي كانت تحتاج إلى اللغة كي تعرف؟. كيف عرفت إذن؟. إذا كنت تسألني، فلن تفهم أبداً مهما شرحت لك. ومع ذلك، فأنا أعتقد أنك لا تجمع الذكريات إلا من أجل أن تعيد شيئاً من الاعتبار لنفسك، تريد أن تحتمي من الخزي والخجل الذي تشعر به، لا مما فعلته من قبل، بل مما لم تفعله، وما لا تفعله الآن. هذا اختلاق محض، وخطة ثأرية. فإذا كنت أتحدث عنك، وعن سلوكك من أجل التكفير عن أخطائك، والبحث عن الغفران، فإنك تريدين رد الصاع صاعين. كنت أرتعش وأنا أحكي، وشعرت أنني إذا ما واصلت الكلام، فسوف أبكي، قد أنتحب. وحينئذ، من المؤكد أنها سوف تضع رأسي على صدرها، وتواسيني، مثلما تفعل معظم النساء، إذا ما رأين رجلاً يبكي. ران الصمت بيننا، إلى أن استعدت توازني، فقلت لها: اسمعي. في تلك الأيام، أيام ليلى القديمة، لم أستطع أن أقول لها الكلمة الضرورية المناسبة، وها أنذا أحاول أن أعوض خسارة كلمة بكتابة آلاف الكلمات. هذا كل ما أملك. ولن أستطيع المتابعة دون مساعدتك، لديك بضع صفحات أحتاج إليها. وإذا قلت لك إنني نسيتها. أين؟ تبتسم. تستطيع أحياناً أن تكون ظريفاً، لكن خفة الدم لا تناسبك. طيب سأعيد السؤال: متى؟!.

ادعت هند أن ليلى عرضت عليها أكثر من عشرين رسالة حب، مرسلة إليها، من مجهولين، تضمنت مختارات شعرية، وعبارات نثرية مستلة من الكتب. وأنها طلبت منها أن ترافقها إلى المركز الثقافي لاستعارة كتاب. أنا؟! قالت هند، وأرجو أن يبقى هذا سراً. وهناك

حدث أمر غريب، فقد شحب وجه قيِّم المكتبة. حين سألته إن كانت لديه كتب عن الحب. بدأ يمسح عرق جبينه بمحرمة قماشية، وظل بضع دقائق مطأطئ الرأس، يحدق إلى بياض سجله الضخم الذي كان مفتوحاً على الطاولة، إلى أن سأل: ماذا تريدين منها؟!.

وجدت اسم ذلك القيِّم في الملف. لقد حققوا معه أكثر من مرة. وسحبوا جميع الكتب التي وردت فيها إشارات إلى الحب، منذ العصر الجاهلي حتى اليوم، يساعدهم أستاذ معروف في اللغة العربية، وآخر في التاريخ. كانت اللائحة في الملف تضم أكثر من مئة كتاب من التراث العربي القديم والحديث والمعاصر. من بينها دواوين جميع الشعراء الذين ثبت أنهم تورطوا في علل الحب وأسقامه. والظاهر أن مدرس العربية، آثر السلامة، فأخذ شعر النسيب والتشبيب خوفاً من أن يكون واحد منهم متورط في مساعدة العصابة. اللافت أن أحد التقارير يظهر أن رواد المكتبة لم يستعيروا أي كتاب من تلك الكتب، منذ أكثر من سنة. وقد اكتُشف في التحقيق، اختفاء أحد دواوين نزار قباني. وعرف فيما بعد أنه خبز وحشيش وقمر. أنكر قيِّمُ المكتبة أن يكون هو من ضم الكتاب إلى مقتنيات المكتبة، ورجح أن يكون سلفه الفاعل، وأعلن أنه يكره الشاعر، ويرفض أن يسمح لأبنائه أو لبناته بقراءة أي كلمة من شعره.

نزار قباني أخذ حيزاً واسعاً من نقاش دام ليلة كاملة، بيننا نحن الأربعة، حين بدأنا نخطط لإنشاء العصابة. فالمشروع كان يفترض أن يكون سيد الاقتباسات الشعرية. هذا رأي جميل. ورأيي أنا أيضاً. لكن وضاح رفض أن يناصرنا شاعر لا يرى في المرأة غير كومة اللحم التي تجاورنا في الفراش، ولا يشم فيها إلا رائحة الشبق والشهوة، ثم يلخصها في فرج وبطن وفخذين وساقين. وكاد يفضحنا حين سأله

جميل: وما هي المرأة إذن؟ فقد انتزع أنشودة المطر من رف قريب، وبدأ يقرأ بصوت جهوري مزعزع: عيناك غابتا نخيل ساعة السحر. هذه هي. المرأة يا محترم......

وبالطبع، فقد خاضا نقاشاً فظاً حول الموضوع. كان رأي جميل أن المرء لا ينام مع غابة نخيل، ولا يعانق الشرفات أو أغصان الكرمة، بل ينام مع امرأة اسمها فلانة أو علانة، وأن الرجل لا يتهيج إذا رأى عنقود عنب أو تفاحة، بل فخذ امرأة، أو ثدييها. بل إن السياب نفسه، كان يكتب لوهم أو لأكذوبة أو لحلم أو لرمز، ويرقد آخر الليل إلى جانب زوجته، ليفرغ شهوة الرجل.

وسرعان ما تحول النقاش إلى معركة. والسبب هو الاستنتاج العبقري الذي توصل إليه جميل، حسب رأي قيس (أنا وجدت أنه استفزازي) وهو أن الشعراء كذابون، وعلى رأسهم السياب نفسه. وهذا أمر لم يكن بوسع وضاح أن يتحمله أو يتهاون بشأنه: لا تسب! السياب أشرف منك. صرخ به، فرد جميل بهدوء: السياب أشرف مني صحيح، ولكنه شريف وكذاب، أنا رزيل وصادق، لأني لا أقول لأي بنت إن عينيها شرفتان وإنما جميلتان، ساحرتان. من الصعب أن أكتب هنا بقية كلماته حرفياً، فقد تحدث عن جسد المرأة، وعن الإيلاج والقضيب والمهبل، بأكثر المفردات مباشرة وتقريرية. وبالمقابل رد عليه وضاح بعبارات أخرى أكثر مباشرة وخطابية وتوتراً، وتضمنت المزيد من الشروح عن القضايا والأفكار والأوطان والأخطار. ولكن العدالة تقتضي ألا أعيد ذكرها بالتفصيل، أسوة بعجزي عن إيراد مفردات جميل. فما دامت الكتابة عن علاقات الفراش ممنوعة، فإنني سأمارس منعاً شخصياً لمفردات الفكر عند وضاح.

لم نكن مستعدين للانشقاق. أعتقد أن المرحلة أيضاً لم تكن مرحلة الانشقاقات. (باستثناء خراب علاقة وضاح وفوز القديمة) فضلاً عن أن المهمة كانت بانتظارنا، وقدرنا أن بالإمكان حل الخلاف بين الصديقين دون أي تعديات على الحدود: نزار مقابل السياب، السياب مقابل نزار. فقد كانت التضحية بالشاعرين معاً، البديل العقلاني والواقعي لاحتمالات التصادم. وقد عرض قيس في اليوم التالي علينا، ميثاقاً يقضي أن نقصي فيه جميع الشعراء العرب في العصر الحديث. وأن نستقوي بالتاريخ العربي كله، إلى نهاية القرن التاسع عشر. إذ إن القرن العشرين يحفل باللحظات التي ستفجر الخلاف بين جميل ووضاح. ومن جهته، لا يمكنه أن يرى أو يحضر بنفسه تشييع جنازة الصداقة بيننا لأسباب تتعلق بأقوال شخص هنا أو هناك. كانت دفقة عاطفية مشبعة بملامح طارئة ومبكرة، لا تشبه ما ساد بين مواطنينا فيما بعد تلك الحقبة، من الدعوة إلى التحزب والانحياز والقسمة والانشقاق. وسرعان ما ظهر أثرها في المكان، بإعلان الموافقة الصريحة من قبل جميل ووضاح، ومن قبلي بالطبع، خاصة أنني كنت محايداً ـ في الظاهر ـ أثناء جدالهما.

ارتباك قيِّم المكتبة أثار ريبة هند، فقادت ليلى من ذراعها: امشي! وحين نزلتا الدرج، سألتها: هل يعرفك: لا. جيد، لأني شميت رائحة شياط. وهذا مجاز، أشارت فيه إلى حصافة حدسها. وإلى وجود خطر وشيك أو مؤجل، ظهر في عيني الموظف. كيف عرفت ذلك؟ لا تعرف. إنه أمر أقرب إلى الوهج أو اللطف أو الاختراق، حيث يستحيل القبض على المعرفة. وهذا هو الأمر الوحيد الذي يمكن استخلاصه من سلوك هند، أما ليلى فلم تبد أي مشاعر من هذا النوع، بدت عليلة أكثر، حين

مشت بجوار سور منزل أسمهان، فهزتها هند من كتفها: «شو بك؟». وقادتها من يدها نحو الساحة التي يتوسطها نصب شهداء الثورة السورية، وعبرتا شارع الشعراني الضيق، فاضطرت أكثر من مرة، أن ترفع ليلى إلى الرصيف، كي تبعدها عن دراجة هائمة، أو سيارة مسرعة. وتهمس: انتبهي!

لم يكن لدى هند أي تفسير لما حدث. مصادر خوفها ظلت محصورة في نطاق ضيق، لا يتعدى عيني قيِّم المكتبة، ورعشة أصابع يديه. أما أسباب بلبلة ليلى، فقد عجزت عن معرفتها. أو التكهن بها. إذ لم تكن لديها معطيات مساعدة للتأكد، أو للتخمين. لذلك يمكن القول إنها ظلت بلا ظنون، أو إن ظنونها (فهند ليست بيضاء خاوية) اقتصرت على متاعب بنت وحيدة ومعزولة تتسلى بقراءة قصص الحب.

هل كانت هذه الواقعة هي السبب المباشر لاستدعاء ليلى أو حامد إلى المخابرات؟! الغريب أن الأوراق المتوفرة في الملف لا تتضمن أي سؤال مباشر عما حدث، ولكنها تمتلئ باستجوابات لا نهاية لها، عما لم يحدث.

اكتشفت أنه لم يكن لهذه الحادثة أي تأثير في التطورات اللاحقة، وأن هند تريد أن تضع لمساتها على الحكاية لأسباب مجهولة. وقد قالت عبارة غريبة، لم أجد لها عذراً، وهي أنها قررت في ذلك الوقت أن تكون حارسة الأمل في حياة ليلى، منذ أن رأت ذلك اليأس الموحش في سؤالها عن كتب الحب.

عبارة نظيفة ومغرية أدهشتني، وجدت نفسي عاجزاً عن استثمارها في الكتابة. فقد رشحت من فم هند، بعد أن عرفت بأمر علاقتها الجنسية مع المقدم أبي عبد الله. وهذا قد يعرض النص للنقد من

الثقافة التي دأبت على رفض المجازفة في القول إن في وسع المومس أن تكون فاضلة، أي أن تملك القوة الروحية والمادية القادرة على تغيير حياة آخرين، أو منع انجراف تربة أرواحهم، أو سكب الأدوية على جراحهم، أو بالعكس. لكن هند ليست مومساً، كما أنها ما كانت تملك السلطة الكافية للتدخل في حياة ليلى. لذلك فإن دورها انطوى على تقديم المشاعر، ولدينا فضلاً عن ذلك القدرة على تقديمها كزوجة لمفقود. فيما قالت آخر التقارير المتسربة، حسب قولها، من عدة جهات، من بينها منظمة التحرير، والصليب الأحمر، والمخابرات المصرية، إن الجيش الإسرائيلي أخفاه، وشطب اسمه من لوائح الأسرى، ليبادل به أحد أسراه المفقودين. وبهذا الخيار الجديد، أو هذه النظرية، زادت هند من أهمية دورها في حراسة أحوال ليلى. رغم أنف النقد والتاريخ المكتوبين، ورغم أنف الملفات والوثائق والتحقيقات التي لم تشر إلى حضورها قط، في أي ورقة.

هل نجم ذلك عن الإهمال مثلاً؟ هنا يمكن للمرء أن يسخر من تاريخ يكتبه أفراد كسالى مرتبكون، أو يحملون عقول بدو يسوقون بها المشاركين بالعصا، أو موظفون متفسخون لا يعرفون الفرق بين تلك العصا وحرف الألف، أو مؤسسات ترمي مصائر الأفراد في عتمة أرشيف مهمل، كي تعدم ذكراهم، بلا رحمة.

ناقشت هذه المسائل مع وضاح في المطعم الجديد الذي بدأ يقدم وجبات فول أو فتة أو مسبحة إلى جانب الفلافل والمخللات، منذ بضعة أشهر. فقال: هل ترى أن من المناسب أو أن من العلمي، أن نناقش قضايا التاريخ في مطعم للفول؟ فحاججته بأن الفول المدمس نفسه طعام تاريخي، وأن انتقاله من دمشق إلى السويداء حادثة جغرافية

ذات منحى تاريخي، قد تستبطن أحد مظاهر الوحدة الوطنية لدى أي دارس أو مؤرخ في المستقبل، فيما قد يشكل إطاراً طبيعياً لك أنت شخصياً، بعد أن عدت إلى التراث العربي، والثقافة المحلية، من متاهة التاريخ الروسي، حيث الديسميربون وليغاتشيف وزويا.

وهكذا، على وقع رائحة الزيت والثوم والليمون، أصر وضاح على أن غياب هند عن الملف لم يكن غياباً تاريخياً، بل سياسياً، بينما كان غيابنا نحن الأربعة، أمنياً. تفنيص! هراء! ترهات! كما وصف جميل هذا التفسير. فغياب هند في رأيه، أمر مجرد من أي معنى، وهو تعبير بسيط ومباشر عن قناعة المحقق بأنها كانت بلا دور، أو أنه لم يرها في الأسطر التي نقلها عن العناصر الأخرى في الملف. سأناقش رأي جميل فيما بعد، أما وضاح فقد حمل معه بضعة أوراق في ظرف أسمر، وضعه على جانب الطاولة. لم يكن من عادتي أن أستفسر عن مثل هذه الأشياء، ولكنني ظننت أنها تخص موضوعنا، فقال وضاح: لا. مَيّ طلبت الطلاق. وأنت تمشي بالمستندات الخاصة بها؟ قلت هذه الجملة الخالية من العزاء، فلم يعترض وضاح، وقال: قررتُ أن أترك المنزل، سأسجله باسمها. هذا حقها. ولماذا لا تسجله باسم الأولاد؟!. من؟! مكسيم؟ خالد؟ خلدون؟. مي أفضل منهم كلهم، ولن أسلم عنقها لأي واحد فيهم. لم يكشف وضاح أسباب الطلاق، ولا أرغب في أي تكهن روائي يَسدُّ هذه الثغرة الطارئة على مسار الأحداث. ولكن من الصعب أن تستمر الكتابة دون الإشارة إلى موقف وضاح المذهل تجاه ملكيته، خاصة أنه يأتي بعد انهيار الشيوعية، وانتشار العقائد التي تحبذ المشاركة في اقتصاد السوق، حيث تسود قيم التملك التي يشيع الآن الكثير من مواطنينا أنها الطريقة الوحيدة القادرة على منحنا الثقة

بأننا في يوم ما (قريب على الأرجح) سوف نستعيد ملكيتنا على حياتنا التي اختطفتها الأنظمة الشمولية، بحجة أنها تريد دمجها في بوتقة المجتمع. البوتقة بالذات كانت من المصطلحات المحببة إلى قلب وضاح، حين كان يخاطبنا من شرفة التفكير العلمي. ومع ذلك فإن تخليه عن ملكيته الخاصة للسيدة التي ظلت شريكته طوال عشرين عاماً، يؤكد أن الرجل ما يزال مخلصاً لدينه. وحين سألته إن كان قد فكر فيما يفعله تفكيراً عملياً أو علمياً (كنت أسخر منه في الواقع)، نظر إلي بعينين متعبتين، وقال طبعاً، بماذا إذن سأفكر؟ دينياً. إنهم لا يسمحون بذلك أبداً، اجتماعياً؟ أنت ترى أنهم هنا لا يترددون في حرمان النساء من الإرث، سياسياً؟ لا حقوق للنساء في برامج الأحزاب. التفكير العلمي وحده، أي حساب السلوك البشري، واحتمالات تبدل الأولاد، وتدخل زوجاتهم فيما بعد، ورغبتهم في الاستيلاء على شيء ما، في ظل هذا السعار الذي يعم العالم من أجل الملكية. نعم يا سيدي. التفكير العلمي وحده أخذ بيدي إلى هذا القرار. ابتسمت له بحب. وأنا أتأمل حماسته المشرقة، وأستمع إلى جوقة هتافاته. لقد خذلني قليلاً في واقع الأمر، إذ فكرت أن أمنح شخصيته سمات أخلاقية، باتت اليوم تخفت وتتلاشى، مثل الأثرة والنبل والشهامة. وإذا به يُصر أن يكون سلوكه مرسوماً وفق الرسوم البيانية، والاستنتاجات الرياضية: مربع الوتر في المثلث القائم الزاوية يساوي مجموع مربع الضلعين القائمين. حساب قاتم وميكانيكي على الرغم من أن نتائجه إنسانية. ومع ذلك فإن وضاح ما يزال رجل المفاجآت. هل تذكر عبد السلام عثمان؟! قلت: طبعاً، كيف أنساه؟. بالأمس رد على رسالتي (آسف راسلته منذ شهر تقريباً) وقد ذكر لي أسماء جميع الذين درسهم الموسيقى في الستينيات. هل تصدق أنه علَّم ليلى السومري العزف على الكمنجة.

مصادفة غير مفهومة.

ولكني كنت سعيداً في اجتذاب عبد السلام عثمان إلى المكتوب، فقد ظل اسمه يتردد، طوال السنوات الثلاثين الماضية، في ذاكرتي، بجانب تلك البقعة الصفراء المشمسة التي تتراءى لي كل بضعة أشهر، دون أن أعرف معناها. أذكر أن رامي الخوري هو الذي دلني عليه. رامي كان يحلم بأوروبا دائماً. وإذا كان يعيش اليوم في اليونان، فإن حلمه في تلك الحقبة، ظل يرفرف فوق ساحة أوروبا بأسرها. كانت القارة فردوس الحلول لأي مسألة تواجهنا في ميراث التخلف الذي يقمع تطلعاتنا الفتية. ووفق معايير رامي، فإننا إذا لم نستطع أَوْربة حياتنا، فليس أمامنا سوى الخسارة، والخذلان. ولأن الأوربة لن تأتي، فالاختيار الحصيف هو أن نذهب إليها. لا أذكر إن كانت دروس العزف على الكمان وسيلته الأولى، ولكني متأكد من أن نهج عبد السلام، ومدرسته في العزف، قد جذبا رامي إليهما كفراشة.

كان المعلم آنئذ، أستاذاً للموسيقى، قادماً من مدينة حلب. ولقد رأيت في القاعة التي كان يدربنا فيها، في منزله، أكثر من خمس شهادات بالإيطالية والفرنسية والروسية وغيرها، معلقة على الحائط، في صدر المكان، فوق السبورة الخشبية الخضراء التي كان يكتب عليها دروس الصولفيج الأولى التي بدأنا بها.

كان اقتراح عبد السلام هو التالي: إذا كان أي شاب يرغب في التعلم على آلة الكمان، (أضاف إليها الفيولونسيل والكونترباص فيما بعد) فإن الأمانة تقتضي تعلم ذلك حسب الأصول. فالكمان وعائلتها، آلات غربية حصراً، هتك المشارقة جميعاً (وليس العرب وحدهم) أحكامها، وضوابطها، وحولوها إلى صندوق فارغ بأربعة أوتار، حين

فرضوا عليها ربع الصوت بلا رحمة. وبدلوا عيار وتري الجواب فيها.

اقتراحه هذا، سرعان ما تحول إلى دفتر شروط، حين ازداد عدد الشبان الراغبين في تعلم العزف على يديه. وهي شروط تضمنت بنوداً وفقرات، تحولت فيما بعد، إلى مشروع فرقة صغيرة للعزف السنفوني.

أكثر الشروط قسوة علينا، هي تلك التي منعنا فيها (ردعنا) من التلاعب بالآلة في البيت، حين كانت تغوي أحدنا الأغاني الماجنة والتافهة، لعبد الحليم أو محرم فؤاد أو شادية أو صباح.

كان بوسعه أن يلتقط أي خلل يفضي إليه التحويل الشرقي للأوتار الغربية، الذي يحتمل أن ننفذه في أيام العطلات.

ضمت الفرقة التي سماها آنئذ: «فرقة الأفق السنفونية» ستة عشر عازفاً متدرباً. كان اثنا عشر منهم يتدربون على آلة الكمان، وواحد على الفيولونسيل، وآخر على الكونترباص. أما الاثنان الآخران فكانا يتدربان على آلتي إيقاع كبيرتين. وكان وصف السنفونية الذي ألحقه عبد السلام بالفرقة مجازفة، فسرت هنا، على أنها مجرد بذخ كلامي فارغ، خاصة أن المدينة كانت تضم فرقتين فنيتين، تمكنتا من التغلغل بقوة في نسيجها الاجتماعي، وحازتا، عبر عشرات الحفلات التي أقامتها كل منهما على حضور ضخم متحمس للفنون. ولهذا بدا وجودنا نشازاً على الرغم من أن مؤسس فرقتنا لم يخض أي معركة تحدٍ مع أحد. كان يعمل بروح جمل، لكني أظن أنه كان يخطو بسنابك حصان، وليس لدي معلومات فيما إذا كان قد خاض نقاشات ما، بشأن الموسيقى، مع أي من مديري الفرقتين، أو المدربين فيهما، ولكني متأكد من أنه لم

يكن يخفي احتقاره المعبأ بالضغينة ضد حملة الكمنجات الشرقيين الذين كان يسميهم عازفي الربابة، أمام طالباته في دار المعلمات، أو طلابه في الإعداديات التي كانت تمنحهم حصتي موسيقى أسبوعياً.

رغبتي في تعلم العزف كمنت داخلي مثل هر، منذ الطفولة، (أي منذ أن كانت أمي تغني في المطبخ) وحين انتسبت إلى دار المعلمين، قفزتْ فجأة إلى طريقي، حين رأيت أعضاء من فرقة الدار يتدربون في قاعة الموسيقى بإشراف مدرس أشقر، نحيل، طويل القامة. أذكر أنني أمضيت أوقات العصر، والساعات الأولى من الليل، وأنا أرى نفسي ممسكاً بتلك الآلة الذهبية، فيما كان لحن دنف، غامض، يرشح من أوتارها، وخشبها الذي بلون الكاكاو. غير أن معظم أعضاء فرقة الدار كانوا غير راغبين في تسلل أي من المنتسبين الجدد إلى جماعتهم. وبالمقابل لم أظهر حماسة المبتدئين المتذمرين تجاه الرفض، واكتفيت، كعادتي، بقسطي من الأحلام، فيما يخص الموسيقى، وحصتي القديمة من الريبة تجاه أخلاق وقيم الجماعة. لكن غواية الموسيقى تفوقت فيما بعد على حذر الرأي. ولم أتذكر، في أي يوم، طوال ثلاثة أشهر، فتوري أو خشيتي من الفريق. ما الذي كان يحركني؟ القلب؟ أم العقل؟ أم المشاعر؟. أرجح أنه نوع من الهوى، أو الكلف الملهم.

كانت دروس المعلم عبد السلام تزخر بالمعنى دائماً؛ السلالم التي يرسمها على سبورته، العلامات التي يقدمها مثل فاكهة أو حلويات، قصص الموسيقيين الأوربيين الكبار. ولكني أظن أنه أفرط قليلاً في محاولة توسيع الفجوة بيننا وبين موسيقانا. إذ كان عداؤه للمقام الشرقي لا يحتمل المساومة أبداً. يحتقره مثلما يحتقر دودة أو حشرة ضارة، وقد نزع عنه، من أجل تأكيد آرائه، صفة الموسيقى وألحقه

بالنواح. ومع ذلك لم يفلح في ردعنا عن أن نهرع إلى تلك الأغاني التي كانت تملأ قلب الستينيات بكلماتها الرومانسية، المشبعة بالحب، وألحانها المنتشية بالمقامات الشرقية المدوخة.

وإذا كان المعلم يكتفي بوصف تلك المقامات بالابتذال والسطحية، فقد كان يزفر مثل ثور هائج حين يكتشف التلاعب الذي قمنا به في البيت، فيوبخنا علناً، ليفلت لسانه، بعد ذلك، واصفاً أغاني الموسم بأنها زعبرة وانحطاط، وقلة ذوق.

غير أنه استسلم أخيراً؛ فأهدانا قطعة موسيقية كاملة، هي معزوفة القمح لمحمد عبد الوهاب. لم يكن استسلاماً كاملاً بالطبع، وإنما نوع من الوسطية المنكسرة المضغوطة المعلبة في محاولة استرضاء مجموعة متمردة وكاذبة، من الفتيان المراهقين الذين بدوا له، بعد مرور خمسة أشهر من التدريس، أعتى من أن يتغيروا بالشعارات.

كانت معزوفة عبد الوهاب خليطاً من الإيقاعات الغربية والشرقية. وهي الجرعة الوحيدة التي رضي أن نلتهمها كتسوية حذرة، دون أن يقدِّر أنها نفعت كمسكن مؤقت، خفف من اعتراضاتنا قليلاً، ودون أن يساعد على تبديد مطارداتنا للفرائس المغناة.

وفي تلك السنوات، ظهر منافس عنيد ومبهر لعبد السلام عثمان، وهو مواطنه الحلبي عبد الرحمن الجبقجي الذي بدأ يعبئ الأغنيات الشرقية في نوطات خفيفة مؤلفة من صفحتين أو ثلاث، أو في دفاتر كرتونية لا يزيد سعر الواحد منها على ليرة أو ليرتين. كانت آلام المعلم محبطة وجارحة، حين أدرك أن دروس القراءة الموسيقية التي يلقننا إياها، أفادتنا في تفسير وقراءة وأداء تلك الأغاني التي كان يحقد عليها، ويتمنى لو لم تولد. أذكر أنني اشتريت من مكتبة طعمة الله

النوطات التي وصلت إليه، وعزفتها بلا كلل في عطلة الربيع: صباح، فيروز، وأم كلثوم شمس الأصيل، وعبد الوهاب، وكارم محمود، دون أن أعترف أمامه - أو يعترف أي من زملائي في الفرقة، بهذه المخالفة.

عندئذ حاول المعلم تقديم وصفات روحية معمقة لمقاومة الانحطاط، مثل إرغامنا على الاستماع إلى البرنامج الثاني في إذاعة القاهرة، وتقديم ملخصات مفصلة عن الموسيقى المقدمة فيها، أو زيارته يوم الجمعة، الساعة العاشرة، في بيته. وهذا تنازل خطير أقدم عليه تحت وطأة الهلع من خسارة الغرب أمام الشرق في ملعب المقامات، حيث كنا نجلس في دائرة مفتوحة ونحن ركوع، أو متربعون، لننصت إلى إحدى أسطواناته. كان يقدم، في البدء، نبذة (وهذه كلمة تداولناها، ساخرين) عن المؤلف، ونبذة أخرى أكثر تفصيلاً عن المعزوفة: السنفونية، أو السوناته، أو الكونشيرتو. ثم ينتقل إلى جوهر الجلسة: الاستماع. ومع ذلك، فقد بدأت عيناه تخبوان يوماً بعد آخر. وبدلاً من الضغينة الممزوجة بعجرفة التلميذ الأوروبي، حل برود قطٍ كسولٍ، وخيبة عاشق. ثم صار يعاني من انقباض معوي ساحق، تترجمه الآلام في غضون وأخاديد تخطط جلد وجهه الأبيض، الحليق.

لم تكن لدى عبد السلام، كاريزما قائد عسكري، ولا خيارات داعية سياسي. ويمكنني أن أعلن أن الجماعة التي للمها، لتتعلم الموسيقى، كانت طبخة مزورة من الهواة والغشاشين الذين لم يكن يشغلهم سوى التباهي بحمل الكمان، أو تعلم العزف عليها من أجل أن يبهروا أحداً ما، هو على الأرجح، فتاة الأحلام. غير أن عبد السلام لم يكن معلماً أصيلاً. فسرعان ما تحولت خيبته إلى مللٍ (ولكننا كنا قد التهمناه) بارد أعجف، دفعه لغض الطرف يوماً بعد يوم عن رسالته.

في تلك الأيام أنجزنا اتفاقنا المبدئي، أنا وقيس وجميل ووضاح، من أجل تشكيل العصابة، وقد وجدنا اسمها جاهزاً بين أيدينا: «الكف الأسود» مستفيدين من بضعة عناصر مشتركة بيننا وبينهم: الطواف في الأزقة، (بصرف النظر عما إذا كان مؤسسو الأصل طافوا في أزقة أوروبا، بينما نحن نجول في حواري السويداء) سرية الرسالة، ضرب العدو في الخاصرة، رومانسية الحركة، الحذر، التوجس، والصمت.

تمَّ الإعلان أثناء الجلسة عن رفضنا القاطع لخيار الاغتيالات الذي وصم العصابة الأم. وقد أرغمنا وضاح على الإشارة إلى هذا الخيار، (أيده جميل بلا تحفظ) بسبب إيمانه بأن تغيير العالم، سيتم بالثورة الشعبية «البروليتارية للأمانة» لا بقتل هذا الزعيم أو ذاك الحاكم (حتى لو كانا مجرمين سفاحين أو مستبدين مرعبين)، لم يكن الموضوع ذا قيمة، بالنسبة لي ولقيس، ورأينا أن نشاطنا المقترح لن يباغت بمثل هذه التحولات. إذ إن الكف الأسود تدعو للاحتراس أيضاً من معظم المسالك التي انزلقت إليها الأحزاب والتيارات والجماعات المحلية والقومية، حيث متاهات السياسة والأفكار والاختلافات والصراعات، والمعارك. رفضنا أن يكون لدينا شعار أيضاً. وامتنعنا عن تكرار العبارة التي صاغها قيس بالقول: إن الشعار إطار، ففيها رائحة قيد، كنا نحاول أن نتحرر منه. كما رفضنا مجتمعين، اختيار قائد لنا، من بيننا.

هذه هي المخيلة الوحيدة المتاحة لتفسير انشغال بضعة شبان، باختلاق طريق ثالثة مختلفة عن دمامات الطريقين الأولين المهمين؛ حيث كان رجال الأحزاب يتراشقون بقلامات الأظافر، وحسافات التمر، وحثالات الموائد. أو كان قادة العشائر يشد بعضهم أكمام بعض، أو يحلق له شعره من أجل مكان في صدر مضافة.

وكنت قد كتبت في النسخة الأولى، أن تلك المغامرة القديمة كانت لعباً محضاً من ألعاب الفتوة الجديرة بسنوات المراهقة، وأن من الصعب على المرء، أن يسبغ عليها أي معنى من هذه المعاني التي أرددها الآن. غير أن هذا التعليق لم يعد مناسباً اليوم بعد عثوري على الأرشيف، واكتشافي أننا مثّلنا، ذات يوم، حركة سرية استنفرت هذا العدد من المحققين. وهكذا، سوف يبدو الأمر - لي على الأقل - غريباً يرغمني على إعادة الكتابة: لا يمكن رواية الحقيقة كما كانت، لأن العالم فهمها كما يريد، أو كما يرى. أعني أن ما كان لعباً بريئاً يلهو في الهامش، أو على الرصيف، بدا فيما بعد، شفرات سياسية تتخفى في هيئة الحب.

فالأمن الذي أرسل محققيه في المدينة كلها، بعد الدفعة الثالثة من المنشورات، لم يجد في تلك الأوراق المختصرة أي جانب أيروسي مثلاً، أو مسرحي، أو لعبي. والمفارقة أن التحقيق طال عبد السلام عثمان. وأريد هنا أن أنوه أننا لم نستهدف هذا الرجل قط في مشروعنا. ومع ذلك فقد وجدت في الملف أوراقاً تخصه.

وعلى الرغم من مرور أكثر من عشرين عاماً (وأنا أغش هنا، فقد مر أكثر من خمسة وعشرين) فقد انتابني فجأة، وأنا أقرأ أوراقه، جزع المطارد الذي يدرك أخيراً أنه صار بين فكي المفترس.

لا يظهر في الأوراق، سبب استهداف المعلم. وأرجح أنه جاء من تقرير ما، أو وشاية أو حساب خاص من قبل عنصر من عناصر الأمن، فكر بأن اهتمام عبد السلام بالموسيقى، يقربه من الشعر، أو من جماعة قد تكون مهتمة بالشعر. فقال المعلم إنه لا يعرف شيئاً عن الشعر العربي، وإنه يلقن طلابه دروساً في الموسيقى وحدها (تضمنت الورقة أسماء أعضاء فرقته، ورأيت اسمي هناك) ويأمل بأن يكون قد تمكن

من استمالتهم إلى مناخاتها، بعيداً عن انحطاط الموسيقى الشرقية المرائية، المشبعة، بالنواح والندب على الحب الضائع. أعتقد أن المحقق ظن أنه يسأل مخبولاً، بلا ذاكرة ولا هوية ولا حضور ولا مشاغل، سوى الحديث عن ضغينة غريبة ومتكبرة، ضد الموسيقى.

وأستغرب اليوم كيف تسامحوا مع المعلم، أو مع إساءاته إلى القومية. ولكني أرجح أن المحقق قد تساهل مع هذا الانحراف الخطير عن الوطنية، حين اعتبره مجرد ملاحظات جانحة لمدرس هاوٍ، افترس عقلَه الهبلُ أو الحماقة.

اللافت أيضاً أن هذا التساهل (أو اللامبالاة تجاه المعلم) انسحب على الأسماء التي ذكرها في استجوابه. وقد رأيت بأم عيني، أن التحقيقات لم تول أعضاء فرقة الأفق الفنية أيَّ اهتمام. ليس في الملف دراسة عنا، كما اعتاد رجال الأمن تسمية التحقيقات المتأنية، ولا استجوابات ولا استدعاءات ولا إشارات أو هوامش مدققة، أو عجولة. تجاهل تام لوجودنا جميعاً، باستثناء ملاحظة وحيدة، وغريبة، تم فيها اصطفاء اسم ليلى السومري، من داخل متن التحقيق، إلى هامشه. حيث أوصى المحقق هناك بأن تستدعى إلى المخابرات للتحقيق معها.

صرنا نعرف اليوم أن التحقيق ينطوي على مروحة لا نهائية من الاحتمالات. تبدأ من الأسئلة الاستفسارية ذات الطابع المعلوماتي، المحايد والمجرد من أي شبهة، وتمر بالاستجوابات المخاتلة الهادفة إلى حصار المستجوب، ومعرفة معلوماته عن الآخرين. وتبدو الاستجوابات أغلب الأحيان، مشبعة بالقلق والشك وعدم الثقة، فتحمل بسبب ذلك، جذوة من الوعيد، أو التهديد المبطنين بالأسئلة عن الغائب. ثم يأتي دور التحقيق. وفي هذه الحالة، تكون الاتهامات جاهزة، مباشرة تُضخ من

صنبور كاسح، تغذيه بئر من المعلومات ذات الطابع الإحصائي المبهر. معلومات نابعة من رصد ومراقبة وتدقيق ودراسات وتقاطعات وشهادات ووثائق وسيرة حياة ومعرفة شاملة بالتاريخ السيري وتاريخ العائلة، وأخبارها وشؤونها. وسوف يستمر هذا كله في إنهاك المستجوب وتكبيله، وإعلامه بالحضور الكلي لهم، والانتشار الشامل لرجالهم، وعيونهم، لا في المكان الذي يعيش فيه، بل في كل ركن وزاوية ومقعد وطاولة وفراش وستارة وصحن وملعقة وكأس وممر وغرفة وحائط ونافذة تحيط به. فإذا أضفنا إلى هذه الكتلة الرهيبة من المعرفة، الاحتمالات الأخرى من التهديد، والحصة المحتمة من الضرب والتعذيب، فإن من المؤكد أن المطلوب سوف يعترف بكل شيء.

لكن لماذا استدعوا ليلى إلى التحقيق؟! كان هذا هو السؤال الضروري، بعد اكتشاف الملف، وبعد إشارة وضاح عن دروس الموسيقى. غير أنني وجدت ورقة أخرى تذكر معلومات غريبة في نشرة الأحوال الشخصية الخاصة بليلى. وهي نشرة ترافق اسم أي شخص يحقق معه: أبوها حسن السومري، أمها حنان الحسيني، إخوتها: صلاح. سمير. عادل. أختها: نوفة. أعمامها: حامد. أخوالها: لا يوجد، خالاتها: ورد. صفية.

تحطمت الحكاية هنا فجأة، ووجدت نفسي مضطراً لكسر السياق. فمنذ أن عرفت ليلى، قدمت نفسها لي على أنها وحيدة والديها، وأن حامد السومري، لا حسن هو أبوها، أو أن ورد الحسيني هي أمها، لا حنان. وبالنظر إلى يقيني من أن أحداً لا يستطيع أو لا يجرؤ، في الحقيقة، على تقديم معلومات شخصية ملفقة، إلى أحد محققي الأمن، فقد اكتشفت اليوم أن ليلى كانت بالأمس تكذب علي. صحيح أنها كذبة

خفيفة بيضاء، ولكن المؤكد أنه لم يعد بالإمكان، متابعة الكتابة دون ملاحظة هذه الكذبة المهيمنة على حياة ليلى.

تثبت الوقائع أنها لم تكن هي التي قدمت هذه المعلومات. بل إنها راحت تحدق إلى المحقق باستخفاف وتحد، وبلا اهتمام، كأنما كانت لا تسمع أو لا تريد أن تسمع التواريخ والأسماء وعلاقات القرابة السخيفة التي كان يقرؤها أمام عينيها، كي يثبت لها أنها تكذب. وأنها ولدت في الرابع عشر من شباط عام 1950، وهي الولد البكر لأبيها حسن. (حامد كانت تقاطعه) وأمها حنان (ورد!)

علينا أن نلاحظ أننا صرنا هنا إزاء صراع إرادتين: الأولى رقمية مولعة ببلاهة التقارير والتفاصيل وحقائق دفاتر الأحوال الشخصية. والثانية خيالية، جامحة، رافضة، تعيد بناء الحياة من حولها وفق خطة الأحلام، وأوراق الرغبات، واتجاهات العواطف والمشاعر. لم يكن السبب أنها لا تعرف «الحقيقة» مثلاً، أي واقعة أن حسن السومري هو والدها. لا بالطبع، إذ لم تكن ثمة حاجة لدى حامد وورد، لإخفاء هذا الأمر عنها. خاصة في وجود شخص مثل حسن. وإنما لأنها كانت ترفض الحقيقة، أو لأنها - إذا ما استخدمنا عبارات أكثر دقة - ترفض الواقعة لصالح الحقيقة. يمكن أيضاً صياغة موقفها في تركيب آخر، هو رفض الواقع من أجل ابتكارات الحكاية، على الرغم من أن العبارة الأخيرة تضعها، من جديد، أمام المصير الذي رسمته لها حكاية أخرى مختلفة من حيث البنية والتوجهات والأغراض، سبق أن اخترعها جدها، نسيب الحسيني، وعمل على تطويع المستقبل أيضاً، من أجل الوفاء بالتزاماتها.

المشكلة هنا أن تلك الحكاية، باستعاراتها ورموزها وأسانيدها،

مقيدة، بطريقة لا أمل فيها لأي تبديل، إلى الماضي. فقد استطاع مؤلفها، وهو نسيب نفسه، إرغام الشخصيات فيها، وضبط إيقاعها، كي تذعن لمخططه الذي ابتدأ بعد واقعة إنقاذه من الغرق على يد مصطفى السومري. والسؤال الذي شغل عقله ووجدانه: ماذا يمكن أن يقدم لمن أنقذ حياته؟!. لم يكن يعرف، أو يؤمن، بأن الحكايات وحدها قادرة على دفع ثمن الشهامة. فجاذبية الحكايات وحصافتها واستخداماتها من قبل الأفراد والجماعات، لم تؤد إلى إدراك قيمتها الوجدانية لديه. وهكذا فقد آثر أن يقدم لمصطفى عرفاناً آخر ذا طابع ملموس. جلس نسيب وحيداً في مقره البعيد في قبور البيض، يفكر فيما حدث له: لقد خرج تقريباً من فم الموت، من بين شدقيه المائيين، الموحلين، بفضل المبادرة المتهورة لمصطفى السومري. وإذا كانت قد كُتبت له الحياة من قبل إرادة ربانية عليا، فإن فضيلة مصطفى هي أنه كان أداة هذه الإرادة، الوصلة الإنسانية الجريئة والمباشرة بينه وبينها. الأرجح أن في شخصية نسيب قدراً كبيراً من الهشاشة ومن الضعف ومن الشعور بالنقص. وربما كان يعاني من حياء عميق يدفعه لأن يبقى في الظل، بحيث بات شخصية ظلية تماماً، لا يقوى على البقاء وحيداً تحت الشمس (ولا في الماء بالطبع)، وقد اجتذبته شخصية مصطفى إلى داخل نواتها، ولم يعد يستطيع أن يتحرك، أو يتحدث، أو يفكر بعيداً عن المسالك التي يعبرها. اللافت أن مصطفى لم يرَ ذلك البتة. كان يعيش الحياة دون أي أفكار مطبوخة. نبالته أو شجاعته أو حماسته أو عربدته أو نشوته أو شهوته أو رغباته جميعاً تأتي كالينابيع، وتنفذُ كالسيل. لم يخطر على باله يوماً، أن بوسع الإنسان استيفاء الأجور عن الأعمال الخاصة بالقلب مثلاً، أو بنظرة العينين، أو حركة الشفاه، أو

لمسات الأيدي. إذا شربتُ ماء، هل تدفع لي مالاً. قال لنسيب رداً على سؤاله الملحاح، عما يمكن أن يقدم له تجاه شهامته.

غير أن موقفه هذا، زاد من تطلب نسيب، بدلاً من أن يطفئه أو يلغيه. امتلأت رأسه بلغط ثقيل، باحث عن العصارة التي ستقربه من الجواب.

يشير أحد المحققين إشارة عابرة، إلى أن مصطفى السومري التحق بالحزب الشيوعي في نهاية العشرينيات من القرن العشرين. ويرجح أن شيوعياً كردياً هو الذي نسبه إلى الحزب. أظن أن الإشارة هنا مستعجلة، وتفتقر إلى الدقة. فإذا كان الحزب في تلك الآونة، في طور التأسيس، فإن أحداً لم يؤكد أنه تمكن من إنشاء منظمة له في أوساط الشغيلة الأكراد. وقد يحتاج الأمر إلى أكثر من مرجع في هذا الشأن، ولكن الإشارة تبقى غريبة وصادمة. إذ إن حامد السومري، ابنه، بدأ حياته بعثياً شديد الحماسة. وكان يروي لأصدقائه أنه كان أصغر المنتسبين سناً إلى عصبة العمل القومي. ولكن سعيد أبو الحسن لا يشير في مذكراته (نيران على القمم) إلى هذه المعلومة. واللافت أن التقرير الأمني يضع وصفاً مختصراً دالاً وسريعاً مثل رصاصة مقابل اسم حامد: يميني. لكنه يضيف إليه كلمة أخرى، تعتبر في الأدبيات الأمنية مصدر حماية وطمأنينة، دون أن تلغي الرقابة على الشخص: خامل. والظاهر أن حامد انزوى، وترمد وقطع فذلكاته المتفاخرة عن قصة الانتساب والنشاط القديم، بعد حركة 23 شباط.

يبقى السؤال: إذا كان مصطفى السومري قد انتسب فعلاً إلى الحزب الشيوعي؛ فهل لحق به نسيب الحسيني إلى هناك؟! هل صار ظلاً له؟ ألم يكن ظلاً بالفعل؟!.

كان نسيب ما يزال يبحث عن المدونة الذهبية التي ستمكنه من

سداد دينه. لقد بات مخدراً، تستحوذ عليه هبة مصطفى، وتجعله عاجزاً عن تمثل أي جديد أو طارئ عداه. وحين وجد الحل، قهقه مصطفى وعانقه، وربت على كتفه لأول مرة، دون لوم أو تأنيب، كما اعتاد من قبل. الحقيقة أن نسيب ظل في السنوات التالية، يتحدث عن حله، كلقية أو كوحي كإلهام أو أشياء من هذا القبيل. كان جالساً أمام النافذة يراقب التلة المقابلة، حيث يقطن مصطفى وزوجته وابنه حامد. لم يكن هذا مصدر الإلهام بالطبع. إذ ليس بوسع أي نافذة أو شرفة، أن تلهم شخصاً مثل نسيب. ربما حانت منه التفاتة نحو اليمين، أي نحو الشارع الممتد من السوق البعيدة إلى أطراف البلدة، فرأى فتاة صغيرة تمشي إلى جانب والدها (يجب أن يكون المرافق هو الأب وليس الأم)، والمشهد التالي، شديد البساطة والابتذال، يقف فيه نسيب وهو يفرك إبهامه بوسطاه، ويردد العبارة الأرخميدسية الشهيرة، أو إحدى مرادفاتها، ثم يلي ذلك القرارُ الذي سينهي عذاب ضميره، وانشغالاته بالمديونية العاطفية لمصطفى، ويحول المصير إلى المستقبل. وقد حول اكتشافه من ثم إلى نذر، أقسم فيه أن يزوج بناته لأبناء مصطفى، بلا مهر، ويرجو مصطفى أن يزوج بناته لأبنائه بأغلى مهر على وجه الأرض.

لم يكن قد تزوج بعد، فعاد إلى السويداء وطلب يد زمرد ابنة خليل الخليل، ودخل بها بعد خمسة عشر يوماً، وعاد بها إلى القبور. هناك أنجبت له ابنته ورد، بعد أحد عشر شهراً، في الرابع من أيار من عام 1930. هذا هو تاريخ الهوية الشخصية المسجل في الملف، ثم أنجبت حنان بعد سنتين، وصفية بعد ثلاث سنوات. كانت خوشيبا خلالها قد أنجبت حسن قبل حنان بعام، ثم توقفت عن الإنجاب. عبارة توقفت مجازية استخدمها نسيب كي يقول، أولا يقول إنها ماتت. ما تزال

أسباب موتها المبكر غير معروفة. لا أدري إن كانت ماتت بسبب حمى النفاس، إثر ولادة حسن (يخيل إلي أن هذا هو ما حدث، لأن حامد ظل يصف أخاه دائماً بالمنحوس)، أم لسبب آخر، كأن تكون غرقت في الخابور ذاته، حين كانت تزور أهلها هناك. كان حسن برفقتها، بينما ظل حامد عند أبيه. وهذا سبب كاف لوصم حسن بالنحس أيضاً.

على أي حال، يبدو لي أن حادثة الغرق أكثر دراماتيكية. ومن حسناتها أنها تخدم المتن، إذ إنها تعيدنا إلى دور النهر الذي يبعد أكثر من ألف كيلومتر، في مصائر الشخصيات. فموت خوشيبا، أو غرقها في الخابور شوش حياة مصطفى تماماً. هل يمكن أن نقول كسر شخصيته؟ لا أعرف، إذ إن هذا التعبير صار مبتذلاً في هذه الأيام، بسبب انفراده في وصف العوالم والأحلام. إضافة إلى أن شخصية مصطفى الجديدة، كانت نوعية أيضاً. لهذا يبدو من الصعب القبول بانكسار الشخصية. والظاهر أنه انخرط في حياة جديدة، خالية من الخمر والعربدة والضحك والصخب، انشغل حتى العظم في تربية الولدين، والعناية بهما. بل يمكن القول إن مصطفى أدار ظهره للعالم كله، وفتح ذراعيه لولديه وحدهما.

ليست لدي معلومات عن أسباب عودة نسيب إلى السويداء. ربما كانت زمرد هي السبب؛ فقد اقترحت ذلك، حين لم تستطع العيش في الجزيرة. أصابتها السهول بالملل، وهي التي تعودت على اختلاف التلال. ولكن نسيب لم ينس، قبل أن يبدأ طريق العودة، أن يذكر مصطفى بعهدهما. عندئذ طلب منه مصطفى أن يذهبا إلى النهر. جلسا هناك على ضفة الخابور، حيث غرقت خوشيبا. وهناك بدأ يخاطب النهر. لم يحفظ نسيب كلمات مصطفى تلك، ولكني أرجح أنه تحدث معه

بوصفه إرادة عليا، ليس بوسع الإنسان أن يتحداها. ربما كان يعتذر عن ماضيه، حين كان قائداً لمركب عبور، وكان يُعلن دائماً رفضه لأي تسوية مع النهر. فعقيدته كانت قائمة على التحدي والصراع والغلبة، لا على التفاهم والتعاون والمحبة. وأمام ذلك النهر الهادر المحتشد بتاريخ فاجع من اغتيال الناس، أو نقلهم إلى العالم الآخر، أقسم هو أيضاً أن يكون كفيلاً متضامناً مع نسيب، لإيفاء النذر.

لكنه لم يعد إلى السويداء، بل إلى قرية تل العروس، حيث يمكن أن يودع ولديه لدى جديهما وأخوالهما، حين يضطر للغياب عن المنزل. وهناك عاد إلى النهر مرة أخرى، ليعمل من جديد في قيادة مراكب العبور. قالت ورد إن النهر أغوى مصطفى، أو جذبه إليه، وبدل أن يهرب من قاتل زوجته، مضى إليه، انسكب فيه، بحيث لم تبق بينهما أي عداوة. كان النهر يصيخ لصراخات مصطفى بلا عداوة، يهدأ ويستكين، ويرشح من حافتي المركب بيسر، متجهاً نحو الشرق، بينما كان مصطفى يقود مركبه بحذر وعياء وسعي مخلص لإنشاء علاقة ما من نوع خاص بينهما، في حين كان الناس في التل يتأملون وجوده بغرابة. صحيح أنهم أحفاد أولئك الأجداد الذين أقاموا حضارتهم على ضفاف الفرات ودجلة والخابور أيضاً، غير أن التقاليد النهرية لم تتضمن مزايا هذه العلاقة كما رددوا.

هذه هي الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من حكايات نسيب. ولم أجد في التراث النهري، وأساطير الضفاف، أي حكاية عن علاقة فردية بين نهر ورجل، تتسم بمثل هذه النزعة للاسترضاء. وفي كل الأحوال، فإن الخاتمة المتوقعة هي أن مصطفى سوف يذهب أيضاً مع النهر، أو في النهر. لقد غرق، أو أغرق نفسه، فيما بعد، في الخابور، في المكان نفسه، الذي غرقت فيه خوشيبا.

كان جالساً ذات مساء قرب ضفة النهر، وكان الماء مضطرباً من حوله. بعد جولة رعدية، صاخبة، أعقبت ثلوج الشتاء الكثيفة التي هطلت على الجبال التركية المحاذية للحدود والينابيع. شعر أن الماء يناديه، وأن تلك الأمواج العنيفة ما هي إلا اختلاجات قلب، نداهات قيمة تدعوه للقاء خوشيبا التي مضى على رحيلها أكثر من ثمانية عشر عاماً. كان قد أنجز مهماته كلها، فكتب في الصباح رسالة إلى نسيب الحسيني، وأخرى إلى أويتر شقيق خوشيبا، يحضه فيها على تنفيذ وصيته، وثالثة إلى حامد وحسن يأمرهما فيها بطاعة نسيب، والابتعاد عن الأنهار إلى الأبد. وما إن اقترب المساء حتى أحس برغبة حكّاكة في زيارة الضفة. تذرع أنه ينوي شد حبال مركبه، وتثبيته إلى مرفئه جيداً، كي لا تجرفه مياه النهر المجنونة القادمة.

وفي اللحظة التي جلس فيها قربه، أدرك أن رسالته ووصيته وكلماته لولديه الشابين، في هذا اليوم بالذات، كانت ثمرة قوة ملهمة رزينة مقررة، أرادت أن تقول له: لقد آن الأوان. ربما تراءى له شبح خوشيبا الراحلة، دعاه أو ناداه، فمشى نحوه، خاض في النهر، ثم غاص شيئاً فشيئاً: ركبتاه ثم خصره، ثم صدره. ربما ضربته موجة في صدغه، لكنه واصل المشي، إلى أن غاب وتلاشى واختفى.

ظلت مسألة عودة حامد وحسن إلى هنا غامضة. وحين زرت تل العروس، وجدت أحد أخوالهما حياً. ولكنه تحدث عنهما بلا عاطفة، ولم يقل أي شيء مفيد. وحين علم أن حامد مات، هزّ رأسه بضع مرات. لماذا يهز هرم منهك بلا ذاكرة، رأسه حين يسمع سيرة الموت؟. لم أستطع إنتاج أي جواب. وفي طريق العودة، اكتشفت أن جاري في مقعد الباص كان يعرف السومري جيداً، ومنه علمت أن مصطفى

واظب على تذكير ولديه بنسيب الحسيني، لا على أنه أخوه الوحيد في العالم، وحسب، بل على أنه الملجأ، ونقطة البقاء، ومرجع الوجود بالنسبة إليهما.

لماذا استجابا معاً لهذا العرض البعيد المجهول؟ سيبقى هذا السؤال بلا جواب. لم يكن بوسعهما اكتناه المستقبل بالطبع، أو أنهما توقعا مستقبلاً آخر بناءً على المؤشرات واليقينيات التي بذرها مصطفى في طريقهما. لم يعد ممكناً سؤال حامد عن مشاعره تجاه ما حدث. ومن المستحيل الاقتراب من حسن، أو المقامرة بتقديم أي معلومة بشأن الكتابة التي أحاول أن أنجزها.

كيف عرف الأمن أن ليلى ليست ابنة حامد وورد، على الرغم من أنها مسجلة في دفاتر الأحوال الشخصية، على أنها ابنتهما؟ وعلى الرغم من أن أبويها لم يخبرا أحداً قط عن هذا الأمر؟ ليس لدي خبر عن استدعاء حسن أو حنان إلى الأمن. لم تذكر ورد أنهما تعرضا للسؤال عن ذلك، أو للترهيب والضغوط من أجل تفريغ المعلومات.

غير أن الحقيقة كانت كذلك بالفعل: ليلى هي الابنة البكر لحسن، وليس صلاح كما اعتقدت من قبل. وإذا كانت الكتابة في المخطوط الأول قد استخدمت تعبير: «أخذت من حضن والدتها» فإن ليلى قد أخذت من يدي الداية، أي قبل أن تتمكن حنان من رؤيتها أو لمسها أو وضعها في حضنها. وبهذا المعنى، يصبح من حق ليلى أن تعلن عن أمومة ورد لها، إذا ما تجاهلت الرابط البيولوجي المحض الذي يربطها بحنان.

ولكن هذا الموضوع سوف يغدو تافهاً، حين تكتشف أن حامد وورد اجترحا هذا الاقتراح، كي ينقذا المولود الجديد من غبار الحكاية القديمة ذات النذور لأبويهما.

كنت قد كتبت في المرة الأولى، أن حسن نفر من حنان، من اللحظة الأولى التي رآها فيها. لم يستطع أن يعرف السبب، تراءى له أن وجهها كان مصمتاً تقريباً، ولا يرسل إليه أي إشارة.

لكن ورد ذكرت عكس ذلك، وهو أن حنان بدأت من اللقاء الأول، تحاول الإفلات من أحاديثه. اعتقد أن شروط اللقاء لم تكن مناسبة. ربما يقترح عليها أن يتحدثا في مكان آخر، أو وقت مختلف. ثم فكر أنها تشبه سمكة، وهذا وضع يثيره. كانت تتملص من أحاديثه، دون شراسة، وبلا توقع، ولكن دون أن يكون قادراً على أن يتوقف لحظة واحدة للإمساك بها. وكلما فعلت ذلك بنجاح، ازداد هياجه، وتفاقمت رغبته. لكنه ما يلبث أن ينسحب ويتراجع. يمكن القول إنه كان يزحف إلى مكان معتم ليختبئ فيه من نفسه التي بدأت تشهد صراع نزعات متضادة، أخذت تنهشه وتمزقه.

لم أر حنان، (ليس من الممكن رؤيتها أبداً) ولم أجد في ألبوم ورد سوى صورة واحدة مائية قديمة. أعتقد أنها التقطت لها قبل الزواج بيوم، من المصور الذي كان يقف قرب سور السراي. ومثل جميع الصور المائية، تظهر وراءها خلفية رمادية فاتحة، هي تلك الملاءات القديمة التي كان المصورون يعلقونها على الجدران وراء زبائنهم. بدت عيناها مطفأتين، وكان وجهها مغطى بستارة ضبابية، ومكسواً بغضون ظاهرة، لم تستطع رداءة التصوير إخفاءها. وقد فاجأني ذلك، إذ إن ورد لم تتوقف عن مديح جمال شقيقتها، وفتنتها الطاغية، بما في ذلك الحديث عن بريق عينيها، وجاذبيتهما. لست متطلباً بالطبع. ولا يمكن أن أعتبر صورة مائية قديمة، قرينة على خطأ التقرير الأخوي، أو برهاناً على شطحات الهوى. ولكن ما لا يمكن نفيه هو أن حنان كانت

قد تحطمت قبل الزواج، لا بعده، كما ترغب ورد وليلى في القول. هذه هي الدلالات التي ترسلها الصورة إلى أي شخص سبق أن عرف شيئاً ما من التفاصيل:

فحنان لم تكن تحفل بالحكاية البطولية التي ظل نسيب يرددها أمامها عن مصطفى السومري. أحست إحساساً غامضاً، في الصغر، أن في تلك الحكاية عناصر جحيمية مرعبة. لم تكن واضحة بالطبع، ولكنها لم تكن خفية أيضاً. ولأنها معنية بها، بسبب تكرار اسمها، بجانب اسم ورد، كل مرة تسرد فيها الحكاية، فقد شعرت بالملل، برغبة في خنق الحكي، في بلبلة الوالد أثناء القول، في تشتيت الانتباه. مخاتلات مبكرة زرعها في أعماقها ذلك الخوف الطفولي الإيماني الشفاف، من عروض الأب المتكررة لما حدث.

أما حين عرفت أنها كانت رهينة لها، قبل أن تولد، فقد أعلنت الرفض: حدث هذا ذات يوم، حين تبادلت نظرات المراهقة المشبعة بالشهوة مع فتى عابر في الشارع. رأتها ورد، ولكزتها في خاصرتها، ثم شرحت لها الأمر برمته. كانتا واقفتين في المطبخ: صحيح هذا يا زمرد؟! سألت أمها، فهزت رأسها دون أن تقول شيئاً. عندئذ كسرت ثلاثة صحون، وفنجاني قهوة، وحطمت خمس كؤوس، وطعجت طنجرة الطبيخ، ورمت الملاعق في أرجاء المكان. أي إنها دمرت كل ما طالته يدها من أوان كانت ظاهرة على سطح المجلى الحجري المجاور لها. هذا كل ما قدرت عليه. كانت صفية أختها حاضرة. وقد أُخفي الأمر عن أبيها الذي لم يكن في البيت، وجمعت الشظايا بسرعة، ثم رحلت إلى مكب النفايات في جورة السورية. وهذا هو الإجراء العائلي السري المحتمل من عائلة إناث محكومة بإرادة أب يحترف النذور. أعقبته .

قطعاً ـ كل التحذيرات الأخرى، المحفوظة في التراث الشفوي، للبنت التي تعلن التمرد، تحثها على الصمت والصبر والانتظار الذي يتضمن انتظار الفرج من عند الله.

لكن سياسة التجاهل والتأجيل بدت لها مقلقة أكثر فيما بعد. أرجح أن هذا قد حدث بعد أن التقت بسليمان نجيب. وهذا شاب في الثانية والعشرين من العمر. زير نساء مجرب، كان يرابض دائماً على تخوم المنازل التي تستضيف النساء في الأعراس، ثم يتسلل خطوة بعد أخرى إلى داخلها، حين تتاح للشباب الفرصة للمشاركة في إعداد النهاية. لقد رأى تلك الفتاة البيضاء الراقصة في عرس ابنة عمه. المؤكد أنها رأته. لا أقصد الرؤية البصرية العابرة، وإنما تلك الرؤية الملاحظة الراصدة والمتتبعة. وحين انتبه سليمان إلى ما حدث، أدرك أن عليه أن يفعل شيئاً. كانت المغازلات المتاحة، في تلك السنوات، تقتصر على بضع لمسات خفيفة بكف اليد على الشعر، شعره هو بالطبع، تقابلها الفتاة بالمثل، وترافقها النظرات الخاصة. وقد يتبع ذلك غمزة خفية بأي من العينين، أي حسب الجهة التي يطل منها الشاب على الفتاة. لكن سليمان لم يفعل أياً من ذلك، اخترق حشد النساء، متجاهلاً همهمات الاعتراض والشجب والتذمر، حتى وصل إلى حيث تقف حنان. أراد أن يقول لها شيئاً؛ لكن صوته تهدج داخل صدره. اكتشف أنه لا يعرف سوى بضع كلمات، لن تنفعه الآن أبداً. لم تكن مثل هذه المواقف تكلفه في الماضي سوى أن يقف ويقول، لأن الكلمات كانت مرايا أو مصائد. كان قادراً بأسلوبه المباغت المختلف، على شل فرائسه، وتجميدهن، وعصرهن في إناء اللغة، وتناولهن عقب ذلك، لقمة وراء أخرى.

أما الآن، فإن التفاتة حنان إليه، ونظرتها المنتظرة، هما اللتان

منعتاه من المتابعة. غرق صوته وسط حرد الكلمات. أحس بألم في صدره، وفرطت رجلاه، فتراجع مخذولاً، منسحباً من الحلبة كلها، دامعاً، راغباً في النحيب بصوتٍ عالٍ، لفرط الوجد.

غير أن موقفه المتخاذل ترك انطباعاً ساحراً لديها. وما ترجم كنظرة تحدٍ وعنف، إنما كان انبهاراً سعيداً بقدومه المبارك. وقد عرفا أنهما تحابا، أن كل واحد منهما عشق الآخر. وإذا كان كثيرون من أصحاب سليمان لم يصدقوا أن زيرهم المنتصب قد تساقط وهوى، فإنه أكد لهم هذه الحقيقة بنفسه. لكن سليمان لن يظهر في الحكاية كثيراً، لأن دوره الحيوي، دوره كشخص من لحم ودم، دوره كعاشق، سينتهي تماماً بعد بضع صفحات. أي عندما يكون مصطفى قد رحل، ويكون حامد وحسن قد جاءا من تل العروس إلى السويداء، ليقطنا قريباً من منزل نسيب، في بيت حجري قديم استأجره لهما بنفسه. لكن القصة الحقيقية، القصة التي تحتوي على أكبر قدر من التفاصيل، لإظهار قوة القيم والقواعد الشروط والمشاغل والمشاعر الإنسانية، وضعفها في آن واحد، إنما بدأت بعد هذا الحادث مباشرة.

معظم الذين سألتهم من أقرباء آل الحسيني، أكدوا لي أن آخر مرة رأوا فيها حنان، تعود إلى نهاية الأربعينيات، أو أوائل الخمسينيات. وهذا يشير إلى أن اختفاءها تم بعد الزواج بأيام أو أسابيع. ومعنى ذلك، في كل الأحوال، أن أحداً ما قد أخبر حسن عن قصة الحب التي ربطتها مع سليمان نجيب، وأن الرجل اتخذ ذلك الإجراء الرهيب عقب علمه مباشرة، فأخفى تلك المرأة إلى الأبد، وراء الأسوار. أنا متأكد من أن تحقيقاً ما قد أجري على عجل في المنزل. ولدي اليقين أيضاً من أن الزوج الشاب قد عثر في استقصاءاته على دليل ما، أو قرينة،

على وجود علاقة جسدية ما، بين حنان وسليمان، وأنه عجز عن اتخاذ القرار المناسب لبضعة أسابيع. لقد أحبها هو أيضاً، في زمن الخطوبة. ولم يستطع أن يستخلص، في ظل الحضور الأبوي الكثيف لنسيب السعيد، أي دلالة مناسبة من حركات حنان. إذ إن البنت اعتمدت على الإشارات والألغاز الغامضة لإيصال رسالة الرفض. وبعكس ما تريد، كان حسن يرمم أي انحراف في لقاءاتهما، أو يرتق أي نقص، من أجل أن يبني صورة حب ناشئ ضروري بينه وبينها. يمكن أن نتحدث اليوم عن اجتماع الرغبة والغيرة داخل نفسه، حين لاحظ أنها لا تهتم به، لكنه لم يقم بأي خطوة اعتراضية، ولم يقدم أي إعلان متسائل عن سلوكها، مطمئناً إلى مصير المعاهدة القديمة الملزمة. لا تراجع. لا خيانات. وقد بنى استنتاجاته الصحيحة على الوعود التي قدمها نسيب له ولأخيه حامد، بلا تردد، وبصوت جهير، منذ أن قدما من الحسكة. إذ عوملا كمالكين لإرث نسيب الذي لم ينجب سوى البنات، فمنحت الدار القديمة لحسن، وهي بناء حجري مؤلف من مضافة وثلاث غرف، اثنتان منهما متداخلتان، يلحق بهما مطبخ وغرفة مؤونة وباكة وقبو. أما حامد فقد مُنِحَ دار نسيب ذاتها. بينما تُرِك للبنت الثالثة حصة كبيرة من أرض الجبل، وعقار صالح للبناء قريباً من شركة الكهرباء. لم يكن اقتسام الإرث فقط، هو الذي رسم مصير حنان، بل ذلك التدخل القدري في توزيعه، حين تقرر فيه منح ذلك المكان المناسب كسجن لحسن بالذات.

يخيَّل إلي أن في الأمر، نوعاً من التواطؤ اللئيم بين القدر والبشر، تم فيه، الإقرار بضرورة معاقبة المرأة التي تجرأت على رفض النذر أو كسره أو إلغائه أو الدوس عليه، دون أن يتعرض أحد لأي انتكاسة ضميرية معذبة. ولكن هذا لا يبدو لي عادلاً أبداً بهذا الشكل.

لنعد إلى ما حدث من جديد: كسرت حنان بضع أوان من المطبخ، رداً على الإعلام الذي قدمته ورد، وتعبيراً عنيفاً عن الرفض. المفردة الجاهزة لوصف موقف الأسرة هو الحرج. إذ لم تجد عائلة الإناث التي كانت مؤمنة حتى العظم، بمزاج حنان المتفجر، لا بنذر نسيب المرهق، أي وسيلة لمساعدتها، أو الوقوف إلى جانبها. لا تحمل النصائح في مثل هذه الحالة كثيراً من الأمل. وهذا ما أفسح المجال أمام حنان للتمادي في شغلها على علاقتها الوليدة التي صارت حباً.

يرى وضاح مثلاً، أن تلك العلاقة لم تكن حباً، بدليل أن البنت رفضت عرض سليمان نجيب للهرب معاً. وهذه حجة مقنعة مضادة لفكرة الحب العاصف. ليس لدي ما يدحضها، أي ليس لدي أي معلومة يمكن أن تسوغ لحنان رفض فكرة الخطيفة. وفيما سخر قيس من وضاح ومني، استغرب ألا يكون المجتمع، بتقاليده وعاداته وقيمه الأخلاقية، درعاً كافياً من أجل توليد الذرائع والروادع، لامتناع فتاة مثل حنان، عن الاستجابة لمطلب داعر مثل مطلب سليمان!

لا مناص عندي من اعتبار علاقة حنان بسليمان حباً، إذ لا تتجرأ أي امرأة في العالم، لا في مجتمع قيس المتزمت وحده، بل في أي مجتمع آخر، على الاعتراف، أمام رجل منذور لخطبتها، بوجود علاقة حب مع رجل آخر، إذا لم تكن تعشقه. الحب وحده (باتصال جسدي أو بدونه) هو القادر على منع الجزع، وتخريب الممنوع، وتلوين الاعتراف، ونسخ الهواجس، وخلق التحديات، وتصعيد الرفض. وإذا لم يحدث هذا كله في الواقع، ففي النصوص إذن. وهذا ما حدث مع حنان. إذ اعترفت أمام حسن بأنها تحب سليمان نجيب، آملة أن يتفهم هذا الولد الذي يأتي من الحكاية، وقائع الحياة، أو حياة الوقائع (هذا ما كتبته

في النسخة الأولى). لم يعد بوسعي أن أتراجع عن هذا الاعتراف، على الرغم من أنه اعتراف أخرق ومجنون ومبني على احتمالات وتوقعات لا أساس لها، ولا أمل في أن تُحدث أي تغيير على المسار الحياتي المقرر. وما نجم عنه كان معاكساً أو مناقضاً لما هو متوقع منه. وكان هذا محتماً كما يبدو، إذ إنه وضع في توقيت خاطئ تاريخياً، حين أغمض عينيه عن حقيقة أن حسن السومري نشأ كذكر مشبع بمزاج الأب الفحل الممتلئ بالعضلات والرغبات، كما تغافل عن أنه لم يتربَّ في حضن امرأة، كي تعلمه التسامح. هذا فضلاً عن أنه يحرمه من اكتساب بيت وزوجة وإرث وقبر، فيما كان سيكسب شكر امرأة. وعلى هذا فإن اعتراف حنان كان أقرب إلى البراءة والغريزة وافتراض النيات الحسنة، والاتكال على عافية الروح الإنسانية. أما موقف حسن فكان أقرب إلى المجتمع والأخلاق واكتشاف الحقيقة، والحقد على الخيانة والغدر، والرغبة في الانتقام.

ولكن لماذا فكر حسن بالانتقام؟! فالفتاة خانت الحكاية، ولم تخنه. أخشى أن أفكر أحياناً بأن تأويلات الحكاية (في النسخة الأولى خطأ كتابي جعل ويلات بدلاً من تأويلات) أقوى من تبريرات الواقع. لكن الخشية لا محل لها تجاه الحقائق، أو تجاه الأحداث التي ينفذها البشر. وهكذا فإن رغبة حسن في الانتقام، ظلت بلا تفسير. فقد تزوج حنان وهو يعرف أنها لا تحبه. لقد قالت له ذلك وجهاً لوجه، وهددته بأنها لن تمنحه الراحة أو السعادة أو الرأفة أو العناية في أي يوم. ومرة أخرى وجدت حنان أن الأقدار لا تستجيب لها، إذ إن حسن الذي تزوج ابنة الحكاية، هو الذي حرم ابنة الواقع، من الراحة والسعادة والرأفة والعناية حتى اليوم.

أعرف ماذا حدث. ولكني لا أعرف كيف حدث، وقد أقسمت ورد أيضاً أنها لا تعرف، وقالت إنها لم تر شقيقتها منذ أكثر من أربعين سنة. الغريب أنها كانت تتحدث عنها بلا ود. إنها ذكرى، قالت لي. وأكدت أن حسن سجن حنان قبل أن تحمل بولدها الأول. المذهل، في رأيها، أن منزل جدها القديم، كان مبنياً كسجن. صحيح أن أسواره الحجرية العالية، كانت صورة أو نمطاً شائعاً لا يثير أي غرابة في دائرة المنازل المجاورة المطلة كلها على السهل الغربي، ولكن هندسة الداخل وزعت الغرف ضمن منظور مختلف، ومفارق تماماً لجميع تلك المنازل. صرت أعرف الآن من الخريطة التي رسمتها ورد لي، مكان تواجد حنان. إنها تقبع وراء هذا الحائط (أعني الحائط الحجري العالي الأزرق الخالي من النوافذ) حيث بني القبو فوق جرف صخري عال، يرتفع أكثر من ستة أو سبعة أمتار عن الطريق الملتفة القادمة من جهة الجنوب، والمتجهة غرباً نحو الخرائب الرومانية، لتعود وتتجه شمالاً، وتصعد نحو الشرق من جديد عند أطراف الوادي الشتوي. هناك أو هنا تقريباً، بنى الجد الحسيني منزله الموقر على هذه الصخرة. ليس في سيرته أي شطح أو تحليق غريب عن المحيط، أما الأسانيد الوحيدة التي يعتمد عليها صديقي المهندس كمال المهاجر، للقول إن المنزل بني فوق أطلال قديمة. فهي فكرته عن المدينة. وذلك من خلال مخطط أولي وضعه بنفسه لها. لم يكن يقصد السويداء بالطبع، بل سؤادا النبطية. وهو يرجح أن هذا المنزل بالذات، أو أن الأطلال التي شُيِّد فوقها، إنما كانت مقراً لعبادة دوزاريس، وهو الإله المحلي النبطي الذي يقابل ديونيزوس اليوناني، إله الخمرة. هناك احتمال لدى كمال بأن يكون المكان حانة لشرب النبيذ أو العرق المستخرجين من عنب الجبل. فهل كان الأنباط أو اليونانيون أو الرومان يشربون الخمر في أقبية، في حانات مصنوعة

من أجل الصمت والعزلة والإبعاد؟ لم أقرأ في أي مرجع عن خصالٍ وشمائل من هذا النمط لدى اليونان أو الرومان. فهل كان الأنباط هم الذين ابتكروا هذه الطريقة؟! ليس هذا موضوع الكتابة، وإنما هو المدخل أو الإطار التصويري لمكان احتجاز حنان الأبدي.

الطريف أن كمال المهندس توصل للاستنتاج بأن اهتمامي بفن العمارة، لم يكن له أي هدف فني أو تزييني أو هندسي. فسألني فجأة: ماذا تفعل تلك المرأة هناك؟! قلت على الفور: تنجب أولاداً. كنت أرغب في إلقاء عبارة مجازية عميقة مثل: إنَّها تحتجز الماضي، وتنجب المستقبل. إذ إن سجنها الطويل ألغى حاضرها تماماً، لم يعد لديها برهة حاضرة مثلاً، وإنما صورة مثبتة على شخص اختفى حضوره الناسوتي، وبقيت ذكراه، فيما استمرت هي تحمل من حسن الذي لم يتوقف عن مضاجعتها في قبو النبيذ، ودكها بالمني، بحيث حملت ثلاثة وعشرين بطناً في السنوات الأربعين الماضية، بقي منهم خمسة عشر ولداً أحياء.

الاستنتاج الحاضر في مثل هذه الحالة هو ما حاكه جميل، إذ قال إن حسن السومري حوّل حنان إلى دجاجة. فإذا كان يستخدم الوصف بمعنى تحقيري، فإن المعنى البيولوجي الذي يمكننا من إدراج تلك المرأة المحطمة في المهام الوظيفية البحت، لا يمنعنا كثيراً من استعارة اللفظ، دون أن نتبناه فكرياً.

الأدهى من ذلك، أن قرينات حنان اللواتي عاصرن حقبة الحب التي عاشتها، في نهاية الأربعينيات، لم تكن لديهن مشاعر تعاطف مع قصتها. بينما كانت حكاية نسيب تحضر بقوة كل مرة، كتمثيل على نزعة الوفاء والصدق اللذين يعادلان الحياة.

طعمة الله شمس الدين ألقى إلي باليقين التالي: إذا كان حسن قد احتفظ بحنان طوال هذه السنوات، وأنجب منها هذه المسبحة من الأولاد والبنات، فإنني أقسم إنه لا وجود لرجل ممن أعرفهم أحب امرأة مثلما أحب حسن هذه المرأة. ثم أضاف بعد تأمل وتفكير (وهذا يعني بالطبع أنه دخن سيكارة على حسابي، وشرب كوباً من الشاي الأسود): إن حنان ستكون قد أحبته أيضاً. «فكر معي!» قال وهو يمد يده نحوي، ويحرك السبابة والوسطى كالمقص: «هات سيكارة ثانية!»

لم يثبت أن حسن عنَّف حنان أو ضربها، ولم يذكر أحد في المدينة طوال ثلاثة عقود أو أكثر، أن حنان أعلنت عصياناً أو اعتراضاً من أي نوع ضد قوانين الحظر والحرمان التي طبقت عليها في قبو النبيذ. والظاهر (الحقيقة أن كل ما أكتبه عن هذا الموضوع مبني على الظاهر وتأويلاته) أن عقداً ما قد تمَّ بالتواطؤ والاتفاق، أو أن أحداً ما سرب إليها أنباء محبطة من جهة سليمان، أبرزها زواجه السريع من إلهام البلبل، خذلتها وجعلتها أكثر ليونة وضعفاً (يؤكد طعمة الله أن جهات عديدة، منها مشيخة آل نجيب، وآل الحسيني، تدخلت في الأمر، وأنجزت الزواج المستعجل. ولكني أظن أن هذا الخبر من اختراع مخيلة طعمة الله، إذ ليس من المنطقي أن تتدخل هذه المقامات في موضوع عابر وشخصي من هذا النوع). ولهذا أجد أنَّ استنتاج طعمة الله السابق عن الحب، أكثر روحانية وصحة: لقد اكتشفت حنان منذ الليلة الأولى طرواة حسن، ولطف حضوره، إذ انسل إلى جانبها في الفراش بهدوء، ووضع كف يده فوراً على كتفها، ثم ظل هناك يتنفس وراءها دون أن يقول أي كلمة. لم تكن حركة يده مصطنعة، حين تلمس بها رقبتها، ثم انحدر إلى كتفها ثانية، وتسلل من هناك، عبر فتحة

الكم المحفور لقميص النوم، إلى أطراف نهدها. لقد نفذ الأشياء بحرفية فاتنة، لم تستطع على الرغم من بغضائها، أن تتجاهل تأثيرها الساحق، وقوتها الشهوية.

وسرعان ما سرت رعشة باردة خفيفة في جسدها، فسرتها في البدء على أنها استسلام الزوجة، قبولها بالأمر الواقع، لكنها، عند الفجر، حين ظلت مستيقظة تتأمل ما جرى، اشتاقت لها: كان كل شيء لذيذاً وطيباً وجديداً ومصنوعاً بإيقاع دافئ. فاجأها شكل عضوه، وطريقة تسلله، وولوجه إلى فرجها، بقدر ما ترك في داخلها شعوراً بالرضى والأمان. فأخذت حسن هذه المرة بنفسها، بكل المهارة المفترضة في امرأة مجربة عارفة. ولأن حسن كان نائماً، فقد خمنت أن أفضل وسائل الإثارة، هي إيقاظ عضوه أولاً. ونتيجة لهذه التقنية البسيطة، التي اكتشفتها، وجدت يدها تمتلئ به بعد لحظة فقط من لمسه. فأذهلها هذا من جديد، ولا تعرف حنان حتى اليوم، متى أو كيف أو لماذا امتطت حسن، وأولجت شيئه فيها. سمعت آهة قصيرة صادرة عنه، ثم رأت أثر ما فعلته في عينيه الجاحظتين.

أكد لي طعمة الله، حين قرأ المخطوط، أن كثيراً من الرجال، تذعرهم الاقتراحات الجنسية المفاجئة لنسائهم، وأن أول ما يفكرون فيه هو احتمال أن تكون ثمرة التجربة لا الفطرة. وهي غالباً ما تجسد في رأيهم، تجربة حب مع رجل آخر. ولهذا أخذها حسن من خاصرتها، ثم قلبها دفعة واحدة، وارتقى جسدها الذي صار تحته.

هناك احتمال أن تكون صرخت، أو تأوهت، حين أولج فيها، وهو سلوك الأحمق الخاسر الذي أبدته، إذ حتى لو كانت تريد التعبير الحر عن الإثارة، فإنها قد خربت الوضع الطاهر للزوجة التي لا

يليق بها أبداً، أن توصل أي سر من أسرار الحياة الداخلية إلى المحيط.

يمكن أن نختصر هنا. فبعد ثلاثة أو أربعة أيام، أي حين انتهت تقريباً مراسم التهنئة حسب الظاهر، أو حين تم إعداد وتجهيز مكان الإقامة الأبدي لحنان، قادها من يدها، بحب، وأدخلها إلى هناك، وأعلمها (بحب أيضاً؟!) أنها لن تخرج من ذلك القبو أبداً، إلا إلى القبر.

لا تعرف ليلى من تلك الدار شيئاً، وليس لديها ذكريات عن أي قبو للنبيذ أو لغيره. بل إن انتقالها من بيت حسن إلى بيت حامد، ألغى الاحتمالات التي يضعها التحليل النفسي عن ذكريات الرحم. المهم أن حامد وورد أيقنا بعد مرور عام على زواجهما، أن أحدهما عقيم، وقد ادعت ورد أنها لم تعرف قط من منهما كان السبب، وأن حامد مات وهو لا يعرف أيضاً، إذ اتفقا منذ البداية على عدم الذهاب إلى أي طبيب للبحث في موضوع الخصوبة. ولكن الشائعات التي ترددت آنئذ، ذكرت أنهما ذهبا بالفعل إلى طبيب شهير في دمشق، قادم من فرنسا، وأن الطبيب أبلغهما الحقيقة. وحين عادا إلى السويداء، ادعيا أنهما لم يجداه، وأنهما أمضيا أسبوع الغياب في مصيف بلودان. ثم حافظا فيما بعد على ذلك الصمت الذي تعاهدا عليه، وتابعا حياتهما دون تذمر، في ظل غياب شبه تام لأي سلطة يمكن أن تشن عليهما حملة المطالب المعروفة عن النسل والذرية والأحفاد والوارثين. فقد مات نسيب بعد زواجهما بسنة وبضعة أشهر، وانشغلت زمرد بمصير حنان، إلى أن ماتت مصادفة، حين زلت قدمها، بعد ثلاث سنوات من القهر، على الدرج الحجرية الصاعدة إلى العلية.

لست الآن بصدد التحقيق في الأمر، على الرغم من أن إحدى الشائعات تحدثت عن خلاف بينها وبين حسن الذي كان يمنعها (يمنع جميع الناس) من رؤية حنان، وأن حسن أبعدها عن طريقه رافضاً الكلام في هذا الموضوع. والمرجح أنه دفعها، فانزلقت قدمها، وهوت، فاصطدم رأسها بحافة الدرج، وماتت.

الحقيقة هي أن ما قُدِّم عن حياة تلك المرأة ليس كافياً. فمنذ أن غيبها نسيب عن إعداداته لمصير بناته، لم تستطع أن تظهر في أي مكان، إلا كظل، أو كخلفية غامضة.

السؤال الذي أقلقني هو: هل أخذت ليلى عنوة من بين فخذي حنان؟! المرجح عندي بعد حزمة الأسئلة التي وجهتها إلى ورد، أن حامد وحسن قد اختطفا ليلى بعد ولادتها مباشرة. ولكن الغريب أن حسن هو الذي عرض على أخيه البكر، الذي كان قد مضى على زواجه أكثر من ثلاث سنوات، فكرة استعارة المولود القادم، حين كانت حنان حاملاً. رتبا الأمر بالتعاون مع داية عجوز، أرملة تقطن في مخزن قديم، مفتوح على زقاق ملتو، يتسلل من الحي الفوقاني، باتجاه عين الزمان. ما يزال المخزن موجوداً، وله باب من الصفيح المحزز، مدهون باللون الأخضر. وقد ماتت الداية التي سأسميها نخلة (وهو اسم غير محلي) في شهر آب من عام 1964. أي إنها ماتت في الأيام التي تعارفنا فيها أنا وليلى في بهو المديرية. لا أعرف من الذي ضمن صمت نخلة، حين ولدت ليلى، ولكن الداية الأبدية حافظت على وعدها لهما، بأن تحفظ السر، ولم تقل شيئاً لأي شخص. أما حسن فقد دأب على نسيان نطافه المهاجرة، حتى اليوم.

حين أعدت قراءة الصفحات السابقة، اكتشفت أن من السهل،

أن نغطي أكثر من أمر في هذه الحكاية، فعدم وجود أي معلومة عن العقم، مكن حامد وورد من تلفيق حكاية حمل مفاجئ، ممنوح من الرب الكريم، لم يستطع أي واحد من المعارف إنكار احتمال حدوثه، أو التشكيك به. أما الجانب الفيزيائي منه، أي امتلاء البطن التدريجي بالمولود، فقد تم تدبيره باستعارة كرش خروف صغير وربطه إلى الخصر بأمعاء تيس، وتنقيطه بالماء، وفق معدلات معقولة (حين تريد ورد الخروج، أو حين تستقبل الزوار) تجعله يمتلئ ببطء رحم حقيقي، استعداداً لساعة الولادة. رسمت صورة عن النفاس أيضاً، اشتملت على النوم، ووضع المولود قرب الفراش، وإعداد طقوس استقبال المباركين، حيث يقدم مغلي القرفة والزنجبيل والخولنجان مع الجوز، في أوان من القيشاني الصيني أو التركي الفاخر.

ما لم أجد له حلاً هو السؤال عما إذا كانت ورد قد أرضعت ليلى، وفيما إذا كان ثدياها امتلأا، كما يشاع أحياناً، عن قدرة غرائز الأمومة على تمكين المرأة، حتى لو كانت عاقراً، من تقديم الحليب لرضيع.

ولكن إذا ما نظرنا إلى هذه الشائعة على أنها حقيقة من حقائق العالم الباطني للبشر، أو أنها ترجمة لأمنياتهم، وتوقعاتهم، فإن من الطبيعي، أن تكون ورد، قد أرضعت ليلى التي صارت ابنتها، ابتداءً من تلك اللحظة التي احتضنتها فيها، بعد ولادتها.

لم أعثر في الملف، ولا في المخطوط الذي كتبته، على أثر لحنان. وهو أمر جعلني حائراً تجاهها، وتجاه الكتابة. لا أدري فيما إذا كان الكاتب هو الذي يقرر أن يكون هذا الفرد بطلاً، أي شخصية مركزية، رئيسية، أو يكون شخصية ثانوية، أو يكون تافهاً بلا حضور، أم هي الحياة؟

أفكر أن اختيار هذا أو ذاك محكوم بحضورهم أو عدم حضورهم

في خبرات الواقع، أي داخل الأحداث، وسط المشاركة. ولهذا من الصعب أن تكون شخصية شبحية مثل حنان، قادرة على احتلال أي مكانة روائية، ثم فكرت أن معظم الروائيين يميلون إلى استبعاد البشر، أو حرمانهم من امتيازات البطولة، أو الحضور الفاعل بناءً على شكوكهم في أهليتهم، لا بناءً على اقترابهم أو ابتعادهم عن بؤرة الأحداث. ولكن وضاح يعترض، يدعي أن الكاتب هنا كالمستبد، يحكي عن المكانة والامتياز والقوة، ويهمل المعاناة والهوامش والتباسات الضعف. وهذا صحيح. ولكن إهمال حياة حنان، كان صدى لأمرين: الأول هو أن الكيفية التي تمت فيها صفقة تبني ليلى، ظلت مجهولة لي، لأني لا أعرف ما الذي جرى في ذلك القبو، بعد أن ماتت الداية نخلة، ومات حامد، ولن يخاطبني حسن، ويستحيل لقاء حنان، ولا ترى ورد حصافة في التحقق من الأمر. غير أن بقاء هذه المرأة حبيسة القبو طوال أكثر من ثلاثين سنة، أمر مريب روائياً، وإن القبول به، وتفسيره يحتاجان إلى صفحات ينوء بها نص يحقق في حياة أفراد العصابة. هذا عدا عن الشكوك، ثانياً، التي ظلت تراودني عن تفاهة امرأة لم تفعل أي شيء تجاه حريتها، في هذه السنوات العمياء!

حين وصلت إلى هنا، اعتقدت أنني أنهيت الشروح اللازمة لتوضيح الملاحظة التي كتبها المحقق عن نسب ليلى. عن الكيفية التي تمت فيها عملية نقل المولودة إلى حضن ورد. ثم اتضح لي، هذا الصباح، وأنا أعيد قراءة الصفحات، أن الكتابة ناقصة وضحلة، ولا تنظر إلى الأحداث إلا من زاوية واحدة شكلية وخارجية. وهي تتعامل مع أفعال البشر وكأنها خطوات ميكانيكية تستجيب أو توضح الأسرار التي اكتشفها ذات يوم، محقق في المخابرات. أعترف الآن بأن شخصية حنان التي وصفت من قبل بأنها متخاذلة وجبانة وتافهة، بهدف التخلص من أعباء الحديث

عنها، ظلت ترشح إلى سطور النص بلا توقف، وأن شخصية حسن ظلت غامضة وجذابة ومغوية، بسبب تلك المأثرة (لكن هل هي مأثرة حقاً؟) التي اجترحها تجاه أخيه المحروم من النسل، أو بسبب تلك القوة النفسية المدهشة التي تمنحه القدرة على معاشرة امرأة يعتقد أنها خانته ذات يوم، وأن ينجب منها ذلك العدد من الأولاد!

كان المحقق قد أشار إلى أن حسن يعمل سائقاً لسيارة تكسي عمومية، وقد اكتفى بهذه الإشارة دون تعليق. أما قيس فقد أثار أسئلة عديدة مثل: لماذا لم تدافع ورد عن أختها؟ لم ظل حامد صامتاً أيضاً؟ من أين اشترى حسن سيارة؟ ولماذا بقي حامد فقيراً؟ ليس لدى أجوبة على أسئلة من هذا العيار، لذلك عرض طعمة الله أن أسمح له بجمع المعلومات حولها. قبلت فوراً، فالمكتبي المتقاعد كان يملك رصيداً من المعارف والأصحاب والأصدقاء، يمكنه من تصفح الماضي، والقبض على بعض المفاصل الدقيقة فيه، دون أن يثير ريبة أحد. هذا فضلاً عن امتلاكه لغواية خاصة، قادرة على امتصاص الأخبار، أو انتزاعها من أصحابها، بحيل بسيطة قريبة من نفوسهم وعقولهم. وهو ما كنت عاجزاً عن فعله. إذ إن ذهاب رجل مثلي بثياب حضرية، وسيكارة حمراء طويلة، ورائحة مزيل عرق، ودفتر ملاحظات، أو مسجلة صغيرة، كاف لإثارة زوبعة شكوك تدمر أي حكاية. وبالمقابل فإن رأس طعمة الله (كما بدأت أكتشف منذ أن ابتعد عن طراحة اليأس التي افترشها لسنوات) كانت تنطوي على ذاكرة زاخرة بالقدرة على اختزان المعلومات، ومراكمتها وتنسيقها مثل آلة. لكنه كان عاجزاً عن استعادتها في الكتابة، وهو ما عرفته حين سلمني مشروع رواية حاول أن يكتبها منذ سنوات.

يذكر طعمة في تقريره أن ليلى سُلمت لحامد من قبل أخيه حسن، في التاسع والعشرين من تشرين الثاني من عام 1951، أي في الليلة التي أعلن فيها أديب الشيشكلي الحكم العسكري في دمشق، ويقترح علي أن يتم فهم شخصية حسن وحامد وحنان وورد في ضوء هذا العقل الذي افترس العالم العربي، ابتداءً من تلك اللحظة، رداً على العقول الأخرى التي قدمتها الثقافة الغربية.

كنت سأتجاهل هذه الإشارة الغريبة، لولا أن طعمة الله أكد لي أنه لاحظ، في ذلك الحين، التغير الذي بدأ يطرأ على سلوك الناس وثقافتهم اليومية، ابتداءً من زمن حسني الزعيم. ولأن طعمة الله كان شاهداً من شهود تلك المرحلة، فإن الاستماع إلى رأيه يبدو حكيماً الآن. فقد أفهمني أن سلوك الأفراد المنعزلين، المغمورين، البعيدين عن دوائر القرار، والموجودين بالقوة تحت مظلته، لا يمكن تفسيره، أحياناً، إلا باللجوء إلى قدرة السلطة على إعادة تشغيل عقول هؤلاء الأفراد، وفق رغباتها. رأي طعمة الله أن وثوب أولئك الضباط (يقصد الزعيم والحناوي والشيشكلي) إلى كرسي الجمهورية الفتية الأول، بكل تلك السهولة، جعل حضورهم الجسدي يتفوق بقوة على روح المجتمع كله. ولهذا ساد ما سماه: العقل العسكري (يمكن الحديث أيضاً عن عسكرة العقل) وهو عقل يتصف بالقدرة على الخدش والنهش والعض، أي بقدرة الافتراس ذات الطبيعة الغابية (وهو رأي يخالف صراحة رأيّ باتريك سيل الذي ادعى أن الشعب السوري أيد العسكر مباشرة، حين كان يرغب في أفول نجم الأحزاب السياسية)، ومن هنا فسر تلك الطريقة البهيمية التي اتبعها حسن، لانتزاع ليلى من يدي حنان (إذ كان الوقت قد أسعف الداية كي تغسلها، وتحفضها، وتلفها، وتضعها بين يدي أمها) وتقديمها إلى أخيه وزوجة أخيه.

كنت أعتقد قبل صفحات أنه جموح نبيل أملته شهامة أخوية نادرة. لقد قدم البنت كقربان، كفدية عن ذنب لم يرتكبه، لشقيقه الذي حرم من الولد بإرادة الله. غير أن طعمة الله اكتشف أن الأمر لم يكن سوى مبادلة بضاعية، تم فيها سرقة المولودة ومنحها لحامد، مقابل تخلي هذا الأخير عن حصته من إرث أمهما الذي جاء به خالهما أويتر إلى دمشق.

أحياناً تبدو الكلمات كالشراك. فاستخدامها، بناءً على حدوس مجانية، في غير محلها، يمكن أن تبعد الكتابة عن حقيقة الأشياء! فبدلاً من القربان، وضع طعمة الله: التبادل، وبدلاً من التكافل وضع: المهارة، وبدلاً من الفضيلة وضع: سيارة مرسيدس، وبدلاً من الفدية وضع: البضاعة. وهكذا نستطيع إجراء مناقلات لا نهاية لها، في هذا الموضوع، وفي غيره، كما يقترح طعمة الله، حين يكون علينا أن نتغلغل قليلاً أو كثيراً في لب الوقائع والأحداث، والعلاقات الإنسانية.

ولذلك، يصح أن نعتبر سلوك حسن الانتهازي، واستعداده لمقايضة ابنته بسيارة، أو اعتقاله لحنان (وقد حبسها في قبو النبيذ في الأشهر التي استولى فيها الشيشكلي على السلطة كما ذكرنا من قبل) والسطو على جسدها، كلما رغب فيه، على أنه تداخل مع سلوك السلطة العسكرية الظافرة، التي اختطفت الشعب كله، لتضعه في أكياس خاطتها بنفسها تحت أسماء مستعارة من أي معجم!

تمتلئ أوراق طعمة الله بمثل هذه المقارنات. والحقيقة أنني لا أمتلك أدلة كافية لدحضها، إذ إن ملاحظة مثل هذه التغيرات النفسية والسلوكية، ورصدها وإقرارها، بالطريقة المتساهلة أو المتسرعة أو الواثقة التي يعمل بها طعمة الله، أمر يبدو مكلفاً جداً، وغير مأمون، في كل الأحوال.

اللافت أيضاً أن قيس الذي بدأ في طرح الأسئلة التشكيكية التي جعلتنا نعيد امتحان الحكاية من جديد، أبدى خمولاً تجاه نتائج طعمة الله. كنت أزوره عند العصر، وكان قد استيقظ من نوم القيلولة، وبدأ يعد القهوة، وهتف حين رآني: «ابن حلال!»، وأقسم لي إنه زاد كمية الماء في دلة القهوة، حين خطر اسمي في باله فجأة. تقبلتُ ذلك الكذب الخفيف على أنه مجاملة مرتجلة، أو مصانعة ودية، هذا إضافة إلى أن رائحة القهوة المغلية كانت تمدني بالطمأنينة وتجعلني أكثر ميلاً إلى المهادنة أحياناً، والمداهنة أحياناً أخرى، بحيث لم أبدِ أي حنق تجاه اتهامات قيس لطعمة الله بأنه خرفان، وتافه، ومقمل أيضاً. لقد سمعت من قبل هذه النعوت من جميل، ووضاح، دون أن أفهم الكثير من أسرار التداخل الغريب بين آرائهم!

فالجوهري، في تعليق قيس، هو أن ما فعله حسن تجاه أخيه، لا يمكن تفسيره بالأسباب الخارجية التي يعتمد أصحابها فيها على غبار النظريات الأحمق، أي على تنسيب السلوك الإنساني عظيماً كان أم حقيراً، إلى تلك الأبنية الغربية من الأفكار النفسية (كان قيس يعرف أن طعمة الله يقرأ فرويد) أو الفكرية، أو السياسية، دون رحمة، أو دون حساب للطبائع المفردة. ماذا يعرف طعمة الله وأسياده عن نفسية رجل مثل حسن السومري، وجد أنه قادر على تحبيل زوجته كل يوم، إذا أراد، بينما يقبع أخوه في شرنقة مقفلة وليس لديه في خصيتيه أي كائن حي يضمن له ذرية؟ فماذا يفعل؟

قال قيس إن أفكاره هذه لم تكن تأويلاً باطنياً منتزعاً من الأوراق الصفراء، والكتب المهملة، وإنما يقين ثابت تلقاه شخصياً من المقربين إلى حسن. فمنذ أن عرف أن طعمة الله سوف يتحرى عن حقائق

انتساب ليلى البنوية، قرر أن يجري بحوثاً خاصة به، مضادة للمكتبي العجوز. كانت المدينة القديمة قد شهدت أبرز تغيير في بنيتها، أو في شكلها المعماري، حين ألغيت تلك الجورة العظيمة المسماة «السورية» (وهي بركة مياه عميقة جداً) وشيد مكانها موقف عزاء ضخم، حيث اعتاد قيس على المجيء إليه للتعزية في أحد الموتى. وبسبب ازدياد عدد سكان المدينة، فقد ازداد عدد موتاها، وهذا يعني أن فرص لقاء قيس (وغيره من موظفي الدولة) بالآخرين صارت يومية تقريباً. وهو ما أتاح مجالاً رحباً لمعرفة بضعة أسرار ـ كما قال لي ـ لم يكن يستطيع طعمة الله أن يعرفها.

أبرز ما في تحريات قيس هو أن حسن السومري قرر أن يتخلص من الجنين أو من المولود فيما بعد بأي ثمن، منذ أن انتابه الشك بتوقيت حمل حنان. لقد وجدها حبلى ذات يوم، دون أن تخبره بأي تغير سابق.

أقسمت إنها لم تكن تعلم شيئاً عن أعراض الحمل، وإن انقطاع طمثها لم يعن لها سوى غياب محبذ لدم كريه. وإن الدوار الخفيف، والغثيان العارض اللذين شعرت بهما، لم يعنيا لها أيضاً أكثر من تعبير جسدي عن ضيق الروح في هذا السجن الخامل.

لكن مسوغاتها، كما افترض أيضاً، لم تقنع حسن الذي نكأ الحمل جرحه، وبالعكس، فقد أخافته. كانت تحكي بصدق قاتل، بدا له قناع شيطان، قوة للشر قادرة على ابتكار مبالغات الادعاء بالبراءة.

وبسبب جهله (ذات الجهل بفيزياء الجنس الذي رفض أن يقر بوجوده لدى حنان) لم يستطع أن يفهم أن الحمل لعبة داخلية سرية، يلعبها حيوان مجهري صغير، راكض وسط إفرازات رحمية وراء بويضة

جذابة لعوب تطل عليه من العماء. وإنما هو خديعةٌ، شركٌ نصبه له حظه الرديء الذي أوقعه في حب هذه المرأة المجرمة التي تريد أن تجعله يبدأ حياته الزوجية أباً لمولود ليس له، ليس منه.

هنا يقدم قيس معلومات جديدة، لم أتمكن من توثيقها أبداً، وهي أن حسن استخدم التعذيب الجسدي، لانتزاع اعتراف حنان بأن جنينها ثمرة زنى مارسته مع عشيقها سليمان نجيب. الغريب في الأمر أن حنان لم تخرج من القبو قط، بعد أن سجنت فيه، وأن سليمان نجيب ترك المدينة، بعد زواجها من حسن السومري (هناك من أكد لي مثل زعتر أبو حسين، أنه سافر قبل زواجها، وهو الآن أحد أثرياء المغتربين في السلفادور) وليس من المعقول بالطبع أن يظن أنها حملت قبل الزواج. فالمتوقع أن يكون حسن هو الذي فضَّ بكارتها. إلا إذا كان دخل بها، وعرف أنها امرأة، وسكت عن الأمر. وعندئذ سيكون هذا السجن إحدى وسائله العقابية ضد محبوبته. غير أن السجن في القبو ليس حلاً، كما قال وضاح، فالعقاب في أحد وجوهه، هو، حسب رأي وضاح المحامي، اعتراف من الجلاد بقوة الضحية، بحضورها، بوجودها الثقيل. أما السجون في عمقها، فليست سوى استعارة، يخفي وراءها الجلاد أو المستبد أو الحاكم خوفه العميق من شطحات سجينه.

ربما شعر حسن بهذه المعطيات، مجرد شعور خفي غير مفهوم، جعله يفكر في العمل الآخر الذي سيبعد ذلك المخلوق القادم من المجهول نحوه!.

لم يرد القتل في ذهنه قط. ويعتقد قيس أن السبب هو خلو جيناته الآشورية من هذا الميل العنيف لتصفية النساء الخاطئات، جائز! كما أنه لن يطلّقها بعد أن خاض معركة الاستيلاء عليها.

وهكذا وجد الحل المناسب، ووجد إضافة إليه، جميع العناصر الضرورية من أجل التنفيذ، وذلك بموافقة حامد على أخذ المولود، وقبول ورد تمثيل دور الحامل العلني، في غياب حنان.

هل يعني هذا أنهما كانا متواطئين؟!

التواطؤ تهمة تحتاج - حسب قيس - إلى أدلة وثبوتيات، لكنك تستطيع أن تتحدث عن رضى هذين الشخصين، وتقدم القرائن المطلوبة دون مصاعب. يظن أن ليلى نفسها أعظم قرينة في التاريخ. لكن هل تجد أن عملك يمكن أن يصبح أقوى إذا افترضت أنهما تواطأا مع حسن؟ لا أعرف. يجب أن أجرب ذلك، ثم أرى أثر اشتباك المعاني. جرب إذن! سأرى.

الحقيقة هي أنني قلت ذلك باستعجال، إذ إن التفكير في أن يكون حامد وورد متواطئين مع حسن، يحتاج إلى خيال جامح ومنحرف كي يستطيع استبطان مشاعر وانفعالات رجل وامرأة عقيمين، قدم لهما مولود ينتمي كله، أو جزء منه إليهما كليهما، أو إلى أحدهما! كيف يمكن تقمص هاتين الشخصيتين، وتبديل أو إلغاء المعايير والقيم التي تربيا عليها؟!

وجدت أن المخطوط الأول يذكر تفاصيل كثيرة عن موضوع الحمل والإنجاب. وقد تضمنت ملاحظات عن الدبيب المتلاحق لنسيب قبل موته من أجل الاستفسار عن النتائج. كانت زمرد هي الواسطة التي تحمل الأسئلة والتعليقات، وتعود بالأجوبة الملفقة إليه.

صار لدي الآن بعض الاحتمالات، التي عززتها التقارير المسلكية التي باعني إياها موظف كهل مقبل على التقاعد في مديرية الأحوال الشخصية التي كان يعمل فيها حامد السومري. دفعت له ألف ليرة،

وأخذت الإضبارة كلها، وهناك عرفت أنه كذاب مثلاً، إذ إن التقارير تشير إلى عضويته المؤكدة في حزب التحرير أيام الشيشكلي، والحزب السوري القومي (دون نشاط ظاهر)، ثم الحرس القومي الناصري. وهذا يعني أنه لم ينتسب إلى حزب البعث إلا في نهاية 1963، أي بعد أن استولى الحزب على السلطة نهائياً.

لا علاقة تربط هذه الخيارات السياسية بروايتي. ولكنها إحدى القرائن الدالة على استعداد أي شخص لتبديل وجهه، وقناعه حسب الموضة، أو حسب المصالح. وعلى الرغم من أن تبديل الهويات الحزبية كانت واحدة من الخصال السورية المميزة، في السنوات الأربعين الماضية، أي على الرغم من أن سلوك حامد كان داءً اجتماعياً، وليس خياراً شخصياً يشير إلى سيكولوجيا فرد معين، اسمه فلان الفلاني، فإنَّ انضمام شخص مثل حامد، نشأ في رعاية مصطفى السومري، إلى جمجمة القطيع، يجب أن يكون مؤشراً على خلل ما، سوسٍ ينخر خشب الرأس، ويسمح بمرور أي حشرة فكرية، وتلفيق أي انتماء، والزهو به أيضاً، واستعارة الطباع، والقبول بالخروقات الأخلاقية للمحرم والمعيب والمحظور، دون تلك الولولات الدامعة عن عذاب الضمير، أو التصريحات المنذرة عن غضب الرب.

لا أعرف إن كانت هذه الاستنتاجات واحدة من المبالغات التي قد تنخرط فيها الرواية، أو تنزلق إليها الكتابة الخيالية عامة، ولكن إعادة ترتيب الوقائع، أخذت تفضي إلى النتائج ذاتها: وهي أن حامد رضي، وأذعن، وشجع، وحرر المبادرة التي تقدم بها حسن، من اللحظة الأولى. صحيح أنه تعجب من اندفاعته، وحماسته، عندما اختلى بنفسه في البيت، لكن هذا العجب لا يفسر شيئاً. إنه يضيف مزيداً من الحيرة

على سلوكه، دون أن يلغيه. لقد راقت له الفكرة التي عرضها شقيقه، من غير أن يدقق في مغزى العرض. لم يكن هذا آخر انزلاق أخلاقي بالطبع. فقد فعل أشياء مقاربة حين عرف أسباب أخيه. صحيح أنه أظهر الغضب تجاه الاتهام الوحشي الذي سمعه من حسن، ولكن يمكن القول إنه غضب شعوري، غضب خامل خال من البريق، كما أن الكلمات والعبارات التي استخدمها من أجل تقريعه لم تكن تهدف إلا إلى توجيهه نحو ضبط انفعاله، ولي لسانه إلى داخل حلقه، وإقفال القضية إلى الأبد (نعرف كيف أقفلها) وهناك احتمال قوي بأن يكون حامد وراء معالجة التهابات الشرف، وتبريدها، من ثم، في إناء مكرس للحفاظ على سمعة الأسرة الراحلة من آل السومري، والأسرة الحاضرة من آل الحسيني، وهي الجمل المناسبة في تلك اللحظة لحسن أيضاً، حين كان مبدداً بين أن يقتفي أثر قلبه، للعفو عن المرأة التي أحبها، أو يلحق بأوامر عقله، ومشاعره، الممتلئة بالغيظ والحنق والقهر من حملها الشائن.

أعجب قيس بهذه الإشارات، وقد نفذ ذلك بالحركة التي اشتهر بها منذ الشباب: مط الشفة السفلى إلى الأمام، وإطلاق نغمة غامضة من الحلق.

استبقاني عنده للغداء. كانت هذه هي المرة الأولى، منذ أن أعدنا صناعة صداقتنا القديمة، التي يعرض فيها أن يدعوني للغداء، وأن يعرفني إلى زوجته. هذه هي الحقيقة، ففي كل زيارة من زياراتي السابقة كان قيس يعتذر عن غياب زوجته. أما في هذه المرة، فقد دخلت من الباب فجأة، وتوجهت نحوي مباشرة، وهي تبتسم ابتسامة ظافرة، وتقول: «مرحبا زيدون!» مشهد سينمائي متقن ومشغول بهدوء ثعلب ناجح مختبئ خلف ضلفة الباب. لا يمكن أن أعيد توصيف اللقاء

دون أن أخل بشيء ما في الكتابة. فالمرأة التي دخلت علينا حاملة تلك الطلعة كانت ميسورة العز نفسها. كان علي أن أصرخ في وجه قيس تلك اللحظة: يا كلب! يا شرموط! يا نذل!

بالنسبة لي كانت ميسورة العز صديقة ليلى. أذكر جيداً أنني رأيتهما معاً بضع مرات، في السوق، أو في إحدى أمسيات المركز الثقافي، أو في أي مكان آخر، ولكنها بالنسبة لقيس (ولوضاح أيضاً) كانت عدواً طبقياً. فهي ابنة أحد أثرياء المدينة الذين كان قيس في الستينيات قد فكر في الاستيلاء على قصورهم ونهب أموالهم. حدث ذلك بالتعاون مع وضاح، وعلى الرغم من أنهما أقرا، بحضور جميل، أن هذا الهجوم قد لا يكون ضرورياً، علماً أنه سوف يكون إحدى الصور المنسوخة عن صورة الاستيلاء على قصر الشتاء الروسي. وعلى الرغم من أننا ـ جميعاً ـ اعتبرنا الفكرة مزحة لطيفة، فقد بدأا بالفعل في إعداد خطة لاقتحام منزل والدها، مستعينين بالرسوم الخارجية التي رسماها للقصر أثناء تجوالهما حوله. ولكن المخابرات قبضت عليهما ذات يوم، ولم تفرج عنهما إلا بعد أكثر من أربع وعشرين ساعة. ضربا خلالها على أرجلهما بالكابلات الرباعية.

المثير أن وضاح وقيس افترقا تلك الليلة افتراقاً غريباً. فقيس اعترف أن ما قاما به، مزحة صغيرة، وقد تكون ضارة ومبددة للعمل الثوري الحقيقي الذي يتطلب فعلاً أكثر جدية، وأكثر صلابة، بينما قال وضاح إن القبض عليهما بهذه الطريقة، وتعذيبهما بكل تلك الوحشية، واعتبارهما فأري تجارب (يشير وضاح هنا إلى أن الكابلات الرباعية كانت تستخدم لأول مرة من قبل المخابرات) إنما تؤكد وجود تشوه خطير في الطبائع البشرية.

في النسخة الأولى كنت قد كتبت: ما أثار غضبه أنه لم يكن بينه وبين ذلك الموظف الذي جلده بالكابل الرباعي أي معرفة؟ أي ثأر؟ أي خلاف؟ ومع ذلك فقد بدا سعيداً راغباً في استمرار العقاب إلى الأبد! قال وضاح إنهما إذا كانا يجريان استطلاعاً للقصر ودراسة للأماكن التي يمكن اقتحامه منها، فقد ادعيا أمام الأمن بأن الأمر لا يتعدى الفرجة على العمارة، والتجول حولها (قال قيس إنهما دارا بضع مرات حول القصر).

لم تكن مراقبة التجول قد نشأت بعد، فهي ابنة المرحلة القادمة. أي سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن، حين تكاثرت الأحزاب الراديكالية، فردت عليها السلطة بزيادة أجهزة الأمن، وزرعت الشوارع، والساحات، والمنعطفات، والأزقة، ودور العبادة، ودور اللهو، والسينمات، والمكتبات العامة، والمقاهي، والمطاعم، والفنادق، إما بالدوريات المؤلَّلة في سيارات البيجو، أو الدوريات الراجلة المتنكرة في أزياء المواطنين.

كنت قد كتبت مشهداً يتضمن خروج البطل من بيته عند منتصف الليل، للتنزه في شوارع المدينة، حيث تفاجئه دورية من المخابرات، وتقوده إلى الفرع للاستجواب. وهناك يعترض البطل على الاعتقال، ويطالب بحقوقه، ويرفض أن يجيب على أسئلتهم. لقد رأى أنهم يعتدون على الخصوصيات، أو أنهم يحاولون التسلل إلى الأسرار البسيطة، إلى أفعال الحماقة، أو إلى دقائق اللامبالاة التي يرغب أي فرد في أن يفعل فيها شيئاً ما، كالتجول ليلاً، من أجل لا شيء. غير أن المحققين يرفضون اللاشيء، اللاشيء شبهة، معنى مخبأ ومنذر بخطر وشيك مرشح للانفجار، ولهذا يمددون اعتقاله أسبوعاً. تثير زوجته خلال ذلك، زوبعة من الاتصالات، تسأل الشرطة، والمستشفيات، ومكاتب

السفر، ومنازل الأصدقاء والأقرباء، دون أن تفكر في احتمال اعتقاله، لذلك لم يسأل أحد إن كان موجوداً في المركز الأمني. فالاختفاء هناك لم يكن قد ولد بعد. كنا هنا إزاء حالة تجريبية، يحاول فيها هذا الجهاز الوليد أن يقدم اختباراً مناسباً لهويته المقبلة. حسناً! لقد نجح. فاختفاء البطل لأسبوع، اختفاءً كلياً، ثم خروجه المفاجئ في منتصف الليل أيضاً، حيث أعيد إلى المكان الذي أخذ منه، وفي الوقت نفسه، أثارا بلبلة متساوية عن السبب والنتيجة. لقد تُرك البطل كي يحدث الناس بحرية عن أسباب اعتقاله، وأساليب تعذيبه، وشكل حبسه، ومعاملته، والطرق المتبعة في الاستجواب، دون أي تدخل من قبل الأمن، أو توصية، أو تحذير. وهكذا فإن ما بدا أنه حرية في فضح الممارسات، إنما كان رسالة خفية عن الحضور السري، والأوامر غير المعلنة، للقوة الجديدة الصاعدة المولجة بمراقبة المشي!

فيما بعد عرف قيس أن ميسورة هي التي أعلمت والدها الذي اتصل بالأمن، عن وجود شابين (شخصين) مشبوهين. لقد لاحظت وجودهما المتكرر، حول القصر، منذ ثلاثة أيام. فخافت.

بدا قيس ساخطاً، شتم البنت، وتمنى لو يتسنى له أن يمسك بها. لم يكن لديه آنئذ سوى الهتك الجنسي لتدعيم رغبته في الانتقام منها. ولم يتوقف، فيما بعد، عن إظهار كراهيته لها. كنا نسير أحياناً برفقته مسافات طويلة، كي يتمكن من إرسال كلمة جارحة (جنسية بالطبع) إليها، وقد أخفق مرات عديدة في مهمته، لأن ميسورة كانت تظل برفقة بنات حارتها، ولا تتركهن إلا أمام بوابة القصر. رأينا مثل ذلك في السينما، مرفقاً بانتصارات صريحة للبطل.

لكن قيس بدا مهزوماً كل مرة، كنا نعود شبه يائسين، فيما كان

يغني ألحاناً حزينة وجريحة، إلى أن طلب منا ذات يوم أن نتوقف عن مرافقته. قال إنه لم يعد راغباً في مناكدة البنت، فهذه الرغبة بدأت تجرحه، تؤلم رأسه. ولكن قيس كان يخدعنا في الحقيقة، ففشله في تبخير ميسورة بالكلمات، تحول إلى مشقة، عسر عنيف جعله يستأجر - دون علمنا - معتوهاً اشتهر بأنه يتحرش ببنات الثانوية. المؤكد أنّ قيس دفع له رشوة: علبة سجائر. خمس ليرات. بنطلوناً عتيقاً. حذاء مستعملاً أو جاكيتاً. أذكر أنني رأيت المعتوه يلبس جاكيتاً يشبه ذلك الذي كان يرتديه والد قيس: القبة العريضة، والأزرار المستديرة الضخمة، والجيوب الملصقة إلى القماش الملون بكاروهات سوداء وبيضاء، أما التنفيذ فيتم على هذا الوجه: يلحق المعتوه بميسورة، يشد قميصها - كما يفعل عادة مع البنات - تجفل مذعورة وهي تلتفت نحوه: أعطيني بوسة! تعرف ميسورة، والفتيات اللواتي يسرن برفقتها، المعتوه الذي يرابط قرب الثانوية، في أوقات وصول البنات، أو انصرافهن. في العادة، تمنحه البنت ربع ليرة، أو قطعة بسكويت، أو سندويشة، فيذهب إلى أخرى. غير أن ميسورة تصاب بالذعر. تبدأ بالصراخ وسط الشارع. فيهرع إليها المارة، والباعة، وأصحاب المحلات التجارية. أحدهم يصفع المعتوه، ويركله، ويأمره بالابتعاد عنها، لكنَّ ميسورة تنهار فجأة، تقع أرضاً، وهي عاجزة عن الإمساك بهلعها المدمر. وبالمقابل يذعر المعتوه أيضاً. لم تعرف المدينة عنه أنه أساء جسدياً أو شفهياً إلى أي بنت، كان تحرشه يقتصر على قول عبارات نظيفة، وصافية، للبنات. يمشي بجوارهن مثل ظل، يبتسم لهن ابتسامة خالية من أي إشارة داعرة، ثم ينكفئ حين تبدي أي فتاة نفوراً، أو انزعاجاً، ليتجه إلى مكان آخر، أو شلة أخرى. كان ذلك المعتوه جزءاً من ديكور الشارع الرئيسي المتجه

إلى ثانوية البنات من وسط المدينة. ولهذا فقد انهار أيضاً، وبدأ يعول على الرصيف، ويردد: اضربوني! اضربوني!. وفي ذلك اليوم حام حول القصر إلى أن طرده الحارس. ولكنه عاد في غفلة منه عند المساء، ونام قرب الجدار الخارجي للسور. أما في الصباح فقد فرّ قبل أن تراه ميسورة، ثم فاجأها من جديد أمام الثانوية ساعة الانصراف: بدا شديد الانضباط، بلا ابتسامة البلاهة، ولا حركات الحمقى، ولا خفة المعتوهين، وعرض عليها أن يخبرها باسم من حرضه، ورشاه. في هذه الحالة يخفق العقل في ردع الفضول. فللأسرار قوة خفية قادرة على جر الانتباه، وخلخلة الحذر، حتى لو كان إزاء مخبول. وافقت. لكنه قال بحزم: «إلك وحدك بس». وهذا يعني، إذا ما وافقت، أنه إما أن يختلي بها، بعيداً عن زميلاتها، وإما أن يهمس في أذنها، وهي موجودة بينهن. وقد اختارت الخلوة كحل مناسب لسماع النميمة.

بماذا يمكن أن تفكر حين تعرف اسم الشاب الذي جعل من معتوه بديلاً له؟! هناك احتمالات عديدة، يمكن نسبتها إلى البيئة المحلية، إذ يمكن أن يكون أحد أعداء أبيها مثلاً، أو أحد زبائنه الفاشلين (كان والدها مقاول أبنية، وتاجر عقارات) أو يمكن أن يكون شخصاً يريدُ الانتقام من شقيقها. وهو زير نساء متأنق. غير أنها اختارت احتمالاً آخر، ليس في سلوك المعتوه أي اثر، أو قرينة، تشير إليه. كان احتمالاً قريباً من الملائكة أو من الله ذاته، كما قالت فيما بعد. والغريب أنه لم يكن تخميناً أو افتراضاً، وإنما يقيناً، إيماناً جامحاً، بأن ذلك الشاب (وهو قيس ذاته) ليس سوى عاشق مضعضع، أخفق دائماً في إيصال رسالة حب إليها، فخصها بذلك التحرش اللطيف، من قبل معتوه المدارس. ومن الضروري أن أنوه هنا، بأن وصف «اللطيف» ليس من

عندي، بل من مفردات ميسورة التي استعملتها في حملتها اللاحقة، من أجل تبرئة العاشق الخفي داخل قلبها أولاً ووصفه. الأفضل أن أقول: في وصف سلوكه، إذ إنها ألغت تماماً، أو تجاهلت، أو محت محواً تاماً، جميع المفردات الأخرى الخاصة باتهامات مثل: الجبان، اللئيم. ثم أضافت إلى اللطف طوقاً من الكلمات ذات الإيقاع المشابه مثل: الرفق، التوق، الحنين. لا يهم كيف توصلت إلى هذه النتائج، ولكني متأكد من أنها كانت ملهمة تماماً، وأنها تمكنت من اختراع قصة كاملة مضادة لأي تفسير آخر، يمكن أن يخطر على بال الأشخاص الذين يحتمل، إذا ما خان المعتوه عهده الذي وعد فيه أن يحافظ على السر، أن يروا في سلوك قيس الصورة القبيحة التي يبثها المجتمع عن مثل هذه التصرفات.

ظل أمر آخر يحيرني: ما هي البصيرة التي شخصت هذا الاختيار الغريب للاستبدال؟! ففي الشعر مثلاً اعتاد الناس على قبول البدائل الحيوانية: أسد، أو نمر، أو ثعلب، أو ذئب لتلخيص القيم مثل الشجاعة. والجرأة، والحيلة، والعنف. فمن أين استمدت ميسورة القوة لاستبدال العاشق بالمعتوه؟!

قيس بالمقابل، كان يعتقد أن خطته الخفية قد نفذت بالكامل (أظن أنه كان يراقب ما حدث بين المعتوه والفتاة)، ولذلك فقد أدار ظهره للحادث، ومحاه تماماً، واندمج من جديد في المجموعة، وشارك بفعالية في المختارات الشعرية، فانتقى أكثر من خمسين بيتاً من الشعر الغزلي، وكتبها بخط يده، ومزق الصفحات الأصلية، ثم سلمنا النسخ الزرقاء (وجدت ثلاثاً وعشرين ورقة منها في الملف، وها هي بين يدي، أذكر تلك اللحظات بوضوح، كنا ساهرين على ضوء مصباح شاحب قرب مدفأة وضاح التي كانت ذبالة النار فيها تتحشرج على حافة

قطرات المازوت الأخيرة في خزان الوقود. كان برد، وليل فاحم، ورحنا نحن الأربعة ننشد تلك الأبيات المشبعة بالمشاعر) أي تلك التي لا يمكن لأحد أن يجري عليها عمليات فحص الخط.

قيس هذا سوف يستلم بعد بضعة أيام رسالة صغيرة مكتوبة بالمنمنمات على ورق شفاف شبيه بورق لف السكائر (وكان المعتوه سلمها له) تطلب فيها ميسورة (كانت فتاة مجهولة آنذاك بحسب ما أطلعنا عليه) أن يذهب مساء الغد، إلى جادة المطحنة، وأن يقف بعيداً عن عمود الكهرباء بأكثر من خمسة أمتار، وينتظر.

توضح تلك الرسالة أن كاتبتها حازمة، ترفض أن يأتي أحد برفقة قيس، أو أن يُراقب المكان من قبل أصحابه ومعارفه (وهي إشارة مرعبة نبهتنا إلى احتمال وجود شخص ما، أو بضعة أشخاص، لديهم خبرة في شؤوننا الداخلية).

وبسبب هذا التنبيه، لم يجرؤ أي واحد منا على مرافقة قيس إلى ذلك الموعد الغريب، في الجادة المظلمة. وقد نصحه جميل بعدم الذهاب، لإمكان أن تنصب له شركاً، أو مقلباً يفحص قدرته، أو قدرة المجموعة، إذ كان كل واحد منا يمثل الكل في مقاومة الغواية، ورفض الانزلاق وراء سحر الكلمات. لكن قيس تسلل إلى هناك وحده، مرتكباً للمرة الثانية، خيانة صغيرة أخرى، لا بإخفاء رغباته الدفينة وحدها عنا، فقط، وإنما بالتكتم المؤامراتي، الذي نبذناه جميعاً، على تدبيره لحياته.

كان الليل هادئاً، كأنما أعيدت صياغته من جديد. لم يكن الحارس الليلي موجوداً في المحرس الخشبي المجاور للمطحنة. وربما كان الوقت ما يزال مبكراً. وكانت رائحة ثلج خفي تعوم وسط المساء المشبع بالرطوبة. ثمة نجم ساطع يلمع قليلاً فوق حافة الأرض التي اندمجت

بالليل. هناك وقف قيس بانتظار المجهولة. لقد التزم بالشروط المسبقة، كإعلان مؤكد على الطمأنينة، لكنه بالمقابل أضفى على مظهره عروضاً عديدة من براعات التجميل. وقد ذهب لهذا الغرض إلى استوديو الأمل، حيث ساهم المصور نجار في زيادة نضارة خديه بقليل من حمرة نسائية، ثم نتف الشعرات الظاهرة هناك بالخيط، وحسّن وضع حاجبيه، وشفتيه أيضاً.

لا يعرف لماذا فعل ذلك، ولكن الدون جوان الذي كان بداخله، قاده لليقين بأن لقاءه لن يقتصر على تبادل تحية المساء، بل سوف يمضي إلى المناطق الأخرى التي يعرفها وحده. وهو ما حصل حين جاءت ميسورة. صحيح أنها قدمت من عماء الليل تقريباً (حدس قيس بأنها ستكون مختبئة في زاوية المطحنة غير المرئية، ولكنه لم ينظر إلى هناك قط) وهمست: مساء الخير. كانت تفترض أن النبرة التي ستلقي بها تحية المساء، ستكون حاسمة منذ البداية في تقرير مصير صورة العلاقة التي سترتبطها به. وهي الصورة التي قامت بتلفيقها وقولبتها في سريرها بالأمس: بدأت من تدبير اللقاء، وتدبيج الرسالة (وهي رسالة أوامر تقريباً) ثم ابتكار هذه النبرة ذات الوقع المتغطرس القادم من معرفة مسبقة بنوع الطريدة. خُيِّل إليها أنَّها فعلت ذلك بالضبط، غير أنها أدركت، بعد لحظة واحدة، أن هذا الصوت الذي سمعته يخرج من بين شفتيها، ومن حلقها، ليس صوتها، إنه صوت الضعف، همس المتعب المنتظر المقبل على مغامرة قد لا يعود منها أبداً، صوت الهزيمة، كما قالت لنفسها. فحين التفت قيس نحوها، باغتها وجهه: إنه هو، ذات الوجه الذي كانت تضعه على وسادة تخيلاتها كل ليلة. ولكن: أين رأته من قبل؟! لن تتذكر ذلك الفتى الذي كان يحوم حول القصر. ربما تذكرت فترينة

المصور نجار؟ ترددت لحظة قبل أن تقرر يقين التشابه. ثم تأكدت، بعد لحظة فحص سريعة، أنها تقف الآن أمام ذلك المغوي الجذاب الذي خيل إليها منذ زمن أنه أثيري، مدبر بالتواطؤ بين مصور بارع مثل نجار، وآلة حديثة، وبضعة ديكورات خصوصية، ووجه وسادة النوم.

ولأن هجومها فشل، في اندفاعته الأولى، فقد تلقاها قيس بأنفاس المحارب المجرب القادر على اقتناص لحظات الوجل والتردد، في سلوك المرأة المقابلة (دائماً يجب أن تقول الفتاة). أدهشه، في البداية، أن تكون هي صاحبة الرسالة، ولكن الدهشة، أو المباغتة، أو المفاجأة لم تكن في أي يوم تستطيع أن تؤخره، بالعكس، كانت حواسه تتأهب، وعقله يستعد، لاستخدام الأسلحة المشحوذة دائماً. ولهذا فقد تلقى تردد ميسورة (لم يكن قد رآه بعد كهزيمة بسبب الإنارة الضعيفة فقط) كبادرة مناسبة للتقدم، وبدل أن يرد تحية المساء، أو يستفسر عن فحوى السؤال الذي أعقبها «أنت؟!» أمسك بها، وقبلها، قبلة خاطفة، ولكن مباشرة، أخذ فيها الجزء الحميم من وسط الشفة السفلى، مثل نقرة عصفور، تاركاً هناك أثراً من بلل مشبع برائحة قهوة، اعتاد أن يتناولها كوقاية من رائحة الفم، وشرك لاجتذاب الأنوثة.

لم يكن بوسع ميسورة معالجة مثل هذه الحسابات، لا من قبل، ولا في تلك اللحظة. صحيح أنها كانت متحررة تماماً من المراجعات المحلية، ومن مصاعب البنات المحاصرات بأعراف الرأي العام، وعادات المجموع، وأخلاق الكل، وصحيح أنها كانت محبوبة على الدوام، ويمكنها أن تسمي ثلاثة، أو أربعة من الشبان المقربين الذين كانوا يحاولون استمالتها، دون أن تنجذب إلى أي واحد منهم. (كان حضورهم إلى البيت يبهجها، ترتاح لوجودهم، ويمكن أن تحدث

أحدهم طوال الوقت عن أي موضوع، لكنهم كانوا يختفون من ذهنها بعد خروجهم مباشرة. بدوا مثل الأشياء: ضرورية في هذا الركن، بلا أي معنى في ركن آخر). غير أنها لم تجرب سرعة الجذب، ولم تعش موضوع الحب المضاء والمتلئ بالارتعاش والبلبلة، وارتجاف العضلات، وعشق الشاب الذي تجرأ وقبل الشفتين قبلة العمر الأولى. وليس أمامها إذن، إلا أن تزداد ضعفاً، ورقة، وتطلباً أيضاً.

حبهما ظل مطموراً تحت طبقة سميكة من التكتم. لم يلاحظه أحد في المدينة كلها، رغم أنهما واصلا اللقاء كل بضعة أيام، أو كل يوم، أو كلما أتيح لأحدهما أن يختلي بالآخر، في أي وقت، أو أي مكان. مع ذلك لم يثر غبار حولهما. وأعترف الآن أن ذلك الحب الخفي المصمت قد أثارني. قد يكون حسداً يتشهى المثل، أو قد يكون رغبة في تتبع التفاصيل، وقد يكون غضباً من أن رفيقاً قديماً، وشريكاً فاعلاً، قد تمكن في الأيام ذاتها التي كنا نعلن فيها ولادة عصابتنا الباحثة عن الحب، وبدء مهمتنا في نشر، وتوزيع شعر الحب في المدينة، من العيش داخل قصة بمثل هذا الألق، والسرية.

لم تكن ميسورة موجودة في أي ورقة من الملف بالطبع، ولم تكن في ذاكرة أي منا، نحن الثلاثة الباقين، فلم نسجل اسمها تحت أي بيت من المختارات، وقد استطاع قيس أن يمسحه من لوائح النيات الخفية، بمهارة، وخفة، وتدريب، حتى غابت، وكأنها لم تولد قط.

غير أنني رأيت اسمها في سفر آخر هو: دفتر الحب، فأثناء إنجازي لهذا النص قال لي طعمة الله إن المكان الأهم الذي يمكن أن يقدم لي حقائق، وأدلة، وقرائن، وإثباتات، وقصصاً عن الحب هو الكتاب الذي أنجزه رجل اسمه عادل السعدون.

لم أتعرف إلى عادل من قبل، ولكني رأيته بضع مرات يجلس إلى إحدى طاولات كره بيت، يشرب العرق وحيداً. أو شاهدته وهو يترنحُ في شارع الشعراني، أو في شارع القماش حيث تقع حانة الكهف. طلبت من طعمة أن يرتب اللقاء بيننا، فقال: أظن أنه موافق ولكن لديه شرط واحد. ما هو؟. قال: أن تقدم له العرق، ولا تشرب أثناء اللقاء سوى العرق. كان الرجل ما يزال يعتقد أن الحقبة الوحيدة الصالحة للحياة في الذاكرة هي حقبة الستينيات. ففي تلك السنوات ولدت سينما الزهراء، وسينما سرايا، ونادي الفنون الجميلة، ونادي الفتيان الرياضي، وبُني مصنع عرق الريان. وهي الحقبة الوحيدة التي أرادت أن تكون حداً فاصلاً بين عصرين: عصر الخربشة، وعصر الكتابة، وأنه بفضل ذلك استطاع أن يؤلف كتابه الذي سماه: دفتر الحب. وخلال السهرة التي جمعتنا نحن الثلاثة، طعمة الله وعادل وأنا، شرح لي أن العرب لم يعرفوا أي نص محترم عن الإنسان، أي عن فرد مشغول بمسائل الوجود الخاصة بالبشر، في النصف الأول من القرن العشرين كله، وإنما انشغلوا بالمسائل السياسية والاقتصادية والمعارك الفكرية والثقافية، فيما بينهم، أو مع الأطراف الخارجية، إلى أن جاءت الستينيات وبدأ الناس يعودون إلى أنفسهم، إلى علاقتهم مع أجسادهم مثلاً، مع الله، مع الطبيعة، مع الروح، وهو ما جسدته دور السينما: تشبه الدار المعبد، سقف عال، وفراغ معتم، وأضواء خافتة غير مرئية، وحضور صامت منتظر، السينما هي المكان لا العروض. هي المساحة لا الشاشة. السينما رحم، بديل عن البيت، وقد تستغرب أنها شهدت أكثر، وأعظم، وأتعس حكايات الحب في المدينة.

لا أعرف إن كان عادل يلفق الكلام أو يخربشه حسب المصطلح

الذي يفضل استعماله، أم يقول الحقيقة. ولم أستطع أن أجزم فيما إذا كان مشوشاً أم ثملاً، ولكن كان علي أن أصدق كتابه الذي أقسم إنه كتبه ساعة بعد أخرى، ويوماً بعد يوم، بناءً على ما شاهد وسمع، حين كان يعمل قاطع تذاكر، في إحدى داري السينما، (وعدت عادل ألا أذكر اسم الدار التي عمل بها) ثم عاملاً في البوفيه، ثم مراقباً يحمل مصباحاً، ويقود الرواد إلى مقاعدهم. كان الكتاب يبدأ في الزمن الذهبي (هذا عنوان الفصل الأول) حيث شهدت السينما رواجاً شعبياً في المدينة، وينتهي في الزمن الترابي، حيث بدأت تموت دور السينما في المدينة، واحدة بعد أخرى. أغراني الدفتر ذو الغلاف البني، الذي بلغ مئة وخمسين صفحة من القطع الكبير المسطر بالقراءة.

من حيث الظاهر، ليس فيه أي ملمح عميق أو تشخيص مشرق للحب. أظن أنه كان طموحاً لا أكثر، اقتصر على ملاحظات، وتسجيلات، ورصد، ومراقبة، وإعلام، وبضعة أخبار مشوشة، أو غير مترابطة عن العشاق والمحبين في المدينة. هناك رأيت اسم ميسورة وقيس أكثر من مرة، وهما يأتيان لحضور أحد أفلام كلينت ايستوود، أو جون واين، أو شكري سرحان أو حسن يوسف أو أحمد رمزي، أو ماجدة أو نادية لطفي أو زبيدة ثروت.

غير أنني أقر بأن العرض الذي قدمته قبل قليل، يخلُّ بهذا الكتاب النير، والمؤكد، مثلما قال طعمة الله، أن القراءة أخذت ظاهر الأشياء فقط. أي أخذت التسميات، واللقطات الخارجية. والحقيقة أن الدفتر يمكن أن يغش القارئ، إذ يعتمد على بنية فطرية، تحاول أن ترى ذلك الرابط الخفي الذي يشد الرجال إلى النساء، والنساء إلى الرجال، دون أن يكون في حضورهم المشترك، إلى السينما، أي شبهة.

لكن كيف رأى عادل ما لا يرى؟ ماذا رأى مما لا يرى؟ تلك هي الأسئلة التي لم أوجهها له، خاصة أن الدفتر يمتلئ بالعينات، كما سماها عادل. حسناً. سوف أعرض الدفتر كاملاً في جزء لاحق، بعد أن سمح لي عادل السعدون بذلك مشترطاً، كالعادة، تغيير أسماء جميع المشاركين فيه بما في ذلك اسمه هو بالذات. فقلت له إن الاسم يعطل الحرية و...... الخ من المفردات التي استخدمتها في مواجهة قيس.

يضم الدفتر بضعة ملاحق، منح عادل كل واحد منها لوناً مختلفاً عن الآخر، من بينها الملحق الأخضر الذي خص به ليلى السومري. فيه ثلاث صفحات من القصص، وصفحتان ونصف، عن انتسابها إلى جماعة شبابية كشفت عنها الشرطة في منتصف الستينيات، واشتهرت باسم «الوجوديون».

المدهش أن عادل ذكر أسماء أربعة من الشبان الذين أحبوا ليلى. وقد غاظني أنه لم يذكر اسمي، فقد كنت في ذلك الزمن من رواد السينما أيضاً، كان يمكن أن يرى، مما لا يرى، لوعتي المتعبة وأنا ألاحق خطاها، وهي تتمشى في البهو، تقف لتحادث أحد الشبان العتاة الذين لا يخجلون من مخاطبة الفتيات - مثلي - أو أراقب جلوسها إلى الطاولة، وهي ترشف القهوة، أو الشاي، أو الكاكاو، لكن طعمة الله قال: لا تزعل أنت كنت تبدو مثل شبح، شخص هامشي، واحد من الأطراف البعيدة، أو من خارج الانتباه.

لا يظهر في الدفتر سوى قيس (من بين أصدقائي) وهو يحادث ليلى أمام السينما مرة، ويدعوها إلى كأس شاي في البوفيه مرة ثانية. من الواضح هنا أننا أمام أحد احتمالين: أولهما أنه لم ينشأ بين قيس وبين ليلى أية علاقة، وإنما اقتصر الأمر على المحاولات (أو الغارات كما

كان يسميها) الفاشلة. وثانيهما أن عادل السعدون ظل عند الأعراض الخارجية، والمؤشرات العامة، أو القرائن، كما كتب هو بنفسه يشرح الوضع، في النهاية.

لكن قيس يروي قصة أخرى عن لقائه بها، في آخر محادثة بيننا: أعترف أنني أحببتها، في اللحظة التي رأيتها فيها في الاجتماع الاحتفالي لاتحاد الشباب الديمقراطي. لم أعد أذكر شيئاً عن المناسبة، لكني أعتقد أنها كانت تصادف تاريخاً أممياً (ذكر هذا بنبرة ساخرة، أتبعها بضحكة مصطنعة، وهزة أسف من الرأس) هناك وجدتها. تعرف؟ كانت تلك هي أول مرة في حياتي، أقف فيها مشلولاً عاجزاً عن محادثة بنت (أصدقه، فقد كان قيس معلماً في افتتاح الكلام مع البنات. والحقيقة، وهذا للإنصاف، فإنه لم يكن يبخل علينا بالمواعظ والإرشادات في هذا الباب، وقد قدم لنا، نحن الثلاثة، ورقة من القياس العادي (أي قياس ورق الدفاتر المدرسية) سجل فيها عدداً من افتتاحياته الحاسمة، من أجل استخدامنا الشخصي. ومع ذلك فأنا أظن اليوم، أن قيس لم يتخل عن تلك النصائح إلا بعد أن علكها، وأفقدها رعشة العاطفة، وامتص منها ملحها، أو سخونتها) فجأة أحسست أنني أفقد بساطتي، كأن قوة خفية ما، بدأت تسلب إرادتي، وحنكتي، وجرأة الاقتحام لدي، غابت عبارتي، وبدأ قلبي يدق داخل صدري، حتى شعرت أنني أتلاشى، وقد أسقط وسط تلك القاعة، بين أولئك الشبان والشابات، المتحمسين. ثم ازداد ارتباكي حين التفتت نحوي. هل رأيت عينيها في أي وقت؟! (يسألني أنا عن عينيها!!) لم أصدق أنها لم تكحلهما. نسيت أن أقول لك إنهما أنقذتاني. تقدمت منها، وقلت لها: هل قال لك أحد من قبل إن عينيك مرآتان؟! فرمقتني

بدلال، وهمست: لا! (كنت أنا قد قلت لها ذلك من قبل). لكن لماذا؟! قلت: لأنني أرى فيهما نفسي. أنت تحبسينني فيهما، فبدأت تضحك وهي مطأطئة الرأس. أعرف هذا الضحك السري المخبأ وراء الخجل. كان الاحتفال قد ابتدأ، فوقفت قربها، ألتصق بها، وهم ينشدون النشيد الأممي: هبوا ضحايا الاضطهاد. اكتشفت، بين تلك الأصوات الهادرة صوتها، كان يأتي من الفردوس، صوت سماوي (سماوي هي المفردة الشهيرة التي كان قيس يستخدمها دائماً لوصف الخارق والعظيم والجميل والجديد والرهيب والمدهش) يذهب إلى النخاع (وهي عبارة تقريظية ثانية وما يزال قيس يحتفظ بها منذ أيام العصابة). في تلك الساعة أحببتها. لا تؤاخذني! إذا قلت إنني لم أنم تلك الليلة، سهرت حتى الصباح، وأنا أتخيل جمالها، وكلماتها، وضحكتها الجوانية. هل تصدق أنني لم أرها تضحك بعد ذلك. تضحك وهي تطأطئ رأسها، تضحك في المخبأ، داخل صدرها تقريباً، تظن أنها فقدت وعيها، تغيب وراء شعرها الأسود الكثيف الذي ينسدل مثل خيمة، أو ستارة مخصصة لحجب الجمال، أو لجعله خاصاً وفريداً.

بالمقارنة بين هذه الرواية، وبين رواية عادل السعدون، صار بإمكاني أن أحاول الإجابة على السؤال الذي وجدته في أوراق المخطوط الأول، وهو: هل أحبت ليلى قيس؟! لا أخفي أنني كنت قد شتمته في أوراقي تلك، لم أكن استطيع أن أصدق أن ليلى أحبت شخصاً آخر غيري، على الرغم من أن علاقتنا (هل كان ما بيننا علاقة في أي يوم؟) لم تدم سوى بضعة أشهر متقطعة. وبالمقابل لم أستطع أن أتخيل أن بوسع قيس أن يحب. فقد كان في ذلك الوقت مجرد فحل باحث عن فتحة. لا يهمه إن كانت طرف وسادة، أو إست نعجة، أو ثقباً في فراش قطني، أو فرج

امرأة. المهم أن يجد فتحة لينة طرية تستقبل عضوه الرذيل المنتصب.

لقد كتبت تلك الملاحظات كذكرى، كحادثة من حوادث الماضي، وليس كحدث صالح للرواية، ونظرت إلى قيس بوصفه ذلك الصاحب القديم الذي كان اسمه (.........) في سنوات الستينيات. لم يعد قيس إنساناً، بل خصماً. ولهذا حرمته من الحب، أو أردت أن أحرمه من أن يعيش تجربة حب (لدي شعور بأنني كنت أحسده، أو أكره نجاحه هو الغني المترف في تجارب النساء).

غير أن وضاح قال إننا كنا نشبه الأرض العطشى، لا الصحراء بالطبع، بل الأرض الزراعية المتشققة المتجعدة التي ترنو إلى السماء بانتظار الغيث، فإذا أمطرت (هل كانت ليلى مطراً؟) مرة واحدة، امتصت ذلك الماء، وأخذته إلى جوفها، وعجنت ترابها، وحصاها به. هذا هو حب الفتوة الذي كنا نعده، ونطبخه، ونلتهمه، أو نشتهيه. وليس بوسعي أن أحرم قيس منه. يجب أن يكون قد أحب. ولكن احتمالات أن تكون ليلى قد أحبته ما تزال ناقصة، ليس لديها أي قرائن ممسوسة ولو مساً خفيفاً بإشارات الحب الذي ادعاه قيس. وسجل نتفاً منه عادل السعدون!

أذكر أنني كنت أخرج كل يوم مبكراً، كي أرابط عند المفترق الذي يفضي من جهة الشمال إلى شارع قديم اسمه: شارع فيليب، ثم ينتهي إلى ساحة مبلطة بالحجارة، وله فرع آخر يذهب إلى الأزقة المتعرجة في قلب المدينة القديمة. كنت قد عشقت ليلى، أو عشقت الصورة الفاتنة الجديدة التي كانت تخرج بها، وقد كسرت أعراف بنات المدينة: شعرها القصير المسرح، رأسها المرفوع، ثيابها الضيقة التي كانت تبرز صدرها، وإليتها، وفخذيها، وساقيها، مشيتها الراقصة كمشية حجل.

كنت ألحق بها في الخفاء تقريباً، بعيداً عن مسارها إلى الجهة الأخرى من أي رصيف كانت تسير عليه. أراقبها بحب، وأسترق النظرات الخاطفة إلى حركتها، مستعداً لإشاحة البصر، في أي لحظة، يحتمل أن تلتفت فيها إلي. كانت ليلى حلمي، وربما اعتقدت أنها حبي، إلى أن رأيتها ذات يوم تلتقي بشاب لا أعرفه، أتى (ثم صار يأتي كل يوم) من الحي التحتاني، التقيا قرب الأعمدة الرومانية الظاهرة في بناء قديم. تحادثا قليلاً، ثم افترقا. لا أذكر أنني صدمت، ربما حدث أمر معاكس، فقد استهواني المشهد، صرت أحلم أن تأتي فتاة ما للقائي أنا أيضاً في أحد الأزقة الداخلية المتعرجة من المدينة. صار ذلك الشاب يبدو لي مثل بديل لي، إنه أنا في الأمنيات. أنا الذي كان نصيبه ألا يجد حبيبة تأتي في الصباح، لملاقاته قرب أي جدار، لتحنو عليه بكلمة، أو لمسة يد، أو حركة خفيفة تضع فيها رأسها على كتفه. لكن ليلى اختفت فجأة. جاء العاشق مرة واحدة، أو مرتين، ثم غاب أيضاً.

عرفت أنهما في السجن!

كانت المخابرات قد ألقت القبض على مجموعة (أو مجموعات) من الشبان والشابات الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة (كان بينهم شبان آخرون تزيد أعمارهم عن العشرين عاماً) بتهمة تشكيل جماعة سرية سمت نفسها: الوجوديون! اسم غريب، وصادم، وخفي، بين تلك الأسماء التجارية الكثيرة التي كانت تملأ الساحة السياسية، والفكرية من أسماء الأحزاب والجماعات. اسم نكرة تقريباً، قياساً على المعرفة المتوفرة لدى الناس عنه، أو تجاه الاختبار الفكري المحتمل لمن يريد أن ينشأ، أو ينشط، أو يعمل تحت هذه الراية. لم أكن قريباً من أي شخص في المجموعة، ولا أعرف أحداً، ما

عدا ليلى السومري، التي ألهب خبر انتمائها إلى تلك الجماعة كياني. شعرت أنها خانتني وحدي، على الرغم من أن علاقتي بها، لم تكن قد تعدت بعد حوارات الصيف الناشفة، أثناء إعداد أوراق القبول، وبضعة لقاءات أثناء العام المدرسي. من بينها لقاء بائس ومحزنٌ في تدريب طلابي سبق احتفالات يوم الجلاء. كان مدربو الفتوة آنئذ قسَّموا أنشطة الاحتفال إلى فئتين: ذكور وإناث. خصوا الذكور بالحركات العنيفة المعبرة عن الرجولة والتحدي والقدرة على التحمل. مثل التدريب على حمل الأعمدة (أعمدة هاتف خشبية مشبعة بالقار) وتنفيذ حركات رياضية قاسية، من بينها تلخيصات للمصارعة الرومانية، وضربات الكاراتيه (المستوردة حديثاً) كما خصوا البنات بالأعمال اللينة الأنثوية مثل: رقصة السماح، والركض بالأعلام الممدودة.

كنا نجتمع كل يوم في الميدان القديم للتدريب على اختصاصاتنا المقررة، وهناك سمعتها مرة تلعن الذكور. أعتقد أنها قالت شيئاً ما عن مجتمع ذكوري. وهذه عبارة مبكرة جداً على مطلع الستينيات، إذا ما قارنا ذلك بانتشارها العنكبوتي اليوم، على كل شفة ولسان. لم نكن مستعدين لتقبل أي انفجار نسائي مضاد لهويتنا. ففضلاً عن أن ليلى كانت مخطئة، إذ إنها لا تستطيع أبداً أن تحمل الأعمدة التي نحملها، أو أن ترفعها في الهواء، أو أن تلوح بها مثلما نفعل نحن الذكور، فإن كلامها كان مضللاً أيضاً، لأننا كنا دعاة وحدة المجتمع. وحدة مجتمع؟! ردت بقسوة، وهزء. شرط أن يبقى الذئب ذئباً، والنعجة نعجة!!

كتبت في النسخة الأولى: أفسد ردَّها جزءاً من مشاعري نحوها (أعترف الآن بأنني ازددت إعجاباً بها) أدهشني أنها تستطيع أن تقول ما تريد دون وجل أو رعشة أو تردد. لكنني نظرت إليها باستخفاف وقلت:

ارفعي العمود إذن! كأنما كنت أنا من يختار اللعبة، أو يسمي المشاركين فيها. ضحك الشبان الذين كانوا بجواري. والظاهر أن مدرب الفتوة كان يسمع حوار المناكدة بيني وبين ليلى، فتقدم نحوي وقال: تظن أنك فحل؟! باغتني السؤال والسائل معاً، ولم أستطع أن أجيب بالإيجاب ولا بالنفي. فأضاف مستنكراً: هل أكل القط لسانك؟! رأيت ظل ابتسامة شاحبة ترتسم على وجه ليلى، كرهت لونها الشاحب المصبوغ بصفرة التراب (هل كانت شمس بعد الظهر تطلّ على الميدان؟) قلت: لا. قال: يا فتى! يا خرى! وضعية البطة. نفذ! أح اتنين! أح اتنين!. كان نظام الفتوة قد أفلت أيدي عدد من ضباط الاحتياط الصغار، في المدارس، من أجل إلحاق الطلبة في الثانويات، ودور المعلمين بالعسكرة المجيدة. وعلى الرغم من أن معظم أولئك الضباط قدموا من حقل التعليم، فقد أبدوا، جميعاً، مهارة استثنائية في الضغط علينا، ومحاولة تطويعنا، وتحطيم كرامتنا، بالتدريب الشاق، والإهانات الجسدية، واللفظية، ومن ثم استطاعوا أن يسيطروا بالكامل على روح المدرسة.

سوء الحظ هو الذي أوقعني في شباك أكثرهم قسوة، وهو ملازم احتياط، كان مدرساً للتاريخ، استطاع أن يرسخ سلطته العسكرية، بقوة قاموس من المفردات المهينة التي تستخف بشخصية الطالب (الطلاب) وشكله، وكلماته (يسخر من أي طالب حين يتكلم) وطريقة تحريك يديه، أو شفتيه، أو عينيه، بطريقة فذة، تمكنه من بعْدُ أن يحطم الطالب، أو يهزمه، حين يجعل منه مصدر سخرية أمام رفاقه الذين يعجزون عن كتم ضحكاتهم، من المفارقات المذهلة التي يجدها الضابط في لهجة غريمه أو ملامحه.

أما وضعية البطة، فتقتضي أن يقرفص الطالب، وهو يضع يديه

حول خصره، ثم يمشي دون أن ينهض، تحت أنظار الضابط، وسلم الأعداد الذي يوقع رتمها حسب مزاجه، ومتطلباته.

الغريب أنني رأيت ليلى تترك المكان، دون أن تنظر إلي مرة واحدة، وأنا أمشي كسيراً مشية البطة.

تركت النص في المسودة ينتهي هنا، وأخبرت زملائي في العصابة بما حدث، كأنني أردت أن أشمت بها، وأدينها، وهي في السجن، وبالمقابل، فإن المخطوط لا يشرح أبداً ماهية تلك الجماعة التي انتمت إليها ليلى، وغيرها من البنات، ولا يقول رأيه أو يحاول سرد آراء الآخرين. وقد كان لهذا سببان: الأول هو أن أترك ليلى عارية مجردة من عناصر الحماية الأخلاقية. والثاني هو سرية الجماعة، وعدم تمكني من الاستفسار عن طبيعة مبادئها.

يعتقد طعمة الله أن المخابرات هي التي أذاعت الصورة الشائعة عن هؤلاء الشبان. ويميل وضاح إلى الظن بأن المجتمع هو الذي فعل ذلك. فبعد يومين أو ثلاثة من اختفائهم جميعاً (زاد عددهم على الستين) سرت أخبار تردد أسماءهم مشفوعة بنتف غير مترابطة، وحكايات ناقصة عن علاقاتهم المشبوهة بعضهم مع بعض، وبسبب الغموض (غموض الفلسفة وغرابتها بالنسبة لجمهور أمي أو شبه متعلم) والنقص المتعمد في المعلومات والمواد الإعلامية، تشكلت حكاية واحدة تقريباً كانت حرية الحب محورها. ليس لدي أي دليل أو دليل مضاد على أن أولئك الشبان لم يلجؤوا إلى السيد سارتر من أجل تسويغ رغباتهم الدفينة في ممارسة حب حر يخرج عن المألوف والعادي، أو لم يذهبوا إليه من أجل مساعدتهم على استكمال مشاعرهم بأنهم هم وحدهم مسؤولون عن حياتهم، وليس آباؤهم أو أمهاتهم أو هذا المجتمع

الضيق المراقب. ولكن الشائعات روجت (وهي شائعات ضخمها المجتمع الذي أرادوا التمرد عليه) قصصاً غرائبية عن انحلالهم وفسقهم وسهراتهم الإباحية، حيث يمارس الجنس الجماعي بلا حساب (في النسخة الأولى وضعت المفردات السابقة ضمن أقواس للدلالة على أنني لا أتبناها).

غير أن طعمة الله لم يستطع أن يتذكر أي كتاب من كتب سارتر، أثر في تلك المجموعة، ولم يجد في المكان ذاته أي اسم يمكن رفعه على كرسي قيادتهم. لكنه أبدى استياءه العميق لأنني اقترحت أن تكون ليلى واحدة من تلك المجموعة، وقال إن اقتراحي ناجم عن رغبة في الانتقام من حادث طفيف، ناصل أرغمني فيه ملازم الاحتياط على المشي كالبطة بسبب نقاش عابر بيني وبينها!

حين عدت إلى المخطوط وجدت أن الأستاذ عبد الله المصري هو الذي اقترح على ورد ارتياد السينما برفقة ليلى، لتلافي حالة الحزن التي لاحظ أولى أعراضها في سلوك البنت (كنت قد اخترت أن تكون ليلى مريضة بالفشل الكلوي، ولكني عدلت عن ذلك لأن الرواية العربية بعد المنفلوطي، كفت عن اختيار المرضى الجسديين كشخصيات رئيسية. كما أن ذلك المرض كان يؤدي إلى الموت السريع في تلك السنوات) وقد سماها في البداية إحباطاً. كانت ورد أيضاً قد لاحظت ذلك، ومع أنها لم تفهم ما هي العناصر العلاجية في السينما لأورام القلب، أو بلبلة الذهن، أو لأوجاع الروح، فقد أطاعت بلا تردد. كانت السينما أيضاً جزءاً من خطة تعويضات بدأتها ورد، وأيدها الأستاذ من أجل تحسين نكهة الحياة أمام ليلى (التي كان الحزن يهاجمها دون إنذار بين آن وآخر) خاصة أن المتاح - من أجل المتعة الخالصة المبرأة من أغراض

الآخرين. لفتاة في عمرها، كان معدوماً في المدينة آنئذ. إذ لا توجد حدائق، ولا ماء نهر، ولا شجر نزهات، عدا الحرج البعيد غير المناسب لمشوار امرأتين. وبدا الطعام، وهو أحد خيارات المتعة، مملاً، وثقيلاً، وكثير المطالب.

كانت سينما سرايا قد بنيت حديثاً، قريباً من دار السينما الأولى التي سميت بالزهراء. بينما قبعت سينما اللواء، وهي دار عسكرية ورثها الجيش، ضمن الثكنات التي هجرها الفرنسيون، بعيداً عند سفح تلة القلعة.

الموجود من الأفلام كان ضخماً، ويمكن هنا تأييد رأي عادل السعدون، في تسمية زمن المدينة الجنوبية المعزولة في ذلك الوقت، بأنه زمن السينما! كانت الدور الثلاث تتسابق في انتقاء وعرض الأفلام الشهيرة، وفي سرعة استبدالها أيضاً. فلم يزد أكثر العروض طولاً على ثلاثة أيام، خوفاً من خسارة الجمهور الذي قد تغريه آفيشات أحد الفيلمين الجديدين اللذين ستكون قد اقتنتهما الداران الأخريان.

وبتوجيهات الأستاذ المصري (لانعدام الخبرة عند ورد) اختارتا أن تشاهدا إسماعيل يس طرزان. ففي هذا الفيلم يقدم الممثل المصري الكوميدي تهريجاً عالي النبرة، أولاً لأنه يتعمد أن يقلد، أو يسخر في الحقيقة من النموذج الغربي للبطولة. وثانياً لأن الحكاية تساعده في إطلاق تلك الأصوات التي كان يحبسها أحياناً في أفلامه السابقة.

يُسجل عادل أن ضحك ليلى المجلجل غذَّى الصالة كلها بالحيوية، انبجست بضع ضحكات هنا، وهناك، في البداية، ثم انفجرت الصالة كلها في صخب مقهقه استجابة لكل حركة، أو نأمة، أو ضحكة مخنوقة تطلقها في المكان. لم تكن تراهم، أو تسمعهم وهي تتطلع إلى اللقطة،

أو تتابع المشهد السينمائي. أو ربما كان ضحكهم يهيجها أيضاً، دون أن تلاحظ، فيزداد انفعالها بالتحركات الهزلية لإسماعيل يس، ولزملائه من الممثلين على الشاشة الكبيرة، فتعيد العدوى إليهم مرة أخرى.

بهجتها الساحرة، حرضت ورد فيما بعد، على ابتداع دوري خاص من أجل زيارة السينما، وعلى خلق الطقوس المرافقة أيضاً. وهكذا فقد واظبتا على الحضور إلى كل عرض جديد، في أي دار من الدور الثلاث، يسعدهما أن الصالة والبلكون، في كل واحدة منها، كانت تظل ممتلئة في العرضين المتتاليين في كل الحفلات.

كأنما بدا ذلك حظاً طيباً لهما، فقد ضمنت ورد وليلى أن تحضرا كل الأفلام الجديدة، شرط أن تكون مناسبة لمزاجهما، وهو شرط مبتكر أظهرته التجربة المتكررة للمشاهدة، كما أتى من خبرات الأستاذ. فبدأتا تختاران الأفلام بحسب العناوين، ثم بحسب الممثلين، ثم بحسب القصص. وبفضل عدد من عشاق فريد الأطرش بدأت سينما الزهراء في استحضار أفلام المغني كل أسبوع. وقد تمكن فيلم «غرام وانتقام» من زلزلة الحاضرين، بقصته الناعمة الحزينة، وأغانيه المتدفقة المشبعة بالقهر.

ولكنه كان ضاراً جداً لهما؛ فقد اكتشفت ورد أن ليلى كانت تبكي قربها، وكانت يدها، حين مسحت على معصمها وظاهرها، باردة مرتعشة، لكنها رفضت أن تغادر الصالة، وظلت تتابع الفيلم بصمت حزين مربك.

فكرتُ بهذه المواقف كثيراً، فالانتقال من الفرح والبهجة، إلى طيات الحزن الدفين، بين فيلمين اثنين، يجعل شخصية ليلى غامضة قليلاً. فذكرياتي عنها، ترسمُ لها صورة امرأة مقاتلة، قادرة على احتواء

المفاجآت، والطوارئ في حياتها، مثلما حدث في غرفة موظف المديرية (حدث ذلك قبل عرض فيلم فريد بأكثر من سنة). فما الذي دفعها للبكاء في حضرة الفيلم؟!

في مراجعتي للزمن، أردت أن أجعل عرض فيلم غرام وانتقام يتوافق مع أحد مواعيد نشر رسائلنا في دار المعلمات. وحين قرأت التاريخ جيداً في دفتر عادل، وجدت أن ليلى كانت في الثالثة عشر من العمر، حين شاهدت الفيلم. وكنت قد كتبت، في النسخة الأولى، تفاصيل ما كان يحدث في منزل حامد السومري آنذاك من أحداث عنيفة، ضعضعت كيان البيت كله، لا البنت وحدها. وهو أفضل هنا بكثير من الفكرة اللاحقة التي راودتني، في البحث عن الروابط النفسية بين هذا الزمن، وزمن إرسال الرسائل، لا لأن سلوكنا كان غامضاً تجاهها وحسب، بل لأن رد فعلها سيكون مختلفاً جداً عن مجرد تسجيل لحظة ضعف، أو لحظة استسلام أمام الأقدار.

كانت علاقة ورد بالأستاذ عبد الله المصري قد بدأت تتسلل إلى المنزل نتفة بعد أخرى. وكما هي العادة في أي نص واقعي، فقد تسربت تلك الشذرات من الخارج أولاً: أتت على صورة أسئلة فضولية مثلاً، من أحد رفاق حامد في شلة الورق، أي من ختيار الديناري شخصياً: أظن أن الأستاذ المصري من الشام؟! نعم؟! ليس له أهل؟! بالطبع؟! لماذا لا يذهب إليهم؟ لم ظل يدرس هنا؟! لا أعرف بالضبط (جواب خاطئ، لأن حامد كان يعرف أن عبد الله المصري هجر دمشق مبتعداً عن فشل مبكر في قصة حب، لماذا لم يقل ذلك لختيار الديناري إذن؟! لا يريدُ أن يفشي سر الصديق لنمائم الصاحب؟!) لكن الختيار ينظر بطرف عينه، كأنما يستفز بداخله سراً ما، انشغالاً جوانياً مكتوماً، أو مخنوقاً:

هل يساعد ليلى في الدراسة؟ يسكت حامد، ويصمت الختيار طويلاً، يتأمل رسماً على حائط الغرفة، شكلته الرطوبة: يشبه الملاك. يقول معلقاً على الرسم، هل رأيت الملائكة؟ يسأله حامد هذه المرة، محاولاً أن يسرق من صاحبه مبادرات الأسئلة، أنا؟ لا بالطبع، ولكني سأراهم يوماً ما. اسمع! أظن أن ورد زعلت مني. أريد أن أعتذر لها عن خطئي. خطأ؟ ماذا قلت؟!. لا أعرف ولكني سألتها بالأمس، حين رأيتها قرب.. لا تكمل. يقول حامد. لن تزعل منك. لا عليك. لا يهمك. ورد طيبة. فوق ذلك هي ليست هنا.

كان يعرف أنها تزور الأستاذ عبد الله برفقة ليلى، طلبت منه أن يذهبوا جميعاً إلى هناك ولكنه اعتذر، قال لا في الحقيقة، فأعلنت أنها ستذهب هي وليلى معاً. مخنوقة قالت. لم يستطع أن يقول لا. لأن «لا» تعني الآن، بعد تلك الصداقة الحميمة، لماذا؟ تعني الريبة بكلا الشخصين العزيزين لديه، ورد وعبد الله. لم يقل لختيار الديناري أحمد البندول، أين هي، والختيار لم يسأل، ولم يقل كلمة أخرى زيادة عن أسئلته ورغبته. تناولا القهوة معاً، ودخنا بصمت.

المرات الأخرى صارت تأتي بطرق أخرى، منها الوسائل المعتادة، كالشائعات، والأحاديث الملغزة في حضوره، وهي وسائل يستطيع حامد أن يتجاهلها، أو يتغاضى عن فحواها، ومنها الوسائل المباشرة، والدامية، حين يظهر شاب مجهول يمشي وراءه، ثم يلقي عبارة غريبة «قواد لابس بدلة!» يعرف أنه يعنيه. فمن بين المارة في الشارع، ذلك الصباح، لا يرتدي أحد بدلة سواه. بالتأكيد، إذ لم يحتج الأمر لأكثر من نظرة فاحصة شاملة إلى رواد الشارع، ليعرف أنه معنيٌّ وحده بالجملة الجارحة المشبوهة.

يمكن لكلمة قواد أن تقال كشتيمة مجردة من المعاني المباشرة لها. أي مجردة من فحواها كمفردة تصف الرجال الذين يعقدون الصفقات، أو يأخذون المال مقابل التساهل تجاه علاقات زوجاتهم، أو يمكن أن تسمي الرجال الذين يعملون في تسويق العهر، وقد أراد أن يعامل العبارة كفلتة سوقية توجه إليه من مجهول مغرض أو كاره. لكن الصورة هي التي أجهزت عليه. لم يرد على الشاب الذي صار وراءه، لم ينظر إلى الوراء، ولكن الجملة رافقته كظل، جلست على كتفه، وحرثت رأسه، وظهره، وقفاه، صارت ترافقه مثل حكة، مثل فراشة سرية تطير وتحلق حول عينيه، وأذنيه، وشعره. لم يعد يعرف كيف يستطيع الإنسان أن يشفى من حكة خفية تحتجب تحت الجلد، كيف يمكن أن يطرد حشرة طارئة تهاجم رمش عينيه، أو حافة أذنه. قد يستطيع أي شخص في لحظة حامد أن يغمض عينيه، أو يصم أذنيه، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يزيح الفكرة من رأسه. ومع ذلك فقد حاول بلا توقف. أزاح الحشرة. طرد الكلمات. استقصى عقله مئة مرة بحثاً عن أعذار. وقد وجد لديه بضعة أشياء تصلح للاستخدام في مثل هذه المواقف. أعذار من النوع الكافي لفهم ما يحدث، وتفسيره، وقبوله على أنه عادي وطبيعي، ولا يحمل في داخله أي غش.

ليس في النسخة الأولى ما يؤكد أن حامد كان شكاكاً، بالعكس، كانت شخصيته شبه مسطحة لفرط ما بالغتُ في إظهار طيبته، وميله الأفلاطوني لإضفاء المثالية، والنوايا الحسنة على أعمال جميع الناس الذين يعرفهم، وأقوالهم. بالإضافة إلى أنه أخذ مع مرور الوقت، يكد في جمع الأعذار، أو تدبير المسوغات أمام أي كلام مريب قد يظهر في المحيط.

لذلك فإن محظوراته كانت شبه معدومة، تجاه ورد وخاصة أن الخبرات الجديدة التي بدأت تمنح للبيت، إنما نجمت عن الاستشارات التي كان يقدمها عبد الله المصري. آخرها أنه نصح ورد وليلى بمشاهدة فيلم غزل البنات الذي مثل فيه نجيب الريحاني، وليلى مراد. وبفضل ذلك ضحك حامد بجذل من الرقصة الفريدة التي قدمتاها أمامه، حين أخذتا تظهران مناكدة متعمدة مجلوبة من الفيلم، وهما تغنيان... «علشانك أنتِ أنكوي بالنار والقح جتتي وادخل جهنم وانشوي وأصرخ وأقول يا دهوتي» أو تردّدان من بعد أغنية ليلى مراد «أنا قلبي دليلي قال لي حَ تحبي» بلحنها الخفيف السريع الراقص المختلف عن أغاني فريد الأطرش الهالكة، أو نداءات أسمهان العليلة في «ليت للبراق عيناً» وهو ما يسمح لهما بالغناء والرقص معاً، إذ ساعدتهما فواصل الأغنية الموسيقية على إنشاء حركات متوازنة تسمح بالذهاب والإياب وسط الرواق الطويل (بين غرفة الضيوف والمطبخ) أو في أرجاء المطبخ ذاته أثناء إعداد الطعام، أو وراء حامد الراضي المبتسم المرحب بالطاقة المحررة التي تتغلغل في أرجاء بيته.

وبفضل هذه الاستنتاجات المشبعة بالثقة، والعاطفة، مشت حياته بلا منغصات. وقد كان من حسن حظه أن مثل هذه الالتباسات بدأت في المرحلة التي شهدت التطلعات الأولى للمجتمع السوري من أجل التغيير. أي زمن الخمسينيات من القرن. ومن أجل راحته، كان النموذج الجديد، وهو نموذج غربي في الغالب، يتسرب إلى سلوك العائلات المتعلمة، أو شبه المتعلمة، عبر شبكة من الوسائل، أهمها السينما، والمجلات الفنية التي بدأت تلاحق النجوم في التمثيل والغناء، بالإضافة إلى خلطة دسمة من النظريات: ماركسية مع وجودية، مع قوميات متنوعة. كل ذلك ساهم في ترسيخ القيمة الأهم في حياة حامد، وهي: التسامح!

لاحظت اليوم وأنا أعيد قراءة ما كتبت من قبل، خاصة في الصفحة الثانية والثلاثين وما بعد، أنني أشرت إلى أن صورة حامد الأخيرة كانت اختراعاً. إذ إن شكل الزمن (زمن الخمسينيات خاصة) كان مصطنعاً، وملفقاً من أجل تقديم حامد كنمط مقصوص على مقاس فكرتنا (أنا وأبناء جيلي) النبيلة عن ذلك الماضي. وهي الفكرة التي سميتها: الحنين إلى الخمسينيات!

يعرف الجميع اليوم (هذا ما أفترضه، ومن حق أي شخص أن يقول بحزم: أنا لا أعرف) أن جيلنا ابتكر فكرة الخمسينيات، أو صورة الخمسينيات، في بداية حقبة التسعينيات (أي في الفترة التي بدأت أكتب فيها النص الأول من هذا العمل الأرشيفي) كنوع من البكتريا النافعة لتحسين الصحة المعطوبة، وتعديل المزاج المعتل بكوارث العقود الماضية، صارت الخمسينيات حلمنا المشتهى، صحوتنا في لحظة الاحتضار. ولهذا فقد رحنا نلجأ إليها كل مرة من أجل تبديد الشعور بالذنب مرة، أو التكفير عن فداحة الاختيارات اللاحقة. صارت الخمسينيات زمناً طللياً لأن ما نعيشه الآن ليس سوى أكاذيب: الأحزاب، الجمعيات، النشاطات، العلاقات، الحب، السكر، الحفلات، الصداقات، القراءات، النشاط السياسي. لم يعد لدى أحد لحظة صدق يقدمها للآخرين، ليس لديه ما يدافع عنه، باستثناء الماضي، اختراع الماضي، تلفيق الماضي، استيراد الماضي، وتوزيعه على الأجيال وفق القسائم التموينية الشائعة.

لذلك قررت أن أشطب تلك الحذلقة الفارغة التي مالت إلى تفسير سلوك فرد، أو إعادة تصنيع سلوك الشخصية، وفق متطلبات المرحلة التاريخية. اللعنة على التاريخ. التاريخ حمار الكسالى يقول جميل،

التاريخ بالون منفوخ ليس فيه سوى هواء رئاتنا الفاسد، بنسبة عالية من كربون الحسابات الخاسرة، والتقديرات المشتهاة، والأمنيات الضائعة. ولهذا وجدت أن تسامح حامد لم يكن تسامحاً؛ إنما صمتاً ثقيلاً مشبعاً بضغينة عاجز، وزفرات رجل مضعضع لا يعرف ماذا يفعل. ربما كان تسامح الضعيف أيضاً، وكبرياء المعطوب. ماذا تفعلين بي يا ورد؟ كان يحدِّث نفسه كل مرة، تنتابه فيها تلك الشكوك المبهظة. شكوك؟ الأرجح أنها لم تصل إلى ذلك الحد حين كانت ليلى في الثالثة عشرة من العمر، وإنما كانت نوعاً من السخط الفاحص الذي يتلفت حوله في حيرة، متسائلاً عن أسرار تلميحات كلام ما، قالته ورد بحضور الأستاذ عبد الله. أو حركة سريعة خاطفة. قدً تبدو عابرة، وقد تبدو ملغزة، لمست فيها يد ورد يد الأستاذ وهي تناوله كأس الشاي. ألا يمكن أن تناول امرأة كأساً لرجل دون أن تلمس يده؟ لماذا لا تلمس يده؟ ماذا إذا لمست يده؟ هذه هي الأفكار التي يمكن أن يستخدمها حامد من أجل التعبير عن قلقه وارتباكه، تجاه الملاحظات التي بدأ يجمعها من المشاهدة الواحدة تلو الأخرى، لسلوك ورد، وسلوك صديقه، الذي لم يعد صديقاً له أبداً، عقب ظهور نتوء الريبة المدبب داخل رأسه.

اللافت أن النسخة الأولى أتاحت لحامد عشرات الفرص الحاذقة من أجل مداهمة منزله، والقبض على غريميه متلبسين. لكنه لم يفعل ذلك، على الرغم من ضغوط الكتابة. ولهذا لم يكن في وسعي، طوال الوقت، أن أتأكد فيما إذا كان الأستاذ المصري يأتي لزيارة ورد في غياب حامد أم لا.

والغريب في الأمر أن يكون حامد قد تقبل حضور هذه الصداقة في بيته، لا كأمر واقع، بل كمظهر صحي لتأكيد أفكاره. وقد رأيت في

الملف (الورقة الحادية والخمسين بعد المئة) إشارة عابرة (وهذا غير مفهوم) من أحد المحققين إلى احتمال أن يكون حامد قد اقترب من الشيوعيين في الخمسينيات. وبالمقابل أكد لي طعمة الله أن الأستاذ المصري كان شيوعياً متخفياً (يوجه طعمة الاتهامات دون أدلة كالعادة). وهذا يعني أنهم هم الذين جعلوه (باهتمامهم المبكر بحرية المرأة) يرضخ (أو يقبل، أو يسوغ في لغة طعمة الله) لذلك الغرور الذي نجم عن تقنيات القلب. حيث كانت أفكاره تساهم دائماً في تبرئة العلاقات الاجتماعية، من جهة، وانطلاقة المرأة من جهة ثانية، من شبهات المجتمع القديم البالي المتهتك. ولهذا السبب بذل حامد جهد جمل كي يتمكن من تدبير الأعذار، وتحاشي الشكوك الجارحة، من أجل أن يعفي روحه من الظنون، ومن أجل ذلك أقسم لنفسه أن لا شيء هنا، ولم يكن يريد سوى هذا القسم البسيط العمومي، لكي يجهض نقمته، ويبدد أوهامه (هكذا سمى شكوكه في إحدى المراحل).

وضعت هنا ملاحظة جانبية أصف فيها حامد بأنه بطل طبائع. وإحدى طبائعه إيمانه العميق بالمؤسسات: الدولة، المحاكم، الزواج، المعاهدات (لنتذكر معاهدة والده وحميه). والحقيقة أنني وجدت لدي عدة اقتراحات، أفضلها بلا شك تلك التي كتبتها في الصفحة الخامسة والثلاثين من مخطوطتي. وهي صفحة ناقصة، مليئة بالجمل والعبارات المشطوبة التي عكست حيرتي أنا تجاه الشخصية، إذ كنت أجد أن أفضل ما أصف به مثل هذا الرجل هو أنه حمار، بليد، أعجف، خال من المشاعر، ثم ما ألبث أن أبدل آرائي، وأعلن لنفسي، أنه عاشق موسوس، كلفٌ بامرأته إلى حد الجنون. وفي كلتا الحالتين لم أستطع أن أحسم أمري في الاختيار. وقد عثرت على صفحة مهملة أخرى، في

المخطوط، كانت ضمن مجموعة من الأوراق التي أبعدتها منذ بضعة أشهر عن طاولتي، في إحدى الانتفاضات المعادية للورق، أسجل فيها لحظة جديدة من لحظات التأمل لديه.

سأرجئ عرض هذه الملاحظات، ريثما أبحث عن جواب للسؤال الذي كتب على هامش الورقة ذاتها بهذه الصيغة: ولكن ما هو موقف ورد تجاه ذلك؟! وفي موازاته سؤال آخر يشبهه من حيث الشكل هو: وما موقف ليلى؟!

لدي في النسخة الأولى عدة اقتراحات أيضاً لسلوك ورد، أحدها يذكر أنها أرادت أن تترك المنزل ذات يوم، حين أصر حامد على احتجازها، أو منعها من الذهاب إلى السينما. لم تفهم شيئاً من قرار المنع، أو الرغبة في الاحتجاز. والظاهر أن حامد، قد ارتكب تواً بعد ذلك خطأً تكتيكياً مريباً حين اقترح أن يرافقها (مع ليلى دائماً) إلى هناك: طبعاً! قالت بحماسة، ولأنه لم يكن جاداً، ولا راغباً في تلك الرحلة، فقد تقاعس فوراً عن تنفيذ اقتراحه. كانت تلك واحدة من الزلات التي تخرج الهواجس إلى العلن. صحيح أنه لم يكن علناً صريحاً، ومباشراً. أي لم يظهر بصورة اتهام. ولكن الطريقة التي قدم فيها اقتراحه كانت ملغومة بما يكفي لتعرف امرأة مثل ورد أسرار الباطن فيها. لتحس بحركات القلب، أو الضمير، أو الشعور. وفي ملحق صغير ملصق بالورقة ذاتها كنت قد كتبت إن جملته كانت مفضوحة تماماً. وهذا هو الحقيقي. لذلك فإن ورد حين التفتت إليه، لم تستطع أن تكبح أو تخفي ذلك الازدراء الذي امتلأت به عيناها.

ما عذب حامد بعد ذلك، لم تكن نظرتُها، إذ يمكن أحياناً أن تكون النظرة عابرة، أو خاملة. ما عذبه، هو رأيها المباغت هذا الذي كمن

وراء تلك النظرة. وهو رأي خفيٌ وطارئٌ، ولكنه عميق ومرعب، لن يكون بوسعه احتماله.

ورد شعرت بذلك أيضاً، كان ذلك الرأي مفاجئاً لها. لم تستطع أن تعرف من أين جاء؟ أين كان مختبئاً؟ ولماذا انفجر الآن، بحيث جعلها تعجز عن أن تجد العبارة المناسبة لمواجهته. أي هراء يمكن أن تقول؟! لم تكن تفكر بأي شيء حين لفظت جملتها الأخيرة: بتعرف؟ أنت إنسان حقير!

من غير الواضح تماماً، فيما إذا كانت تعني بهذا التقرير المباشر، المعاني الكلية للمفردة الأخيرة. والسبب هو أنها كانت تستخدمها للمرة الأولى في حياتها، إضافة إلى أنها سليلة تربية محافظة، وصارمة في شؤون اللغة، كانت تمنع (أو تردع في الحقيقة) قول أي كلمة مهينة للأب، أو الأخ، أو الزوج.

لكن المحتوى الأساسي للكلمة، هو رفض ذلك الإيحاء المشبوه الذي أشار إليه عرض حامد، وامتناعه. ولذلك لم تذهب إلى السينما، ألغت ذلك النهار كله، وجلست على الأريكة في غرفة المعيشة. جلست هناك من أجل أن تندب حظها لأول مرة. لعنت أباها، ولعنت أباه أيضاً، في سرها. كانت في تلك اللحظة، قد أدركت أن الاستسلام لعهود الآخرين يشبه إعارة وجه، أو ظهر، أو رجل، أو عينين، لأي شخص. تبللت أفكارها بالدموع كذلك. (وهي المستلزمات المصاحبة لندم امرأة مخذولة). كان ذلك النهار ممطراً، وكان رذاذ ثلج سكري يهطل بشكل متقطع، فتذرعت بالطقس كي تقنع نفسها بعدم الخروج، شربت كأس بابونج، وفكرت: إنَّه بابونج الصمت. أحست أنه اختيار مناسب للوقت والمزاج، رأت ليلى تخرج من غرفتها، وشعرت بالامتنان تجاه

حامد لأنه لم يفجر اللحظة، ويرد عليها. ثم رأته في الشارع فجأة. متى خرج؟ لا تتذكر أنها سمعت صوت فتح القفل، أو صوت الإغلاق. كان يرتدي ملابس الخروج، ويسير وسط الشارع تقريباً، ثم اختفى عن ناظريها. سمعت ضجيج سيارة، وبوقاً متقطعاً، تلاه انزلاق عجلات ثقيل على الإسفلت. فكرت أنها صدمت حامد، وتخيلت أنهم يركضون هناك من كل الجهات، ثم يأتي شخص ما، أحد فتيان الحي، ليخبرها أنهم نقلوه إلى المشفى. تركض ملهوفة، ومرتبكة باحثة عن ثيابها. يقول الفتى لا وقت لدينا، هل تفكرين في ارتداء فستانك الأسود؟ فتخرج مسرعة، تمشي مستعجلة بجانب الفتى. لا تستطيع مجاراته في المشي أو الهرولة، تتأخر هناك في الطريق، فتجد حامد، حين تصل، ميتاً في المشفى. يقول الفتى: كان عليك أن تركضي. تبكي قليلاً ثم تعود إلى المنزل. تشعر بقليل من الراحة والأمان، وتكتشف أنها كانت تتمنى موته منذ زمن، تريد أن يموت لكي تحزن عليه، يبدو لها أن الموت لا قيمه له دون الحزن. الحزن هو شكل الموت على وجوه الأحياء. تشعر أنها سعيدة بحزنها. وتفكر أن من المستحسن أن يموت حامد كي تجرب هذا الشعور. كأنما كانت تبحث عن السبب الغامض الذي جعلها تحزن. هل يمكن أن تختبر حبها لحامد بتجربة الموت؟! أف! همست لنفسها حين باغتت نفسها وهي تغش في الهواجس والأفكار. نهضت وهي غاضبة (قليلاً) لتحضر الشاي، ولكنها عادت مبهورة. لأنها كانت قد حضرت الشاي بالفعل، وشربت كأساً واحدة من الإبريق. ضحكت من بلادتها، وفكرت أن مرارة حلمها كانت كامنة في طعم الشاي، ثم سخرت من قدرة شاي العصر الثقيل على استثارة الترهات. ونادت ليلى كي تشاركها في كأس شاي، حينئذ نظرت ابنتها إليها بعينين ذاهلتين وقالت: ماما! هذا بابونج! ما بك؟!

لا أعرف بماذا بدأت ليلى تشك، ابتداءً من ذلك الخلاف شبه العلني الذي استمعت إليه من غرفتها: بإخلاص ورد أم بنزاهة حامد؟ لم يكن بوسع فتاة في الثالثة عشرة من العمر استخلاص نتائج حاسمة من بضع قرائن، أو آثار لفظية. بل إن وجود الدليل نفسه لا يمنح الفتاة الصغيرة القدرة على الإفراط في اليقين. فاليقينيات تقتات عادة من المعارف، والعقائد، أكثر مما تأخذ من التجارب والمحن. ولكن غياب اليقين ترك ليلى حائرة ومعذبة، وهي تراقب أبويها يوقدان حطب خلافاتهما، أو يتحصنان وراء متاريس الضغائن الخفية، يوماً بعد يوم. بدأت ترى ببصيرة طفولية محض، أنهما يخنقانها. لم تكن تستطيع اللجوء إلى حسن، أو إلى حنان، فحسن كان فاتراً تجاهها، يطمر عواطفه تحت لطخات من فحم العبوس، وصدأ الحديد الذي حبس نفسه فيه، أما حنان فكانت ترقد على بيض ولادة مقبلة، تجعلها مطفأة، تتمرغ، داخل ذلك القبو اللعين، فوق لبادة الانتظار.

ولم أستطع أن أحدد المرحلة التي بدأت فيها ليلى تعامل السينما ككتاب أحزان. كانت الأفلام المصرية قد أخذت تباغت المدينة بقصص الحب، وشيطنات التلامذة. وقد تمكنت تلك الأفلام في البداية، من دعم مساحة التوقعات في خيالها (ربما في خيال جيل كامل من زميلاتها أيضاً) غير أنها سرعان مازالت حين اكتشفت أن كثافة الأسيجة، والمدافع أكبر بكثير من عدد الجسور.

لا شك أن نزاعات والديها قد اشتدت في ذلك الوقت، خاصة حين تمسكت ورد بمواعيد الزيارات إلى السينما، غير آبهة باعتراضات حامد. ففي كل مساء ترتدي المرأتان ثيابهما، ثم تخرجان من البيت نحو إحدى دور السينما الثلاث، بعد أن تكونا قد اختارتا الفيلم العربي

(هذ هو الاسم الذي كان يطلق على الأفلام المصرية في مواجهة السينما الأمريكية، والهندية أيضاً) الجديد الذي ستعرضه إحداها.

ما لم تلاحظه ورد، هو ذلك التبدل الذي بدأ يطرأ على ليلى، ابتداءً من ذلك التاريخ، إذ صار اضطراب عبد الحليم حافظ يكسر وجدانها، وتيه عمر الشريف، أو شكري سرحان يهدد كيانها، وانفجار الدموع في عيني زبيدة ثروت، أو ناديا لطفي يهز أعماقها، فتبكي هي أيضاً، تبكي بتلك الطريقة الصامتة التي تعلمت فيها أن تذرف الدموع وحدها، دون شهقات النحيب.

يذكر الملف أن حامد السومري اعتقل في بداية شهر كانون الأول عام 63، ثم خرج بعد أسبوع واحد فقط. كان ضحية تقرير يتهمه بالناصرية، برأه منه التحقيق سريعاً. لاشك أن ذلك الاعتقال ساهم في تهدئة أجواء المنزل، ليس بسبب الغياب القسري للزوج في المعتقل الأمني وحده، أو بسبب غياب ورد وليلى عن السينما، بل لأن كلا الأبوين اعتبرا ذلك الغياب، أو الاعتقال إنذاراً من الله لهما للكف عن الشجار العلني أمام ابنتهما. غريب، لم يحدث مرة واحدة أن تُرجم المعتقل السياسي أو رُدَّ إلى المشيئة الإلهية، ويبدو أن حامد وورد أرادا ذلك واعيين، أو غير واعيين، من أجل استيلاد الذرائع لإجراء هدنة ضرورية لبقاء البيت.

لكن اختراع الطمأنينة (عبارة وجدتها في أوراق ليلى) لم ينجح في توليدها، وبدا السلام بين الأبوين هشاً، وخاوياً، وقابلاً للكسر، والزوال في أي لحظة. ومن بين أوراق ليلى وجدت محاولة لكتابة قصة عن فتاة تتمنى موت والديها معاً، ولكن الأبوين يقتلان الفتاة نفسها، بالخطأ، أثناء أحد شجاراتهما. ومن الواضح هنا، أن ليلى كانت تعرف، أو تحدس

في الحقيقة، أن حامد وورد لم يلغيا خلافاتهما، وإنما أجلاها فقط، أو رحلَّاها إلى وقت آخر، سرعان ما جاء بعد بضعة أشهر بصورة اقتراح قدَّمه الأستاذ عبد الله المصري إلى صديقيه حامد، وورد، لتعليم ليلى الموسيقى. تذرع حامد بأن دروس دار المعلمين كافية لمنح معلمة المستقبل ما تحتاجه من المعلومات والتقنيات الموسيقية في العمل، لكن الحجة الدافعة التي كانت بحوزة الأستاذ هي أن الأمر يتعدى الحشو والتعليم إلى رعاية موهبة أصيلة وحقيقية من الظلم أن تضيع. لم تنفع اعتراضات حامد الأخرى التي ركز فيها على أن دروس الموسيقى ستكون ترفاً لا يليق بأسرة موظف من الدرجة السادسة، كما أنه لا يلائم دخله الشهري، فقد قدَّم الأستاذ مرافعة مفحمة ترى أن مثل هذه الحسابات الهوائية ناجمة عن الرهاب الاجتماعي الذي تبثه أحزاب العقائد (قال لي الأستاذ حين التقيت به قبل أشهر إن الطبقة المتوسطة، التي كانت تخاف من الطبقات الدنيا، أي من العمال والفلاحين، رفضت أيضاً تقاليد البورجوازية، وإن هذه الحيرة، أو التخبط، هو الذي جعلها تحفر قبرها بيدها، منذ السنوات الأولى لتشكلها فكرياً) وتجعل شخصاً مثل حامد يرفض اقتراحات الحياة المتجددة، بحجة الولاء للمبادئ. لكن الوقائع أثبتت العكس، وهي أن ليلى تمتلك خامة صوتية مبهرة، لا تحتاج إلا للرعاية. ثم طلب منها أن تغني، فاختارت (واضح أنها كانت متواطئة معه) أغنية ليلى مراد: أنا قلبي دليلي. كانت الأغنية الملحنة على إيقاع التانغو قد تم استردادها إلى الراديو، الذي أخفاها في عهد الوحدة لصالح أغنيات مثل: «الله أكبر فوق كيد المعتدي»، أو «قلنا حنبني ودا احنا بنينا السد العالي»، منذ زمن الانفصال، لصالح قلوب البنات التي لم تتعرف بعد إلى الحب. غير أن صوت ليلى بدا

ممتلئاً برنين ابتهالي ضارع، مصحوباً بتون خفيض، شحن الكلمات بمشاعر ثقيلة ومبهظة جعلت ورد تهمس: خلص. منشان الله!

الأرجح أن أداء ليلى كان مرتجلاً، وعفوياً، لم تقصد منه إيصال رسالة إلى أحد، ويبدو أن المرسل إليه لم يكن سوى ليلى أخرى غائبة، وعليلة، ومليئة بالارتعاش، والخوف والرغبات. كانت تغني لنفسها فقط، على الرغم من وقوفها على منصة امتحان.

ولكن كيف أو متى تمكن الأستاذ من اكتشاف جمال صوت ليلى، في الوقت الذي بدا فيه كأن حامد وورد يسمعانه لأول مرة؟ قال إن ذلك حدث أثناء درس المحفوظات. في البداية بدت نبراتها محايدة تماماً وهي تعيد شرح القصيدة، ولكن إيقاع الصوت وقيمه تغيرت بعد الآهة التقليدية الأولى المرافقة لفحص الكلمات (كان الأستاذ عبد الله عازف عود أيضاً، وقد ظل دائماً عند المستوى الأول الذي كان يسميه مستوى سميرة توفيق، في العزف، وارتقى إلى المستوى الرابع الذي كان يسميه عمر البطش في معرفة الموسيقى الشرقية خاصة منها القدود والأناشيد الدينية. وقد أبديت استغرابي من أن يصبح صديقاً لعبد السلام عثمان الموتور المتعصب، فضحك وقال: شرب القهوة فقط. أعرف أن الأستاذ كان مدمن قهوة، ولكني فوجئت أن يكون المعلم رفيقه في ذلك) ولا يحتاج الأمر لأكثر من ذلك كي يعرف أي إنسان، تلك النعمة الربانية التي نسميها الصوت الجميل، كان يشرح الموضوع للأبوين الحائرين المبلبلين أمام المباغتة.

المؤكد - من قبل عبد الله المصري وطعمة الله شمس الدين - أن موافقتهما - موافقة حامد خاصةً - على مجيء أستاذ الموسيقى عبد السلام عثمان إلى البيت، تمت بعيداً عن جميع الحسابات. كأن ذلك

الصوت أخرجهما من جداول التوقيت المجتمعية المحيطة بهما، بحيث كانا مستعدين للصمت، أو للقتال، أو الرحيل بعيداً بها إلى أي مكان يمكن أن يحيطها بالطمأنينة. تحول جامح وسريع من الصعب فهمه دون سماع غناء ليلى.

بدأت دروس المعلم في منتصف السنة الأولى من دار المعلمات، ولدي ظن بأن ليلى كانت أول تلميذة في تاريخ المدينة، تأخذ دروساً في الموسيقى، لا على يدي عبد السلام وحده، بل على يدي أي معلم آخر. وربما كانت هي التي ألهمته إنشاء الفرقة السنفونية. وذلك حين اكتشف ذات يوم، أنها لا تملك مساحة صوتية ممتلئة بالعلامات والسلالم فقط. بل إن بوسع هذا الصوت الفطري الخام، تقديم غناء منفرد من النوع الأوبرالي. كأن المعلم كان يتصفح دفتر أحلام، يحملق في فردوس رغبات تريد أن تتحقق بكلمة: كن! لهذا بدأ يحاول أن ينظف حنجرتها من رطوبة الأغنيات الشرقية، ويسعى لأن يكشط عن حبالها يوماً بعد آخر عوالق البيات، والسيكا، والنهاوند، والصبا من تراث عبد الحليم، وصباح، ونور الهدى، وغيرهم ممن كانت تدندن بأغنياتهم في فسحاتها الخاصة.

لقد اكتشف ذلك من الدرس الأول في الصولفيج، اغرورقت عيناه وهو يسمع تلك الفتاة السمراء النحيلة، تداهم علاماته الإيقاعية المكتوبة على سلم دو في سبورة خشبية صغيرة، بذلك الصوت النقي المعبأ بالنغم. اهتز كيانه كله، وحدق إليها، وهو يختلس أجزاء صوتها جزءاً جزءاً: الطنين والصدى والطابع والكثافة والنبرة والتداخل والحجم والسرعة والبطء. أراد في اللحظة الأولى أن يركع معلناً أنه المريد، ثم تراجع، حين فكر أن عليه أن يكون المكتشف والمعلم. وحين

شرح لحامد وورد فحوى اكتشافه، راقباه كمختل. ورد قالت إنها لا تعرف أي شيء عن سوبرانو النساء، لذلك ستكون شاكرة إذا علَّم البنت العزف على الكمان فقط (يمكن أن تكون قد قالت له إننا ندفع لك كي تعلم البنت العزف، لا من أجل أن تطرب وتبتهج).

تلك الليلة لم ينم، ظل صوت ليلى يغوي سمعه، وقد عرف أنه لم يكن لرد ورد أي أثر في اقتراحه. يمكن التأجيل فقط، وهو أمر تقتضيه مسألة العمل ذاته، إذ يتطلب إعداد ليلى زمناً طويلاً، سوف يكون كافياً، فيما بعد، لتأمين الدعم، أو لإقناع الأم الجاهلة الغبية، أو لاستمالة الوالد الذي ظل صامتاً يراقب شرحه، وردَّ زوجته المقتضب، دون أن يعلق بأي حرف. كان عبد السلام يعرف أن صمت الرجال يخبئ أحد أمرين: خذلان الكلاب، أو شراسة الذئاب. وفي الحالتين يمكن إضافة هذه البضاعة إلى صالح مشروعه. لهذا لم يعد إلى ذكر ذلك الأمر مرة أخرى طوال السنة التي واظب فيها على تدريب ليلى.

في العادة، كان معظم الطلاب الذين يأخذون تمارين العزف على يديه، يفرون في منتصف دروس الصولفيج، غير أن ليلى ظلت صامدة على الرغم من إحساسها بأنها مجرد بلهاء تردد طنيناً طويلاً أو قصيراً من البيضاء، أو السوداء، أو ذات السن، أو ذات السنين، كما قالت للأستاذ عبد الله. لكن الصولفيج هو مع ذلك، كما فهمته، مثل حليب الأم، لا يمكن الاستغناء عنه إلا بعد سنة.

يعترف المصري أنها أذهلته، ولم يمتنع عن تكذيبها، أو التشكيك في براءة ذلك الإشباع الغريب في مفرداتها، سوى معرفته العميقة والشاملة بها، وبأسرتها. وحين ذكر مجازها للمعلم، ضحك عبد السلام عثمان، وضرب كفاً بكف: الله! الله!. ثم علق قائلاً إن ليلى هي

الوحيدة التي سيفطمها بعد ستة أشهر فقط، عن حليب الصولفيج!

وهذا ما فعله بالضبط، حين كافأها بنوتة من الكونشرتو الأول للكمان من الفصول الأربعة، لأنطونيو فيفالدي، بعد أن عرفها إليه: مؤلف، وعازف كمان، مات دون علم أحد، ودفن في قبر مجهول ونسيته البشرية طوال أكثر من مئة سنة إلى أن تم إحياؤه في القرن العشرين من جديد. عزفت ليلى الكونشرتو من المرة الأولى. كانت بطيئة قليلاً، ومرتبكة. ولكن المعلم لم يتدخل، بل اكتفى بنظرة لوم حزينة، أغمض عينيه بعدها. ليستمع إلى اللحن الصحيح، يعزف باليد الماهرة.

حين عرف وضاح، شريكي في فرقة الأفق السنفونية، بهذا الأمر. قال: الواوي!! واصفاً المعلم الوقح الذي خالف ما عودنا عليه. ولكن كان على وضاح أن يطلق هذا النعت في زمن آخر، كي أسانده، إذ لم أعد متحمساً اليوم لرحاه التي كانت من قبل تعيننا على طحن الحدبات التي تعترض الطريق، بأضراس الشعارات، والوصفات المعدة على نار الغضب والاحتجاج. الحقيقة أنني لم أجد أي مخالفة في سلوك المعلم، وتمنيت لو تمكن بالفعل من تحقيق حلمه السنفوني، ولكن وضاح ما يزال ينتمي بقوة، كما اتضح لي، إلى نهج المحاكم، أو مدرسة قفص الاتهام، الذي اتسمت به مرحلة الأحزاب في الستينيات وما بعدها، مع قليل من الإضافات اللغوية المستمدة من عالم الحيوان، لشتم الأشخاص، أو إظهار نواياهم الحقيقية الدفينة، أو طبعهم المستور، أو سلوكهم المخبأ، حين يختار لكل شخص نعتاً مناسباً يلخص حالته كحكم نهائي: فأر، هر، أو خنزير (مسبوقة بابتسامة ماكرة) إذ إنني لا أصدق أن المعلم، كان في أي يوم، ذا صفات ثعلبية تمكنه من الاحتيال، أو الخيانة لأي مبدأ من مبادئه.

لكن متى انتهت مهمته لدى آل السومري؟ وكيف؟

في درج طاولتي رسالتان، إحداهما موجهة إلى وضاح، والأخرى لي بتاريخ لاحق من العام ذاته. وإذا ما استثنينا المعلومة التي سربها المعلم إلينا، فإن الرسالة إلى وضاح لا تضيف شيئاً إلى الأحداث، عدا تعداد أسماء الذين علمهم العزف في سنوات مختلفة. أما في الرسالة إلي، فقد أفاض عبد السلام عثمان، في الحديث عن ليلى وحدها.

في البداية اعتقدت أنه صار عجوزاً مبتذلاً حين افتتح الكلام بمجاز رديء هو: ليلى كانت أملي. غير أنني عرفت أن الرجل لم يكن بصدد أي صياغة مجازية حين أكملت الرسالة، لقد حاول أكثر من مرة، بعد أن أسس فرقة الأفق السنفونية، أن يقنع ورد بفكرته عن صلاحية ليلى للغناء الأوبرالي، فشرح لها بالتفصيل مساحات الصوت، مقارنة بمساحات صوت ليلى، وإمكانات السوبرانو، مقارنة بالسوبرانو الذي تستطيع أداءه، وأسمعها قسماً من أوبرا عايدة لفيردي، وقسماً آخر من أوبرا الهولندي الطائر لفاغنر، في الأسطوانات، وفي أداء ليلى. لكن ورد لم توافق. لقد عدَّت ذلك الغناء نوعاً من الصراخ الأعمى وسط متاهة أو ليلٍ، وهي لا تريد لابنتها أن تظهر كمعتوهة. عندئذ يسألها المعلم: هل ترفضين لأنها سترافق مجموعة من الشبان؟ فتنظر إليه باستخفاف: لا يا أستاذ! أرفض لأني لا أريدها أن تشارك في جوقة للمجانين. لكن هذا غناء. الغناء هو ما تقدمه أسمهان، أو ليلى مراد، أو فيروز. هل سمعت ليلى وهي تغني لليلى مراد؟ بالطبع! لكني لا أحب غناءها. هذا جيد وأنا أيضاً لا أحب ما تغنيه ليلى الآن.

يهجو المعلم في رسالته أسمهان، وليلى مراد، وصباح، ومحمد عبد الوهاب، وغيرهم ممن تسببوا في تدمير مشروعه الموسيقي.

لقد اعتبر وجودهم ضاراً للمجتمع، وللتاريخ أيضاً، وهذا ما لم أفهمه، فاتصلت به هاتفياً. كان صوته متهدجاً، ومسموماً، واعتقدت أنه لا يرغب في محادثتي. فاعتذر فوراً عن نبراته المتكسرة، بالتهاب حنجرته: أنت تعرف شباط، إنه يقترب. حزنت لأنه أشار إلى الشهر المعروف باختطاف الكهول والعجائز إلى الموت. فبدلت الاتجاه بحزم: أنت تذكرني أستاذ؟. كنت تجلس دائماً بجانب الحائط في الصف الثاني، أثناء التدريب. مرة شممت رائحة الدوزان الشرقي في آلتك حين أخرجتها من العلبة، هل تذكر أنت؟ لقد أنكرتَ حينئذ بقوة. ماذا تقول الآن؟ لم أجبه، لا أذكر هذه الحادثة بالذات. ولكني قمت بتبديل الأوتار أثناء الإجازات كثيراً، أسوة برفاقي الآخرين.

خشيت أن ينحرف الحديث أيضاً، أو تتبلبل ذاكرة المعلم، فقلت له: قد أزورك قريباً، عندئذ سأعترف لك بما لم تعرفه أيضاً. صمت عبد السلام عثمان على الجانب الآخر من الهاتف: أستاذ! هل أخطأت؟! ناديته مرة ثانية بأدب. فسمعته يتنهد، ثم قال: تستطيع أن تسأل ما تشاء. سأرسل لك الأجوبة عاجلاً. قل ماذا تريد!

وصلتني رسالته بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ كتابتها، أوضح لي في البداية أنه إذا كان الأمر يتعلق بالكمان، فلا حاجة للاعتراف بأي سر: إنها أنا! كتب يقول.. لا يمكن أن يلمسها أحد دون أن أحس به، ومع ذلك فأنا موسيقي، وعازف ولست كاهناً كي تعترف أمامي بأي شيء.

رأيه أن ذلك الرفض الذي أظهرته ورد قد عوّق التاريخ، فالتغير في أي مكان لا يبدأ دفعة واحدة، ليس نبعاً، ولا مصباً للنهر، إنه طبخة تضم بضعة عناصر، أزل واحداً منها، تحصل على الرماد. لقد كان بوسع ليلى لو أتيح لها أن تتابع مشوار الدراسة الموسيقية، أن تكون

رائدة في الغناء الأوبرالي. إذ ليس لدينا مغنيات أوبرا، بل نائحات. أو ندابات، أو راعيات غنم. هذا فضلاً عن أنه لم يكن من حق ورد أن تقبل أو ترفض، كان عليها أن تخيِّر ليلى. وهو ما لم تفعله. هذه هي معارضة التاريخ. ورد سليلة الاستبداد وحده. وأنت ترى بالتأكيد أنهم حولونا إلى حيوانات. يعني إما حمير للركوب، أو خنازير للتسمين. فجأة يكتب عبد السلام عثمان ملاحظة بعد هذا الخطاب المباشر، يُعلن فيها أن الاستبداد اختار أن يحوِّل شعوبنا إلى حمير فقط، لأن لحم الخنزير محرم!.

لم أستطع مناقشته، فخدمات البريد سيئة على أي حال، ومن الصعب أيضاً، في ظل الرقابة المشددة أن تتكرر مراسلاتنا دون أن يلاحظها المراقب الأمني في دائرة البريد. لكني أعتقد أن جرح المعلم عبد السلام، قد أحاط تفكيره بالترهات، إلى حد أنه لن يقبل إذا قلت له إن أحداً لا يستطيع أن يركب على ظهرك، إذا لم يكن محنياً، أو لم تتقبل السرج. رغبت أن أصرخ في سماعة الهاتف أو على أي سطر، بأن العقول المضطربة والساخطة، مثل عقله، تلملم القذارة وحدها من دفاتر الحياة. شعرت بأن المعلم كان يهجوني شخصياً، لأنني كنت من بين العشرة الأوائل الذين غادروا فرقة الأفق بعد سنة من تأسيسها. هل كنا نعوق التاريخ؟ لا أعرف، ولكن أخي الكبير، دفش باب غرفتي ذات يوم، وزعق في وجهي بحقد: صرت تشرب الحشيش يا كلب؟!. لم أفهم شيئاً، نظرت إليه بعينين مذعورتين. ولكنه فسر نظراتي على أنها اصطناع بلاهة، أو صلف خال من الإحساس. صفعني بكفه الثقيل على عنقي (لا أذكر لماذا لم يطل خدي) ترنحت من الصدمة، والأرجح أنني وقعت، إذ وجدته بعد لحظات يركلني بقدمه تحت إبطي (استغرب

اليوم كيف كان يختار مواقع ضرباته) وهو يحلّي غضبه بالشتائم: عربيد! مخنث! حشاش![3]

3ـ لم يكن والدي يعلم بما يحدث، فالحظر الشامل والمهدد، الذي كان يفرضه فايز على تصريحاتي، أو تفكيري بالوشاية، منعني من إعلامه، ولكني بالمقابل، أقسمت ذات يوم، ألا أنجب في المستقبل أكثر من طفل واحد، وسيكون هذا عادلاً جداً، بحيث أضمن له، منذ الآن، ألا يتحول إلى طاغية، أو ألا يصبح ضحية. وقد سخرت مني ليلى ذات يوم، وسألت إن كنت سأذهب لأعيش في الصين. ليست الصين هي السبب أو المنقذ، ولكن وجود الأولاد بدا فيما بعد، في خطتي المستقبلية، عبئاً لا يمكن احتماله بوجود أمي المريضة. هذه هي الحقيقة. والواقع أن أخي تخلى تماماً عن التزاماته تجاهها، بعد موت أبي (والأصح أن أقول إنه لم يسجل أي التزام قبل هذا الموعد. والمؤكد أنه كان يبدد ماله، والمال الذي يسرقه مني، على عشيقاته (إذا جاز لنا أن نستعير هذه المفردة من الروايات لوصف امرأة، أو اثنتين من العاهرات في المدينة، كانتا تعاشرانه). ومنذ أن تزوج، صرت أسمعه وهو يشكو لها مصاعب العيش. كان صوته يشبه النواح، على الرغم من أنها لم تلمه، أو تؤنبه، أو تطلب منه المساعدة. عكس ذلك تماماً، أذكر أنني سمعتها أكثر من مرة تقول لي: حرام خيك! فأهز رأسي، دون أن أعلم سبب ذلك التحريم المشفق. فالمصاعب الحياتية، لم تكن من اختصاص فايز وحده، ولكن وجود زوجة وثلاثة أولاد جاؤوا في أربعة أعوام، شارة مقنعة من أجل حشد التعاطف، وتطبيق الاتفاق الضمني الذي عقد بينه وبين أمي، على أن تخلِّيه، وانسحابه، عن تقديم الدعم لتكاليف العيش، والعلاج، والاستشفاء مقرر من عند الرب نفسه، وممسوح من دفاتر الحساب الأخروية. لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً، ولم يتغير أي بند من بنود المعاهدة بينهما، عندما تمكن فايز من تصحيح أوضاعه المعيشية بطريقة فذة. وهكذا فقد جاء ذات يوم يعلمنا بأنه استقال من وظيفته كمراقب تمويني، فذعرت أمي، وهتفت: هل ركبك الجن؟! أجابها بلا تردد، وقد بدا جذلاً، ضاجاً، دون أي ظل من الحياء: أنا الذي ركب الجن يا أمي!. لم تكن الاستقالة سهلة، فقد كانت الدولة تمسك بموظفيها كلقى، ولكن فايز استطاع التلويح بورقة الخلاص أمام عيني خلال خمسة عشر يوماً. كيف؟ سألته. فنظر إلي بعينين ماكرتين وضاحكتين وقال: راقب فقط. ولكن إياك أن تقترب. ما عرفته هو أنه تمكن، بطريقة ما، من مخالطة الجان، أو بعض الجماعات من بينهم،

لست أدري حتى اليوم لماذا لم يكسر الكمنجة؟

أشاعوا أننا كنا نحشش. وهذه هي المسألة التاريخية التي أرغب في مناقشتها مع عبد السلام اليوم. هل كان يعرف؟! (أعلم أن تهمة التحشيش وتجارة الحشيش وحيازة المخدرات قد استخدمت على نطاق محلي، ووطني، وقومي، وعالمي، من أجل التسريع في إجراءات الانتصار على الخصم) من أطلق هذه الشائعة؟ من الصعب أن أتحقق من ذلك، فالمعلم أضحى بعيداً، لا في الجغرافيا والتاريخ وحسب بل في الروح أيضاً. لن يقول شيئاً عن ذلك. وقد أقر أخي قبل أيام، حين ذكرته بتلك الواقعة بأن البلد كلها كانت تعرف. ماذا تعرف؟ تعرف

والظاهر أن الحظ حالفه، فاستضاف عدداً منهم في منزله، وقدم لهم مساعدة ما في الشؤون الدنيوية، ونجح في تدبر أمر عدد من المعاهدات والعقود، بينه وبينهم مستعيناً بأمشاط من العاج، وبضع حبات من الكهرمان، وعجلة دراجة هوائية، بحسب أقوال هنية زوجته. ومن يعرف الجان، يعلم أنهم، منذ أيام سيف بن ذي يزن، لا يتوانون عن رد الجميل إلى المخلوقات الأنسية التي تمنحهم كرماً أرضياً خاصاً من الأشياء الثمينة التي حرموا منها في عالمهم. وهكذا تقدم أحد وجهائهم ونطق أمام فايز بالجملة الخالدة: شبيك لبيك عبدك بين أيديك. وبالمقابل بدأ فايز يردد جملاً خرافية من لغتهم، التي تعلمها خلال شهر تقريباً، ويحرق بخوراً، ونداً، وصندلاً، وهي الأشجار التي يقدسونها، لقاء كرمهم في تقديم المساعدات في أكثر من مجال إنساني، وأخلاقي واجتماعي.

وعلى الرغم من أن فايز استطاع فيما بعد، أن يحل العشرات من معضلات المجتمع، فقد دأب على تجاهل استحقاقات البيت وما يزال يعاملني حتى اليوم، بالحقد والازدراء الجديرين بشخص متهم بالعقوق، لأنني أرغمته - حسب أقواله - على استعارة الوالدة طوال السنوات الخمس التي أمضيتها في ريف الحسكة معلماً، وفي الجيش لتأدية الخدمة العسكرية الإجبارية. وقال لي (حين جئت لاستردادها عائداً بها إلى دمشق، حيث صرت أعلّم) كما يمكن أن يقول أي جني من أصحابه: لو لم تكن أخي لفصفصت لحمك عن عظمك.

أن ذلك الدجال، تاجر الحشيشة استخدم الموسيقى وأعضاء الفرقة الصغار من أجل تبييض نشاطه المشبوه في الاتجار بالمخدرات. لا أصدق أخي فايز بالطبع، ويمكنني أن أكذبه علناً اليوم. لكنني علمت، بعد أيام، من ركلاته العقابية، أن كل واحد من زملائي في فرقة الأفق، التي سماها أعداؤها «فرقة الإفك» أخذ نصيباً طيباً من ولي أمره، بحسب الحجم الذي وصل إليه من الشائعة. لم يصدقنا أحد، وإذا كان فايز لم يكسر كمنجتي (وإن كان قد وضعها تحت المراقبة المفترسة الشكاكة) فإن والد صباح الدالي حطم آلته بقدميه، بينما باع والد حسان عطا الكمنجة بثمن بخس إلى أحد أعضاء فرقة منافسة لنا هي الأضواء. وحين رأيت حسان في الشارع بعد أيام تجاهلني، جرجر قدميه مستديراً، وعبر ساحة السير متجهاً نحو الميدان، حيث ضاع، بين حشود كانت تتنزه هناك على المدرجات.

أما حين التقيت به منذ أسبوع، فقد ضحكنا قليلاً لما حدث، من غير أن يقول شيئاً أكثر من: شفت؟ أو: والله العظيم! كان قد فقد نصف شعر رأسه. وأضحى سميناً قليلاً، وله كرش صغيرة تظهر تحت قميصه.

رامي الحسون احتاج إلى بضعة إجراءات تطهيرية من أجل تنظيف سمعته: لقاء مع أقاربه من آل الحسون في مضافة العائلة، جولات على أصدقاء الوالد، ملاحظات سريعة ومركزة مع المتة والمكسرات تقدمها الوالدة لصديقاتها.

الأضرار الجسيمة التي أصابت الفرقة (كان الناجي الوحيد هو وضاح الذي لم يتح لأحد الوقت أو المروءة لإخبار والديه بما يحدث) تولى تأليف الحكايات فيها متطوعو الأخبار الهواة، ومحترفو النمائم،

ومزارعو المستعمرات البكتيرية الذين تمكنوا من استنبات مئة رواية ورواية عن اجتماعاتنا السرية الشبيهة باللقاءات الماسونية. أظن أن المعلم عبد السلام يتحمل قدراً من المسؤولية عن ذلك الخراب التاريخي العميم لمشروعه التنويري. فاحتقاره لموسيقانا المحلية والوطنية والقومية، وإصراره على أن نجري تمريناتنا في قبو بعيد لا يجاوره أحد شمال المدينة، وعزلته القاحلة، كانت مسالك للريبة، أحاطت وجوده بسياج من الشك والتحفظ والخوف، ثم أبعدت الناس عنه. ألا يمكن أن أهاتفه الآن وأقول له بأنه أخطأ في بوابة التاريخ، فذهب إلى المزبلة بدل أن يمضي إلى الأشجار.

لا أستطيع أن ألقن معلمي دروساً في أي شيء، ولكني أقدر أن عملي هذا لن يستطيع أن يعيده إلى المكان الذي أراد أن يسيطر عليه. أي التاريخ. وسوف يكتفي بحشره في المتخيل، بفضل الوفاء للماضي وحده، لتلك العصا الصغيرة التي كان يحركها في القبو كي نعزف مقطعاً من نشيد الفرح، أو سوناته ضوء القمر، أو الدانوب الأزرق، أو افتتاحية أوبرا البنت المجنونة التي اسمها كارمن.

ثم إن علي أن أعترف أنني جئت إلى هذه الحكاية من أجل ليلى وحدها. فالرجل خرج من التاريخ، ومن الأرشيف، منذ منتصف الستينيات، تبخر تقريباً من الذكريات، ونسي الناس كل شيء عنه: نضاله الموسيقي، أو كفاحه العملي في سبيل نشر الحشيشة حسب ادعاءات أعدائه.

لا ريب أن نتفاً من قصة الحشيشة تسربت إلى آل السومري، إلى حامد، أو إلى ورد. وقد أنكر الأستاذ المصري الحكاية كلها. وادعى أنه لم يسمع بأمر ذلك الاتهام الشائن الموجه إلى صديقه. فهل أصدقه؟!

تثبت الوقائع أن العائلة أنهت عقدها، أو أقفلته مع المعلم في تلك الفترة بالضبط. يمكنني أن أؤرخ لها بعام 1967، وبقليل من الحسابات الزمنية، غير الدقيقة، بسبب ضياع أو تلف أجزاء كثيرة من ذاكرتينا، أنا ووضاح، أستطيع أن أقترب إلى الشهر الرابع.

تبدو رواية الأستاذ مرتبكة هنا. فاستمرار المعلم في تدريب ليلى على العزف يعني أن ورد لم ترفض فكرته عن الغناء رفضاً قاطعاً، بل ربما منحته أملاً «ما» أو وقتاً. هذا ما كتبته في النسخة الأولى، وقد ظلت الجملة ناقصة وملغزة: هل يعقل أن تكون ورد شعرت بميل ما نحو المعلم؟! هل يعقل أن يكون الأستاذ المصري هو الذي حرك تلك الشائعة ضد عبد السلام عثمان؟ أم أن حامد هو الذي ابتكرها وحدَّث بها رفاقه في جماعة الورق؟ فعبارة أملاً «ما» أيقظت في داخلي ذلك الشيطان الماكر المضطرب الميال إلى مطاردة الناس، وحقنهم بالنوايا الخبيثة. وإذا كانت مطارداتي تلك تسفر أحياناً عن حماقات، فقد أفضت مرات كثيرة إلى ابتكارات جامحة لخدمة المخيلة. وهذه واحدة منها: فافتراض أن يكون الأستاذ عبد الله قد شعر بالغيرة من صديقه الموسيقي، يضمن لنا انتقاماً إلهياً سريعاً، مخالفاً للإرشاد الشهير عن أنه يمهل ولا يهمل. وفي هذه الفرضية يحشر الأستاذ عديم الإحساس بحامد بين فكي كماشة: الشك واليقين.

تفوح من هذه اللحظات رائحة شياط، يحترق عبد الله المصري على صفيح غامض محمى ناتج عن مبادراته الغبية لرعاية البنت الموهوبة: ليلى.

أبدى كل من وضاح وجميل شكوكاً حول استنتاجاتي، وقدما افتراضات متباينة حول متهمين آخرين يحتمل أن يكونوا هم الذين

نشروا شائعة الحشيش. فقد وجه جميل الاتهام إلى إدارة نادي القلم، بينما اتهم وضاح فرقة الأضواء الموسيقية. يعرف الجميع أنني أستخدم هنا أسماء مستعارة منعاً لأي التباس واقعي، أو أحبولة مرجعية قد تؤدي إلى إشكالات لا ضرورة لها (هذا هو رأي جميل) في أي مقارنة محتملة بين الكتابة والحقيقة أو الواقع.

لا يمكن سرد تاريخ مطول عن الفرقتين اللتين كانتا ناشطتين في الستينيات من القرن العشرين، إذ لا أملك الوثائق الكافية عن نشأة أي منهما. يمكن القول إن فرقة الأضواء انضوت بكاملها - تقريباً - تحت الراية الرسمية، أو الرعاية الحكومية، فيما استطاع الشيوعيون السيطرة على إدارة نادي القلم، وتوجيه نشاطاته الفنية والمسرحية.

أعتقد (أو يعتقد جميل) أننا يمكن أن نعثر في هذه الإشارات، على أحد الأسباب المرجحة لاحتمال أن تكون إحدى الجماعتين قد سوَّقت القصة الغامضة عن تجارة المخدرات. وسوف أجمل الدوافع المفترضة في الجدول المقارن التالي: صار بوسع أعضاء فرقة الأفق، بعد سنة واحدة من الدراسة، أن يقرؤوا النوطة أو الموسيقى، كما يقرأ المرء درساً في الصف السادس، بينما كان جميع أعضاء الفرقتين الأخريين (باستثناء المدربين من بينهم) أشباه أميين لا يكاد معظمهم يفرق بين البيضة والبيضاء (وهذه مبالغة ساخرة من جميل) (أرى رداً على رأي جميل الزاخر بالهزل أننا لا يمكن أن نكشط حب الموسيقى عن هؤلاء العازفين كما نكشط الزبدة مثلاً عن سطح التنك). ولذلك من المتوقع أنهم ما كانوا جميعاً راضين عن قوة الحضور التي مثلتها الفرقة.

يمكن أيضاً الإشارة إلى أن أعضاء الفرقتين وجدوا أنفسهم، كل على حدة، محشورين داخل أطر، وقوالب سياسية، لم تكن تعني شيئاً

لهم، في حين استطاع عبد السلام عثمان أن ينأى بنفسه، وبكل واحد من أعضاء فرقته عن تجاذبات الأحزاب. وهو موقف يعزز الحسد من جانب، ويثير الريبة من الجانب الآخر.

اختفى اليوم نادي القلم، بعد أن أغلقت منظمة الشبيبة مقره بالشمع الأحمر (الأحمر؟!) وصادرت موجوداته. وتشتت أعضاء فرقة الأضواء، منهم من سافر إلى المهجر، ومنهم من اعتزل المشاركة، ومنهم من تخلى عن العزف (كانت الكمنجة شبه محطمة في منزل وضاح، وقد انتزعت عنقها، وضاعت مفاتيحها وأوتارها).. بينما كانت عظام فرقة الأفق ترقد تحت تراب تلك الدسيسة المشينة.

لم أجد اسم المعلم إلا مرة واحدة في الملف. كان أحد المحققين قد استفسر عن علاقته بآل السومري، ولكنه لم يحظ بأي فائدة معلوماتية. اكتفى عبد السلام بالحديث عن موهبة ليلى، أو مواهبها، إذا أخلصنا لعبارته. وقدّم للمحقق (أتخيل الآن ذلك الموظف نصف المتعلم يحملق فيه فاغر الفم) تقريراً علمياً عن الغناء الأوبرالي، ونشأة الأوبرا: إنها «دراما مغناة، نشأت في إيطاليا في البداية، ثم انتقلت من قصر الكونت باردي في فلورنسا، إلى فيينا، ومن فيينا إلى باريس، ولندن، وهامبورغ، الأوبرا كل الموسيقى» والمؤكد أن المعلم غضب حين قال المحقق إنه إذا كانت الأوبرا حكياً مغنى، فلماذا لا نسميها أغاني. وبالطبع لم ينفعه ذلك. وإذا كان قد أجاب جواباً مزعجاً، فسرعان ما أغلق فمه بكلمة خفية لم توضع في نص التحقيق أيضاً.

حين قرأ قيس القسم السابق من النص، كما قرأ تعليقاتي الأخيرة، قدم احتجاجاً ذا شقين على الشكل التالي: قذف الأوراق على الطاولة باشمئزاز وقال: يا أخي لم أرَ صورة إنسانية واحدة لرجل الأمن في

كتابك. أليس لأحد منهم اسم؟ أليس أباً؟ أو زوجاً، أو حتى عاشقاً رقيقاً؟ قلت إنني أتفهم موقفه، ولكني أتحدث عنهم هنا كموظفين، وليس كشخصيات روائية! أما الشق الثاني من احتجاجه الذي تمت صياغته كاستفسار مستنكر مثل: وأين ليلى إذن؟ فقد ألحقه بتعليق غريب هو: أنت تدور حولها مثل بغل المطحنة، لا تعرف ماذا يحدث في الجرن!

صورة «بغل المطحنة» قدمت قراءة ناقصة، أو مغلوطة للروائي. فالبغل يدور عادة حول حجري رحى يطحنان كل شيء، دون أن يُعْنَى بالمكان أو الزمان، بل إن من المحتمل أن تُحْجَب عيناه من الجانبين بحجاب جلدي سميك يمنع عنه رؤية الأطراف جميعها. شرحت له أن الرواية تتألف من خيوط، قد تتشابك مرة لتصنع سجادة، وفق كتالوج معد سلفاً، ويمكن أن تصير كبة مشربكة، كما يمكن أن تشد الخيوط فوق هوة، أو تلف على بلبل، أو تفلت، وتكر إلى ما لا نهاية. يمكنك أن تقول إن الرواية بلا شكل، أو إن الرواية شكل فقط، فأنت لا تعرف، حين تمسك بأول خيط إلى أين سيأخذك، ولكنك تعرف أن التفافات الخيط، هي التي ستوصلك، أخيراً، مهما انحرفت وتعثرت وتعقدت، إلى طرفه الآخر.

وإمعاناً في تجربة الاستبصار الجديد، سلمت قيس، بعد أيام، النص الذي كتبته عن المشاعر الناشئة والمتبادلة بين عبد السلام عثمان وليلى السومري. لم ألاحظ أن يده كانت ترتعش، منذ أن بدأ يقرأ الصفحة الأولى، إلا بعد أن أغمض عينيه، وغمغم: أوووف!.

لم يكن صوت ليلى هو الذي جذب عبد السلام في البداية، إنما عيناها! فعندما جلس، وبدأ يحدثها عن برنامج الدروس الموسيقية الذي ينوي إعداده، وتطبيقه خلال الأشهر المقبلة، لاحظ أنها كانت

تختلس منه نظرات سريعة ذابلة. شعر بالخذلان فجأة، ثم بدت الأفكار التي أراد قولها مبهمة، ومرتبكة. لم تكن لديه بعد أي فكرة عن عمر البنت بالضبط، وقد غشه جسدها الزاهي الممتلئ بلحم أسمر مشدود، واعتقد أنه لا يقل عن سبعة عشر عاماً، وربما كان يزيد قليلاً. ولهذا فقد استسلم لنظراتها، ولن يعرف أبداً لماذا تراخى بذلك الشكل المهلك أمام الاختراق الفاحش لنظراتها المراقبة، أو لماذا فقد السيطرة على درسه، ولم يستطع أن يتخلص من إغواء عينيها، حتى بعد أن علم أنها دخلت عامها السادس عشر منذ أيام. وحين اختلى بنفسه، في شقته الصغيرة المستأجرة، عجز عن إيجاز الحادث في كلمات، وسأل نفسه لماذا لا يشتهي الطعام؟!

بل إن الزمن بدا مبلبلاً حين اقترب الليل من الثالثة صباحاً: متى بدأت تنظر إليه؟ كما أن تفسير ذلك بدأ يختلُّ، ويزداد غموضاً. هل كانت تنظر إليه؟ ما الذي كانت تخفيه في تلك النظرات العميقة المتفحصة؟ إعجاب؟ أم فضول؟ أم افتراس؟! لن يعلم. ولكنه في الوقت نفسه لن يستطيع أن ينتزع الشعاع الغريب الدافئ الذي تسلل إليه من خلال عينيها، فألقى على نفسه، آخر الليل، سلسلة من المواعظ، والإرشادات التي ضمت تأنيباً مضاداً لخيانة المهنة، وتوبيخاً يشتمل على بعض مشاعر الذنب المرتبطة بصغر سن الفتاة (خفف منها جهله بالأمر) وتحذيراً (وهو الأكثر خطراً ورهبة) من متابعة الجموح، في مكان يعتبر اجتياز الحدود الفاصلة بين الطوائف، جريمة تغسل بالدم عادة. اقشعر بدنه حين تراءى له أن أحدهم يلاحقه بسكين، وخيل إليه أنه يذبح، فاستيقظ مذعوراً محطماً من الإغفاءة القصيرة على المقعد الخشبي المقشش. هل كان ذلك كله حلماً؟! يسأل قيس. لا. بماذا

تفسر إذن نظرات ليلى إلى المعلم؟! فقلت إنني أجزم بأنها أعجبت به. فالأستاذ لم يتعلم سلالات الموسيقى وسلالمها في أوروبا، وحسب، بل استطاع أن يكتسب مهارة خاصة في المظهر، مغايرة للسائد؛ إذ أطال شعره، وسالفيه، قبل وصول تلك التسريحة إلى الشرق بأكثر من ستة أشهر، كما يُظن هنا أنه كان الموديل الذي استقى الخياطون المحليون منه شكل بنطلون الشارلستون ذي الفتحات الواسعة الذي كان يغزو أوروبا منذ بداية الستينيات. وسرعان ما امتلأت واجهات محلات بيع الأحذية بأزواج مماثلة لحذاء الفرسان ذي الكعبين العاليين الذي كان ينتعله أيضاً، وليس بوسع مراهقة ممتلئة بالأشواق تجاهل الأستاذ الشاب المدعم بهذا البذخ في المظهر!

لم تنم ليلى، تلك الليلة، أيضاً. كانت سعيدة باكتشافها الجديد الباهر، لا تفارق صورة الأستاذ الناعم ذي الأصابع الأنثوية الرفيعة مخيلتها. لكن دون أن يصاحب أخيلتها أي انحراف، أو أي لذائذ حسية. بدا المعلم تجسيداً حياً لأمنية غائمة ما، مدفونة تحت سطح الجلد (جلدها) مخفية وسط كومة من الأشياء العادية التي تتتالى على حياتها. يمكن افتراض أنها أحبت الرجل، حبّاً من ذلك الطراز القديم الشائع بين المراهقات اللواتي تغذين من دموع المنفلوطي، وشهقات ماجدة، وزبيدة ثروت، ونادیا لطفي، وغيرهن. من ممثلات السينما الباكيات على حواف الأسرّة.

هل قرأت المنفلوطي في تلك السن؟ اتصل بي قيس ليسألني عن ذلك في التاسعة والنصف مساء. مؤكد! كانت كتب المنفلوطي جزءاً حميماً من اقتراح القراءة الذي قدمه الأستاذ عبد الله المصري لكل من ورد وليلى، بعد فكرة السينما. وباعتراف طعمة الله، فإن ورد اقتنت أعمال

المنفلوطي كلها، بعد أن قرأت تحت ظلال الزيزفون. أخبرني بذلك، وهو يقهقه: أظن أن العرب جميعاً جلسوا أكثر من ثلاثين سنة تحت ظلال زيزفون المنفلوطي. ليسوا جميعاً ـ أقول له ـ هناك من لم يسمع باسمه! صحيح! لكنه رأى دموع الباكين، والباكيات، أو سمع آهاتهم. لم أجادل المكتبي أكثر من ذلك، إذ كنت أنا أيضاً واحداً من الأشقياء الذين لجؤوا إلى ذلك الكاتب، لمنح الدموع صفات الطهارة والعفة. حدث هذا الأمر في الأشهر التي بدأت فيها ليلى تمر في الشارع، دون أن تراني. كانت تمشي مثل مهرة، لا تنظر إلى الجانب الفارغ من الطريق، بل إلى فضاء خفي في الطرف الآخر منه. فحاولت مرة واحدة، مرة واحدة فقط، أن أقتحم مسارها، وأدعي براءة المصادفة، وأسلم عليها. اكتفت بردٍ بارد كالحديد، وابتسامة مريرة فاسدة، وتكشيرة مخزية جعلتني أبدو مثل ذئب. أجفلت فجأة، ونظرت إلي من جانب وجهها، وبدت كأنها خافت، ثم تجاوزتني كأنني لم أكن رفيق الأوراق والمشاوير المكوكية إلى بائع الطوابع، في أي يوم.

أمضيت (أنا أيضاً) تلك الظهيرة بلا طعام، فقدت الشهية، واكتفيت بكأسين من الشاي، مع الخبز المحمص على البابور، ثم ذهبت مساء إلى مكتبة طعمة الله، واشتريت «العبرات»، فقال لي المكتبي: «شو؟ حابب؟!». أنكرت بشدة، فانتزع ثمن الكتاب من يدي وقال: «الرجّال يتخلى عن كل شيء في الدنيا من أجل المرأة التي تحبه، ولكن كل شيء في الدنيا أفضل من المرأة التي لم تعد تحبه، حتى عود الكبريت» أضاف وهو يشعل سيكارة، ويريني عود الثقاب الذي أطفأه بنفخة، ورماه في تنكة صدئة مخصصة لمهملاته. شتمته حين صرت في الشارع، ووصفته بالحيوان!

ما كنت مستعداً لمقارنة ليلى بأي مخلوق، أو أي شيء، فكيف يريدني أن أفضل حطاماً تافهاً عليها؟! اكتشفت أنني أحبها، وأستطيع اليوم أن أصرخ، دون وجل، أنني واظبت على مطاردتها طوال الأشهر التالية، بلا إجازات، مضحياً بالحصة الأولى من دروسي اليومية، وذلك لأنها بدأت تبدل مواعيد الخروج، أو تغير الطرق والدروب إلى مدرستها. وعلى الرغم من أنني كنت أفقد خطاها - في الغالب - فقد رفضت الإذعان لمقولة طعمة الله بأنني مجرد تيس سافل وكسول، تهرب منه أنثاه، أو تبحث عن ذكر آخر. قال هذا التعليق حين أخبرته بأنني أريد كتابة مشهد، أو حكاية ممسرحة عن تلك المطاردة. هذا عدا قوله إنها مادة تافهة لا تصلح لرعي الماعز، ولا لحك ظهور الحمير. الحقيقة هي أن طعمة الله لم يبدُ لي ماكراً وحسب، بل حاسداً أيضاً. اعتقدت أن كهلاً تعيساً وفاشلاً مثله، لن يستطيع تفهم - أو تجربة - رعشة مماثلة لرعشة الحب المتأججة داخل أحشائي. فقال لي حين قرأ ما كتبته هنا، إنني لم أكن أرتعش، وإنه لم يكن كهلاً في ذلك الوقت، وكان يركب امرأتين غير زوجته. كذاب. قلت لنفسي، إن رغاء الرجال، ونهيقهم الفاحش المدعي، يعلوان كرد على الحرمان، وعطب تجارب الجنس. ولكن دعني من حماقات المكتبي؛ إذ ليس لدي أي حرص على إخفاء معاناتي، أو لوعتي في تتبع خطاها. كنت أريد أن أذكرها بالقصاصة التي كتبت لي فيها: اشتقتلك! هكذا بالحرف الواحد! اشتقتلك! هي البديل اللفظي الآمن والمحصن من المباغتات غير المحبذة لكلمة: أحبك! نعم! هذا هو تفسيري الحاذق لما أمدني به فقهٌ باطنيٌ مشبعٌ بالقراءة المناسبة لحالات مثل حالتي. غير أن تلك الكلمة باتت آسنة، ومتخاذلة، لا تقوى على ملء الفراغات، والثقوب التي خلفها تجاهل

ليلى لي، وانصرافها الوضيع عن محادثتي، أو الالتفات نحوي. لماذا؟! ماذا فعلت؟ هل يستطيع أحد أن يظل قابعاً وراء هذا السؤال الساخن، أو القارس، طوال أكثر من عشرين سنة، أقل من خمس وعشرين سنة، دون أن يحظى (اللعنة! إني أرشح كلمات ناعمة، وممتلئة بالمكاسب للتعبير عن معنى جارح وخاو، معنى ظل فاغراً مثقوباً طوال ربع قرن!) بجواب يطهر ألمه!

المجد الوحيد لغياب المعنى المنطقي، لما كان يحدث، هو أنه منحني القوة والصبر على الإنكار المتواصل، لما كان يلقمني إياه طعمة الله من القول إنها لا تحبك. إذ إن ذلك الغياب ترك لي المساحة التي أرغب في احتلالها من الحقل الخاص بالتفسير والتأويل. اعتقدت أنها تلعب، ربما لأنني تخيلت ذات يوم أنها رمقتني بلحظ سريع رقيق فاتن، ثم عادت إلى مشية المهرة الطائرة. يا شيطانة! على هامان يا فرعون؟! ولكن هامان الأحمق الغبي تعرض للإهانة والشجب حين أراد أن يقدم القرينة على أنه فهم الرسالة، ويبرهن لفرعونه المتباهي أنه حاذق في اكتشاف العلامات السرية، والتغلغل في السراديب. فحين تقدمت نحوها، وهي تمشي على الرصيف، قرب الجدار، في شارع كان اسمه «شارع الوليد» نفرت مني، وصرخت تقريباً، وقد رسمت تكشيرة الغضب الجامح الذي أعرفه، وقالت: روح من هون! أذكر أن صدري صار مثل طبل، التَوَتْ ركبتاي، وكدت أقع على الحافة الحجرية، وقد أحسست أنني ذبحت.في تلك اللحظة جمدت، تركتها تمشي بعيداً عني، تغزل مثل حمامة، تتلاشى وتضيع في آخر الشارع.

تغيبت عن المدرسة ذلك اليوم. لم أجرؤ على العودة إلى البيت خوفاً من ظلال الارتباك في وجهي وحركاتي، وبقاء أخي فايز هناك.

بقيت في الشوارع، أتجول مثل جدي صغير يتيم نازف. وأنا أثغو وحدي مناجياً نفسي الجريحة المحطمة المطرودة.

أتساءل الآن فيما إذا لم أكن قد بالغت في رد فعلي. فالعبارة لم تكن تتضمن الطرد، أو النفي، بل الإبعاد فقط. وهو السلوك الطبيعي المفترض، حسب التقاليد، من فتاة يانعة ترفض أن تكلم أي غريب ابن كلب، في شارع مزدحم بالطلبة والطالبات والباعة والموظفين وتلامذة المدارس الابتدائية.

غير أن وضاح قال: ترهات! كان بوسعها أن تقول صباح النور (رداً على تحيتي) ثم تتابع طريقها. هناك احتمال أن أطمع في أكثر من ذلك. تريد أن تمشي بجوارها؟ إذن؟ زميلان يتحادثان في أمور الدراسة! رأي وضاح أن فراري من جهة، ونفور ليلى من جهة ثانية، يمثلان القدرية التي وسمت شخصيتنا في ستينيات القرن العشرين. وهي قدرية ظهرت في سلوكنا الاستسلامي الراضي، والقانع، والراضخ لمتطلبات الواقع. لا تريدون أن تغيروا أي شيء! ماذا نغير؟! يريد المجتمع مثلاً أن ترفض الفتاة الرد على تحية صباح الخير، فتقول لك انقلع، أو انقبر، أو اخرس بدل ذلك. يريد أن تمتنع عن مخاطبة فتاة، أو تحاول تثبيت الذرائع دفاعاً عن قلة الذوق، أو إساءة الأدب.

هل كان وضاح يضمر حباً لليلى مماثلاً لحبي لها؟ شعرت بالامتعاض والقرف من احتمال أن تكون ليلى قد شجعته أيضاً على الاقتراب منها. سيكون ذلك نوعاً من الاضطراب الكوني (والعقلي أيضاً)، ثم وجدت بضع إشارات في المخطوط الأول لا يمكن إغفالها عن وضاح وليلى. فقد اكتشفت أنهما تبادلا الأشواق الخفية بضعة أشهر. لا أستطيع تحديد الزمن. ولكن وجودهما في منظمة الشباب الديمقراطي معاً أتاح لها

أن تقترب منه، أكثر من مرة. في ذلك الوقت كان وضاح قد بدأ ينظر إلى الفتيات من الفتحة الخاصة التي عممتها الشيوعية المحلية على مجمل الشباب الذين انتسبوا إلى صفوفها. ليست لدي أي أدلة مكتوبة تثبت أن قادة الشيوعية أمروا أتباعهم ببلع إيورهم، أو تخليلها، وعدم العبث بها مع أي رفيقة، باستثناء الزوجات. ولكني أستطيع أن أجمع عشرات الشهادات من شيوعيين متقاعدين، أقروا فيها بأن التعليمات الداخلية (أو الضمنية) كانت تنتقل من شخص إلى آخر، أو من رفيق إلى رفيق، عبر نظام خفي يشبه أنظمة القطعان (اعتذرت لوضاح عن هذا التشبيه غير اللائق، فأنا أستخدمه بمعناه الطبيعي، دون الظلال التحقيرية التي اعتاد الفكر السياسي العربي على ترددها في الآونة الأخيرة لوصف الحشود) أي دون لوائح، أو تعليمات مباشرة، تحرم، أو تمنع، أو تحظر اللقاءات الجنسية. وبالمقابل كانت الوعود تنهال على هؤلاء الرهبان المتمسكين بالفضيلة، بقرب تحقيق الشهوات كافة، في نعيم الاشتراكية المقبل. وبانتظار ذلك، عمل الجميع (ليس الجميع بالطبع، فهناك من لا تستطيع أي قوة أو فكرة تاريخية من ليِّ عضوه، أو تخليل عواطفه) بدأب، وصبر أسطوريين على بناء سياج شائك، بدا منيعاً، وجارحاً لكل من تسوِّل له نفسه كسر الحواجز.

الغريب أن جميع الشهادات التي سجلتها، امتلأت بندم مشبع بالتأنيب، والتبكيت، والبكاء على تلك الأيام الضائعة من التقشف الجنسي. إذ كان لدى كل واحد حكاية عن الخسارة والفقد والإحجام عن مغازلة الفتاة التي اختارها أو أحبها، أو لاحظ اهتمامها به. لا يعني هذا أن المنظمة المحلية كانت تعج بالنساء، لا، أبداً، فتلك الروح العذرية كانت قد تمكنت من التسلل إلى القلوب كي تصبح موقفاً من النساء

جميعاً، بحيث أضحى الاهتمام محصوراً بالخيار الوحيد: المرأة التي ستغازلها هي المرأة التي ستتزوجها فقط.

ولكن إذا كانت الكتابة تستطيع أن تخرق ذلك المألوف، وتتحدث عن رغبات الجسد التي تتغلب، في كثير من الأحيان، على تعليمات العقل، ونواهي الوجدان، وتحولها إلى هراء، وسفاسف، وأكاذيب. فإنها لن تستطيع تطويع وضاح لهذه المهمة. كانت هتافاته في هذا الشأن ما تزال حية منذ حقبة الستينيات حتى اليوم. مستحيل! قال لي. لقد أحببتها بصدق. ولكني رفضت أن ألتقي بها في بيت عبد الخالق حين وافقت. هذا محرم. ثم استدرك حين لاحظ علامة التعجب التي ارتسمت على وجهي (الحقيقة أنني رفعت حاجبي، وأطلقت لفظاً شبيهاً بـ أوف!) أعني ممنوع، ومحظور. فجأة اكتسى وجهه ملامح شيطانية، وحملق في وجهي بقسوة، أعرف هذه القسمات. سوف يبدأ وضاح الطيب، الحزين، المتهادي، في التفوه بإحدى محاضراته المستجدة عن الألم، والإحباط، وتنكيس الرايات، والهزيمة. ثم يلحقها بأخرى لا تقل عنها إسهاباً، وإطالة، عن الأمل والمتغيرات العالمية الجديدة، ابتداءً من اليابان، مروراً بإيران - وهو معجب متفاخر بالخميني - إلى ماليزيا. وقد صارت التجربة الماليزية حصراً، مثالاً جديداً على حيوية الشعوب (اخضرار الحياة) ورمادية النظرية، ودور الفرد في التاريخ - مهاتير محمد نموذجاً - ثم يضيف إليها إحدى أفكاره الطازجة: تحتاج الشعوب دائماً إلى يد حديدية تقودها. (الحرير لا يصلح إلا لصنع الشالات، والقمصان) لكنني حذرته رافعاً كفي الأيمن أمام وجهه، إياك!! فابتسم بحب، وقال مازحاً: لا تخف! لن تسمع أي كلمة مني. علماً أنك الخاسر. فلدي الآن نظرية أخرى فحواها... صرخت: احذر!

فأكمل، وكأنما كان يتزلج على جليد الكلمات: النظام العالمي الجديد. ثم بدَّل الحديث وقال: أظن أن النظام العالمي القديم كان أكثر رأفة من حالنا اليوم، ففي ظله لم أذهب لالتهام ليلى كما اقترح عبد الخالق (هذا أحد زملائنا الزعران) بل عرضت عليها الزواج. هل تصدق أنها بدأت تضحك؟! ثم ظهر الغضب على وجهها. نتفت طرف ورقة في دفتر كانت تتلاعب به، وكورتها، ورمتها على الأرض.

لم أكن أعلم أن الشريك الآخر، في الرومانس المنزلي الذي كان يعرضه وضاح لنا، هو ليلى: كان صديقنا يمضي ثلاثة أرباع الوقت المخصص له للكلام، في تزيين ذلك الرومانس المأمول (هو منزل المستقبل) بزخارف الخيال، ولوحات العواطف المتبادلة، ونمليات المطربة صباح المليئة بالخبز والزيتون والبطاطا. وفي أحد الأيام، ازداد سعاره (أذكر أن الأمر امتد لبضعة أسابيع) ومرض بحمى الأثاث، بدا حائراً في شأن الأغطية والفرش. هل يقتني فراشاً واحداً ولحافاً واحداً أم اثنين في غرفة النوم (وهي الركن الآمن لأساطير المستقبل) وماذا يعني أن يكون لديه فراشان ولحافان ووسادتان، في حين يبيت ربع سكان الأرض في العراء؟ شجعناه جميعاً على وجوب الاقتصار على فراش واحد، على الرغم من أننا لم نكن نشاركه في همومه الاقتصادية والاجتماعية. وكان رأي جميل أن خلو منزل الزوجية من الفراش الاحتياطي (الثاني) يفسح المجال لمضاجعات يومية يضمنها الاحتكاك والالتصاق والملامسة داخل اللحاف المشترك. أيدنا كلامه بلا تحفظ، وازداد حبنا للعالم، وشوقنا للمستقبل، حين سيتمكن كل واحد في مجموعتنا من النوم قرب امرأة، والتمرغ في حضنها، وأخذها من الأمام، أو من الخلف، وشم أنفاسها، والاستماع

إلى همسها الناعم كل ليلة. حلم محموم عاصف أتلف أمزجتنا، ولم يعد أمامنا سوى الذهاب إلى مراقدنا، لينجز كل واحد منا عادته السرية، كتعويض مرحلي عن الآمال الموعودة.

لم أشِ بمشاعري لأحد. ولكني لم أستطع إخفاء كآبتي وحزني أيضاً. وفضحت نفسي باستمرار أمام رفاقي. إذ كنت أشرد وازدحم بالأغاني الحزينة التي تنقض على العشاق الخاسرين من جميع النواحي. وقد وجدت لدى المغنين العرب، رجالاً ونساءً، مادة كريمة من الغناء المولول المتباكي على الحبيب الذي هجرني، أو نبذني أو هرع إلى غيري تاركاً إياي وسط الهشيم، تُحدِقُ بي المفترسات والهوام. لم يول رفاقي آنئذ حالتي الاهتمام اللائق بالطبع. وهذا طبيعي. ففي غياب الحكاية، يتلاشى التعاطف، ويتحول الحزن إلى نوع من العطب، أو العطل المؤقت غير المفهوم. ولم أجد من يرغب في اقتحام أسواري في أي وقت، عدا بضعة أسئلة بلا مجد، يوجهها قيس، أو جميل، أو وضاح إلي: ما بك؟ خير؟ شو؟ أو جمل ساخرة خالية من النشوة مثل: «عدنا إلى الأغاني؟!» تعليقاً على انطلاقي في ترداد أنغامي الدنفة، دون حساب (لاشك أن طعمة الله لاحظ شحوبي، وانحلال دعاماتي، فزودني بكتاب جيب يحكي عن لص اسمه «أرسين لوبين» أطلق عليه الكتاب لقب «اللص الظريف»، شكرت طعمة الله منذ أيام، على مأثرته القديمة، التي رأيت أنه هبَّ لإنقاذي بها، من الانزلاق على سطح الخيبة الجليدي، بطريقة فذة، تحاول أن تعيد تأهيلي بواسطة رمزية تماماً، فقال إنه نسي ذلك البطل الخرائي، ونسي الفكرة، ولا يمكن أن يصدق اليوم أنه أراد محاربة العشق باستخدام شخصيات ورقية من طراز ذلك القزم).

وضاح كان أكثر تماسكاً مني، فلم يضطر (بفضل حصان روحه

المروض) للتمرغ في وحل نكبات الحب قط أمامنا. ظل منتصباً كالألف، ينظر إلى ظهري المقوس، وعظامي الناتئة، بعينين مشفقتين، فائرتين بالعزيمة (يجب أن يكون المرء مصنوعاً من الخشب والمسامير كي يتمكن من سد السراديب المفتوحة بداخله، ومعاضدة أحد المصابين بعلته ذاتها) ولكنه لم يعد كذلك اليوم، فحين قرأ ملاحظاتي، ومشاهدي العشقية في المخطوط، حدجني بغضب، وانتظر قليلاً، وهو يفكر (كتبت من قبل: إنه انتظر قليلاً كي يحاول أن يمشط ذلك الماضي، باحثاً عن الذكريات، أو مقارناً بين ساعاتي القديمة المتخاذلة، وساعاته الفاشلة): إنها هي إذن!!

هل اكتشف أننا كنا نعشق الفتاة ذاتها، وأن أحدنا مرَّ في الشارع نفسه لاحقاً بها، قبل الآخر، أو بعده، بضع دقائق؟! هذه مسخرة. قال بلا مواربة، أو حياء. ثم أضاف أنه لم يظهر عاشقاً لأنه ما كان يجد أي حصافة، أو حكمة، في ترك الآخرين يجسون شغاف قلبه، بأصابعهم المتجعدة، أو أطراف كلماتهم المدسوسة، أو الغارقة في ماء الكذب.

تأكدت من أنه كان يريد أن يقول إنني كنت أخرق تماماً، وركيكاً في ذلك العهد. فالتصريح بالعواطف، أو البوح بها، أو التعبير عنها، لم يكن في رأيه سوى ثرثرة الضعفاء الباحثين عن الدعم في القضايا الخاسرة. فالأمر الوحيد الجدير بالمجاهرة، لدى البشر، هو الإعلان عن الصمود، أو هو «روح المقاومة» كما أطلق على تطلعاته، كبديل عن لفظ «المقاومة» الذي بدأ يتردد بكثرة في الدائرة العربية كلها. فالمقاومة في رأيه مجرد كلمة مباشرة تستدعي إلى الذهن أداة واحدة هي السلاح. أما روح المقاومة فهي الكينونة، إنها المعنى الذي يكتم وجودنا، أو يجسده في الحقيقة، بصمت، بروية، كي نبقى ونستمر.

هراء! قلت له. فحين أحببت ليلى، لم أعد أجد أي رغبة في معارضة أحد. أذكر أن التسليم والخضوع لمشاعر الحب، كانت تثير في كياني سعادة، وفرحاً لا مثيل لهما. حتى إنها بدأت تأتيني في المنامات. وهناك قبَّلتُها مثلاً. تغلغل طعم ريقها إلى دمي. لا يمكنني وصفه الآن بأي صفة، طعم ومذاق خاص فريد يبدد جميع الطعوم، بحيث تبدو مجردة من الحس والطراوة، إزاءه. وربما كانت كلمة رضاب العربية هي الأكثر غنى وثراء من هذه الناحية، للحديث عن تلك القبل التي ارتشفت فيها، أو امتصصت كالإسفنجة، ريق ليلى في المنام. هناك أيضاً استطعت أن أعرف كل قطعة من جسدها، أقسمُ إنها تعرت أمامي، وأقسم اليوم أيضاً، إنه لو أتيح لي أن أرى جسدها، لتطابق تماماً مع صورة الحلم التفصيلية المضاءة بأنوار النيون البيضاء.

عند هذه النقطة، بدأ طعمة الله يقهقهُ ساخراً مني: تفخر بأنك حالم كذاب، ثم تدعي البطولة في ذلك؟! قلت إنني كنت سعيداً بالفعل، ولم أقلْ إنني بطل. أوهام! لا يهمني قطعاً. المهم أن شيئاً ما يستطيع أن يضمن لك سعادة صافية خالصة من الشوائب، لفترة من الزمن. قل لي - قلت له - لماذا تسخر من سعادة الواهمين؟! فقال لي: هذا وهم السعادة! أعجبني ذلك القلبُ الذكي لعلاقة المفردتين، وقلت له إن قعوده في ذلك المنعزل الرطب والقذر قد أحرق قواه العقلية، وسميته رجل الرطوبة؟ قال: رطوبة الرجل. ضحكنا، ثم بدأنا نلعب بالمجازات فقلت: بنت الشارع. قال: شارع البنت. سلطة الحلم. حلم السلطة. قهوة الصباح. صباح القهوة. أشجار العاطفة. عاطفة الأشجار. تفاح العافية. عافية التفاح. ضوء الود. فقال إن المقابل لهذه الصورة تافه، وهو يقترح بدل ذلك صورة: محبة الضوء. ثم أضاف: صداقة الشاي. قلت: شاي

الصداقة. فأخذ يدك بابور الكاز النحاسي. فقلت: بابور الشوق، قال: هضبة المنامات. منام الهضبة. زهو الكلاب. كلاب الزهو. فردوس الفساد. فساد الفردوس. شعرت بالفرح فجأة. وقلت لطعمة الله إن المجازات تبدل آراءنا في الحياة، وتعيد تأهيلنا من جديد. قلت إن لها مفعولاً علاجياً، أو روائياً قادراً على قولبة النفس، أو صياغة المشاعر والأفكار بقدر يزيد أحياناً على التجربة الحسية. فقال إنه يعتقد بأنني أبله أو غبي كي أصدق اللغة. اللغة ليست سوى عملية خداع، وكذب، وتزوير لأي حقيقة، ولأي واقع. وهو يؤمن بأن الناس اخترعوا اللغة، لا من أجل التفاهم، بل من أجل أن يتمكن كل شخص من إبعاد الشبهة عن نفسه، بقول أشياء تنقذه من رقابة الآخرين، ومن اكتشافهم لما يفعل أو يفكر. ثم حدثني أنَّ أولاده انتزعوا الدكان منه بالكلمات والجمل من نوع أنهم يريدون أنْ يتخفف من الأعباء، أو يريدون أن يخففوا الأعباء عنه. لاحظ! قال. وأن الأوان قد حان كي يسددوا ديونهم له، ويقدموا واجبات البنوة المستحقة عليهم منذ أن ولدوا. ترى؟! هل ترى؟! كل تلك الكلمات الطرية النظيفة كانت تخفي براثن ذئاب، ونيات ثعالب. فقلت: ماذا كنت تريد أن يقولوا لك؟ إلى الشيطان مثلاً؟ أو انقبر؟! أو نم مع الكلاب؟! فنظر إليَّ بطرف عينه، وانتزع كأس النبيذ الأحمر من يدي، ودمدم: الشرابُ الوحيد الصالح لك هو الحليب. خرى عليك! فضحكت، ومسحت ظاهر كفه بباطن كفي (ربتّ) فأعاد لي الكأس، وغمغم بكلمات ما لم أفهمها. الأرجح أنه أراد أن يقول إن اعتذاري لم ينطل عليه، وإنه يقدم لي الشراب كمنة، كحسنة عن روح أبيه أو أمه. فشربت الكأس دفعة واحدة، والتهمت قطعة خبز يابسة (طعمة الله يدعي أنها محمصة على الشمس) (لم يكن لدي ما أفعله. فقلت

سأعود لاجترار الذكريات، مراهناً على أنني سأتمكن الليلة من استعادة قدر ضخم من المواد المغذية، والغنية ببروتين الحكايات، أحسست أن للماضي رائحة عجين مختمر، وأن بوسعي أن أخبز على صاج الزمن) كان الواجب يقتضي أن أسترضي طعمة الله أكثر من ذلك، ففكرت أن أشتري بضعة كتب، كنت أعلم أنه مفلس تقريباً، وأن النبيذ الذي يشربه يأتيه بصورة مساعدات إنسانية من المحسنين الذين يعجزون عن بيع محصولهم من الدنان بسبب سوء الصنع، أو أخطاء التخمير التي تملأ المنتج بطعم الخل، أو الصدأ. وإذا كان المكتبي العجوز يكرع أي زجاجة، فالسبب ناجم عن خراب لسانه، أو تكلس جدران فمه ومعدته. كان يرى أن ذلك التلف نعمة من الرب. تتيح له التهام أو عب أي نوع من الطعام والشراب، دون استنفار الحواس المربكة، أو المعطلة. ومع ذلك فإن حضور بضع أوراق مالية من الفئات الكبيرة، سوف يكون ضمانة أكيدة لعدم انزلاقه نهائياً إلى مرتبة متسول، كما يمكن أن يمنحه القدرة على شراء حاجاته من الثياب، أو الطعام، أو الشراب، في حال غياب أي واحد من أقاربه، أو أصحابه ممن اعتادوا تقديم العون له.

الغريب أنه لم يكن يائساً البتة. وإذا كان لا يرفض تلك الأعطيات الخفيفة، فإنه كان مستعداً للبقاء أياماً عديدة بلا طعام وهو يكيلُ المدائح لتلك المعدة التي تشاركه كبرياءه، فترصف جدارها بطلاء كاتم، وتنكمش، وتضمر، بحيث يكفيها في اليوم قليل من روائح طبخ الجيران، ويضع رشفات من الماء، مع كسرات من وصفة الخبز الشمسي المحمص. بالمثل كانت دماؤه تقدم التزاماً حكيماً يقصي تلك الخلايا الظامئة إلى الكحول، ويتوقف عن تهديد أصابع اليدين، أو أطراف الشفتين، أو جفني العينين، أو أي جهة من الجهات التي تتعشق

الكحول عادة. الأمران الوحيدان اللذان لم يتمكن من تدريبهما هما التدخين والمزاج. وقد احتفظ من أجل السكائر بجراب خاص يضع فيه مدخرات خاصة، كأنما يقدمها لولي، أو مزار، يستطيع أن يأخذ منه الحصة المناسبة لكل يوم، بينما ظل ينتابه ضجر حاقد وعنيف يدفعه لطرد أي شخص من مستودعاته دون حياء أو تردد، إذا ما أبدى إساءة ما، أو تأفف من كاتب، أو كتاب هناك. صرت أعرف السبب، فالكتب وحدها (والدخانُ أيضاً) هي التي كانت تحجب عنه التفكير في موضوعات الأكل، والشرب، كما أنها كانت مصدر رزقه الوحيد، بحيث بدا له أن الملاحظات، والآراء السلبية عن أي منها، قد يضر بالمجموع كله. فكرة حمقاء بالتأكيد، وغير مفهومة، ولكن طعمة الله صار ينظر إلى مكتبته كبضاعة حين يحتاج إلى النقود، ثم ينسى ذلك بضعة أيام حين يتوفر له المبلغ الضروري لغسل الدماغ والشرايين، أو لمكافأة المعدة على الصبر والنسيان.

اشتريت سلسلة من الكتب صغيرة الحجم، أصدرتها مؤسسة فرنكلين في بيروت، في بداية الستينيات بعنوان أعلام الأدب الأمريكي. لا تحظى الثقافة الأمريكية، في أيامنا هذه بأي شعبية، باستثناء عدد من الكتاب الذين يمكن أن يجدوا أصداء لمؤلفاتهم بين النخبة من القراء المشغولين بالإبداع، وقد ادعى طعمة الله أنه اشترى النسخ من مقتنٍ بكر اكتشف أنه لا يحب روبرت فروست، أو ووليم فوكنر، أو مارك توين، أو والاس ستفنز، أو ف سكوت فيتزجيرالد، ولكني لم أستطع أن أعرف لماذا زخرف ذلك المقتني مكتبته بهذه الكتيبات، أو لماذا اشتراها المقتني الأصلي الذي تخلى عنها أيضاً. فكرت أن من المحتمل أن تكون قد عبرت طوال الأعوام التي أربت على خمس وعشرين سنة، عشرات

الأيدي، دون أن يقرأها أحد. وهذا واضح جداً من الأغلفة الكرتونية الصلبة، والورق الذي لم يتعرض للطي، والحبر الذي ما يزال متوارياً، تفوح منه رائحة المطبعة.

وفي البيت بوغتُ بكتابة ملهوجة، متسرعة، متوترة، مسكونة بالغم والارتباك، سطرتها يد شخص ما على الصفحة الأخيرة البيضاء من كتاب روبرت فروست: هو عمري هو ما كنا معاً، يلي ذلك فراغ، وبضع كلمات غير مفهومة، ثم: هو طيف حالم. يليه كلمات غير مقروءة: صار ذكرى /صار جنحاً طائراً/ صار نغماً ضائعاً وسط المتاهة. أعرف أن مطالعة مثل هذه العبارات في أي مكان، ستجعل المرء يفترض أن كاتبها (كاتبتها) مراهق كئيب محطم، أو هاوٍ منافق يختلق البؤس والحرمان. يمكن أحياناً تزجية الوقت في تدبيج عبارات من هذا الطراز، ولكن بقدر ما أذكر، فإن المئات من المراهقين في زمننا (أقصد الآلاف أو عشرات الألوف. وأقصد منتصف الستينيات) كتبوا عبارات مماثلة كتمثيل للحقيقة الروحية التي تتأجج بداخلهم. كانت الكلمة برزخنا إلى الآخر المجهول، اعترافاتنا الرمزية، أوهي الصورة السلبية، نيغاتيف المشاعر المقموعة، والمخبأة، والمتروكة على أرصفة السنوات الخجولة والضائعة.

خاطر غريب خامرني في الليل، حين أسندت رأسي إلى الوسادة، وسرعان ما بدأت الحقيقة تتضح لي: وهي أن تلك الكتب كانت جزءاً من مكتبة ورد. رميت الملاءة، وعدت إلى مكتبتي. وهناك وجدت إشارة إلى ذلك في المخطوط الأول، حيث بدأت ورد بناء مكتبة أسرة، بمساعدة عبد الله المصري. كان الأمر شديد الاضطراب، فالتشطيبات لم تكن كالمعتاد، كنت أميل إلى إخفاء الكلمات والجمل والفقرات الملغاة،

بخطوط متوازية، قصيرة أو طويلة، بضربات سريعة قاطعة، غير أنني هذه المرة، اكتفيت بإشارة ضرب طويلة ملأت الصفحة.

أستطيع استنساخ المكتوب دون عناء. أذكر الآن أنني شطبت ذلك الجزء من السرد، بسبب خشيتي من أن يتضمن نزعة خيالية، أو لاواقعية، يندر (إذا ما تصفحنا الواقع) أن نجد مثيلاً، أو مشابهاً لها. لقد اعتقدت أنني أفرط في تركيب امرأة مدججة بعقل قتالي لا وجود له في الحياة. حدث ذلك في الحقبة التي اجتاح فيها الواقعيون الكتابة، وقد أنذرت بأن أي محاولة لبناء شخصية ذات ملامح متميزة، ستكون مكلفة جداً. إذ يتطلب الأمر إيجاد صلات، وتواريخ، وعلاقات عامة وخاصة، تمنحها القدرة على الإفلات من القيود المقررة في اللوائح التي تطابق بين الشخصية والمرجع. لهذا اعتقدت أنني أخطأت حين رشحت ورد لدور القارئة، وأنني ارتكبت خطأ أكبر، حين كلفتها بمسؤولية اقتناء الكتب. ليس لدينا نساء من هذا النمط قط، فكرت حينئذ، وسوف تبدو ورد مثل ثؤلول نافر، وغريب على المكان المحلي.

رميت هذه القمامة الفكرية في الزبالة، بعد أن اعترف الوطواط طعمة الله أن الكتب الستة كانت ملكاً لورد، وأنه اشترى بالفعل معظم الكتب التي كانت لديها قبل أربع سنوات. ثم أقسم إنه لم يقرأ البكائية السابقة، كما لم يقرأ الكتيب الصغير عن روبرت فروست.

لا يهمني الأمر أبداً، ولكن لماذا لم تذكر هذا من قبل. قال: ما شأنك؟ ما علاقتك؟ هل تريد أن أفهرس لك حياتي، أم مكتبتي؟ أم تريد لائحة بأسماء من يبيعون مكتباتهم كي تشنقهم مثلاً؟ قلت: الفكرة جيدة. ولكني لا أملك ما يكفي من المال لأشتري خشباً جيداً، أو حبالاً متينة للمشنقة، فضلاً عن أن خبرتي معدومة في تقنيات الشنق.

فنظر إلي من الأسفل، نظرة حاقدة. لا أعرف كيف رآني في تلك اللحظة. فوجود تلك الشعيرات المتشابكة، المتدلية من حاجبيه سيكون قد أعطاه فكرة مزيفة عني، ومن المحتمل ألا تظهر أساريري الماجنة واضحة في المسالك الضيقة لذلك الغطاء العشبي الذي يظلل عينيه. وهذا هو السبب الذي دفعه لأن يشيح ببصره، ويلتفت إلى الناحية الأخرى من وكره المتعفن. ويتصنع النوم. حاولت استرضاءه. والحقيقة أنني شعرت فجأة بأنني لا أحبه، وأن ما أفعله، ليس أكثر من رياء مطلي بعسل الكلام. تلفيق للكلمات من أجل احتلاب ذكرياته، وفي أحسن الأحوال، هي عبارات مجردة من العاطفة الصادقة.

المفاجأة هي أنه استقبل لفتتي برضى. ابن الحرام! كان يريد أن يحكي، أكثر مما كنت أرغب في الاستماع. غير أني لن أدون هنا سوى الملاحظات الضرورية، إذ اتضح لي أنه لم يرو لي تفاصيل شراء مكتبة ورد، وإنما حكى عن ورد. كانت هذه واحدة من المصادفات التي تستطيع أن تكسر حركة السرد، أو تنعطف به في اتجاه مكلف جداً. وأنا متأكد أن طعمة الله كان مولعاً بتلك المرأة. وإذا لم يكن المكتبي من أولئك الذين لا يسمحون لأحد بعصرهم، أو تنشيفهم من أجل انتزاع سر، أو سلب ذاكرة، فإن الحكاية غدرت به. كشفتك قلت له في نفسي، وأنا أستمع إليه يردد تلك العبارات عن ورد. لكن السؤال بالنسبة إلي الآن هو: متى؟! وأين؟!.

نستطيع أن نتخيل أن الأمر حدث مصادفة، ولكن الوقائع تشير إلى أن الكتب هي السبب. لقد أخفى طعمة الله طوال الأشهر الماضية المستوى الذي تقدمت إليه العلاقة بينه وبين ورد. ولكنه تحدث بالتفصيل فيما بعد، عن أن المرأة لم تأتِ إليه من أجل بضعة آلاف من الليرات فقط، أو من أجل التخلص من بالة الكتب التي لم تعد راغبة فيها، أبداً، لقد

ادعى، دون أي ظل من التساهل، أنها زحفت إلى وكره زحفاً، بحركة تشبه حركة لاجئ. لقد كانت تبحث عن ملاذ في الحقيقة (حقيقة طعمة الله) ولم تجد أحداً أفضل من رجل وحيد منبوذ يجلس على حافة الحياة، بلا أمل، ولا ولاء، لأي شيء.

كنت قد كتبت في المخطوط تعليقاً سريعاً، وصفت فيه كلام طعمة الله عن ورد بأنه ادعاءات، أمنيات.

أذكر أنني رأيتها عشرات المرات في الستينيات من القرن العشرين، منها أكثر من ثلاثين إلى أربعين مرة في إحدى صالات السينما.

كنت آنئذ مدمن سينما، أحضر في اليوم الواحد فيلمين على الأقل، أخرج من سينما الزهراء إلى سينما سرايا أو اللواء أو أفعل العكس (راكضاً وراء أفلام الكاوبوي، ومغامرات ماشيستي، وبطولات هرقل، حين كان ستيف ريفز نموذجاً للعظمة الإنسانية والأخلاقية) كانت ورد وليلى تحضران حفلة الساعة السادسة في الصيف، حيث يمكنهما الخروج من السينما، قبل أن يحل الظلام، وحفلة الثالثة في الشتاء. حينئذ، كنت أستطيع أن ألاحظهما أثناء الدخول، أو أثناء البقاء في البهو، بضع دقائق قبل بداية العرض، أو بعد نهاية الفيلم، حين كنا نتجمهر أمام الدار للفرجة على الرواد، أو استراق النظرات إلى الفتيات، أو تفحص المتفرجين. لا أذكر أي تفصيل نافر منها، كنت أراها ككتلة فقط، أو كمرافق متسلط، مهيمن، يجب أن يتحاشى المرء نظرته، كي يستطيع ملاحقة الفتاة المحروسة ليلى. لا يمكنك التسامح مع امرأة لها مثل هذا الحضور الشيطاني المتعصب. كنت أحس دائماً أنني متهم بالتحرش، والرغبة في الاغتصاب. وحين ألاحظ أن ورد قبضت علي متلبساً بالنظر إلى ليلى، أرتعش من الذعر، والحنق. وغالباً

فإن خياري هو الفرار، لا من شعاع عينيها المبصبصتين فقط، بل من المنظور كله. طيب! لا أستطيع أن أحكم على امرأة من هذا الطراز، إلا بأحكام متطرفة، مثل: كيس الرعب! المومياء! الشرطي! أم الغيث! إذ كانت تبدو لي مثل قنبلة أو لغم، تتكتك في الخفاء، قرب ليلى، بانتظار لمسة، أو همسة، أو لمزة، كي تنفجر، وتتطاير أشلاء من اللحم، والأمعاء، والأعضاء الممزقة، والخراء، في الشارع كله. ومن ثم يستطيع أي شخص أن يتخيل ماذا يمكن أن يحدث له بتأثير ذلك الانفجار. ولهذا السبب لن يجرؤ أي واحد (الحقيقة أنه لم يجرؤ) على استخدام عبارات من نوع: رمق، نظر، تبادل، تأمل، لحظ ليلى، فالكلمة الوحيدة المتاحة هي: اختلس مع كل ما يمكن أن ينجم عنها من مخاطر مدمرة. أذكر أنني استخدمت كلمات متنوعة (كنا نعتقد أن لها مفاعيل سحرية تساعد على إعطاب المعنى) مثل معقدة! متخلفة! رجعية! لوصف هذه المرأة التي كانت تقوض مخططاتي بلا رحمة. ولم يفدني بشيء تقمصي (في أحلام اليقظة) للشخصيات الخارقة (زورو مثلاً) لإثارة إعجاب ليلى، أو اختطافها من يد أمها، إذ لا تنفع القوة الجسدية، مع تلك المتغطرسة التي تملك ستة، أو ثمانية أزواج من العيون.

أرجح الآن أن طعمة الله عرف ورد في السنوات الأخيرة، لا في ذلك الزمن، وأظن أنها زارته في المرة الأولى من أجل تقديم عرض لبيع الكتب. كانت ترتدي بنطلوناً من الجوخ البني، وقميصاً كتانياً بلون الكمون، وجاكيتاً من الجلد الأسود، وتضع نظارة شمسية عاتمة تخفي عينيها. صحيح أن المكتبي كان يعرفها منذ أكثر من عشرين سنة سابقة على تلك الزيارة، أي منذ أن بدأ يزودها بالكتب، والمجلات. غير أنه رأى في هذا اليوم (لا تفي الكلمات الزمن حقه في التعبير،

فعبارة: هذا اليوم مثلاً، تعني يوماً ما مرَّ قبل سنة أو سنتين أو ثلاث) امرأة أخرى. فبدلاً من تلك الحماسة النقية التي كانت تميز امرأة الستينيات التي كانت تحملق إلى رفوف الكتب، وتتفحص العناوين وأسماء المؤلفين، أو تضع في يده ورقة حميمة تستهدف كتاباً صادراً للتو، رأى امرأة تجارة، تساوم على بيع سلعة بائدة، أو ميتة للشاري الوحيد الذي بلا عقل في المدينة. هكذا ادعى طعمة الله (ثانية) أنه استطاع أن يتكهن بافتراضاتها. ولكنه لم يعاملها بناء على الاستنتاج، إذ لم يكن يعبأ بالتعليقات المتكاثرة عن خبله، وانسداد بصيرته، بسبب انخراطه المتواصل في تكديس الكتب. شعر بالحرج قليلاً من اهتراء المكان، وفوضى الأكداس والأكوام المغطاة بطبقات من غبار الإهمال. ومع ذلك فقد قدَّم كرسياً من القش كي تجلس عليه. فجلست بلا تكلف، وقالت حالاً: عندي مكتبة سأبيعها. لم يكن بحاجة لهذا الإعلام، فقد كانت تفوح منها رائحة حامضة يدعي طعمة الله أنها تنتشر في أجساد المفلسين. طلب أن يرى ما تعرضه. أنت تعرف كل شيء. نسيت، بعت كتباً لأكثر من ألف شخص. كان يقول الحقيقة، بقدر ما كان يبتز المرأة ليكسب الزيارة. كان مستعداً لاستجداء موافقتها، إذا أبدت نفوراً من اقتراحه. لم يستطع أن يترجم تلك الرغبة إلى كلمات أمامي، كانت شعوراً أو ميلاً جوانياً عميقاً يتجاوز، لديه الآن على الأقل، القدرة على صياغة عبارة، أو جملة مناسبة له.

في البداية اعتقدت أن المسألة تتعلق بالدوافع الجنسية التي تبدت فجأة لدى الرجل الوحيد المنعزل، ما إن هبت عليه أولى نسائم الأنوثة المعطرة من امرأة خمسينية ما تزال تمتلئ بالعافية والنضارة. لم يكن الأمر بعيداً عن تلك المشاعر بالتأكيد، ولكنه أقسم لي إن شيئاً آخر

هو الذي جعله مستعداً لإبداء الرجاء أو الضراعة. لم يكن يريد زيارة المرأة، بل المكتبة. دفعة من الحنين والشوق إلى الماضي كانت تساوي دفقة من عطر امرأة.

كنت أريد أن أعرف ما الذي اشترته امرأة شابة في الستينيات من الكتب! كذاب، قلت له في نفسي، وأنا أستمع إلى حديثه، حين كان يرشف النبيذ الذي اشتريته له. لا يمكن لأحد أن يروي قصة حقيقية، وهو يحتسي كأس النبيذ الثالث. الأرجح أن لسانه سيكون قد أصبح قطعة من الجلد السميك، وسيكون رأسه مثل الحديد الصدئ. ولهذا فقد ادعى أنه أخذ حماماً ساخناً في الليل، وشذب شعر لحيته وشاربيه، وأزال صملاخ أذنيه، وحف حاجبيه، وقص أظافره، ونكش الخبث المتراكم تحتها بمسلة جديدة، واستعار التقليد الطلابي القديم الذي يعمد إلى وضع البنطلون والقميص تحت الفراش طوال الليل من أجل الكي (بسبب عدم وجود مكواة) ثم ذهب في العاشرة (لا أعرف لماذا العاشرة مثلاً) لمعاينة البضاعة.

لا يخلو الأمر من الغرابة! إذ لم يجازف رجلٌ تفوح منه رائحة خل المستودعات، بابتكار مظهر ثمرة ناضجة ومعافاة؟ كيف يمكن أن تنطوي صفقة كتب قديمة على شعائر الأناقة والمظهر؟! يستطيع المرء أن يتصور أيضاً أن الرجل يأتي تقريباً من خارج المكان، أو أنه يعود إلى الزمن، ولكن كل هذه الافتراضات والتكهنات لا تستطيع اقتطاع أي معنى من أداء طعمة الله، خاصة أنه لم يفعل مثل ذلك من قبل أبداً، بالعكس كان يتعمد الرثاثة، وينزع الرتق والرقع من جاكتته أو قميصه أو بنطلونه. ويفرك أبطيه بالبصل، استعداداً لمناوشة أولئك الذين يعرضون عليه مكتباتهم الخاصة.

تأملت الكهل المجعد داخل القميص الكتاني، فنظر إلي من الجانب وقال: ماذا؟! لا شيء. هذا جواب تافه ومزور، وأنت كذاب ولديك شيء تريد قوله. فأبعدت عيني عن مرمى نظراته، وقلت ثانية: لا شيء. أنت تظن أنني أردت مغازلة المرأة. لست كذاباً فقط، أنت سافل ووغد أيضاً. فضحكت وقلت له إن الكلمة الأخيرة لم تعد تستخدم في الأحاديث اليومية، وإنها مستلة من القراءة. فحدجني بازدراء وأضاف: بعض الرجال يعتقدون أنهم ذاهبون إلى الصيد حين يزورون امرأة وحيدة، لا ينقص إلا أن يأخذوا معهم سلوقياً، إضافة إلى البندقية والخرطوش، آخرون يظنون أنهم سيمضون إلى غرفة النوم مباشرة، غيرهم يفكرون أنهم ذاهبون إلى كرخانة، أو إلى جارية مستعدة لغسل أقدامهم. تفو عليكم (يقصد علي) لم يكن لدي أي غرض سوى أن أقول لها، إنها ستبقى محترمة ومقدرة بنظري حتى لو باعت مكتبتها (يمكن! فليس لدي مستندات كافية، أو أدلة تشير إلى صدق كلماته، أو زيفها) فلم تكن حزينة حين جاءت إلي، من أجل ذلك، بل خجولة، منكسرة، كأنها ترتكب الإثم أمام شهود من الأوباش السفلة، عديمي الشرف.

كانت دار ورد تشبه الأطلال، لا يستطيع أحد أن يتخيل أن الموت يمكن أن يمتد أيضاً إلى الحجارة، والطين، وطلاء الكلس، وخزائن الخشب. حتى الكتب بدت كهلة وخرقاء تماماً. تعال! انظر. أخذني من يدي إلى باب متهالك في طرف الدار (داره) رأيت الباب من قبل، أكثر من مرة، واعتقدت أنه باب باكة أو تبان. لكني وجدت في الداخل مخزناً يعج بأكداس من الكتب التي ترقد داخل عتمة باردة ساكنة.

عدت إلى السوق واشتريت نصية عرق، وقدمتها لطعمة الله، آملاً

أن يسمح لي بالبقاء في المخزن. فضحك وقال بشماتة: كنت سأسمح لك بذلك دون رشوة، قلت: اعتبرها هدية إذن، قال: لا، هذه رشوة خاسرة.

أمضيت العصر كله، وجزءاً من المساء، في التنقيب داخل تلك المجموعات من الكتب. لا أجرؤ على القول إنها كانت مكتبة نساء، على الرغم من رغبتي الشديدة في اجتراح تسمية من هذا النوع، إذ كانت تمتلئ بالروايات العربية والمترجمة. لكنها كانت تضم العشرات من العناوين المتنوعة أيضاً. لست بصدد التعداد والفرز، بل بصدد القول إنني وجدت وسط رواية الطريق لمحفوظ، مجموعة أوراق مسطرة، كتبت عليها ليلى (كما سنرى) رسائل ومذكرات نسبتها إلى أسماء عديدة.

إن أي فحص أسلوبي بسيط، يثبت أنها مكتوبة من قبل شخص واحد. فالمطالع متشابهة، والمتن مثقل بمواد تفتقر إلى الحرفية، والخطاب متكلف، إضافة إلى أنه مبهم. ومع ذلك فقد كان ملهماً إلى حد ما.

بدا لي كأن القدر كافأني على انتظاري أو على صبري في الانتظار، فقدم لي الأجزاء الناقصة (أو الأجزاء المكملة في الحقيقة) مما كان معلقاً، أو غامضاً من الأرشيف الذي بات بحوزتي عن ليلى:

تبدو الوقائع غريبة مرة أخرى: فالتشدد المنهك في التحقيق، والاعتقال الطويل الذي دام عشرة أيام، مبنيان على أساس اتهام ليلى بإخفاء الرسالة، أو الرسائل الموجهة إليها من قبل عصابة الكف الأسود، فيما اكتفت المخابرات باستجواب الفتيات الأخريات اللواتي تلقين الرسائل في مدارسهن.

لماذا؟!

في كل محضر من المحاضر التي بلغت مئة وخمسة عشر نصاً، قسمان: الأول هو المعلومات المتعلقة بالفتاة، حيث بدأ الأمن يجري مسحاً تاريخياً وجغرافياً واجتماعياً شاملاً لعائلتها، في السلالتين اللتين تنتمي إليهما. لم يكن في هذا القسم أي صمت، بدا كأن المحقق أراد أن يغوص داخل المياه الإقليمية، ويكشف كل ستر أو مخبوء. والثاني احتوى التحقيق المباشر مع كل واحدة منهن. من المستبعد أن أعرض أي نص من هذه النصوص، أو المقابلات، إلا للضرورات، فقد اتسمت بالتكرار، والحنق أحياناً، والأسئلة المحشوة، والاستطرادات غير المفيدة.

لاحظت أن بضع فتيات اتهمن شباناً بالاسم، باحتمال أن يكون أحدهم وراء هذا التدبير العجيب الأرعن، وقد استدعوا جميعاً وعذبوا بأشكال مختلفة لإرغامهم على الاعتراف، ولكنهم أنكروا بعزم أي علاقة لهم بالعصابة، أو بالرسائل، أو بالفكرة. أعرف اثنين منهم، هما جمال أبو ذقن، وأيمن خطار. لم يقل أي منهما شيئاً عن ذلك الاعتقال. أعتقد أنهما آثرا إلغاء الأمر، أو محوه. واللافت أن الأمن بدوره محا ذلك الاحتجاز المتسرع، بحيث أتيح لجمال أن يتبوأ مهامَّ قيادية في الحزب والدولة لبضع سنوات. بينما أضحى أيمن خطار مديراً متنقلاً لعدد من الدوائر الحكومية.

كلمت أيمن بالهاتف، ثم التقيت به في شقتي، قال إن فتاة اسمها ياسمين وشت به، وإنهم وضعوه في الدولاب ابتداءً من اللحظة التي علموا فيها أن ياسمين كانت مخطوبة له، وأنها فسخت الخطوبة دون إنذار.

تذكرت ياسمين، وحين عدت إلى الملف، وجدت أننا كتبنا لها:

يا رب إنك قد علمت بأنها ... أهوى عبادك كلهم إنسانا
فاجز المحب تحية واجز الذي ... يبغي قطيعة حبه هجرانا

لم نكن نعرف أيمن خطار حينئذ، وليس لدينا علم «بالطعنة» كما قال اليوم، التي تلقاها من ياسمين، وقد أرسلنا لها هذين البيتين لأننا لم نجد اسمها في سجلات الشعر العربي الغزلية. مثلما فعلنا مع أخريات لهن أسماء، وقد ذكرت للمحقق أنها تركت أيمن بسبب سوء طباعه، وغيرته. والظاهر أنها لم تقل مثل ذلك لأيمن، فقد واظب، بعد أن شلحت الخاتم، على مطاردتها، والمشي بجانبها في الشارع، وهو يسأل بلا توقف: لماذا؟! إلى أن صدته علناً أمام المارة، صرخت لا أريدك! بكرهك! حل عني! عندئذ بصق في وجهها، وشتمها، وسب أباها، وأمها، ونال من شرفها. يعترف اليوم أن القنوط الممزوج بغضب المهان دفعه إلى ذلك، وأن شتائمه كانت زلات فادحة خالية من الاستقامة والورع. والغريب أنه ظل بضعة أشهر يؤمن بأن العقاب الذي ناله انطوى على جانب تعويضي لتطهير لسانه. ولكن شخصية أيمن في المخطوط كانت مختلفة، فقد استشاط من جديد، حين سألته مواربة عن ذلك الحادث، دون أن أفشي أي سر أرشيفي بالطبع. وعاد يشتم ياسمين، مضيفاً إلى لائحته القديمة عنواناً جديداً هو: قحبة الأمن. وهي تهمة شعبية ذات سحر خاص، يلهو بها، أو يستخدمها الرجال ضد النساء اللواتي يرفضن الانصياع لهم، أو يشردن في سلوكهن. لا أعرف. فليس لديه أي دليل على أنَّ ياسمين صاحبت نقيباً في الأمن السياسي، ولكني أقف مشدوهاً أمام قدرة الحقد على اختراق الزمن. أما ما لم أتوقعه فهو انتفاضة أيمن المفاجئة ضدي.

فقد حدجني بنظرة معطوبة وأخذ يدمدم: هذا أنت يعني؟ هذا أنت؟! تلعثمت قليلاً، وأنكرت أن تكون لي صلة بالأمر، وادعيت أن شغلي يقتصر على سرد التاريخ، أو إعادة تفسير الحكاية، وأن ما أفعله هو نوع من التوثيق للبراءة. فأخذ يهز رأسه، ويهمهم، ثم تنحنح مرة واحدة. وصمت.

يمكن التخمين أن أيمن خطار فكر في تلك اللحظة بأن الحكاية كالقنبلة تدمر أو تقتل أو تجرح أو تخدش على الأقل، أبرياء كانوا على سطح حياة مجاورة. فسألته لماذا هتف أمام المحقق قائلاً: أنا أكثر الأشخاص جبناً في هذا البلد! قال: كذب! ما هي المناسبة؟. يقصد لماذا؟ فقلت: حسن التخلص. أتخلص من أي شيء؟. من تهمة المشاركة في عصابة الكف الأسود. لا أعرف أي معلومة عنها، وقد فوجئت بالاسم، وكنت أظن أنه عنوان فيلم، أو اسم جماعة إجرامية، وفيما بعد علمت أنها بدأت في أوروبا، ذكر لي هذا أحمد الناجي أستاذ التاريخ في الثانوية، ولكني كنت أكره التاريخ كثيراً، وعندي قناعة بأن محبيه مثل البقر، لا يفعلون شيئاً أكثر من اجترار الحوادث المعلوكة، أما أولئك الخنازير الذين أنشؤوا هذه العصابة المحلية، فليسوا سوى شلة من المخنثين الذين اختاروا توزيع نشرات وأشعار عن الحب، بدل أن يوزعوا الرصاص كما فعل المؤسسون هناك.

لم أعلق على ملاحظات أيمن خطار، لأن جمال أبو ذقن رفض بفظاظة أن يتحدث عن الأمر. وقد وصفني أمام جميل بأنني مثل الضبع، نباش القبور. من الواضح أن رأيه ناجم عن وجدان مثقل بالغيظ من تلك الورطة القديمة التي وضعت اسمه، لبضع سنوات، في جارور المشبوهين لدى الأمن. وحين قلت له ذلك، أجاب: لا آكل طعاماً بايتاً. ولا أخجل من

أن أقول لك اذهب إلى جهنم، أنت وحكايتك وتاريخ حكايتك أيضاً[4].

4- عثرت في أرشيف العصابة على مادة غريبة عن فتاة تدعى فوز مصباح علم. كنت قد نسيت تلك الفتاة السمراء الممتلئة التي كانت تأتي من حي القلعة، وهي تحمل كتبها ملفوفة بحزام قماشي أو جلدي ملون له شكل إشارة الجمع، وكان التقرير يصفها بأنها مريضة نفسياً. أجزم أنها لم تكن مريضة قط، وأنها اضطرت لأن تسفح نفسها أمام المحقق بسبب الخوف. والمؤكد عند وضاح أن فوز ذعرت منذ أن رأت الكلمتين المكتوبتين على اللوح المعدني الأسود المثبت على إحدى ضلفتي الباب. كان لغرفة التحقيق وقع الحديد المحمى، صوت الفلق، رعدة الكهرباء، مهانة البواليع، غرفة التحقيق كانت خلاصة قبيحة لكل وساخات حياتنا. وقد حولتها الرواية إلى قبر للروح في العصر الحديث، وعزز الشعر العربي النقمة ضدها في نفوس الشباب، حين جعل منها مجازاً للتعذيب، وبسبب قرب جيلنا كله من الشعر، فإن المقروء لم يعد تعبيراً بلاغياً عن حدث أو عاطفة أو موضوع أو حالة، وإنما أضحى قادراً على التجسد والحضور كواقع وحيد وكبير ومعبر عن الموجودات المحيطة بنا.

غير أن غرفة التحقيق تنفرد من بين الأسماء الشعرية، بكون صورتها في القصائد تعجز عن التطابق، أو عن تمثيل الحقيقة، مثل السجن، الجلاد، الزنزانة، وغيرها من الأشقاء المرعبين، فيضفي التخييل عليها غموضاً ناجماً عن غيابها عن الرؤية، وحضورها كبرزخ، أو كجسر إلى الضياع.

لهذا فإن انهيار فوز أمام الباب، أو في الداخل، وانفلات لسانها، لا يمكن تفسيرها كمرض نفسي. كما أراد ذلك المحقق الجاهل في أيام الستينيات، بل كذعر كوني من قبل فتاة لا تعرف أي شيء عن الأحزاب، والكتل، والعصابات، والمنشورات، ولا تجد في رأسها ما ترويه على اتهامات ملفقة لها بإنشاء غراميات، أو المشاركة في التخطيط للدعارة الجماعية. كنت أريد أن أواجه قيس بهذه الحقائق رداً على تأنيبه لي، ودعواته لتغيير صورة رجل الأمن، ولكنه رفض الحديث عن فوز. قال: هذه مجنونة. حل عني! عرفت من هند أن فوز خرجت من التحقيق شبه مجنونة بالفعل، فاضطرابها العنيف تجاه الفكرة، زاد من يقين المحققين في البداية، من أن بالوسع استنطاقها بيسر. ولكن ازدياد الضغط جعل البنت تخلط رز أفكارها بعدس أوهامها، كما كتب المحقق. لم تكن تعرف شيئاً عن أي شيء، كانت غشاء بكارة ملفوفاً بكيان امرأة، بحيث خيل

ضحك جميل من الكلام. كان يخط على قماش أسود عبارة جماهير المحافظة ترحب بـ .... فقلت: من ضيفنا اليوم؟ ليس اليوم؟ بل بعد أسبوع. الأفضل ألاّ تعرف، لأنك إذا عرفت فلن تساعدني. أمسكْ رأس القماش وشدّه! خذ سطل الدهان الأبيض وضعه قرب الحائط!. نفذت أوامره بدقة. فأفرج عني ودعاني إلى كأس شاي. قال: أعرف

إليها، أن اختراع الحكي يمكن أن يخلصها من المأزق، فبدأت تنسج للمحققين قصصاً يمكن أن تغرق المدينة. لا يذكر الملف سوى القليل منها، ومن المستحيل استعادتها بسبب الخطورة التي تشكلها على النسيج الاجتماعي، كما أن الملف وضعها تحت اسم: سري. وأستطيع أن أتخيل حجم الكارثة المفترضة، (فيما إذا ذاعت تلك الحكايات) من التعويض الذي حل به المحقق المسألة حين نسب فوز إلى المرض النفسي. كانت العبارة آنئذ معادلة للجنون، في الوقت الذي لم يكن في المدينة أي طبيب يجرؤ على المجاهرة بعلاج تلك الحالات.

لكن فوز لم تذهب إلى أي عيادة، أو أي مخبر، وإنما عادت إلى منزل ذويها فقط. والمرجح أنهم أرغموها على التزام الصمت.

وحين عدت إلى المخطوط الأول، لاحظت أن قيس كان يمدح فوز في سياق حديثه عن تلك المرحلة، وقد ادعى أنها كانت زميلة له في اتحاد الشباب، وأنهم حققوا واحداً من أبرز إنجازات تلك السنوات، وهي القيام برحلة خلوية إلى أحراج الجبل، وتقديم برنامج تثقيفي، ودعائي، وتنظيمي، وترفيهي، متكامل لمجموعة من الشبان والشابات دون أن تتمكن الأجهزة الأمنية من الانتباه إلى ما يحدث. يعتقد قيس أن تلك الرحلة الأسطورية تمت تحت إشراف فوز مصباح علم بالذات، وهو الأمر الغريب الذي لم يحدث في تاريخ الاتحاد الذي ما عرف قادة شباباً في أوساطه على الرغم من اسمه.

لا ينكر قيس السمات القيادية لفوز في شهادته الأولى، ولكنه يتهمها بسوء المزاج، ويقول إنها كانت تنخرط أثناء الرحلة في نوبات بكاء ناجمة عن نزوات مزاجية مباغتة، تجعلنا عاجزين عن إبداء أي موقف.

«كذاب!» هتف وضاح، كالعادة، غاضباً، وهو يرى أن قيس يدافع عن نفسه هذه المرة، بحبس تلك المرأة في مشفى المجانين.

أيمن هذا، وأظن أنه كذاب. والأرجح أنه دعي نفاج يتفلسف دائماً حول التاريخ والبطيخ دون سبب. لا تعرف لماذا. أعتقد أنه شخصية معطوبة، مثل الكثيرين ممن ليس لديهم هدف إلا استخدام كلمات كبيرة، ليظهر عارفاً وملماً بالأشياء. كان الشاي لذيذاً. فرشفت منه، وتظلمت من أجل أيمن: الرحمة يا أخ! تسببنا ببهدلة الرجل دون ذنب. فهل تريد أن ينحني إجلالاً لتلك الأيام؟ لا ولكن عليه ألا يركع إذلالاً. فضحكت من العبارة، وضحك جميل معي، قلت: بدأت تبتكر عبارات حكيمة يا أخ. فقال: هذا مدهش، ثم أضاف كأنه يهمس لنفسه: يا جميل! يا ملعون!

لم أحدثه عن أوراق ليلى، واكتشفت، في طريق عودتي إلى البيت. أنني بدأت نوعاً من الكتمان تجاه الآخرين أيضاً، حين بدا لي أن إفشاء المداخلات، والإضافات، والتنويعات الجديدة، بدأ يعيق الكتابة. كأن البوح قيد يغل النص.

فليلى التي احتجزت في زنزانة منفردة، وهي غرفة صغيرة أعدت على عجل، في المبنى الأمني، وسط الظنون بأن الإخفاء والصمت يؤكدان الوقائع الحقيقية للحادثة، بدأت تتعرض للضغط من قبل المحققين من أجل انتزاع اعترافها بالإعداد أو بالمشاركة أو بالتنفيذ في أعمال العصابة. ليس اللافت أنها لم تعترف بشيء، فهذا طبيعي لأنها لا تعرف شيئاً. اللافت والغريب والطريف أنها كتبت أوراقها المدسوسة هنا داخل قلب الطريق، بعد خروجها من المعتقل. وسأحاول الآن تقديم عرض سريع وغير شامل بالطبع، لأهم ما جاء فيها، ففي الورقة السابعة كتبت ليلى نصاً مباشراً عن حنان، يبدأ النص من الوسط، من نقطة النور، أو من لحظة التوهج هكذا:

بالأمس ضربها حسن أمامي، لا أعرف ماذا حدث لها؟ لم أستطع

أن أرى وجهها في تلك العتمة الكحلية، ولكنها نهضت ومشت نحو طرف القبو، وأشعلت النار تحت إبريق الشاي. تحركت في الظلام كما يتحرك خفاش، أو خلد. كانت تستطيع الوصول إلى الأشياء كلها دون ارتباك. نعم! لا أعرف لماذا ضربها. فعندما وصلت إلى القبو وجدتهما هناك واقفين الواحد قبالة الآخر. لم يرتع لحضوري. لم يتردد. لم ينظر إلي. إنه هناك من أجل أن يضرب. صفعها على وجهها، وهي بدأت تعد الطعام. جلبت بضعة صحون من درفة خشبية في الطرف. سمعت صرير الرزات، وصوت كعوب الصحون وهي تنزلق على خشب الطاولة، ربما كانت في الركن. أقول ربما لأني لم أعتد الظلمة، ورفضت أن أستجيب لدعوة حسن من أجل تناول الغداء. شبعانة، قلت له، فقدت رغبتي. ظل صوت الصفعة يدوي داخل قلبي الذي امتلأ بالظلام. ولكني بقيت جالسة على الحشية القماشية التي دلتني عليها حنان، وأنا أرجو الله أن أختلي بها. لكنه أخذ يأكل على مهل، يمضغ الطعام بصوت كلب، ويجتره مثل ثور. بينما جلست حنان بعيداً عنا. استطعت أن أميزها في العتمة، كانت ترتدي ثوباً أسود طويلاً، ومنديلاً حريرياً ملوناً. ماذا تنتظر؟ قلت لنفسي إنني سأسألها هذا السؤال حين يغادر حسن المكان. يجب أن يذهب من هنا. لديه عمل ما بالتأكيد، أو ربما زيارة، أو رغبة في النوم بعد الغداء. شعرت بأن القبو صار زنزانة مجنونة تتشبث بها أنفاس حسن المثقلة بصرير خفي غامض. رغبت في الفرار ومغادرة هذا الوكر. لكن رحيل حسن سيكون انتصاراً لمخيلتي ودعواتي معاً. ويمكنني أن أقول لقد قبلت التحدي. وهكذا جلسنا نحن الثلاثة: حسن في الركن القصي، أنا في الزاوية المقابلة للدرج اللولبي، حنان في الوسط. ما عذبني هو عجزي عن معرفة بم تفكر. ماذا تريد؟. أعجز عن دفع حسن للخروج، للمغادرة، أبقى داخل القبو.

ثمة أوراق أخرى عن حنان وعن نفسها، تتحدث فيها ليلى عما تردد من قبل من أنها ليست ابنة حسن. لا تبدو جادة في الحقيقة، يخيل لي أنها تلعب بالاحتمالات، وباللغة أيضاً. وفي إحدى الأوراق تعلن عن اشتياقها لذلك الغريب المهاجر الذي زرعها - كاحتمال - في رحم حنان، ثم تركها وحيدة. أعتقد أنها هنا تزوِّر الواقع، إذ لم تكن وحيدة في أي يوم، ربما كانت الكتابة تتضمن عناصر وجدانية تفصح عن قلق شكلي، أو أنها تعكس إحساساً بالتداعي الداخلي الذي بدأت تنزلق إليه.

تسهب ليلى بعدئذ، في رسم صورة خالية من البوح العاطفي عن بيت عائلي مفترض خالٍ من القباحة التي وجدت عليها حنان في زيارتها الأخيرة (ماذا عن بيت حامد وورد؟)، يلي ذلك حلم آخر تستعيد فيه أمها من ذلك القبر الذي تعيش فيه. لقد اضطرتْ لقتل حسن. لم تقتله هي بالطبع في النص، بل اغتاله لص طائش حاول حسن اعتراض طريقه، وهو يقتحم البيت، فطعنه بسكين مطبخ، واختفى. كانت القصة ضعيفة للغاية، والحبكة مفتعلة (على الأقل بالنسبة لي) والوقائع مفبركة، وليس لدى الشخصيات أي التباس حول أغراض الحكاية التي اختاروها. ومع ذلك فقد كانت قراءتها مقلقة، وذات جاذبية لا تقاوم. خاصة حين وصلت إلى الخاتمة، حيث تتمكن ليلى من انتشال حنان، وسط ضوضاء الحي المشغول بموت حسن. تخرج المرأة السجينة برفقة ابنتها، تتدثر ببطانية، وتنتعل خفاً قديماً يعود إلى ثمانية عشر عاماً، دون أن تلتفت مرة واحدة، نحو جسد الرجل المطعون المسجى، الذي كان يتحلق حوله الرجال والنساء. هذه هي الخاتمة التي ارتأت ليلى كتابتها. لكنها بدلت الحل في ورقة أخرى، فأخرجت حنان من القبو بطريقة سحرية، حين

جعلتها تكتشف في أرضية المكان (إذ ليس لديها من شغل سوى نبش التراب) مصباحاً غريباً، خرج منه أحد عفاريت ألف ليلة وليلة، وطار بها إلى المجهول.

عثرت على نسخة بولاق القديمة من ألف ليلة، بين مجموعة الكتب التي اشتراها طعمة الله من ورد. كانت في أحد الأجزاء صورة لورد تلاعب طفلة صغيرة، وقد كتب في أعلاها (ليلى في الثالثة من العمر) وإلى جانبها ثلاث أوراق مطوية، كتبت ليلى فيها وقائع استدعائها إلى المخابرات. أدهشني التسجيل الوثائقي الجريء، إذ لم ألتق قط بأي معتقل سابق، كانت لديه الرغبة في استعادة تلك اللحظات، لا بسبب الضغط، وإنما بسبب الخوف (هذا ما أظنه) باستثناء ليلى.

تتألف الأوراق من قسمين: مقدمة وهي التي أنسخها فيما يلي، وسجل الأسئلة والأجوبة بينها وبين المحقق الذي سأعرض له لاحقاً:

جاء اثنان منهم لزيارتنا في المساء، ادعيا أنهما يريدان شرب فنجان من القهوة، والدردشة قليلاً مع أبي. رأيت كيف اضطربت أمي فجأة، وسكبت القهوة على الأرض، رأيتها شبه صريعة حين عادت. انهارت على الكرسي، وهي تشهق، كأنها لا تجد الهواء، وتغطي عينيها بكفيها. عندئذ عرفت هوية الزائرين. اعتقدت أنهما جاءا ليأخذا أبي، ولكن أمي أمسكت صدغها بكفها المفتوحة، وبدأت تندب: جاين يأخذوك أنت! أنت يا مشحرة! وأنا؟ خسرت وزني فجأة، كنت أريد أن أقول لها أن تفسر منامي: فقد رأيت عصابة من الدبابير تقتحم نافذتي، وتثقبها بالكامل. لكني لم أستطع نطق حرف. كان علي أن أتدارك جسدي الخفيف، وأتمسك بحافة النافذة، صرت مروعة. اكتشفت أنني قد ثقبت بالكلمات، رأيت الثقوب بعيني، وهي تتقيح وتتسلل منها عتمة

شبحية. رغبتُ في النوم. وتمنيت أن أستطيع الطيران، والهرب بعيداً عن البيت والمدينة والعالم. لم يخبر الرجلان أبي بأي شيء. وقبلا، دون مصاعب أن يرافقني إلى السيارة التي وضعاها بعيداً عن المنزل، في إجراء احترازي قالا إنه يعبر عن التقدير لأحد رفاقهم. ولكن أحدهما، وهو المربوع الممتلئ دفعه في صدره، حين أراد الصعود إلى السيارة «لهون بس» قال بصوت حاسم، فارتد أبي إلى الوراء. وهو ينظر إلينا. عندئذ بكيت، لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي. بكيت بلا خوف، بلا أي ظل من الرهبة، بكيت من أجل عينيه اللتين كانتا مغرورقتين بالدموع، والمذلة، والتساؤل، والاستجداء، والقهر، والغضب، والضعف. لم أر عينين كعينيه، ولا وجهاً طحينياً كوجهه، ولا قامة متراخية متهدلة معوجة كقامته. وحين أدخلوني إلى الزنزانة، وجدت أن روحي صارت جافة، لم يبق فيها سوى بضع أشواك يابسة، وهشيم متطاير، كأنها أرض الحصاد. كأنها رماد، يا إلهي! أنا هنا؟! لا أصدق! لا أريد أن أصدق، لولا أن عيني أبي ظلتا تختلسان النظر إلى المشهد. عيناه منعتاني من تحويل الكابوس إلى وهم، إلى تخيل، فرحت أناديه: أبعد عينيك! دعني أراقب وحدتي! دعني أقفل هذه العتمة، وأسرق الحقيقة كي أتخلص منها! لكنه يأبى، يظل هناك واقفاً، متهدلاً، خاسراً يستجدي رحمة هؤلاء الذين أخذوني.

احتوى القسم الثاني، وهو في الواقع يزيد على السبع صفحات، تفاصيل التحقيق الذي أنجز في مقر الأمن. وبالمقارنة مع صورة النص المحفوظة في الملف الخاص بأرشيف المديرية، وجدت الكثير من الاختلافات والتناقضات المحيرة، اللافتة، إلى حد أنني بدأت أتساءل من الصادق منهما، ومن الكاذب؟!

تسجل ليلى كل ما جرى معها بروح وثائقية محض، شيء ما شبيه إلى حد بعيد بمناخ زنزانة. نص طويل مكتوب بخط صغير شحيح، وبأسلوب السين جيم، دون أي فواصل أو استراحات. ولكن اللافت أنها أضافت إليه في النهاية تعليقاً متحذلقاً مكتوباً وفق الصيغ والأساليب التي تدعي الشعر لدى الشباب. ثمة مناجاة ركيكة للرب من أجل العون. وإلى جانبها جمل مثقلة بالزخرفة والتأنق المجانيين. هل كانت ترغب في كتابة احتجاج شخصي ضد الظلم الذي تعرضت له ـ فلم تستطع ـ وفضلت اللغة على الصدق؟! هناك احتمال بأن يكون الخوف الذي خرج برفقتها من الاعتقال، قد استطاع أن يسلب منها القوة على الاعتراض، والرفض. فآثرت اختيار ذلك الأسلوب المنفلوطي الدامع المنحاز بالكامل إلى كاتبه، دون أن يشكل خطراً على أحد.

ترى! لماذا كتبت تلك الأوراق، إذا كانت مذعورة إلى هذا الحد من وقوعها في يد المحققين، في حال اقتحموا المنزل من جديد؟ لم أجد جواباً في أي تعليل. ولم أكن مستعداً لعرض النص على أي شخص، أو سرد الموضوع أمامه، خشية أن تتعرض المواد الجديدة التي حصلت عليها للخطر، أو خوفاً من أن يشوِّش أي واحد على ما اعتبرته اكتشافاً.

هل سيبقى سؤالي عالقاً؟! (كتبتُ من قبل: مثل قشرة في حلقي).

ترددت كثيراً قبل أن أنقل الفقرة الأخيرة من كتابات ليلى إلى هذا النص. فالسؤال الذي تجهر به، هو السؤال الذي تضمره هذه القراءة بالكامل. المشكلة أن ليلى تختار الجواب، فتكتب خمس رسائل توجهها إلى نفسها: تقلد الخط (خطنا)، تقلد التنفيذ، أي تحتفظ بالنسخ غير الأصلية، وتكور الأوراق في كرات، ثم تفردها لتظهر آثار الدعك،

والجعلكة عليها، وتختار أبياتاً غزلية لم نقربها. ثم تختتم التجربة بورقة منفصلة فيها سؤالها (سؤالي الافتتاحي) لماذا لم يرسلوا لي رسالة؟![5]

5ـ تكتب ليلى أيضاً: حين دخلنا إلى الباحة صباح هذا اليوم، لم نصدق ما رأينا: كانت مغطاة بأكثر من ألف كُرَّية ورقية، وكانت الكريات تتدحرج بلا توقف بسبب الريح المقبلة التي كانت تعصف بمنتصف كانون الأول. هل يمكن لأحد أن يصدق أنها رسائل حب؟! كنت أنا وسحر وفوز وعلياء وسميرة، وكانت أمامنا ثلاث بنات من الصف الثاني، ووراءنا أكثر من عشر بنات، صرخنا كلنا، تصوري أنك ترين ألف كرية ورقية في باحة مدرسة صغيرة، محشوة بأشعار الحب. رأيت سحر تصرخ وهي تقرأ إحدى تلك الكريات: إنَّها لي! أرى الفتيات يجرين خلف الكريات ويلتقطنها ويقرأن: هذه لك يا فوز. وهذه لك يا عليا! وهذه لك يا ياسمين! وهذه لك يا سميرة. أرى فوز تبكي من فرط التأثير، أسمع علياء تضحك، وسميرة توشوش نجلاء، ولكن اسمي لا يسمع ولا يُرى.

الحقيقة هي أنني لم أعرف، في أي يوم، أي تفصيل عن الرسائل التي رميناها إلى باحات مدارس البنات. فبعد ثلاثة أشهر على التأسيس، قمنا بحل العصابة، وتدمير الأصول الورقية، والنسخ المطبوعة على الكربون، ووزعنا الكتب التي اشتريناها من مكتبة طعمة الله، فيما بيننا (قام جميل فيما بعد بإتلاف ديوان جميل بثينة كما قال لي) ومزقنا دفتر ورق النسخ الأزرق، ورمينا المزق في مزبلة السورية، وانقطعنا عن اجتماعاتنا العادية، ومن الضروري هنا، اليوم، أن أوضح بعض الأمور العملية المتعلقة بتلك البيانات، والتصريحات والأقاويل، والشائعات، والتعليقات، والمخاوف التي أحاطت بالأحداث:

1. يبدو لي أن الرقم الذي تذكره ليلى في ورقتها كبير جداً، الأرجح أنها تستخدم لغة إنشائية من تلك الأحاديث الشفوية التي ترمي عادة إلى تقوية الانطباع، أو التأكيد على المشوقات، والمثيرات المختلفة في الكلام عن أي موضوع. والعادة هي أن تضاف هذه التوابل إلى الحدث العادي. ومع ذلك فإنني حائر الآن، بشأن وصفها للمكان: هل هو وصف عادي لحدث غريب، أم وصف غرائبي لحدث عادي؟!

2. لا أستطيع أن أتذكر من الذي اقترح إنشاء العصابة، أو ابتكار فكرة الرسائل، من

الموقفان متناقضان!

وسوف أعتبر محاولة التقليد مجرد طيش مخادع وعسير الهضم، خلافاً لما رأيته في النسخة الأولى من أنه يعكس بصيرة ابتكارية فذة تصحح بالحلم والخيال ما يخطئ فيه الواقع. بينما لا أجد في جعبتي حتى الآن جواباً عن سؤالها الأخير غير عبارة: لا أعرف.

لم أجد بعد، الوقت والمكان المناسبين لأتحدث عن ليلى، والسبب كما أظن هو ذعري من أن تنطوي الكتابة على وصف رومانسي متحيز، يضفي عليها هيئة سحرية مبالغاً فيها. أو أن تعمد (الكتابة ذاتها) إلى تقديم صورة ضحلة عليلة عن فتاة هامشية نحيلة خالية من الجاذبية، خاصة أنني سأكتب من الذاكرة وحدها، وهي ذاكرة جوالة لم تلتق بليلى لقاء عميقاً، متأملاً، طويل الأمد، تستطيع من خلاله أن تعيد

بيننا نحن الأربعة، ولم تقنعني الأدلة، والإشارات التي قدمها كل من قيس، وجميل، ووضاح، لإثبات نسبة الاقتراح إلى أي واحد منهم. وليس لدي ما يؤكد أنني أنا الذي فكر به. ولهذا أفضل الحديث عن الفكرة كمولود محايد، موجود بالقوة، وبالفعل، دون تدخل مباشر من شخص فرد، على الرغم من علمي أن هذا مخالف لتاريخ الأفكار. ويمكن القول إننا نحن الأربعة اشتركنا في تأليف العصابة، ولكننا كنا بلا قيادة، وهي المرة الأولى التي تتشكل فيها جماعة بلا قائد، دون مركز، أي دون أي شوط من أشواط التخطيط والدراسة والبحث، وقد يكون اعتراضاً على صحائف التبجيل والمديح التي كانت تضخم حضور القادة، وتحبك القصص عن هيبتهم وعظمتهم في الواقع. أقول قد، لأنني لا أذكر أننا خضنا نقاشاً في هذه المسألة قط.

3. تفرق ليلى في تعليقها على ما حدث بين أمرين: الحقيقة الحزينة، والرياء السعيد. أما الحقيقة الحزينة فهي يقينها الذي تأكد بعد بحث واستقصاء وسؤال وصراعات، من أن الباحة خلت تماماً من أي رسالة موجهة إليها، فيما كان الرياء السعيد هو الاستعارة التي اختارتها كي تكون تعبيراً عن رغبتها المجنونة في أن تصلها رسالة مماثلة لرسائل البنات بأي ثمن.

رسم الملامح بنزاهة، أو أنني سأكتب من الخيال، وفي هذه الحالة فإن ليلى المكتوبة لن تكون هي ذاتها ليلى السومري التي كانت تزاملني في الستينيات. ليلى التي أحببتها ذات يوم! وهذه مفارقة مربكة، إذ إن استعارة الخيال من أجل إعادة تشكيل تلك البنت، قد يكون عملاً غبياً ينتزع منها صفاتها الأصلية. لا أستطيع مثلاً أن أتغاضى عن ذلك الحضور اللاهي الذي ظهرت به أول مرة في بهو مديرية التربية، كي أسقط محله، بسبب ما آلت إليه الأحداث، صورة فتاة مملة خاملة مسحوقة تحت وطأة التجاهل أو الخيبة، أو رداءة التواصل مع الناس من حولها. ولا أستطيع أن أتجاهل ولعها بالغناء، بما يحمله ذلك الولع من تعلق عذري بالحب السامي المتخيل، لمراهقة متتبعة لمحطات الراديو التي كانت تبث أغنيات الشباب العربي المحتفي بالحياة، لأضع مكانها فتاة ترعى العزلة والتشدد.

ومع ذلك فإن بوسع الخيال أن يحاول الإجابة على سؤال ليلى التعس. أذكر مثلاً يوم رأيتها أمام سينما الزهراء ربيع عام 68، وقد ضفرت شعرها في جديلتين تدلتا وراء أذنيها، معقودتين بشريطتين زرقاوين. الصورة الأولى التي أفكر بها هي أنها كانت تبدو مثل فراشة، ولكنها في الحقيقة لم تكن كذلك: كانت تقف بخمول، وبنظرة ناعسة مزعزعة قليلاً. بدت كأنها خبيرة إغراء. أذكر أن حضورها الفتي، سحق الحشد المنتظر. أشك الآن فيهم جميعاً، فقد تذرع كل واحد منهم بأي ذريعة كي يبقى في الردهة، ويشتَّم العطر الباطني الذي كان يترقرق فيها مثل فاكهة. المربك أنها كانت مسرفة في الهدوء، والثقة، بحيث إنها لم تبالِ قط بنظرات الشبان، والرجال، إلى ساقيها المكشوفتين تحت التنورة القصيرة التي كانت ترتديها. أعتقد اليوم أن

ركبتيها المدورتين الصغيرتين قد باغتتا المكان برمته، دون أن يغفل الحاضرون تلك البلوزة الضيقة التي تحيط بالخصر، وتبرز بلا تردد، الثديين الفتيين المرتسمين بقوة أعلى الصدر. لم يكن ذلك الطراز وصل بعد إلى المدينة، ولهذا فإن مخالفة المعايير بعثت في فسحة الانتظار تململاً، سرعان ما تحول إلى اشتباكات خفية، بين المؤيدين الذين يستطيعون رؤية العلامة، وهي هنا صابونة الركبة، وبروز الثديين، وبين المعارضين الذين يحدجون التبدلات بذعر. وفي كلتا الحالتين: لا شيء يحجب النظر.

هل كان ذلك بتأثير من المعلم عبد السلام؟ أم الأستاذ المصري؟ هل كانت ليلى تعرف ما تفعل؟! وهل كانت ورد، التي وقفت قريباً منها، تتصفح أفيشات الأفلام القديمة، أو القادمة، تعرف أنها دهنت العسل فوق فطيرة ساخنة؟ لم يتوفر لي في أي ورقة شيء ما عن حوار، أو سجال، أو جدال بين المرأتين بخصوص ذلك الظهور المبهر. هل كان إغواء ناقماً يرد على غياب رسائلنا؟ هل كان تحدياً يمثل خروجاً مبكراً على التقاليد؟ تزدحم أسئلتي بمنطق الحاضر وحده، كما يرى طعمة الله، لكني في تلك الظهيرة الخريفية، كنت مضطرباً يخامرني شعور بالنبذ، حين عجزت عن مخاطبة ليلى، أو إلقاء التحية عليها! فمن جهة لم أستطع الفصل بين المشهد المغوي المثير للغرائز، وهي غرائز ملتهبة لمراهق جاف محروم لم يلامس بدن امرأة، ولم يرَ عري ركبة من قبل، وبين الرغبة في الإعلان الصاخب عن وجود صلة حميمة تربطني بصاحبة ركبة الظهيرة. الحاضر الوحيد الذي داهمني عندئذ ـ الآن أيضاً ـ هو أنني أحبها. قد يبدو من الطيش أن يعصف الحب بمشاعر فتى في فسحة سينما، يراقب جميع الرواد فيها فتاته، ويخاتلون

النظرات إلى لحمها المكشوف. لكن الحقيقة هي أنني حذفت، في إحدى لحظات الوجد، جميع الحاضرين من الوجود، وأفرغت المكان من البشر، وأبقيت ليلى وحدها، بركبتها الناصعة، وساقيها الشفافتين داخل البهو. إجراء تكتيكي كنت أتبعه دائماً من أجل التملص من المأزق، أو تبديد المخاوف، أو تدجين الارتباك تجاه الفتيات خاصة، كي أستطيع امتلاك الجرأة الكافية، لاستراق النظر إلى اللحم الصافي المنقى المضيء أمامي، أو أتمكن من الانفراد بالمعبودة داخل الخيال. لم أكن أعلم أن الخيار الثاني كان وهماً، أو شطحات.

على أي حال، لست أدري إن كانت الصورة المتقدمة كافية للتأكيد بأن فتاة بهذا الحضور، جديرة بأن يرسل إليها شبان الأرض كافة، رسائل غرام، أم لا؟ وجوابي هو: نعم. وإن كان لدى جميل رأي آخر، وهو أن الرسائل لا ترسل إلا للمحجوب المخبأ، وأن المكشوف بأي صورة، أو أي طريقة، لا يعني شيئاً للناس. وحجة جميل أن ظهور ليلى المبكر، وتسرعها في ارتداء الميني جوب، جعلاها تبدو سهلة، وقريبة، يمكن لأي شخص أن يمد يده ويقرص خدها، أو يمس ثدييها، ويرى لحمها دون طلب، أو جهد. لقد أسرعت قليلاً إلى الأمام، وكان عليها أن تدفع ثمن السرعة، أو اللهاث وراء القادم من الموضة. هذه علة القريب دائماً، إنه متاح، وممكن. ولكنه غير مرغوب، إذ لا تأتي الرغبة إلا من البعيد، من المجهول، من الممنوع. وأظن - يظن جميل - أنها استسلمت لنزعة إفساد كانت تحيط بها، في المنزل، وبين زميلات لها أردن انتهاك المحظورات، وكسر القواعد قبل الأوان. من تقصد؟ ماذا تريد أن تقول؟ هتفت وقد أيقظتني ملاحظاته الأخيرة من خدر تعليلاته. فقال بسخط: ورد طبعاً. وبقية الشلة المنحطة من الوجوديات. طارت

قذائف من لعابه، واستقرت على كم قميصي فمسحها بيده اليمنى، دون أن يعتذر، وأضاف: اسألني أنا!

يقول هذا لأنه يعرف ـ كما يدعي ـ أشياء كثيرة عن شلة من البنات (ليلى من بينهن) ادعين الحرية، والتمرد، والثورة على التقاليد، وهن يردن الجنس واللذة والنطنطة من حضن هذا، إلى حضن ذاك.

خيل إلي أنه يحكي عن بلاد الواق الواق، وحين أردت أن أعلق على كلامه، رفع سبابة يده اليسرى في وجهي، وتابع: أنت لا تعرف شيئاً. تظن أن الكتب وحدها كافية للمعرفة (لم أقل كلمة عن الكتب، ثم ما سر العداء للكتب عند جميل وقيس؟!) الكتب رفيقة العاجزين والجبناء المذعورين من الناس، ومن المجتمع. لا أقصدك أنت (يعتذر مني أخيراً) بل أقصد ذلك التافه النتن طعمة الله، إنه علقة يغش الناس بلونه الأخضر، لكنه يمصُّ الدماء وهو متربع على حشية القش الوضيعة المعطنة.

ما شأن الكان بالدكان؟! أقلقني هجومه الوحشي على ليلى وطعمة الله. لا يكفي المرء أن يكره شخصاً كي يهدر بمثل هذا الوابل البذيء ضده. لم أرَ جميل غاضباً يحملق في البشر بأدوات الجزار من قبل قط. فقد كان لدي ظل من يقين قديم بأنه ما يزال ذلك الفتى العاشق الباحث عن اللذة الحاضرة على قشرة الأشياء، دون أن يتجشم، في أي يوم، عناء فكرة، أو تبعاتها من الحفريات التي تبحث عن المعاني المطمورة، أو التأويلات المبتكرة.

يمكن تقسيم آراء جميل إلى قسمين: الأول إعلامي محض، ولكنه ينطوي على حماقة مذهلة في التفسير. والثاني شخصي، تهيمن عليه الأسرار الدفينة. وما أفكر فيه هو أن التقرير الذي شرح فيه وضع

ليلى كان مجموعة من الأفكار اللامعة التي تتحول إلى ترهات خفيفة حين يخترعها عقل المتطرف والهامشي الذي لا يقدر على رؤية الجديد والمباغت، فيحاول تأخيره بأي وسيلة. وغالباً فإن أمثال جميل يظلون في طور المعارضة، دون توقف، حتى بعد زوال السبب. فركبة ليلى التي كانت تبدو وحيدة في انكشافها، أو عريها كما يحب جميل أن يقول، أضحت فيما بعد، خاصة في نهاية الستينيات، وبداية السبعينيات غابة من السيقان، والركب، والأفخاذ النافرة، لا في بهو سينما الزهراء، أو سينما سرايا، بل في شوارع سورية والشرق الأوسط كله.

لهذا ليس من المعقول أن تكون تخريجات جميل الفكرية مقبولة لدي. لماذا ثار جميل إذن؟ أعترف أن غضبه اجتذبني مثل فراشة. لم أستطع إخفاء رغبتي في التنقيب عن الأسباب، علماً أن انعطافتي إلى هذا الدرب يمكن أن تؤخر استطلاعاتي عن خفايا أرشيف العصابة. كنت أرغب في الرد عليه. فكرت أن سخطه على طعمة الله وليلى، قد يستبطن أسراراً تفيد في إزاحة بعض الغموض الذي يكتنف حكايتي. ولهذا السبب استجبت لدعوته لي إلى بيته، وقال: تعال نشرب كأساً. كانت هذه هي المرة الأولى التي يدعوني فيها إلى بيته. كنت أعرف أنه غادر منزل ذويه في المدينة القديمة، ولكني وجدت أنه اشترى بيتاً قديماً آخر في الجهة الجنوبية المطلة على عين الزمان.

في البيت غرفتان، يفصل بهو صغير مبيض بالكلس بينهما. كان في الغرفة اليمنى أثواب من الأقمشة، وصفوف من أسطال الدهان، وأكوام من الفراشي بأحجام كبيرة وصغيرة، وقوارير، وجفنات، ودوارق ممتلئة بأخلاط من الألوان الزيتية السميكة. فيما كانت الغرفة الثانية شبه خالية، إلا من فراشين إسفنجيين، ولحاف مطوي

عليه بضع وسائد، وشراشف مرمية، وثياب داخلية مشلوحة، وبيجامة، وخزانة واطئة ذات رفوف، تصطف على سطحها قناني العرق والبيرة والويسكي والفودكا. كانت لها رائحة شهوية، منعشة، مقطرة من الخمر، وبقايا الدجاج البارد، وسلطة الخضار مع الثوم.

حين جلسنا لنشرب، أحضر جميل صحناً من اللبنة وآخر من شرائح الخيار والبندورة الذابلة، وتفاحة حمراء كبيرة، فحصها بعناية، وقشرها بموس صغيرة تقشيراً بطيئاً ومتأملاً (ومملاً) ثم أدخل الموس فيها. وبدأ يشقها شقوقاً عمودية، واحداً بعد آخر، وتركها، فانهارت الأطراف في نسق دائري متساو. عندئذ رفع كأسه وقال: بصحتك!

أظن أنه كان يمثل. وخامرني شعور بالثقل والفجاجة، حين وجدت نفسي مشاركاً في هذا التهريج الطقسي. كأن جميل الآن لم يكن جميلاً. بدا لصاً، يسرق مزايا أو خصال أو صفات آخرين لا أعرف أين صاروا. أتذكر زيدان الحدودي الذين رأيناه أول مرة في خمارة حنا. يمكن لجميل أن يتباهى بأنه كان أول من قادنا إلى ذلك المكان. وأنه كان أول من تعرف إلى زيدان، وصار صديقاً له. دون أن نتأكد من صحة الرواية التي ذكر لنا فيها كيف التقى به. لأنها لم تكن واحدة بل سلسلة من الروايات المتفاخرة التي أراد منها أن تؤكد حصافة شخصيته. فزيدان الحدودي استطاع، في منتصف الستينيات أن يكون نقطة افتراق، أو نقطة جذب ونبذ في آن واحد داخل المدينة: سلوكه الذي اتسم باللامبالاة، والمجاهرة بالشرب، والسخرية من كل شيء، كان يتضاد مع المذاهب السائدة التي تساند الجدية، والالتزام، ويصير ملهماً لسلسلة من الشباب الذين التقطوا شطحاته وبدؤوا يحولونها إلى معايير وطرق لحياة جديدة مفترضة. فمقابل كل مظاهرة كنا نشارك بها، كان يقف

على رصيف الخمارة، ممسكاً ببطحة الملوكي، يرشف منها، وهو يهزأ من الشعارات، بلسانه المرتعش المثقل باليانسون: كاس طمب الكبرى! أو كان يوجهنا نحو الغرب صارخاً: هذا طريق فلسطين! وبسبب طول المظاهرات واندفاعها، فقد كان يبح، وهو يكرر حكمة اليوم، كما كان يسمي جمله قبل أن يهتف بها. وقد ادعى جميل، تلك الأيام، أن زيدان كتب دراسة سماها «تاريخ الدن» وهي بحجم كتب سلسلة اقرأ، يحكي فيها عن صناعة الخمور. والواضح أنها كانت تقتصر على مادتين فقط، هما: النبيذ والعرق، ولم تتعد جغرافية المنطقة، ولا تاريخها. وحسب معلومات جميل فإن زيدان أجرى مسحاً طبوغرافياً شمل المراكز الحضرية الممتدة من حدود الأردن جنوباً إلى البادية شرقاً، وشمالاً. أما في الغرب فقد وصل إلى نهاية وعر اللجاة. وأهم ما في تلك الدراسة هو أن الحدودي أكد أن سكان ذلك الوعر الغريب، أنتجوا النبيذ بكميات تجارية، مكنتهم من احتكار تلك الصناعة لأكثر من قرن. لا يذكر أي مرجع بالطبع، ولكنه زود الدراسة بأربعين صورة فوتوغرافية لحجارة بازلتية محفورة، يؤكد أنها دنان، وليست أجراناً لشرب الماشية، كما يدعي المؤرخون. ثم أشار إلى المواقع الجغرافية التي انتعشت فيها حرفة التخمير أو التقطير، ومنها مدينة السويداء، والمشنف، وداما، ودير داما، إضافة إلى قرية صور في محافظة درعا. وفي تقديره أن تخمير النبيذ إرث قديم التقطه المهاجرون الدروز على الرغم من نواهي الدين، وهي صناعة تتطلب خبرة مرهفة، وذائقة حساسة ناعمة، عكس التقطير الذي يحتاج إلى مشاغل وعمال وخلطات عملية. ومع أن زيدان كان ينشر شائعة تقول إن المخمر نقي، والمقطر مسروق. فلم نره يشرب إلا العرق المقطر. فادعى جميل أن زيدان يعتقد

أنَّ النبيذ شراب رقيق منهك لا يقوى على الصمود أمام أي نوع من العرق.

ادعى جميل أيضاً أنه يرتبط بزيدان بخؤولة بعيدة، وأن صداقتهما توطدت بعد أن اكتشفا الأمر مصادفة، وبفضل ذلك باح له بأحد أسرارنا. أو إحدى أعظم أمنياتنا في تلك الحقبة: فمرورنا اليومي أمام خمارة حنا، أو خمارة قره بيت في طريقنا إلى الدار، كان يتيح لنا أن نلتفت عرضاً، أو عمداً لنفحص واحداً من هذين المكانين السريين اللذين يحتشد (أو يحتجب) فيهما، وسط عتمة شفافة عليلة (أظن أنها كانت مقصودة ومدبرة من قبل المالكين الأرمنيين الخبيرين) رجال غامضون، ينكبون على موائد خشبية صغيرة، ليأخذوا رشفات من كؤوسهم المرتعشة بسلاف لطيف متوهج (وهذه هي الكلمة التراثية التي كانت تؤجج خيالنا تجاه العرق) وهم يقضمون البزر الأبيض، والكلمات، والقهقهات الماجنة، والأحاديث الشهوية، بحيث بات الدخول إلى هناك (وهو ممنوع قطعاً على فتيان مراهقين مثلنا) حلماً فردوسياً جاذباً، لم نستطع تحقيقه إلا بذلك التدخل النبيل من قبل زيدان.

لكن ذلك الرجل الفاضل، لم يدخلنا إلى هناك عنوة، ولا نهاراً. لا خوفاً من رقابة الشرطة مثلاً، وإنما رأفة بحنا (وهو صاحب الخمارة التي ارتأى أن نرتادها بصحبته) من أن تسطو عليه، إذا ما انتشر النبأ، عصابات الفتيان الفالتة التي تريد شرب العرق.

ذهبنا ليلاً إذن، بعد التاسعة مساء. كانت تمطر مطراً نافذاً تدفقت مياهه إلى شارع الخمارات من الهضاب التي تصل إليه عبر ساحة الثورة. جئنا من عدة شوارع، وأزقة، ولم نأت معاً، واحداً بعد آخر، كي لا نثير الشبهات، حسب الأوامر الحازمة لزيدان. وحين اكتملت

المجموعة المؤلفة منا، نحن الأربعة، مؤسسي عصابة الكف الأسود، ومن زيدان، أقيم طقس تعارف تفصيلي، وتبع ذلك أسئلة ماذا نشرب (لم نجرؤ على الضحك لأننا جئنا لنشرب العرق) وكان السؤال أحد فضائل الطاولة حسب التقاليد الزيدانية. ومنذ الكأس الأولى حدثت المعجزة. أذكر أن أثر العرق ابتلع إلى الأبد ذلك الهيام العاطفي الجاهل الذي ضخم صورة المشروب، وأحل مكانه مذاقاً باطنياً فاتراً لذيذاً، استقر، خلال لحظات، في جميع الشرايين المفتوحة.

هذا هو شعوري، حين انبثقت نشوة روحية مدوخة ومنعشة في آن واحد، في صدغي، وأعلى رأسي، وقفاه. انتابتني رغبة مجنونة في الضحك. وأحسست أنني خفيف، وسعيد ومتحرر من أي عبء. لم يكن رفاقي أقل تأثراً. امتلأت وجوههم بنضارة بيضاء، وتلألأت عيونهم في ضوء المصباح الناعس المعلق وسط الحانة. بدأنا نثرثر بأي شيء. وحكى جميل نكتة قديمة مستهلكة، فضجت المجموعة بالقهقهة. كان زيدان يبتسم فقط، ويرنو إلينا بعينين أبويتين، ويهز رأسه، ثم يرشف العرق. رأيته حينئذ يقشر تفاحة. لم أرها من قبل. لم أر انتفاخاً في جيوبه، مثلما لم ألاحظ وجود السكين. وحين وجدت جميل يفعل ذلك أدركت أن حركته تسربت إلى مخيلتنا جميعاً (علي أن أسأل قيس ووضاح عن ذلك) بوصفها جزءاً من خصال الشرب، أو تفصيلاً من تلك الأشياء التي تنضم إلى سجل: ما لا يُنسى. إلى الذكريات التي لا تحتاج إلى التدوين، والاستقصاء والبحث، وإنما للتمثل فقط، أو للتمثيل كما فكرت وأنا أرى جميل يعيد حركة التفاح.

كرعنا كأسينا الأولين على عجل، فصب جميل كأسين أخريين ورمقني بنظرة باردة وقال: أنت لم تسألني عن حياتي، عن نفسي.

باغتني سؤاله. ولم أجد جواباً حاذقاً يمكن أن يمتص البرودة من الملاحظة. قلت: صحيح، قال: هذا أفضل من أي كلام. اعتقدت أنك سوف تعتذر، أو تدعي أنك كنت ستفعل ذلك. قلت: لم أفكر بذلك. عندئذ مال إلى الخلف، وارتاح إلى مسند كرسيه، وقال: تظن أني لم أتزوج. لا يا سيدي! تزوجت. كانت جميلة جداً، رأيتها في عرس، وأنت تعرف وعودنا القديمة ووشوشاتنا عن نظرة فابتسامة فموعد فلقاء. أنا وصلت باللائحة إلى: فزواج. كان عمره يزيد على ثلاثين عاماً بقليل، وكانت قد بدأت أرتال المهاجرين تزحف نحو بلدان النفط، فلحق بهم، لا إلى دول الخليج بل إلى ليبيا. أنت تعرف كيف كانت الحياة في ذلك الوقت. مغلقة، ومصندقة، ومثبتة بالمسامير. لا رسائل، ولا هواتف. لم ينتبه إلى أن كل يوم يمر يترك فراغاً، ثقباً صغيراً، تلتهم أطرافه دودة البعد. هذا استنتاجي. لكن جميل يفكر أن البعد يجب أن يلهب المشاعر، يبقي الحب كالجمر. فإذا بكل شيء يحدث بطريقة أخرى: فبينما كان يعمل في نجارة الباطون، بدلاً من مهنة التعليم، كانت زوجته تبدأ العمل سكرتيرة لدى أحد مكاتب الطيران. وما يزال المكتب مفتوحاً، ولديه أكثر من سكرتيرة، مثلما رأيت بالأمس حين مررت من أمام الواجهة، لكني لن أذكر اسمه هنا، بناء على طلب جميل الذي يزعم اليوم أنه طلق زوجته بسبب وشاية من أحد أبناء عمومته، قال فيها إنها تمارس الدعارة تحت لحاف الوساطة المحلية لشركات الطيران. لم يستطع أن يتأكد من الوشاية. فاكتفى بها، وأرسل إلى قيس، وكالة خاصة تخوله حق تطليق الزوجة. لكن إذا كانت الإجراءات القانونية فرقت بينهما، فإنه لم يتمكن أبداً من تخويل أحد الحق أو القوة على فصم، أو محو، أو تبديد ما احترق بداخله تجاه النساء. يعرف السيد جميل أن التعميم

لغة الحمقى، ولكنه لا يستطيع التخلص منها. ويعرف السيد جميل - متأخراً- أنه ظلم زوجته، ولكنه مصر على الاستنتاج الذي توصل إليه، وهو أن كل امرأة مشروع بغي، مع وقف التنفيذ. وأن ما يمنع النساء من ممارسة الجنس الحر، هو المجتمع، أو التقاليد، أو أن التقاليد (وهذه صيغة أخرى وضعها وهو يكرع العرق، ويتلمظ بلحسة من اللبن) توضعُ أساساً لضبط النساء، ومنعهن من الذهاب إلى أصلهن الطالب للشهوة والجنس.

هذا هو المظهر - كما يرى - وهو يخفي بالطبع الإرادة الإلهية التي وضعت رحماً داخل تلك البطون الجميلة، من أجل استمرار النوع. أما مؤسسة الزواج، فهي من وضع البشر، ومن مخالفاتهم التي اعتاد عليها الله، ورضي بها، كتعديل مقبول لخطة التكاثر.

مأثرة جميل (هذا ما يقوله عن نفسه وعن سلوكه التالي) هي أنه رفض أن يتزوج بعد ذلك. ليس رفضاً، بل نوع من الالتزام العقائدي، بالمبدأ الأصلي، عودة نقية إلى الفطرة العظيمة القاضية بممارسة الجنس الحر القديم الذي كان يعيشه (يدعي في الحقيقة) في الستينيات. كاسك! يشرب القدح الصغيرة حتى نهايتها (أي حتى الثمالة العربية الشهيرة) ثم يصب لنفسه كأساً أخرى. قلت لنفسي إنني لن أستطيع مجاراته، وخشيت أن يُخرِج الآن كتاباً من تأليفه على غرار طعمة الله، ووضاح، وزيدان الحدودي، وعادل السعدون. ولم لا؟! من حق أي مواطن أن يؤلف كتاباً، خاصة إذا كان قد عانى. المعاناة أم التأليف والإبداع، وجميل المسكين عرف أن زوجته صارت الآن في تايلاند، يعني هي الآن في أرض التاي. قال بافتخار وأبهة. أظن أنه يكذب هنا، أو يؤلف، ظناً منه بأن رحيلها إلى بلد أجنبي صاعد سيمنحه

أهمية أكثر بكثير من وجودها هنا، تحت أفخاذ الكلاب والهررة من أبناء البلد، كما صار يسمي رعاة الدعارة.

هل نستطيع الآن معرفة الرابطة بين ركبة ليلى وآراء جميل؟! ربما! لكني أحسب الآن أن رأي جميل بركبة ليلى متأخر جداً، وأن الصدمة النفسية هي التي أنتجته، وليس للمنطق، أو للتحليل الاجتماعي الذي قدمه أي معنى. ولهذا قررت أن أشطب تفسيره من الأرشيف السري الذي أكتبه. فامتناعنا عن إرسال مكتوب لليلى، يجب أن لا تكون له دلالات دميمة من هذا النوع الأرسطي الذي يأخذ الأشياء التي يريدها (أقصد التخريجات) من أي بئر. صحيح أن انكشاف ركبة ليلى في بهو السينما، أساء إلى سمعتها، ولكن سوء السمعة يبعد طالبي الزواج (ليس دائماً) دون أن يمنع أربعة شبان من كتابة رسالة غزل واحدة على الأقل، إلى البنت ذات صابونة الركبة البيضاء. خاصة أننا كتبنا الرسائل الأخرى إلى أسماء البنات، لا إلى البنات أنفسهن. فالحقيقة أن قيس، وجميل عرفا أكثر من واحدة معرفة شخصية. أما أنا ووضاح، فلم نحظ في أي يوم بهذا الشرف الناعم.

لا أنكر أنني أحببت أكثر من فتاة، ولكنه حبي وحدي، حب بلا رسائل، أو حب بلا وسائل. وحين أبسط أوراقي اكتشف أنني أمضيت عمري كله بلا حب. وربما كانت ليلى نصيباً ممكناً لحب دافئ عظيم، لو أنها رأت عيني. لو أنها التفتت مرة واحدة وهي تمشي في الشارع، ولاحظت خطوات الفتى العليل الضحل الذي كان يتتبع مشيها من بعيد (بالتأكيد، فلم تكن لدي في أي يوم جرأة عاشق، أو شجاعة أزعر، أو همة شهواني).

ومع ذلك فإن على المشهد الواقعي أن يكتب بشكل خيالي. وحسب

ما أذكر فقد قمت بكل ما يمكن أن يجعلني خفياً، بعيداً عن متناول عينيها. أتسلل بجانب جدران الأبنية. وأتباطأ مثل أرنب، لأجسَّ الشارع كله، والناس، والمداخل (حيث سأختبئ حين تستدير إلى الوراء) كنت مذعوراً من الفكرة، وراغباً فيها، أريد أن تلتفت إلي لترى العاشق المدله المجذوب الذي يزحف وراءها، وأتمنى ألا تراني، لكي لا تظن أنني من تلك الحثالة الفاسقة من شبان المدينة الذين يربضون على النواصي من أجل التحرش بالفتيات. ثم لا أستطيع تفادي الصدمات اليومية التي كنت أتلقاها حين أخفق في جذب انتباهها، فتمر بي، ولا تراني، كأني غير موجود. أشتهي أن أناديها باسمها، ثم أقوم بتدمير الشهوة، أتمنى وأحبط أي محاولة لتحقيق الأمنيات.

وحين أعود إلى البيت أبدأ سلسلة من المراجعات لمسيرتي اليومية، تأخذ أحياناً شكل التنفيذ الخيالي لما عجزت عن فعله في الشوارع، أو تستخلص أحياناً أخرى، في صورة تأنيب، أو تنديد بذلك التردد البائس أمام الحبيبة. وفي الليل أحاول أن أعيد تأهيل المواقف المماثلة التي ستأتي في اليوم التالي، أو فيما بعد، بما يتناسب مع مخيلتي: أكتب جملاً مضادة للرفض. أبتكر كلمات رقيقة مخللة. أفترض أنها سوف تساهم في بناء التواصل. ثم أفشل بعد يوم.

مات والدي تلك السنة، كنا نظن أن المرشح للموت هو أمي ولكنه تجاوز دوره بأكثر من عشرين سنة، وعبر مضمار الحياة كرياضي فحل ومات. لم تكن علاقتنا طيبة، فمنذ رفضي الموافقة على طلبه بالانتساب إلى الحزب، تخلى تقريباً عن محادثتي. في البداية اعتقدت أنني قد ربحت، حين توقف عن تقديم دروس الوعظ والإرشاد التي كان يفلقني بها. وكان يسميها: أصول الحياة. أو هيك الأصول، حسب

عاميته التقريرية المباشرة. ولكنها لم تزد عن بضعة إرشادات تخص مسائل العيش اليومي في العلاقة مع السلطات الحاكمة بوجه خاص. كان يحتقر الناس بلا هوادة، ويرى أنهم مجبولون على الشر والأذى والمداهنة التي تخفي بين طياتها رغبة في الاستغلال والسيطرة. ولا سبيل إلى مناهضة الشر، إلا باختيار قوة أرضية أخرى قادرة على لجمه وتكبيله، بانتظار الكلمة الأخيرة التي سيطلقها الرب. كان الله بالنسبة إليه مسألة مؤجلة، لا كعبادة أو كإيمان (فقد كان مؤمناً إيماناً عميقاً بوجوده) بل كحساب. فالأمر الذي كان يجاهر به، هو أن الحسابات المؤجلة تمنح البشر وقتاً طويلاً جداً، وملائماً - على الأغلب - لارتكاب الجرائم. لم تكن تهمةُ المعاصي أو غيرها من المخالفات التي تعني المسائل الشخصية بين الرب والإنسان، بل كان متطرفاً في هذا الشأن، داعية للحرية. فما دام الله عالماً بكل شيء، أو مقدراً له، فإن تدخلات المشايخ والأئمة، أمور مجردة من الأخلاق، لأنها تدعي النيابة عن الله القادر الناظر السامع. غير أن الجريمة كانت تؤذي وجوده، أي جريمة، أو أي أذى يتسبب به شخص لآخر، كان يستدعي غضباً وحشياً، وسلسلة من الشتائم، والتذكير باستنتاجاته السابقة عن الفساد عند البشر. لعنة الله على بني آدم. أو ما قلت لكم؟! فالمجرم، في رأيه، خلاصة طبيعية للسلالة البشرية منذ اللحظة التأسيسية لآدم، حتى اليوم.

لهذا كله كان مؤمناً بأن ابتكار القوة الأرضية، لم يكن بشرياً تماماً، إنه الإنابة التي قدمها الله للناس، حين أمر، في وقت ما، بوجود السلطة. في السلطة وحدها تكمن رغبة الخالق في كبح الطبيعة البشرية التي اختبرها ذات يوم في سماواته، في جنته، حين خالفه مخلوقاه. وكان

يجب أن يجد مخلوقاً من الصنف ذاته يمثل قوته. تلك هي السلطة. فالعلاقة الطيبة مع أي سلطة، تعني أن تعيش حياتك دون منغصات. ولم لا؟! وإذا لم تجد السلطة أي معارضة، أو دسائس، فلا عمل لها سوى إدارة الحياة. وهذه هي الرسالة الإلهية: أن يدار العيش باعتباره أفضل الأهداف عند الناس. ولهذا لم يغفر لي، رحمهُ الله، قوقعتي، على الرغم من أنها تحقق جزءاً من أهدافه في تحاشي الخطر. وظل يدق على ظهري، قائلاً: من يأخذ أمك هو أبوك.

لم يكن لدي أي علم أو اهتمام بالسياسة كي أقارع حججه، وبالمقابل لم تكن لدي أي رغبة في الامتثال لأوامره.

الأدهى أن موت والدي وضعني تحت وصاية أخي، هذا هو قانون العشائر والعائلات، وسرعان ما حولني إلى عبد. إذ كانت السلطة عنده تعني أن يستولي على راتب الطالب الذي تمنحه لي دار المعلمين، وأن أمتثل لأوامره دون أي تذمر. والحقيقة هي أن فايز أبدى في تلك السنوات حساسية إبداعية مثيرة في ابتكار أساليب العقاب. واحدة منها مثلاً، أن أظل مرغماً فيها على الذهاب إلى الخابية، والعودة منها عشر مرات، حين أكون قد تأخرت دقائق أو ثواني عن إحضار كأس الماء الذي طلبه. وكان جلب علبة الدخان يتطلب خمسة عشر بندولاً من الذهاب والإياب أيضاً، حتى صرت أكره الساعة الخشبية الكبيرة ذات البندول (أكرهها حتى اليوم).

لكن هذا كله لم يكن مهماً، فقد تعلمت أن أنساه حالما أنزل إلى الشارع، واستقبل الشرق متجهاً إلى المدرسة.

في تلك الأيام بدأت فتاة من جاراتنا تزورنا. كنت أظن أنها تأتي لعيادة أمي، أو للمساعدة، ثم بدأت أرجح أنها تريد فايز، إذ كانت

تجلس، وهي تحيك قطعة صوف، وتراقب الباب، أو ترنو من النافذة إلى الشارع الذي تطل عليه غرفتنا. ولكني وجدت نفسي في حضنها.

كنت أعد شراباً لأمي، فجاءت لمساعدتي. لم يكن المطبخ يتسع لأكثر من شخص واحد، ولكنها صارت ورائي. كانت أنفاسها رطبة وهادئة، ومررت يدها اليمنى من جانب خصري، ثم زلقتها بحركة مباغتة لتستقر فوق فتحة بنطالي. أحاطت صدري بيدها الثانية. كاد الكمون الساخن يندلق من يدي، في الوقت الذي اخترقتني رعشة جوانية مجنونة، وقذفت بعد الحركة الثالثة أو الرابعة التي مسّدت فيها بنطالي. المريع هو أنني لم أتمكن من السيطرة على جسدي الذي اجتاحته رعدة خلخلت ظهري، وكتفي، وحوضي، وساقي. بدأت الفتاة ـ اسمها الروائي فاطمة ـ تضحك. أعتقد أنها كانت تسخر مني. إذ ضربتني بكفها على قفاي وقالت: خرى! وانتزعت الكأس من يدي. وقالت: روح بدل ثيابك. كان أثر من الماء يرطب بنطالي. فأخفيته بيدي، وبدلته، وعدت.

كنت مذعوراً من أن تشي بي لأمي، ثم هلعت حين فكرت بأنها قد تخبر أخي. لن يرحمني، لا بسبب ضعفي أو تخاذلي أمام الإغواء، بل، ربما، بسبب جرأتي على سرقة ملكيته الخاصة.

لكن فاطمة نظرت إلي مواربة، ورفعت إبهامها، وهي تبتسم ابتسامة متواطئة. بدت جميلة، كانت عيناها تضيئان. لم أفهم سر الضوء، وفي الليل أقلقني أن تكون فاطمة وليلى صاحبتين أو صديقتين، وأنها قد تروي لها ما حدث. لم أنم. فالقضية هنا تأخذ منحى آخر: سوف تضعني ليلى في خانة الخونة، ما جعلني أفكر في ابتكار صيغة تكذيبية للواقعة بكاملها. فكرت بأكثر من حكاية، ووضعت عدة تفاصيل. راقبت

الجزئيات بحثاً عن أفضل الصور. تستطيع المخيلة أن تقدم لنا جميع الاحتمالات المضادة للعوائق الواقعية المحبطة. وهكذا أقنعت ليلى بأنني رفضت الإغواء، وجعلتها تقشر البطاطا، وتقطع البصل وحيدة. لكني لم أعرف ماذا سأفعل بابتسامتها، أو بضوء عينيها! لم تكن لدي خبرة بابتسامات النساء، لماذا تبتسم المرأة؟ أو متى؟ أو كيف؟ ولم يتمكن قيس الخبير من إسداء نصائح أو تعليلات مقنعة، فالجردة الشفهية التي قدمها لم تتضمن أي حل يكشف المعادلات الكيميائية السرية التي تكمن وراء ابتسامة فاطمة. شعرت أنني أغوص داخل متاهة، بردت، كنت مثل فأر داخل مصيدة.

لم أرَ ليلى في الأيام العشرة التالية: كنت أذهب إلى المدرسة، بعد انتهاء الأسبوع، ثم أعود مسرعاً إلى البيت. لم يكن السبب مرض أمي، وحاجتها إلي فقط، وإنما خوفنا من الانقلاب العسكري. عرفت فيما بعد أن حامية المدينة انضمت إلى الجيش في العاصمة، أخبرني جميل بذلك، فطمأنت أمي. قلت لها إننا لا نرى أي حركة هنا في المدينة. وقال جميل صحيح. إننا نسيطر على كل شيء. وشرح لي أن ما حدث، يشبه كشط العفونة عن سطح اللبن الرائب، حركة طرد يليها إزالة الرائحة باعتقال من بقي. قلت له إنني لا أفهم. قال إن العربة بدأت تتباطأ، ومن الضروري أن نحث الحصان على الجري. أعتقد اليوم أن الصورة الثانية كانت من عنده، إذ لم ترد في الأدبيات السياسية فيما بعد أبداً، بينما ظلت مفردات العفونة قيد الاستعمال.

ذهبت إلى حي ليلى، وجلت حول منزلها. كان مغلقاً طوال فترات بعد الظهر، ولكنه يضاء في المساء. رأيتها بعد أيام في الطريق. كدت أتأخر عن موعد إغلاق بوابة دار المعلمين الخارجية. وما كنت أجرؤ

على تسلق الحائط للقفز إلى الباحة، لأنَّ الموجه زرع المكان بشظايا الزجاج. كما لم يكن من اللائق أن يتجرأ شاب متعلم على تلطيخ أيام الحداد بعمل طائش، أو مجازفة تافهة يكشف فيها عن لا مبالاته تجاه موت الأب. لكن ليلى لم تولني أي اهتمام، لم تنظر نحوي لتواسيني أو تعزيني. ولهذا كان علي أن احتج ضد سلوكها: أعترف أنني لم أكن حزيناً، كان في داخلي نوع من الأسف، أو الشعور بالفقد، لكني في الليلة التي أعقبت موقف ليلى، أردت أن أصرخ بها: لقد مات أبي! ألا تعلمين؟!

وفي الأيام التالية بدأت برنامجاً من الحقد، والكراهية معاد لنهجها. ألفت خطاباً (أو خطابات كثيرة، إذ كنت أجري كل ساعة تبديلاً في العبارات والجمل) لأقول لها أشياء عن المشاركة والتعاطف.

أفضل وسائلي قوة، هي الأحلام. هناك كنت أعرف ليلى جيداً. ذهبنا مرة إلى الجبل، تناولنا الغداء تحت شجرة بلوط ضخمة في أحد الأحراج. كان هناك بضعة متنزهين، آثروا الابتعاد عنا، فلعبنا بكرة، ثم نصبنا حجارة على هيئة كؤوس، وتبارينا في أصابتها. كانت تجيد الرماية، وتفوقت علي. وقد ظل الصوت الأصم لاصطدام الرمايات، في أذني حين استيقظت. أمضيت بضعة أيام سعيداً بتلك الرحلة. كانت ليلى ترتدي قبعة من القش. وكان الظل يخفي عينيها وأذنيها، بينما كان أنفها الدقيق، وشفتاها الرفيعتان مضاءة بالنور الشمسي. أكلنا جالسين. تربعتُ على البساط، ومدت ليلى ساقيها، وأمالت جسدها باتجاه المرج المنبسط تحت ناظرينا.

بعد هذا الحلم السعيد، ابتكرت حكاية منسقة عن علاقة حب جديدة بيني وبينها. لم أذكر اسمها (بالطبع) في التقرير الأول الذي قدمته

لأعضاء العصابة. وجدت عذوبة في السر. وزاد خفاء الاسم في كثافة الحكاية، وساعدني على المجازفة في وصف جسدها الذي ادعيت أنني داعبته ليلاً قرب النور الكابي لعمود الكهرباء الذي كان يضيء زاوية الشارع قرب منزلها. رفضت أيضاً إعطاءهم أي لمحة طبوغرافية عن مسكنها، فالجغرافيا عدوة الحب. قلت لهم: يجب أن تظل خرائط الحب سرية كتيمة لكي يتمكن العاشقان من التسلل إليها دون خوف. قال قيس إن الحب هو الأمكنة التي نذهب إليها. المكان هو الذي يمنحك الضوء أو العتمة الضروريين لتأمل الحبيبة، أو لمعانقتها. رأي غريب، ولكن قيس ظل وفياً له دائماً، إذ كان يتحرك داخل حكاياته مثل دودة، مثل منقب، بحيث تضم كل واحدة وصفاً بطيئاً (البطء هنا أكثر بلاغة من الدقة) للمكان الذي يضمه إلى فتاته: السرير المعدني ذو القوائم المزخرفة. اللحاف الفسيح. الوسائد المطرزة. الفراش الهزاز (لم يجرب أي واحد منا ذلك الفراش المحشو بالقطن والنوابض الحديدية). فراش حكيم يتحرك وفق اختلاجات العاشقين. يصف قيس الستائر أيضاً، وهي من الضرورات التي يصر على وجودها في الحكاية من أجل إضفاء لون خاص على المكان. وحين نمل، فقط حين يأتي الملل، كان قيس ينتقل تلك الانتقالة الباهرة إلى الفتاة: ملابسها، قميصها وتنورتها أو البنطلون (كان ارتداء البنطلون من قبل البنات آنئذ يتطلب الجرأة الاقتحامية للطليعيات) الجوارب، ثم يطوف في أرجاء الجسد: الوجه، العينان، الأنف، الشفتان، الخدان، ثم يأتي، ساعة الضجر، إلى اللحم وعض الأكتاف والقبل وتمريغ الثديين باليدين أو الشفتين. كانت عيوننا تدمع بفضل تلك العروض الساخنة، نحس بالزهو لوجود هذا العضو المؤهل القادر على تقديم المشورة، والتعليمات لنا، عند الحاجة، أو في زمن الضرورات العشقية. غير أنني اليوم لا أصدق قيس. فالاختلاء بفتاة،

في وضح النهار، يتطلب تغاضياً اجتماعياً لم يكن متوفراً في ذلك الزمن، إضافة إلى (هذا أكثر خطراً) غياب المستلزمات الأخرى، مثل نمط العمارة المديني ذي الشقق الطابقية، الذي أضحى اليوم من المعالم الرئيسية في المدن السورية، والاختلاط الجامح الذي نجم عن هجرة أبناء الريف إلى المدينة.

لهذه الأسباب، يمكن أن أقول إنني كنت على صواب في ذلك الوقت، حين رفضت التصريح بأمكنة الحب، حتى لو كانت متخيلة.

لم أستطع قول هذه الاستنتاجات لقيس حين التقيت به قبل أيام، خاصة أنها تميل إلى تكذيبه. تذكرت أن أبي كان يقول: لا تكذب حكواتي، ولا تحك لكذاب.

أحضرتْ ميسورة القهوة، وجلست وهي ترمق قيس بنظرة دافئة، وترسم ظل ابتسامة (مرة أخرى!) على وجهها. اتضح لي أنها تريد أن تقول شيئاً، فشجعتها بحركة استفسار من عيني وحاجبي: بارك لرفيقك، قالت، صار عنده سيارة. اشتريت واحدة؟ قلت بلهجة مسرحية صاخبة.

لا يا صديقي! رد بهدوء وبإيقاع تربوي، سلموني سيارة، وسلموني منصباً جديداً. لم يستخدم قيس الكلمة التي كان سيستخدمها أبي، أو التي استخدمها وضاح بمهارة، وهي سلطة. بل آثر أن يقول: المنصب. ثم استبدلها أثناء الحديث بمفردة أخرى هي: الإدارة.

يستطيع قيس أن يلعب بالمعجم بحرية، أعرف ذلك، فقد اعتاد منذ أيام الدراسة أن يقول إن الكلمات مفاتيح، والنساء أقفال. وأسس فلسفة خاصة بكل منهما: الكلمات على ضفة، والنساء على الضفة الأخرى، قائلاً: يجب ترويض الكلمات، ومعرفة فقهها، والالتزام بإمكانياتها،

قبل الاستعمال. خطأ واحد، بمفردة عجولة، يمكن أن يحطم مشروعاً كاملاً. بل إن التوقيت مهم أيضاً، التوقيت نقطة الفصل بين الحماقة والإغواء، هو الفرق بين الكلمات والمفاتيح المعدنية، والنساء والأقفال.

أذكر أن هذا الاكتشاف، الذي حوله قيس إلى مهارات حياتية، منحه قوة جاذبة، لم يستطع أي واحد من العصابة مجاراتها. وقد باءت معظم محاولاتنا بالفشل، ذلك أنها كانت نسخاً مقلدة خالية من اللون، والإضاءة، والوهج، والمباغتة، والضياء والبساطة، والعمق والجذب، والتطويحات، والظرف، واللباقة. أي من جميع العناصر الحيوية التي كان يملكها من أجل اصطياد الفتيات. يُفترض في مثل هذه الحالة أن ننبذ ذلك الصاحب الخبير، ففي مواقف من هذا الطراز، حيث يتمكن الحسد من التسلل إلى مسام الجسد، يجد الفاشل أن تلك النجاحات أخذت منه شخصياً، أو سلبت من فرصه التي قررها الله. لكن الحسد، لحسن الحظ، لم يكن في تلك الأيام قيمة أخلاقية متداولة، كما هو حالياً. ولهذا نجحنا في الحفاظ على وحدة المجموعة، وهو أمر يجعلنا اليوم، إذا ما قبل تاريخ العصابة، على أنه جزء من التاريخ السياسي، والفكري، والحزبي، أو المدني العام للبلد، نفخر بأن النساء اللواتي نُظر إليهن دائماً على أنهن أحد المصادر الخفية للنزاعات والحروب، لم يتسببن أبداً في إقلاق مجموعتنا، أو شقها، أو التأثير على نشاطها داخل المجتمع. وإذا كنا قد جربنا بعض الخلافات أو النقاشات أو المناوشات، بين آونة وأخرى، بيننا نحن الأربعة، فإن الأمانة (التاريخية) تقتضي أن نضعها في سياقها الصحيح، من جهة، وفي حجمها الحقيقي، من جهة أخرى. وهذا هو مضمون المطالعة التي قدمتها أمام قيس، الذي ينكر اليوم تلك الفضائل على مجموعتنا، ويدعي أن مديحي ليس أكثر

من ورع تقليدي ضرير، ناجم عن الحنين، أو الرغبة الدفينة في تشويه العقود الأخيرة من القرن، والإضرار بالتجارب الفكرية والسياسية الحزبية الأخرى، لصالح عقد عشت فيه شبابي! وهكذا وصف نشاطنا بأنه مراهقة، وأن التزاماتنا الأخلاقية، لم تكن قناعات مبدئية، وإنما انعكاسات شرطية (أي مثل كلب بافلوف) لقواعد المجتمع والعصر.

لم أستطع أن أتبين فيما إذا كان موقف قيس ناجماً عن المعارضة، أم كان دفاعاً عن خياراته التالية في شؤون الحياة. شعرت أنني أخسر حين بدأ يرافع عن الإجراءات الأمنية التي نفذتها مجموعة المحققين في موضوع الرسائل: كيف تريد من أي نظام سياسي أن يتجاهل وجود أشخاص ينشرون أوراقاً غير مرخصة، وغير مفهومة، في باحات مدارس البنات؟ انس هذا! وفكر معي!: حكومة جديدة تجد نفسها في مواجهة حملة غامضة تتستر وراء أبيات شعرية تراثية عن الحب! ألا يحق لهم أن يفكروا أن وراء تلك الأنشطة المشبوهة، جهات مغرضة تريد بلبلة الوضع؟ أو إثارة مشاعر الناس؟ أو إزعاج الأمن؟ أو الإساءة إلى سمعة فتيات بريئات؟ ناهيك عن هذا كله. هل تريد من الدولة أن تتسامح مع مجموعة من الأرذال زرعوا باحة مدرسة حكومية تُصرف فيها أموال طائلة من أجل إعداد دفعات من المربين، بأوراق تدعو إلى الفاحشة والفسق؟.

لم تكن لدي الرغبة في التعليق على تحليله. ومع ذلك وجدت نفسي أفلت جملة هذا السؤال: هل تقول هذا الكلام اليوم لأنك نلت ترقية حكومية، وحصلت على سيارة؟

الحقيقة أنني لا أحب إثارة هذا النوع من المناكدات، مع موظف حكومي في المرتبة الأولى. خاصة أنني كنت ضيفاً عليه. كما أن سؤالي

سيوضع في خانة الحاسدين الصغار الذين لم يتح لهم التمتع بأي مزية من المزايا المحلية التي تمنحها السلطة لموظفيها الكبار. هذا فضلاً عن كوني معزولاً من التعليم، ومنقولاً نقلاً تأديبياً إلى أرشيف مرقن موضوع خارج الخدمة.

قيس قال إنني أنا أيضاً صرت خارج الخدمة، أنت تتحدث يا صديقي من المستوى الذي تنتهي فيه الصلاحية. أنت متحيز عديم الخبرة، خاسر، لم يستطع أن يجد امرأة تحبه (ما علاقة هذا بذاك؟) انطوائي بلا أصدقاء، مخذول وهارب وعاجز عن معرفة أي حقيقة. ثم صمت، ونظر إلي بتحد وصلف. هل هذا هو قيس؟! لا أعرف، ولكني جمدت في كرسي. كانت ميسورة واقفة في الباب الموارب تنظر إلينا بحذر، أما أنا فرحت أنتظر أحد أمرين: إما أن يداعبني بكلمة رقيقة مخصصة لغسل الشوائب والأوساخ، وإما أن يقفل المشاجرة باستدارة متقنة من كرسيه الخيزران.

لكنه رشف القهوة بإمعان، وغمغم: تعرف ما نوع سيارتي؟! لم أجب، فبالنظر إلى فقري، لم أكن معنياً بأنواع السيارات، أو ماركاتها أو موديلاتها. ودون أن أتمكن بالطبع من صم أذني عن سماع الأسماء، فإن أي اسم شائع من أسماء شركات السيارات الكبرى، لم يرتبط في مخيلتي، بهذه الآلية أو تلك. قلت: لا. كنا نراها من الشرفة، بيضاء، تقف باستعراض أمام مدخل المنزل ذي السور الواطئ المزين بالياسمين. بيجو. قال بفخامة. جميلة قلت، وقد داهمني الخوف. خوف مبصر من النوع المعاصر الذي أضحى منذ أكثر من ثلاثة عقود، كلباً يتربص بي، ناقوساً يدق قرب أذني، لتنبيهي إلى أماكن الخطر، ضوءاً ينير لي الطرق الآمنة. إنها تمشي أكثر من ثلاثمئة كيلومتر في التنكة

الواحدة. أضاف باعتزاز فأبديت إعجابي بهذا الإنجاز التقني المدهش، وقد خامرني شعور بالذنب تجاه نفسي، وبدأت أوبخ ذلك القسم الأبله مني، الذي يغدر بي، متناسياً الوصايا التي قدمتها لي الحياة السورية: إذ ليس من الحكمة أن تجادل شخصاً معجباً بسيارة. وليس من العقل أن تقارع حجج شخص يريد محو الماضي بمكاسب الحاضر، وآمال المستقبل. وليس من المنطقي أن تشتبك مع شخص يؤمن بأن زوجته هي أكثر النساء عقلاً على وجه الأرض، أما الأكثر غرابة فهو أن تناقش رجلاً يدافع عن أفكار لا يؤمن بها هو نفسه.

لا أدعي هنا أن قيس لم يكن مؤمناً بتقنيات سيارته، ولكنني أشك صراحة بعقائده السياسية الأخيرة، التي أوصلت إليه السيارة.

أحد الأسباب هو أن قيس لم يبد، في أي يوم، ثباتاً عند أي ناصية اختارها. لا النواصي النسائية، ولا نواصي الأفكار. يمكن الرد هنا بأنه توقف أخيراً عند ميسورة العز. ولكن الأمر ليس كذلك، فميسورة هي التي أوقفته حسب رواية كل من طعمة الله شمس الدين، ووضاح اليمن. وبالنظر إلى طبيعة كل من الرجلين من جهة، وإلى تداخل كلاميهما عنه، وبالاستفادة من تعليقات جميل الذي ما يزال يكن بعض الاحترام له، فإن ميسورة سلبت صديقنا من زواجه الأول بالقوة.

هل تزوج قيس امرأة أخرى غير ميسورة؟

طبعاً. إنها هند قمر الدين!

أذكر هند. إنها تلك التي رافقت ليلى إلى المديرية في لقائنا الثاني، وهي التي كتبنا لها في رسالتنا بخط حذر، وبقلم الكوبيا:

يا قلب أخبرني، وفي النأي راحة ... إذا ما نوت هند نوى كيف تصنع
أتجمع يأساً أم تحن صبابة ... على إثر هند حين بانت وتجزع؟

كانت علاقة الحب بين قيس وهند بدأت في منتصف السنة الرابعة من دار المعلمين، أي في الأشهر التي لم نكن نستعد فيها لامتحانات التخرج فقط، بل للبحث عن شريك في الحياة العملية.

المصادفات هي التي جمعتهما، فقد اضطرت هند، وزميلة أخرى كانت تساكنها إلى الانتقال من غرفتهما، في حي العسل، بعد شجار مع المؤجر صاحب المنزل الذي تدخل، كما يبدو، في سيرة حياة الفتاتين الريفيتين القاطنتين في داره. أعترف أن هذا السلوك كان يتكرر بطريقة فاضحة، فقد بنى أصحاب البيوت، من أبناء المدينة عرفاً راسخاً أوكلوا فيه لأنفسهم مهام الآباء الغائبين في الأرياف، تجاه البنات المستأجرات، بينما تولوا، هم أنفسهم، مهام الرقباء تجاه الفتيان والشبان. أعتقد أن ذوي البنات والأولاد ما كانوا يبدون اعتراضات جدية على تدخلات مؤجري المدينة. لكن أعراف الفريقين، كانت إعلانات حرب لدى الأبناء، تربص، واستعداد للتمرد (كانت تظهره البنات) ومعارضات نزقة، ونزوات تدخين، وسكر (لدى الشبان بالطبع) وإلغاء الاستئجار والانتقال إلى بيوت أخرى.

هذه هي المصادفات التي أضافت إليها الأحداث التالية عناصر، ومستلزمات التعارف بين زميلي الدراسة. إذ كانت الغرفة التي استأجرتها مع رفيقتها نجوى (التي وجدتُ رسالتها في قعر الملف:

صحا تربي وما قلبي بصاح   وأصبح عانداً حبل التصاح
أبيت مروعاً، وأظل صبا   كأن القلب مني ذو جراح)

بجوار دار قيس الأكتع. أذكر كنيته لأول مرة، لأن للأمر صلة بوالده، فالأكتع الكبير، والد قيس كان يثير الذعر في نفوسنا، حين ننوي الزيارة. لم يبتسم لنا قط، ولم يرحب بنا أيضاً. وكان يكتفي بدحرنا،

بعد أن ندخل من بوابة الدار، إلى غرفة صغيرة، غير مؤجرة، استبقى فيها قيس - أو سمح له أن يحتفظ - بضعة كراسي، وطاولة ممزقة، وطراريح رقيقة بوجوه بائسة، وبابوراً وإبريق شاي.

لم يستطع أحد من أفراد العصابة أن يشرح لي لماذا رحب بهند، وسمح لها بدخول غرفة قيس، وتركهما منفردين ينجزان أحد الفروض المدرسية؟ ولم يظهر قيس حماسة لتوضيح الأمر، وقال: نسيت. لا يهمني. فهل هو جمالها المربك؟ أم نبرة صوتها الآمرة الحاسمة؟ أم اندفاعها غير القابل للرد؟ كانت هند سمراء طويلة، بعينين سوداوين، وشفتين ممتلئتين، وخدين بارزين قليلاً. وأنف مشدود. ترغم أي رجل يقابلها عند أي رصيف، أو ناصية، على الانعطاف والقفز إلى الشارع، أو تبديل المسار. هكذا بنظرة سهمية واحدة تحرض الرجال على طاعتها. فضلاً عن أنها قادرة، وهذا يحدث بغير قصد، على جذب العيون إليها، لتأملها، وملاحقتها إلى أن تختفي. الأرجح أنها لم تتسلل إلى دار الأكتع، بل اقتحمتها طالبة مساعدة زميلها، في إحدى المواد الدراسية. تعاون طبيعي كان يحدث دائماً. وهذه هي رواية جميل عن الأمر. ولكن طعمة الله يعتقد أنها قصة ملفقة يسوقها قيس عن طريق صديقه عديم الخيال. قال إن هند لا تفعل مثل ذلك، فانطباعات القوة أو السطوة التي كانت تظهرها، إنما هي نوع من الحمايات الخارجية، يعني مثل درع السلحفاة، هدفها الدفاع عن روح هشة، ومتعبة. ابحث عن قصة أخرى.

لقاؤهما تم على هامش مظاهرة طلابية، دعت إليها السلطة، لا أذكر مضمونها، ولم يكن قيس معنياً بأي مناسبة حينئذ، وقد استفاد دائماً من وجود هوامش تلك التظاهرات مثل الأرصفة، والفراغات بين

مدرسة وأخرى، حيثُ كان يتسلل منها بحثاً عن الفتيات الهاربات من الحشود الضاربة، أظن أنه كان يفعل أي شيء، مستغلاً العماء البشري المتداخل، من أجل اصطياد فريسته: أفترض أنه تعثر فجأة، حين رأى هند، وتمسك بذارعها متحاشياً السقوط. يلي ذلك أسف ملحاح ودنف وفائض عن الحاجة، يجعل الفتاة عاجزة عن إبداء تذمر. وهنا ينقض قيس طالباً النجدة، أو المساعدة العاجلة. كأن يضرع إليها كي تسمح له بالبقاء للحظة ممسكاً بذراعها. أو يدّعي أن دواراً عنيفاً يعصف برأسه. وقد يصطدم بأحد الجدران، أو يتعلل برعاش مدمر في الساقين.

لقاؤهما الثاني حدث صباح الغد، حين اكتشفا أنهما جاران. وقد كان لدى كل منهما المادة المناسبة والمشتركة للحديث. كان بوسع قيس أن يقدم شكره على النجدة النبيلة الخالية من الريبة، التي قدمتها الجارة الزميلة، وكان باستطاعة هند أن تستفسر عن عارض الأمس، أو تسأل عن عافية اليوم، وتتمنى لجارها الصحة والسلامة. غير أن قيس لم يكن يؤمن بمثل هذا التلفيق الخاسر، إذ إنه لن يكون أكثر من إعادة مملة وبطيئة لإجراءات التفخيخ التي أنجزها البارحة. وسوف يتبع، سريعاً، بفطنة نمر، تكتيكاً آخر مختلفاً تماماً يتضمن العناصر غير المرئية التي كان يرى أنها تشكل جوهر الأمر. حيث يقطع سؤال هند عن الصحة، بواحدة من عبارات الغزل المكشوف مثل: سواد عينيك كالليل. أو هل رأيت مرة حقل قمح؟ أمواج شعرك مثل حقل يداعبه النسيم. أو لك رائحة صباح مشمس، تتصفح هند وجهه بحذر، وترد: كيفك بالرياضيات؟ وبسبب التهور، فإن قيس يظن بأن في السؤال لغزاً. فيسارع إلى ارتكاب الهفوة القاتلة التي تسببت بهزيمته التالية، أو هزائمه المتتالية، إذ قال: حساباتي لا تخطئ أبداً.

وتظن أني شرموطة مثلاً؟ عفواً. وتظن أنك إذا مثلت دور الدون جوان وتغزلت بعيني وشعري ورائحتي فإنني سأنسى أنك كنت تكذب بالأمس! وبدلاً من تبديل التكتيك، وإثبات أنه عامل متغير، فإن قيس أصر على أن أساليبه ما تزال مفيدة في ترويض الفتيات، وأن هذا العصيان الذي تظهره هند، لم يكن أكثر من قشرة متخشبة بلا نفع. وفسر كلام هند على أنه ينتمي إلى سلالة اللا التي تعني نعم. فقال: سمرتك بلون الخبز العربي. وعلى الرغم من سعادتها (التي أخفتها بضع سنوات، إلى أن اعترفت بها لقيس ليلة الدخلة) بهذه الصورة الجديدة، فإن ملامحها اتخذت هيئة حاسمة، وهي تقول له: بتعرف؟ أنت الآن صادق في الألفاظ وكذاب في المشاعر. ثم وسعت خطاها، ودمدمت مهددة بغضب: لا تلحقني! كان طابور من الفتيات، والفتيان يملؤون شارع الصباح. وبدا لقيس أن ردها وصل إلى مسامعهم جميعاً، ولأول مرة ينتابه خوف حقيقي، وينتفض بسبب شعوره بأن شخصاً ما يراقبه من الناصية الأخرى. وبدلاً من قلب الذئب الشجاع، بدأ يدق في صدره فؤاد أرنب، فارتد عائداً إلى البيت.

كان منزل آل الأكتع واحداً من المنازل الحجرية الضخمة في المدينة القديمة. لقد هدم الآن، بعد إنشاء الطريق المحورية التي شقت الحي بكامله، ولكن أجزاء كثيرة من الدار المجاورة التي سكنت فيها هند ونجوى ما تزال قائمة، حيث يظهر باب غرفتهما الخشبي المعتق.

بدت تلك الدار فظة الآن، ممزقة، أو محطمة تحت وقع آلات الهدم الحديثة التي استخدمتها البلدية أثناء عمليات شق الطريق. وقال قيس إنها لم تكن في أي يوم تحفة معمارية، وإنما مجرد مأوى مضطرب بلا روح. بينما قال طعمة الله إن قيس كان شديد الحماسة لهدم المدينة القديمة، لكي يبني عمارة تجارية في المكان ذاته.

لم تكن مدينة قيس وهند القديمة تأبه لهذا كله. كانت مدينة مغطاة محجوبة. وقد تمكنت الأزقة الملتوية الفاصلة بين الجدران الحجرية العالية من تأمين الوقاية للقاءات الألفة، أو التعارف السريع بين الشبان والبنات، من غير أن أدعي أنها تكفلت بالملجأ. وفي هذا الباب، فإن لدى قيس نظرية تقول إن كل زمن يمنحك بالضرورة المكان المناسب لعملياتك الإنسانية. ربما.

المبادرة التالية التي رأى طعمة الله أن قيس هزم فيها نهائياً، جاءت من جهة هند. فقد جاءت إلى الدار تسأل عنه، وهي تحمل كتاباً ودفتراً وقلماً. كان كتاب الحساب. لا أذكر من الذي ألف ذلك الكتاب في الستينيات لدور المعلمين، ولكنه أهدر كثيراً من وقتنا في تلك السنوات، وهو يفترض أننا سنصبح باعة حوانيت، وأصحاب دكاكين، أو تجار أقمشة، أكثر مما خطط كي نصبح معلمين. وبالنظر إلى ضعف التجارة في ذلك الزمن، فقد ساندتنا تلك المسائل المصابة بفقر الدم في نقض أي علاقة طيبة مع المادة الدراسية غريزياً، بحيث تكيف ذكاؤنا، أو قدراتنا مع يقيننا بأننا مجبرون على ابتلاع مادة لا شأن لها بحياتنا العملية. أذكر أن الضعف في الحساب كان واحداً من السمات التي ميزت جيل المربين الذين خرجت برفقتهم إلى العمل. ومع ذلك فقد كان قيس أحد الاستثناءات الخارقة بين مخلوقات تلك الحقبة. يكفي أن يلقي نظرة على أي مسألة كي يقول: بسيطة! مقابل ساعة أو ساعتين من النظر غير المجدي لدى أي واحد منا.

هكذا صار من الممكن اكتشاف التقنية التي تسرب من خلالها خبر قدراته الرياضية، إلى الجوار الأنثوي. لذلك لم يكن بوسعه أن يرفض تقديم المساعدة لهند، في الحساب الذي أخطأ فيه حياتياً، قبل يوم واحد.

يدعي طعمة الله أن الرجال مثل الكلاب، لا يحبون إلا من يخنقهم، وأن قيس الذي عجز عن اجتذاب هند، أو شحنها أو تمريغها بغرامه، وقع في حبها، ولكن دون صوت. لم يُحدِث أي ضجة وأبقى الغرام مخزناً داخل صدره دون حكاية (وهو ما يملأ قلبي بالضغينة تجاهه).

يدعي المكتبي أنه عرف بالأمر مصادفة على النحو التالي: تأتي هند لشراء قلم، أو مسطرة، أو محاية، فيلحق بها قيس ليسأل عن مجلة أو كتاب. يدعي المكتبي أنه كان يسمع ضوضاء قلبه، يتناهى إليه صوت تكسر الدماء في شرايينه، يرى شحوب الارتباك في عينيه، ووجنتيه. قلت: إننا لم نرَ أي ملمح من ذلك الحب. قال: يرى الناس ما يريدون أن يروه. قلت: كنا نريد أشياء كثيرة، ولم نرها. قال: مثل؟! قلت: الحب. قال: كنتم تريدون صورة الحب. ظلم! قلت في نفسي وأنا أغادر بيته: صحيح أن أخيلتنا عن النساء قعدت داخل سراويلنا في ذلك الزمن، ولكن كل واحد منا، كان يجوب الشوارع والأزقة والحارات، ويبصبص في الأفراح، والتظاهرات، بحثاً عن تلك البنت الغامضة المشتهاة المخبأة في بطانة الأيام من أجله. تلك كانت حبيبة الأمل، أمل الحب، لذلك أطلق كل منا عليها اسماً سرياً يردده، كلما حلت به اللوعة، أو الشوق، أو باء بفشل الفحص عنها. أنا سميتها زهرة، وجميل سماها عطرة، ووضاح سماها حورية وقيس سماها شغف (يجب أن ينقض اعترافي الآن استنتاجات طعمة الله) دون أن نحظى بها قط. لا أعرف لماذا لا يمكنني أن أتذرع بالخواء (خواء العصر) ولا أستخلص من الإحباط نتيجة. ولكني صرت قادراً على القول إن قيس وحده كان يخدعنا. جميل قال إنها وصمة، ووضاح وصفها بأنها خيانة. يعود نسب المفردات التي نستخدمها من أجل تقييم السلوك، أو نقد القيم

إلى سلسلة من المؤثرات التي تكوننا. وقد اكتشفت أن الفروقات بين معاني نعوتنا كانت ضئيلة، مما يعني أننا لسنا مؤهلين بعد للتسامح مع الأخطاء، أو المخالفات، حتى لو أضحت رماداً.

في الجلسة الأولى تحرج قيس من أن يقترب بأصابعه من أي منطقة حسية في بدن هند. وضاح يقول إنني بدأت أستخدم الكلمات من أجل تزوير الحقائق، فالمفردة الصحيحة في رأيه هي: جَبُن. فمنذ أن جلس على الطراحة، انتابه هلع عميق جعل قلبه يدق على جدران الغرفة. هل تظن ذلك حرجاً؟ قلت إن من الأفضل أن أسميه هكذا. لأن الحقيقة هي أنني لا أحسد قيس على ذلك الموقف أبداً. اسأل مجرباً. فاللحظة التي تلي جلوس الحبيبة (التي تجهل أنك تحبها) إلى جانبك، يتخلخل كيانك، يُسلب منك حضورك، تحس أن ضلوعك تحتك بجلدك. غير أن وضاح يقول: فتش عن قول آخر. قيس لا يحب. لا أفعل. إذ لا مناص من أنه فقد قواه، حين خسر أسلحته، فاستسلم رافعاً يديه عالياً في الهواء أمام هند.

في ذلك اليوم لم يعلم قيس أن والده ظل طوال الوقت قرب النافذة، يحرس حضور البنت، وأنه قال لزوجته حين عاد: اليوم عرفت أن أفضل معلم للرجل هو المرأة! فماذا كان يقصد، إذا كان قد استمع طوال ساعة إلى ابنه، وهو يشرح معادلات الجبر، ونظريات الحساب والهندسة؟!

الرجل الذي كان من أشد المحرضين على معاقبة أعضاء العصابة التي كتبت رسائل الغرام، كان يعتقد أن هذه الجارة الصغيرة تعشق ابنه. فيما ظل ابن عصابتنا عاجزاً عن فحص مشاعر هند نحوه. وبسبب ولعه بها، لم يلجأ إلى أي واحدة من حركاته لجس الحالة، أو تجسير المسافة. ولكن، بعكس ما كان يحدث لي في مثل هذه التجارب،

من انكشاف أخرق، وندب غنائي حزين، ظل قيس متماسكاً، مرفوع الرأس في انتظار الوقت.

فمن أحب في حقيقة الأمر؟ هل أحب ليلى؟ أم ميسورة؟ أم هند؟! جميل ووضاح يقسمان إن قيس لم يحب أحداً سوى ذاته، أما طعمة الله فقد ظل مخلصاً للصورة التي ادعى أنه رآها: هند.

الغريب هو أن ترضى هند بالدخول إلى الأحبولة بقدمها، وأن تمضي فيها بلا تردد: تزور قيس كل أسبوع، أو أقل، تتعرف إلى أبيه وأمه، تتمكن من أن تشهد تفاصيل الحياة اليومية التي يعيشها. لا أعرف لماذا كانت راضية. هل كان صديقنا يبدو في البيت شخصاً آخر مختلفاً عن ذلك الرفيق الذي عرفناه في بيت العصابة؟! هند، التي كانت تربي ابناً لها بعد الطلاق، قالت لي: لا. أعتقد أن سوء الطبع هو كيانه، أما مظهر المؤدب فلم يكن سوى نزوة العاشق، تتبيلة الابن المطيع. تجرأت وسألتها: لماذا تزوجت منه إذن؟!. قالت: اليوم لا أجد الجواب، ولكني في تلك الأيام كنت مستعدة لتقديم أي شيء من أجل أن أنجب منه ولداً. والحب؟! ماذا تسمي كلامي؟! لكني - أضافت - أنجبت ولداً، ودفنت امرأة.

لا أصدق هذه الشعارات في العادة. وأميلُ إلى فهمها كمجاز يريد تلخيص الحياة المعيشة في كرات صغيرة من الجمل، أو مشاعل أو حوجلات مريحة من أجل الاستعمال. لكن طعمة الله أكد لي أن هند قمر الدين فتنت برجولة قيس، وأن شهواتها تركزت في خصيتيه، وهو يستنتج ذلك من أن البنت كانت ترصد تحركاته في الشوارع، واستطاعت أن تعرف أسماء معظم البنات اللواتي تحرش بهن، أو أنشأ علاقة ما معهن، مستخدمة جميع وسائل البحث والتنقيب والبصبصة

وفك الأسرار مع سرية من البنات المساعدات. ولدى طعمة الله شك بأنها استعانت بعادل السعدون (غير مستبعد، وإن كان ذلك الرجل يقسم إنه لم يعط كتابه لأحد غيري) ومع ذلك فإن رغبتها لم تتأثر بذلك التراث الصاخب المبلل بالفسق. وإنما ازدادت تمسكاً به، وقوّت عزيمتها من أجل الفوز، فقد أيقنت، منذ أن رأته، أن هذا الرجل لها. ولكنها اختارت طواعية، عن سبق إصرار، الطريق الصعبة، أو الطويلة، دون خوف أو تردد.

وهذا ما حدث:

بعد أربعة أشهر من التخرج، التقت بقيس حين عاد في العطلة الانتصافية. فوجئت به، كان ناحلاً، سقيماً، كأنما امتصته علقة. لم ترغب في إظهار أي عطف، فقالت: لا تقل لي إنك لا تأكل هناك (كان قيس يعلِّم في ريف حلب) فقال: بلى، والألعن أنه لا يوجد هواء أيضاً. كانت تعرف قليلاً عن عواصف الغبار التي تملأ ذلك الفضاء، ولكنها لم ترغب في الحساب الواقعي المباشر للعبارة. ربما كان إلهاماً من الله، كما قالت لي، أنها لم تشر إلى ذلك الموضوع، لأنها كانت ستخسر المجاز، دون أن تكسب الواقعي (كان الواقعي يقول إن الشتاء لا يشهد غباراً هناك) وأدركت أن قيس بات مستنفذاً، وخالياً من الرغبات، وعرفت أن الوقت قد حان. وبانتظار إلهام آخر من الله، استمهلت قيس قليلاً بحجة شراء غرض ما من دكان مقابل. لقد أرادت أن تمنح نفسها الفرصة لإعداد الكلام. اشتريتُ عشرين زراً، وأربع بكرات من الخيطان. لا أعرف لماذا فعلت ذلك، كانت تعوزني الكلمات لا الأزرار. أو كنت أحتاج إلى لحظة صمت بعيداً عن الكلمات. أو كان يعوزني فهم أن غياب الكلمات قد يكون مناسباً لقول كلمات أخرى. كيف يستطيع المرء اقتناص لحظة بكلمة؟! لقد مضت سنوات وأنا أقلي ذلك الرجل

على ناري الهادئة، والآن حان وقت التهامه. لكن كيف؟! لم أجد أي كلمة. كنت بلا معجم حينئذ. ولكني عثرت على ابتسامة، وقدمتها له برفقة سؤال: ما تزال هنا؟! كأني لم أطلب منه انتظاري. فرد بعفوية، وبإصرار: مستعد لانتظارك كل العمر. لا حاجة لذلك، قلت له، يمكن أن تأتي وتأخذني غداً إذا أردت. قلت له تأخذني. فهل كنت أوقع ورقة التنازل الأولى؟ تسألني هند، لتحثني على الإنصات، لا لتسمع جوابي. فقيس الذئب، رفع رأسه فجأة، عب الهواء. كأن للكلمة رائحة الفريسة المنهكة. تغيرت ملامحه، واكتسى وجهه نضارة وجه صياد، وأخذ يهز رأسه هزات متواترة، وهو ينظر إليَّ نظرة فارغة بلا معنى.

بالتأكيد لا. إنها النظرات المدبرة التي كان قيس يعرف كيف يرسلها، بلا مشقة إلى الطرف الآخر في لحظة استسلامه، بلا ضغينة، ولا تحفظ. نظرة قابضة مستحوذة تقول: لقد وقعت! وسنرى! (لأن قيس صديقي وابن عصابتي، لم يكن نذلاً من أولئك الذين يقبلون تجرع السم، إذا كانوا يريدون تسميم آخرين).

لم أقل لهند تفسيري هذا، فقد جربت الأمر بنفسها، لم يعد لدى قيس من هدف سوى إعطاب النمرة المتمردة، بعد أن استسلمت أخيراً بلا حرب (رغم كرهي للشعارات، فإنني أهتف لهذا الرجل الذي أفرج عن المرأة بعد أسرها لمدة عام ونصف فقط، وأقول لهند في نفسي: افرحي! لم تدفني يا عزيزتي، أنت واهمة، لقد نجوت)، وضاح يقول لي: لا تستخدم التعابير الشعرية لوصف اللحظات الواقعية. فالمؤكد عنده أن تقلب المزاج، لا الرجولة، هو السبب. فبعد الزواج بشهر أو أكثر قليلاً، ظهر على قيس ذلك العرض الذي كنا نعرفه منذ أيام العصابة: الملل. فبدأ يردد النكات التي تتحدث عن اعتياد الزوجة. وقد

بدا أن وجود هند في بيته يضجره. أعلن عن ذلك بالتأفف. أو بالغياب الطويل عن المنزل. أين يذهب؟ أسأل جميل. كانت المدينة قد بدأت أولى تجاربها في إنشاء المقاهي، وقد تمكن مغامران من استصدار رخصة مقهى وسط البلد. اختارا أن يكون نصفه مكشوفاً. وعلى الرغم من أنه لم يعش طويلاً، فإن وجوده، الذي دام عشرة أشهر، أتاح لقيس، أن يملأ أوقات الفرار بلعب طاولة الزهر، أو الطرنيب، أو الكونكان، مع شلة من الرواد، تعرف إلى معظمهم في المقهى ذاته.

طبيعته المتذمرة لم تسمح له بالتواجد هناك دائماً، دون أن يكون البيت بديله، صار يمضي جزءاً من وقته في خمارة حنا برفقة زيدان الحدودي، وجميل في أوقات العصر، ثم يذهب ليلاً إلى المقهى أو إلى شلة جديدة من رجال يشبهونه للعب الورق. ليست لدي المعطيات الكافية لتأريخ الأوقات التي بدأت تنتشر فيها شلل الورق في المدينة، أو في أريافها، ولكن مرحلة السبعينيات قد تكون ملائمة لأي بحث يريد دراسة هذا المنحى الميثاقي الجديد في علاقات الناس. الملاحظ أن شلل لعب الورق التي أخرت إنشاء المقاهي العامة في المدينة، وجدت في البيوت أمكنة آمنة للاجتماع، وهذا يعني اضطرار قيس للعودة إلى البيت كل بضعة أيام التزاماً بالدور المتنقل.

وبحسب وضاح، الذي رفض أن يغطي تلك الأنشطة الاجتماعية إلا بالغطاء السياسي، فإن انتشارها أخذ شكلاً سرطانياً تحولت فيه المنطقة بكاملها إلى أوكار متراصة للاعبي الطرنيب والليخا والتركس. حيث لم تكن في السماء، بعد، سوى محطة تلفزيونية وطنية واحدة، قد تتسلل إلى جوارها أحياناً المحطة الأردنية، أو إحدى المحطات الإسرائيلية التي تعرض أفلاماً إباحية ليلة الأربعاء.

وإذا كان قد بدأ يدخن من جديد، فإن هند رفضت أن تدعم صرفياته، مثلما أبدت رفضاً حازماً لاستقبال أي شلة من شلل الورق في بيتها. لم يكن قيس يفكر في الطلاق، وكانت اختياراته تقتصر على نبذها، أو هجرها، وبدا كأن ذلك الشاب القديم، صاحب تقنيات الوجود الحصيفة الممتلئة بالحلول والمهارات، قد تحوَّل إلى قالب من الثلج الذواب عديم النفع. غير أن هند بدأت تعلم أن الأشياء آخذة في التلاشي: «عرفت أننا سنفترق».

ليس لديها اليوم أي مستندات تثبت أن ما تقوله عن أحاسيسها الماضية كان صحيحاً. ولكن القرائن التي تقدمها عن استعداداتها، تؤكد أنها استطاعت أن تحوِّل الإحساس الغامض المبني على الحدوس إلى أفعال أرضية. منعت قيس من استلام راتبها الشهري، كما كان يفعل من قبل، وبدأت تضع قسماً منه في صندوق توفير البريد سراً. لم تعد تنام في فراشه.

لم يقل شيئاً. وبدل أن يرتد مذعوراً، أو نادماً أو يستيقظ على وقع المتاريس التي تبنيها، ازداد غياباً عن البيت. صار يعود متأخراً لينام في المضافة، أو في غرفة المعيشة، دون أن تكون لديه أي فكرة عما يمكن أن يفعل.

حدث الأمر بغتة. كان عائداً إلى المنزل ليلاً، ومر مصادفة قرب قصر آل العز. الأرجح أنه سأل نفسه سؤالاً بريئاً خالياً من أي خطة عن ميسورة. والمؤكد أنه نام تلك الليلة دون أن يقلق بشأن اختفائها - عن عينيه - منذ أكثر من سنتين.

اللافت أنه وجد نفسه صباحاً يستعيد التساؤل العابر، كمدونة بارزة الحروف، داخل رأسه، هذه المرة. أين ميسورة؟

ليس من الصعب أن يعرف أنها تدرس في جامعة دمشق، وأنها تسكن في منزل ذويها في شارع بغداد، قرب محطة الأزبكية. فمثل هذه المعلومات متاحة وسهلة في محيط المدينة. ولكن ما لم يكن متاحاً هو الوصول إليها. انفجرت ذكراها داخل قلبه، انهمرت الأسئلة واحدة وراء أخرى: كيف ضل طريقه؟ ماذا حدث كي ينسى حبه الأول؟

أستطيع أن أكتب أن قيس أحس في ذلك اليوم بوطأة النكبة التي حلت به. لأول مرة. وأقول إن الأسئلة عن الاختيار الفاسد كادت تحطمه. ولكنه، بسبب حبه لذاته، تمكن من إلقاء اللوم على هند، ونثر قليلاً منه على أبيه المعجب القديم بزوجة ابنه، ولم يتردد في القول إن للقدر يداً في تلك العصارة التافهة التي حصل عليها. وأخذ يقول لجميل إنه من الحيف أن ينزلق فتى الستينيات المتألق، إلى رتبة زوج بليد تسبب له هند قمر الدين الكآبة!.

وابتداءً من تلك اللحظة الكاشفة، بدأت الحياة تأخذ القرارات المناسبة له. كأنها تعتذر. أو تبدي أسفاً على الغدر غير المقصود، أو الخيانة الطارئة. وفي صيف العام التالي التقى بميسورة.

لم تكن مصادفة، علماً أنه حاول أن يدعي أمامي أنه تدبير من القدر أيضاً. وهو ادعاء غريب، من رجل حمَّل الأقدار من قبل، جريرة الشهور السوداء (وهذه التسمية من عنده) التي أمضاها في بيت هند. لكن ذلك الادعاء بالذات يعيد قيس إلى ذاته، أو يعيده إلى قيس القديم النفاج المثقل بالضوضاء، والرغبة في التأكيد على أن الحياة من حوله، وربما الكون نفسه، مهيآن لتقديم الخدمات المناسبة لشخصيته المحبوبة.

الصحيح أنه حجّ إلى ميسورة. لقد راقب قصر أبيها كل يوم، وطاف

حوله، آملاً أن يراها، أو يلاحظ ظلها، أو يعرف إن كانت موجودة أم لا. ولم يثنه الغياب عن التردد إلى المكان؛ إذ خيل إليه، أنه يراها هناك: وراء الستائر، وزجاج النوافذ والأبواب. وتجرأ أكثر من مرة على التسلل إلى محيط المنزل ذاته، ليتأكد بنفسه من أنها إذا لم تكن موجودة، فقد تركت ظلها، أو رائحتها، أو قطعة من ثيابها معلقة على مشجب شجرة، أو مرمية على مسند كرسي حديقة. ثم تمكن من إجراء مسح زمني لاحتمالات زياراتها من دمشق. وهو أمر كان يتطلب مشقة في ظل استعصاءات المواصلات التي كانت تسمُ تلك المرحلة. ولكنه توصل، رغم ذلك، أكثر من مرة، (جميل شاهد على ذلك) إلى التقاط هاتف القلب.

هل التقى بها أثناء إحدى تلك الزيارات؟ تثبت الوقائع التالية أن هذا قد حدث فعلاً، ولا مناص من الإقرار به، دون الالتفات إلى الذرائع عن القدر. إذ لا يعقل أن يشهد الصيف ذلك التقدم العاصف في علاقتهما، دون أن يكون مسبوقاً بلقاءات سرية.

يرفض قيس وميسورة الاعتراف بذلك، ويعزوان حب الصيف إلى الجمر القديم الذي ظل متقداً تحت الرماد، رغم البعد، والاختيارات الخاطئة (تقول ميسورة: العثرات!)

يميل قيس إلى الادعاء بأنهما استعادا الحب من الماضي، ولم يستجدياه من الحاضر. وقد اكتشفا، خلال أيام، أن كل واحد منهما يحترق بالآخر، وأن ما يحتاجان إليه هو درجة الانصهار الطبيعية التي لا تزيد عن حرارة عقد الزواج.

هذه هي لحظة التنوير التي كتبت عنها في النسخة الأولى حيث لا يتم الحب، أو يكتمل إلا بهدم العوائق، وتدمير الموانع التي تعني عملياً العودة إلى البيت، والقول لهند قمر الدين: أنت طالق!.

التعليق الأكثر مرارة على الكتابة جاء من وضاح. لقد رفض النص كله، وطلب أن يخرج من هذا السرد الرملي الذي يقتات من اللحم البشري. فقلت له إن كل كتابة لا يمكنها أن تظهر خارج حدود هذا اللحم. فادعى أنها مبالغة خيالية. خاصة حين أصور زواج قيس من هند، بأنه لعب في الوقت الضائع، وأدعي أن زواجه من ميسورة مصافحة للقدر. كلام غير دقيق، غير علمي. صرخ في وجهي. فالعلمي هو أن قيس طلق هند، وتزوج من ميسورة لأنه مجرد كلبٍ نهّاش يعرف كيف يضمن النجاح، والثروة. انظر حولك: أب غني يقيم المآدب للمسؤولين في السلطة، ويدير بضعة مشاريع وعدداً من محلات بيع الأقمشة، وأخوة ناشطون في تجارة العقارات، وامرأة جميلة ومتعلمة. هذا هو قيس.

لا يمكنني تجاهل آراء وضاح بالطبع، ولكنني في الوقت نفسه لا أستطيع نسيان أن الرجل الذي يلقي هذا الخطاب التحليلي، المستند إلى علم السياسة والاجتماع، قلما يحفل بقضايا القلب. واللافت هو أن آراءه كانت باردة، ومجففة، «أو موضوعية» حين يتعلق الأمر بآل العز، حيث يلتزم بما يسميه أدوات التحليل العلمي، بينما تأتي مثقلة ببغض مسعور، ومعبأ داخل الكلمات المختارة لتحقير قيس وحده، فتراه ينقض كالذئب على مسيرته، أو شخصه أو سلوكه، أو آرائه، أو قراءاته.. أو..

وما يشغلني الآن أمران: أسباب البغض بين أفراد العصابة، وإجراءات التقاضي بينهم أيضاً. والحقيقة هي أن الذرائع التي يقدمها وضاح لا تكفي لإدانة رجل لم يفعل أي شيء نافر أو استثنائي أو مختلف من حيث الجوهر، عن السلوك الاجتماعي السائد. الأدهى من ذلك أن قيس يمتلك سلة مماثلة من الأسباب التي تجعله يوجه إلى وضاح لائحة

من الاتهامات المريعة التي يمكن أن توصله إلى حبل المشنقة، أو منصة الإعدام الأدبية. ويدعي وضاح أن غيابي (قرب أمي المريضة) كان سفراً أو قطيعة مع العالم. ومع أن طعمة الله حاول أن يبرِّد مشاعري بسطل من التفسيرات الفلسفية المثلجة التي تدعي أن الغياب والسفر والارتحال عن المكان، تريحنا من وطأة الزمان. فإن وضاح ظل يؤكد أنني رميت نفسي خارج النافذة، فلم أرَ ما يحدث داخل البيت.

حسناً. ماذا يحدث داخل البيت؟

يميل وضاح إلى اتهام قيس بالانتهازية. وهذه واحدة من المفردات التي خرجت من المعجم الشفوي منذ نهاية الستينيات. أذكر أنها، اكتسبت في تلك الحقبة قوة الشتيمة أو العيب لدى المجتمع بأسره، موجهة بالأساس إلى الأفراد الذين يتقربون من السلطة، لغايات نفعية. غير أنها أخذت تفقد ثقلها، ولونها الفاقع، في عمليات تبييض جماعية، حين بدأت أسراب من الشبان والشابات والرجال والنساء حملات الانتساب إلى الحزب من أجل الفوز بوظائف الدولة. إلى أن صارت رقصة مشتركة، واضمحلت، وذابت في القاموس، لتحل محلها مفردات شقيقات أخرى أكثر شرفاً، وقرباً من الحياة. لا أنكر أن عدداً من الناس رفضوا الانضواء تحت المظلة، ولذلك فقد آمنوا بأن المفردات هي المفردات وأنه ليس بوسع أحد أن يظلل كلمة مثل الانتهازية بأي مكياج، بل إن وضاح كان يردد منذ أن استعدنا صحبتنا القديمة أنه بصدد تأليف كتيب يتتبع فيه أشكال تغير المفردات المعاصرة، وأسباب ذلك. لم أظهر اهتماماً بمشروعه، ولكنني الآن أدرك أن النظرة إلى السلوك هي التي تُحيي الكلمة أو تميتها. فقد اختار قيس، بعد أن تخرجنا، وتفرقنا، أن ينتسب إلى الحزب حسب معلومات

جميل. لا أعرف ماذا فعل بماضيه القصير مع الشيوعية، وليس لدى أحد أي معلومة عما إذا كان قد اعتذر عن ذلك أمام الأمن، أم بين رفاقه الجدد. والمؤكد هو أنه، منذ بداية السبعينيات، أضحى واحداً من النشطاء أصحاب الأظافر والأنياب المدافعين عن القومية العربية في وجه دعاة الأممية الدخلاء. هذه هي السلال التي تدافع بها قيس ووضاح، وقد شطرت صداقتهما شطرين. وبدأت أعوادها تخز الاثنين معاً، بفارق أن نقاط قيس كانت تتكاثر بلا توقف، فيما كان وضاح يفقد الأرض التي يقف عليها، شبراً شبراً. ففي بداية العقد ترك قيس كرسي المعلم الابتدائي وصعد إلى عصا المدير في ابتدائية الخطابي. ليس في هذه الخطوة أي خميرة فاسدة. ومن غير المنطقي أن يُنسب إلى التسلق والوصولية. وبالعكس، فقد بدأت أفكر أن تلك الفرصة الضئيلة، ليست سوى أول درجة في سلم اختاره قيس من أجل إثبات الشخصية أمام العائلة الثرية التي صاهرها.

واهم! يهتف وضاح. كيف يمكنك أن تشرح لي هذا التحول العجيب لدى قيس، من زير نساء مشغول بتسريحة الشعر، وفتحة البنطلون، وطول السالفين، وأنواع العطور، إلى منظِّر، لا شاغل له سوى شتم الشيوعيين؟ تصدق أنني مرة سمعته يقسم إنه سوف يحرقهم جميعاً، وقد كتب أربع محاضرات عن فساد النظرية الماركسية وجعلني أنا أدفع الثمن؟ ضحكت بصوت عال. قال وضاح: هل تسخر مني؟. لا! لا بالطبع. بل من تلك الصورة الغريبة التي يبرز فيها قيس وهو يحاضر في الإيديولوجيات. تخيَّلت أنه يذهب إلى الاجتماعات، والصالات مثلما كان يذهب إلى موعد غرامي، مكللاً بالبارفان والديودوران! لكن عن أي ثمن تتحدث؟!

فهمت من طعمة الله أن ذلك الثمن يساوي سنة وعشرة أشهر أمضاها وضاح في فرع فلسطين، وأن الأمن اعتقله بعد يوم واحد من آخر سجال (يقول جميل: لقاء) له مع قيس. لم يقل أي منهما ماذا حدث في ذلك السجال اللقاء، أو في ذلك العشاء الأخير كما سماه طعمة الله.

يا رب! هل يعقل أن يكون قيس قد وشى بوضاح؟! نعم مع الأسف. قال جميل ونحن نشرب الشاي، في محله. لكن أحزر، لم تكن السياسة هي السبب. لن تذكر هذا في كتابك، قال جميل، هل تعدني؟. قلت: لا. لا أستطيع، فالرواية لا تحفظ الأسرار أبداً. ابتسم لي وقال: تعجبني! قلت: اطمأن سأخلطها جيداً مع حبوب من الخيال، وذرات من تراب القصص، وبضع نقاط من الدماء، وبعض اللحم النيئ. قهقه بصخب، وخبط فخذي بكفه وقال: هاك إذن!

يرجح جميل أن أحداً ما، وضع في جيب قيس خبراً مخلوطاً بالشك عن وجود وضاح وهند في السينما معاً لحضور فيلم «زد». أذكر هذا الفيلم، وعندي أكثر من مقالة تقريظية عنه. أذكر أنه استقطب المشاهدين في السبعينيات، بفضل موضوع الاغتيال السياسي الذي قدمه بتشويق خاص. ومن المحتمل أن يكون وضاح دعا هند، وغيرها لحضور الفيلم الذي روَّجت له نخب اليسار.

سألت عادل السعدون إذا كان لاحظ قصص العشق في تلك المرحلة، أو إذا كان سرب أجزاء من كتابه إلى الشارع. فغضب مني. استنكر أسئلتي. فاعتذرت منه، وسامحني. هذا يعني أنه لم يفعل. لكنه شرح لي أنه لا وجود لقصص الحب في تلك الحقبة، لقد تبدل المناخ ولن نعود إلى طقوس الستينيات أبداً. فالسينما صارت في السبعينيات مكاناً مظلماً خالياً من الألفة والطمأنينة.

هل تعتقد أنني كنت أجرؤ على كتابة، أو تسريب أي معلومة عن هذا الداخل الذي صار مراقباً بالمناظير والمكبرات الأمنية؟ ثم كيف يمكن لعاشقين أو لمتحابين أو لصديقين أن يأتيا إلى هنا. لا يمكن. انظر بنفسك أيضاً، وسوف تعرف.

فكرت أن عادل أصيب بجرثومة التنظير فجأة، وأنه لن يتوقف عن الكلام، والثرثرة، خاصة أن لسانه بدا رخواً، فقرصت خدَّه بلطف، لأوقظه. قال: أنا أحكي أمام شخص أمين! ها؟! فقلت له إنني في الغالب لن أدع ستراً، ولن أتوانى عن عرض الأحداث والكلمات المناسبة في النص. فارتعد، وزال لون وجهه. قلت: خفت؟ ثم أوضحت له أن نصوصي لا تشبه نصوصه، لأن الرواية لا يمكنها أن تعيش إلا إذا أعادت خلق الحقائق، قال: إذن أنت لن تروي ما قلته كما قلته. أكيد. لا تخش شيئاً. كلماتك ستكون كلماتي، وأقوالك أقوالي. أنا وحدي أتحمل مسؤولية التلفيق أو الانتحال الذي سأضعه في النص.

لم يعد بوسعي إلا أن أصادق على براءة وضاح، استناداً إلى المشاهد التي اخترتها بنفسي من المحيط. لكن جميل يتهمني بالانحياز. قلت إنني أستطيع أن اتهمه بالافتراء، أو بالتواطؤ. ولكني لم أفعل لأنني أردت أن أدعوه إلى تأمل الحادثة، وإدراك استحالة وقوعها، بحسب المنظور التاريخي الذي شرحه لي عادل، (لم أذكر اسمه أمام جميل) ولكن رأي جميل هو: إنه إذا كان الحب مرتبطاً بالتاريخ، فإن العلاقات السرية لا شأن لها بأي زمان أو مكان، لأنها نوع من الاختراق، والمخالفة، والخروج على القواعد. فنبهته إلى أن انتهاك القواعد والقوانين يحتاج إلى أداة بشرية مختلفة عن وضاح. ففي مثل هذه الشراكة أو العلاقة المزعومة، والمختلقة، لا يمكن أن يحضر صديقنا المتشدد والمتمسك ببراغي المؤسسات.

ضحك جميل وقال: العمى! هذه تستأهل كأس عرق. ثم شرد قليلاً، والتفت نحوي، وقال: لابد أن يكون وضاح قد وجد قليلاً من شحم الأفكار الصالحة للتزلج، أو اكتشف بعض المسننات النظرية الملائمة للقفز، أو عثر على المفكات المناسبة لحلحلة العقد. قلت له إنه يسخر من المجاز بعبارات خالية من العمق، وإنه لا يريد أن يفهم لأنه يرفض أن يبرئ وضاح.

هل اختار جميل أن يصدق الحكاية، كي يتمكن من التسامح مع الوشاية؟!

لم يقرأ وضاح فذلكات جميل، ولكنه أنكر أن يكون ذهب برفقة هند إلى السينما. حضرتُ «زد» وحيداً، ثم أقر أنه دعاها مرة، أو مرتين إلى المشاركة في أحد اجتماعات رابطة النساء. لقد أرادها أن تخرج من عزلتها، وأن تنضم إلى المنظمة النسائية. هذه مبادئي، وعلى الآخرين أن يفهموا أن بالوسع بناء صداقة بين رجل وامرأة، دون أن يكون أحدهما فكر بالفراش. قال وضاح إنه يرى في المرأة قضية، وقد بدت هند ذات يوم الممثل الأول لها. لم أفهم تماماً فحوى عبارته. وقال جميل ساخراً: إنه قد يكون رأى فيها دورقاً أو جفنة يجرِّب أن يطبخ بداخلها أفكاره عن المرأة، ثم يقوم بقليها مع البصل. (في النسخة الأولى وجدت وضاح يحاول أن يصالح قيس وهند. ماذا تريدني أن أفعل. لقد حاولت أن أضع يدي خلف جدران بيتهم لأمنعه من التهدم، كنت قد كتبت أيضاً: كان وضاح يسمع خشخشة الصدأ المكبوت داخل منزل صديقه) تذكرت جدال جميل ووضاح الستيني عن الشعر، أيام الإعداد لأنشطة العصابة. هل يعقل أن يكون جميل ما يزال حاقداً على وضاح بسبب السياب؟! لا! ليس من المنطقي أن يتجرأ خطاط شعارات

على توريط شاعر في مثل هذه النزاعات البائسة. ومع ذلك لا يمكن إجراء مسح صارم لمثل هذه الاحتمالات. وإذا ما تقصيت ملامح جميل في تلك اللحظة، فإن النتائج سوف تزداد غموضاً، فقد اكتسى وجهه مسحة من الجمود الخشبي الخالي من التعبير. ثم بدأت تخدده غضون منحته شكل قشرة جذع مقطوع، قبل أن ينظر نحوي، ثم يعب الهواء (هواء فاسد مشبع برائحة الدهان، وزيت النفط، والتنر، والأقمشة المكدسة) ويهمس: هل أقول لك سراً؟. أنا أبحث عن الأسرار وحدها. قل!. هذا سخيف جداً!. شغلي يعني؟!. لا. شغلي أنا. اعتقدت أنه يرغب في الشرب، ففي كل مرة يهجو فيها المحل، واللافتات، وصانعي الجمل، تكون النتيجة رقوده بضع ساعات أمام كأس العرق، وسلطة الملفوف. لكنه لم يفعل. ظل يعلِّم الشعارات الجديدة التي وصلته بالأمس، وهو قاعد على كرسي من القش بلا ظهر: غير معقول بصراحة، أنا كذبت عليك. بماذا؟! أنا كتبت رسالة لليلى، لا أذكر الشعر، ولكني لا أنسى اللحظة. هذه المرة بدا أن علي أنا أن أخدد جبيني، وأبدو مثل أخرق عديم الصبر. ماذا؟ أنت؟!. ترك الفرشاة على حافة سطل الدهان، ومسح يديه بخرقة مبللة بزيت النفط، ووضع يمناه أمام عيني. وقال بصوت جاف ممسوح بالتنر: بيدي هذه. خُيِّل إلي أنه يردد كلمات متدين: بيدي هذه التي سيأكلها الدود.

حين خرجت من محله، كنت خائباً، أو خاسراً في الحقيقة. فكرت أنه بهذه المباغتة، سيدمر شغلي، أو أجزاء من سؤالي الوجودي الذي أنفقت شهوراً في إعداده: من أي بطحة عرق جلب لي هذا الأحمق متاهة الحيرة؟!. فقد تم التخطيط منذ البداية عكس ذلك. وهذا يعني أن علي أن أقلق من جديد لخسارتي أحد المثيرات الضرورية لاستمرار

الكتابة. إذ صار سؤالي مكشوفاً وعديم الأهمية، في وقت لم يعد من الممكن إغفال، أو شطب، أو رمي اعتراف جميل المفاجئ. يمكن أن تقول إنه كذاب. قال طعمة الله، وهو يلوك قطعة من البسطرمة العتيقة. صحيح. فقد سألت جميل عن تفاصيل كثيرة، فقال إن ما يذكره هو الموضوع، أما الشكل فقد نسي أمره. ثم أبدى لا مبالاته المعهودة، وكرر مفارقة تافهة يرددها الهواة من المتظارفين: هل تظن أن عقلي دفتر؟!. غير أني رأيت وجهه يشحب ثانية، دون كسوة التجاعيد: أقسم إني اخترت لها أفضل بيت من الشعر عثرت عليه. أعتقد أنني أخذته من طوق الحمامة، وكورته، ووضعته في تلك السلة، مع الرسائل الأخرى. هل تذكر السلة؟ نعم. أحضرها وضاح من بيته، وأعطانا إياها. قال إن أمه كانت ترسل له فيها الزوادة. لكن لماذا لم تجد ليلى رسالتي؟!. لماذا لم تبحث عنها تلك الغبية؟ تعرف ماذا سأقول؟ سأقول إن إحدى البنات قد أخفت الرسالة. لكن لماذا؟!. لا تنس أن نصف بنات الدار كن يكرهن ليلى بسبب جرأتها في إظهار صابونة ركبتها. يعني يمكن أن تكتب: بسبب ركبتها. أظن أيضاً أنه قدرها. لا مناص من أن يكون أحد ما في السماء تدخل تلك اللحظة، وقرر أن يحرمها من الرسالة. من تعتقد؟ تبدلت لهجته، هو يشير إلى احتمال التدخل الإلهي في شؤون العصابة، وموضوعاتها. لكني لم أستطع الجزم، فيما إذا كانت لهجة هجائية أم مشفقة. أعتقد أن جميل تمكن من خداعي في هذه اللحظة. فقلت له: لماذا كذبت علي، ولم تقل هذه الواقعة من قبل؟ لم أكذب. أنت لم تسأل. وأنا لم أكذب. ولكنك اعترفت الآن دون أسئلة. اعترفت؟ هل تظن أننا في محكمة، أم في مكتب التحقيق؟ هل تغير الاسم؟. أي اسم؟. غرفة التحقيق آ...ها! غرفة التحقيق اسم خاص بالشعر، لكنه في الحقيقة مكتب التحقيق. والكلمة هنا أكثر عمقاً.

كنت أتوقع أن تأتي هذه التعليقات من قيس، لا من جميل. وما زلت أعتقد أنه يسخر من شيء ما، ولكن حديثه عن ليلى اتخذ هذه المرة منحى تأنيبياً حزيناً، وخالياً من وقار المحلل، وتأويلاته، وهذا مهم جداً، إذ إنه يخفي (أو لا بد أن يخفي) سراً تمت إزالته أو إخفاؤه وراء ظهر العصابة والزمن. فالمواد التي كُتبت لم تُختر بعناية ورفق فقط، بل خُتمت كل مرة بخاتم المجموعة. لقد سُجلت كبصيرة حصيفة مضادة للتجاذبات الفكرية التي كانت تمزق المجتمع آنئذ. وهذه واحدة من الفضائل، أو من الغوايات التي جذبتنا إلى العمل معاً في مجال بكر، ومطهر من مثالب الأنانية. لقد أردنا أن نخلق فردوساً تهتف فيه جماعة موحدة بلا مصالح، من أجل أكثر العواطف البشرية قداسة. ومع ذلك فإنني اكتشف الآن أن واحداً منا استل ريشة من الطوق، وأرسلها (أراد أن يرسلها ولكنه لم يفعل، أو أنه أرسلها وضاعت) سراً إلى الحمامة. لماذا؟!

بعد أيام بدا جميل أكثر حزناً. رأيته في الشارع خارجاً من المتجر يحمل بضع فراش، وسطل دهان. رد على تحيتي دون حماسة، ولكنه دعاني في الوقت نفسه إلى البيت. تعال معي، قال بلا تكلف. وبلهجة شبه آمرة. كنت جائعاً، ولم يكن لدي في بيتي سوى قليل من الزيتون الأسود، وبضع حبات من البطاطا المسلوقة، وقد أظهر جميل.رغم حزنه. حساً أمومياً فاشترى فاصولياء خضراء، وبندورة، ونصف كيلو من اللحم، هزه في وجهي بتحد: من أجل معالجة النحول والاصفرار. وقد أمضينا ساعة في إعداد الفاصولياء مع الرز، والثرثرة، واجترار الأخبار العامة، ثم دعاني إلى طاولته قبل أن ينضج الغداء، وقال: (برفقة كأس العرق) إنها غلطتي! في العادة، يردد جميل عبارات جاهزة مستلة من

إحدى الروايات، أو أحد الأفلام، دون أن يقصد معنى ما. لذلك لم أعلق. أنت لا تصدقني. ها؟! هذا يعني مفتاح حديث. فقلت: لا. رماني بالنظرة الملتهبة التي يزوده بها العرق، بعد أن يكون قد كرع كأسه الثانية دفعة واحدة. شعرتُ أنني على وشك ابتزازه، وفكرت أنني كائن شرير، بمجسات ماصة، لا يهمه شيء سوى التهام الأخبار، وسرقة العصارات المغذية. بدا جميل الآن صغيراً ومهلهلاً وخاوياً وعجوزاً في الخامسة والأربعين من العمر. خيل إلي أنه رأى نفسه بالأمس في المرآة، فانتابه الحزن على نفسه، غير أنني لم أكن مستعداً للاستماع إلى بوح شخصي. قلت إن كاهلي يحتشد بالترهات، ولن أضيف إليها واحدة أخرى من أحمال جميل. فما كان منه إلا أن داهمني، وبهرني، بسؤال خاص رفيع من طراز: ماذا تفعل مع النساء؟. لم أكن قد وضعت بعد، الجمل والكلمات التي كتبتها عن فاطمة، وكنت أعدها كي تكون أحد الهوامش التي أفكر بإضافتها إلى النص بعد الخاتمة. فقد كدت أصدمها قبل شهر وأنا أتلهى بالفرجة على واجهات المحلات الجديدة، وسط المدينة، وقبل أن أعتذر عن شرودي، ابتسمت لي، وهمست: أنت هنا؟! كان من الصعب علي أن أعرفها لولا الابتسامة، فغمغمت: فاطمة؟! قالت: بلحمها ودمها. أردت أن أقول: وابتسامتها. ولكنها كانت محاطة ومسورة بأشياء أخرى أكثر عظمة، وفداحة من تلك الابتسامة الجائرة التي رمتني بها. كانت بطولي تقريباً، لها بشرة ملساء مخططة بزغب أبيض، وشفة سفلى من ذلك النوع المحبب (لي). وفي الممر الفاصل بينها وبين شفتها السفلى صف من أسنان متراصة، تغري بالتذوق.

اعتدت أن أكون متطلباً حين أرى امرأة تقلب شفتها، وهي تنظر إلي. فدعوتها لزيارتي. قالت: إن شاء الله. قلت: متى؟ دون أن أظهر

لهفتي، أو أتكلف. قالت: أين تسكنون؟ فتغاضيت عن صيغة الجمع، ووصفت لها الطريق إلى شقتي.

الطريف أنها فوجئت بأنني ما زلت عازباً (أعرف أنها تكذب وتمثل) وأبدت نفوراً طفيفاً، أرادت أن تدعي من خلاله أنها خُدعت، فأمسكت بيدها، وقلت لها إن عليها أن تتعلم إخفاء مشاعرها، وأفكارها جيداً، لكي لا يتمكن أحد من التسلل إلى رأسها. فضحكت وقالت: كنت أعلم أنك ستصير شاعراً. قلت: إنني أعجز عن كتابة شطر واحد من الشعر. قالت: ولكن لا أحد يتحدث عن التسلل إلى الرأس إلا الشعراء. فأقسمت لها برحمة أمي إنني لا أكتب الشعر، وإنني أردت أن أقول لها إن أقوالها قد تكون مكشوفة. ولماذا لم تقل ذلك من البداية. قلت إنها حيلة، أو مواربة للرد، أو هي طريقة لتقوية الكلام، فلو قلت لك إنني لا أصدق أنك فوجئت من كوني عازباً، فقد تجفلين وتستائين مني، وإذا قلت لك إنك في الحقيقة تشعرين بالراحة من هذا الأمر، فقد تنكرين. لذلك ترين أنني أستخدم كلاماً آخر من أجل أن تعرفي أنني أعرف بما تفكرين، دون أن أذكر هذا مباشرة. قالت: أنت، قل إذن بماذا أفكر الآن. مباشرة أم باستخدام الحيلة؟. مباشرة. قلت: إنك تفكرين أننا سنذهب إلى الفراش لممارسة الجنس.

لم ترَ الشقة إلا بعد أن انتهينا، تمشت وهي نصف عارية، وقد ارتدت أحد قمصاني على الطريقة الأمريكية التي تعرضها أفلام هوليوود. تركتها تفعل ما تشاء، قالت: هل تعرف أنني تزوجت؟ قلت: إي! قالت: الله يرحمها خالتي وزنه (أمي) كانت تريد أن تزوجني من فايز. الحمد لله أن هذا لم يحدث. غمغمت وأنا أغفو. فعادت، وأيقظتني، انزلقت بجانبي، ولفت نفسها بشرشفي. سألتها: انبسطت؟ قالت: إي.

لكني شعرت أنك تريد أن تأخذ في مرة واحدة، حصتك الضائعة منذ سنوات. أردت أن أسألها إن كانت قد قرأت ما كتبته عنها، أو حلمت به. أعترف أنني كنت راغباً في تجربتها، بعد ذلك الشوط القصير القديم الذي تغلبت فيه علي، داخل منزلنا، حين بدوت ضحلاً ومقصراً، بسبب تسرعي في الاستجابة لتحرشها بي. لكني لم أفكر قط أن أنفذ ذلك وفق الصيغة التي اقترحتها: أي أن يكون لدي الفرصة للعثور على لحظة أستطيع فيها أن أعوض النواقص، أو أسترجع ديوني وحصصي، أو أن خسارتي القديمة جعلتني أخزن، طوال السنوات الماضية، نية خبيثة للانتقام منها. فهل استطاعت فاطمة أن تجس، أو تستنبط مثل هذه النتائج من حركتي أثناء الجماع؟ لابد أن يكون ذلك قرينة على أن أحكامي السابقة، التي قررت فيها أنها غبية، كانت أحكاماً متسرعة، بل هوجاء. وبسبب ذلك الحكم الغريب، أهدرت الكثير من الموارد الجسدية، على فروج نساء لا يملكن ذرة من ذكائها، أو قوتها الروحية. لكني لم أذكر لها شيئاً من ذلك، ولم أبدِ معارضة لرأيها، فأنا لم أعرف بعد قوتها الروحية. واكتفيت بابتسامة فاترة، أملت أن تحمل معاني متعددة، منها: الموافقة على أن رهزي الكثيف نجم عن سخط قديم، ومتأصل فيَّ ضدها، منذ أن باغتتني في مطبخ الدرج الشهير، وعاملتني كحمار. لكنها التفتت نحوي وقالت: احذر! ماذا؟ استطعت أن أتسلل إلى رأسك. وماذا وجدت هناك؟ رغبة جديدة من أجل النوم معي. قلت: أحسنت! وأنا أزيح الشرشف عنها، وأميل نحوها.

هذه المرة، كانت أكثر ثباتاً، بدأت تراقب أدائي بعين متصلبة، دون أي التزام بالمشاركة. لكنها بدلت موقفها (موقف، أم تكتيك، أم لعب محض؟) وتعاونت بهمة، إلى أن انتهينا. عندئذ ربتت على كتفي،

وفركت رأسي بكفيها، وقرصت أنفي، ومسحت عرقي، وقالت: برافو!. أشعر بالفخر - يا جميل - لأنني استطعت أن ألبي احتياجات امرأة مثل فاطمة. فعادتي هي أن أكون فاشلاً أو بلا حذق في اللقاء الأول (أنقذني تفسير فاطمة) وكثيراً ما أتساءل لماذا تعود النساء إلى تجربتي، بعد أن يذقن الطعم النيئ غير المروض لأنشطتي؟. لهذا لا أستطيع أن أصرح بهذه المعلومات أمام فاطمة. فمن المحتمل أن تعاملني في المرة القادمة كمبتدئ، أي بلا مذهب، أو مدونة محترمة بهذا الشأن.

قرأ جميل النص باهتمام، ثم أخذ نفساً عميقاً، وقال: أنا أيضاً أحببت ليلى. تبدو لي كلمة «أيضاً» ملغومة. ماذا يعني؟ وإلى من يضيف نفسه، إلي أم إلى قيس؟!

المفارقة أنه أحبها بواسطة الكتب. ووجه الغرابة أن جميل لم يكن في أي يوم من هواة المطالعة. لا أذكر أنه قرأ كتاباً كاملاً وإنما كان يكتفي بحفظ الجمل، والعبارات، والمفردات المميزة، التي كان بوسعه أن يصطادها حسب الموسم بفطنة ثعلب، وهو أمر لا ينكره. وفضلاً عن ذلك فإنه لم يقتن كتباً قط، بعكس أبيه الذي تمكن من بناء مكتبة متواضعة، دون أن تستطيع الدخول في التصنيف المحلي لأهم المكتبات الخاصة. فهل من المحتمل أن تكون ليلى استخدمت هذه الوسيلة للتحرش به. لا أستطيع أن أجيب بالنفي، أو الإثبات، لأن جميل لا يتحدث عن حب متبادل، بل عن حبه. وقد بوغت بالأمر كله، حين تقدمت منه، في بهو السينما، وطلبت استعارة كتاب. أي كتاب؟! تستطيع أن تختار لي ما تريد. لن يخبرنا بذلك، مغامراً بخسارة خبرتنا، أنا ووضاح وقيس في إمكان مساعدته، ولكن الحظ يُعينه، حين يعثر في مكتبة أبيه على نسخة من شجرة اللبلاب، لمحمد عبد الحليم عبد الله. يكفي أن يقرأ

الجملة الأولى فيها ليقرر اختيارها: «كانت طفولتي من ذلك النوع الذي يتعذر على الإنسان أن ينساه».

ينسى جميل عناوين الكتب الأخرى التي أعارها لها. كانت تعيد الكتاب بعد أسبوع، أو أقل أو أكثر، بحيث تبقى دائماً قادرة على ضبط الوقت للإعادة، واللقاء. لكنها لم تسمح بتطوير شكل ذلك اللقاء قط، ولا تغييره. تحدد الزمن، عبر مرور سريع خاطف قربه، وتسمي المكان، ثم تمضي في الطريق.

جميل المجرب، صياد النساء، أصيب ببلاهة مماثلة لبلاهة قيس. أعتقد أنها كانت تسحرني بخط سري غامض ترشه على حواف الكتب. وبسبب تلك الطريقة، لا يتحدث اليوم، حين يذكر الحب، إلا عن عبادة المرفقات: لحظة اللقاء، صوت ليلى، مشيتها، أرصفة الشوارع التي يلتقيان فيها، ظلال الحيطان، الأزقة الملتوية التي تظللها جدران المنازل الحجرية.

أخيراً طلبت كتاب البؤساء. ارتاع من ذلك الطلب. ألم تجد بين كتب البشر سوى هذه اللعنة؟! فأبوه كان يعبد جان فالجان، يكاد يضع ذلك الكتاب المقدس على وسادة نومه، ومن الصعب أن يسمح باختفائه عن عينيه. لكنه وعدها دون تردد. يقول جميل إنه وعدها بسبب الخوف منها. لم يجرؤ على الاعتذار، فقد كان الاعتذار في تلك الحقبة رفضاً، تليه قطيعة مبكرة، ما كان يريدها. ولكنه لم يجرؤ أيضاً على سحب الكتاب من المكتبة، بسبب الخوف أيضاً. وفي كلتا الحالتين، كان عليه أن يفعل شيئاً ما. ولقد انتصر الحب. قال لي. فسرق الكتاب دون أن يحسب حساباً لشيء. ولكن كيف كان بوسعه أن يتكهن بما حدث؟! أخذ الكتاب كاحتفال، ملفوفاً بورق أبيض، وخيط من حرير، وهو يفكر بأن

يدون هذه الإعارة كاستثناء رمزي يثبت الحب. لم يخبرها عن ولع أبيه ببطل الرواية، وإنما قدمه لها وهو يعتصر الكلمات اللازمة لإظهار امتنانه لها، لأنها طلبت هذا العنوان بالذات.

يدعي جميل أن ليلى لم تعد الكتاب. وقد استطاع إخفاء الفراغ الذي أحدثه غيابه من الرف، على الرغم من ضخامته، بزحزحة الجوار وإعادة ترتيب المصفوفات. كأن ملاكاً حارساً كان يراقب الأحداث. هذا إيمان جميل بما تحقق؛ إذ إن رحمة ذلك الملاك ألهت والده عن رؤية الغياب. وهل كان والدك يقرأ فيه كل يوم؟! كان جان فالجان صديقه. شريكه في الحياة، معلمه مثلاً. فكِّر بالكارثة المحتملة إذن، إذا اكتشف أني سرقت ذلك الشريف!

كان الوقت ينفد إذن من بين يديه، ويضيع. الأدهى أنه أخذ يظن بأن ليلى تلعب بذلك الوقت، فقد تغيبت عن المدرسة أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، ثم عادت. كان يوم أربعاء. لكنه لم يستطع أن يكلمها أثناء الانصراف، فقد أحاطت نفسها طوال الطريق (مثلما فعلت فوز رفيقة وضاح) بحزام من البنات، رحن يرافقنها، بعد ذلك، كل يوم، إلى منزلها. ماذا حدث؟ استعصى عليه الاتصال بها، أو بأي بنت منهن. لا بسبب هيبتهن (إذ لم يكن يهاب البنات) وإنما خوفاً من افتضاح أمر الحبكة.

لقد اعتقد أنها بدأت تخدعه. وأن البرنامج الجديد جزء من خطة وضيعة لاختلاس الكتاب. وازدادت ريبته حين التقى بها بعد عشرين يوماً، وسألها عن حالها، فبدأت تنتحب. قُضي علي، دمدم لنفسه وهو يكاد يختنق. فقد كان يؤمن بأن بكاء البنات نذير شؤم. وبسبب هلعه، تخلف عن المشي إلى جانبها. ظل واقفاً على الرصيف يشتمها، ويشتم

نفسه، ويشتم الزمن والمبادرات والمدارس، والشوارع اللعينة التي تمشي على أرصفتها البنات الممتلئات بالإغراء. ثم تغاضى عن ذلك كله، واقتصر حقده على القراءة، ألم يكن بوسعها أن تطلب منه شيئاً آخر؟! لم أجد جواباً على سؤاله. وحين أفكر اليوم في الاحتمالات، أكتشف أنني لا أملك أيضاً أي معطى أقدمه لجميل. ماذا يمكن أن تطلب فتاة تعيش في دورق، من فتى يتأرجح على حوافه؟. هذه هي الصورة التي تلخص حياتنا آنئذ. والجواب هو: لا شيء، لم يكن لدينا أي شيء. كان المكان خاوياً، وفاغراً، مثل ثقب كوني، على اللاشيء. لهذا طلبت كتباً، ربما كان الكتاب ملاذاً لها، طاقية إخفاء، تسلية، حماراً تركب على ظهره من أجل أن تقول لك مرحباً.

ظل جميل صامتاً ينظر إلي. لا أعرف كيف يستطيع إزالة النيران من عينيه، أو إعادتها إليهما أثناء الشرب. لكن الفرصة صارت مناسبة كي أسأله: لماذا لم يستفد من خبراته وتقنياته في اكتشاف الهدف الأصلي لليلى؟ أو لماذا لم يقدم لها عقداً وحلقاً بدل الكتاب الذي يحكي قصة ذلك الرجل التاعس الذي أمضى نصف حياته في السجون، أو مجارير الصرف الصحي؟ لماذا لم يقدم لها أي بديل تاريخي يمكن أن ينقذ الزمن، أو المكان اللذين يهجوهما؟ قال جميل إن التجارب يمكن أن تتناثر كالرمل حين يسبح المرء في الماء. قال أيضاً إن الجنحة التي ارتكبتها ليلى تسببت في إصابته بروماتيزم يحكه كل شتاء في القلب، وفي الركبتين. تستطيع أن تؤمن بذلك حين أخبرك أن أبي طردني من البيت بعد ساعة من اكتشاف غياب البؤساء. سألني عن مكانه، فلم أجب. لم أنكر أنني أخذته، ولم أعترف بمكان وجوده. لم تكن لدى والدي أي درجة من اللياقة تمنعه من القيام بأي إجراء لإعادة النسخة

إذا عرف المكان. أتخيل ما سيحدث: يقرع أبو جميل الباب بقبضته. ثم يمسك حامد السومري من عنقه، أو أذنه، أو أنفه، وهو يصرخ: هات البؤساء! هات جان فالجان! ولكن ما علاقة تلك الخيانة (هذه الكلمة لجميل، يقولها اليوم) بالروماتيزم؟ يدعي جميل أن والده اتبع أسلوبين في العقاب: الأول هو السجن الليلي. حيث أرغمه على النوم طوال عشرة أيام في القبو بلا تدفئة. والثاني هو النفي. وقد طرده من المنزل بعد انتهاء مدة السجن، أي بعد أن استنفد وسائله المخبرية الأولى في إجباره على التصريح بمكان الكتاب. وبفضل السلطة الممنوحة للوالد من قبل جميع أفراد العائلة الكبيرة، منع، أو امتنع الجميع عن استضافته، ريثما يصدر عفو الوالد.

كان المكان الوحيد المناسب لمثل هذه المحن هو بيت وضاح. لم يكن بيتاً، بل غرفة واحدة مستأجرة في الحي القديم، لجأ إليها جميل طوال خمسة عشر يوماً. أذكر أننا احتفلنا بالمناسبة. لم يذكر جميل أسباب خروجه من المنزل، فاخترنا أن نضعه في منحى التمرد، وتحدي سلطة الأب، ورفض الانصياع للعادات والتقاليد. وهاأنذا أكتشف اليوم أنه كان غشاً. غش ممهور بخاتم الإيمان واليقين. ولكن اليقين عزاء. يعلل جميل تلك اللحظة، وهو يذكرني بأننا كنا راضين، وأنه أذعن للتجربة السعيدة، على الرغم من أنه كان الوحيد الذي يعرف الحقيقة (أي كان منبوذاً ومفلساً).

ظلت رواية جميل ناقصة، فقد ثمل، وخرج عن موضوع الحب، إلى قضايا الآباء والسلطة. شعرتُ بالملل، فقلت له إن سيرة الآباء تسبب لي آلاماً في المعدة، وجفافاً في الحلق. لكنه لم يبال بكلامي. اعترف لي بأن العطب الذي أصاب عضوه نجم عن تلك الليلة التي اعتقله فيها

أبوه، بعد عودته إلى البيت، من منفاه في غرفة وضاح. كرع كأسه كاملة. بسبب ذلك الكتاب، صار صديقك كعباً أبيض مثل هذه. غمغم وهو يعرض كأسه التي بقيت فيها شفافة شاحبة من العرق. لا أعرف من قال له إنني أعطيت الكتاب لبنت، فأراد أن يخصيني. أمسك بي من هناك وبدأ يصرخ: من أجل هذا تسرق مني؟!

استمر الاعتقال أسبوعاً كاملاً هذه المرة، ولم يفرج عنه إلا حين وصل كتاب التوجيه من إدارة الدار لإعلام الأب بغياب ابنه، وطلب التوضيح، وشرح الأسباب. أذكر أننا قمنا بحملة تضامنية مع جميل، فقررنا أن نعتصم في الشارع، على الرصيف الملاصق لسجنه. ثم تخلينا عن الفكرة، حين وجدنا تعاطفاً استثنائياً من قبل الموجه، مع محنة صديقنا. فقد أعلن أننا أحسنا التصرف بالمجيء إليه. ربت على كتف وضاح الغاضب، وقال بتأنيب أبوي مهدد: عمل من هذا النوع، يمكن أن يأخذكم إلى بيت خالتكم. كان مصطلح بيت الخالة قد بدأ يذعرنا، والسبب هو أن الأفق الذي أخذ يمتد إليه، بدأ يمتلئ في تلك السنوات، أو منذ تلك السنوات، بالدلالات التي ستكسبه المهابة اللائقة به، بوصفه البديل المجازي الملطف لمفردة: السجن.

وقد بات ذكره كافياً لإعطاء السامع الجرعة الحاذقة الضرورية لالتزام الصمت أو الأدب أو الطاعة أو اللامبالاة.

يفخر جميل اليوم أنه خرج من ذلك السجن كاسباً. فقد رفض أن يتكفل بإعادة الكتاب. ولم يغفر لأبيه إجراءات القمع التي انتهجها، كما أنه لم يسع قط إلى الاستفسار عن الأسباب التي دفعت ليلى إلى خديعته.

حين عدت إلى منزل طعمة الله، اكتشفنا أن الكتاب لم يكن

موجوداً ضمن لوائح الكتب التي اشتراها من ورد. هل يعقل أن يكون جميل كذاباً؟ هل استعارت ليلى الكتاب؟ لماذا اختارت كتاب البؤساء؟ ما الأبعاد وما الدلالات؟ لن أستطيع تأكيد أو نفي الوقائع، خاصة أن الكثير منها أضحى ملكاً للماضي. ولكن طعمة الله قدم لي، بعد يوم واحد، ورقة تتضمن دراسة للموقف من الناحية التاريخية.

المؤكد، حسب الورقة، أن حامد السومري حاول أن ينتحر للمرة الأولى، بعد أن استعارت ليلى الكتاب بخمسة أيام. كانت ليلى تقف وسط ورقة طعمة الله، وهناك سهم يرتد من الدائرة المحيطة بها إلى الخلف، وسهم آخر أكثر طولاً، يذهب باتجاه الحافة، إضافة إلى سهم رأسي يمثل جميل (كاحتمال): يشير السهم الأول إلى تلك الأيام الأخيرة التي شهدت صدام الإرادات داخل منزل السومري. لم يعد حامد يستطيع أن ينام. كانت هواجسه تتكاثر كالدود، تلتف حول نعاسه، راحته، وطمأنينته، فتمنعه من النوم. يتقلب في متاهة فراشه بلا توقف، باحثاً عن لحظة الإغفاء. وقد سيطرت عليه صورة وحيدة تجمع ورد وعبد الله المصري معاً. كان الآن قد طور شكوكه، وأوغل في تصديق ما كان قبل سنة أو بضعة أشهر يسميه شائعة، كذباً، أو وهماً بالترتيب، خاصة أن ورد ظلت ترفض، بلا أي قدر من المساومة، البحث في مسألة علاقتها بعبد الله. فإما أن يقبل، وإما أن يرفض، وفي الحالتين فإن عليه أن يعالج المشكلة بنفسه.

وإمعاناً في تعذيبه (هذه هي المفردة التي بدأ يفكر فيها أخيراً) فقد بدأت في صياغة مذهب جديد هو مديح عبد الله. الأرجح أن ورد كانت تفكر في الاتجاه المعاكس، فإطراء الرجل، إنما كان يهدف إلى التأكيد على أن إعجابها به، لا ينصب على رجولته. فهي ما تزال تجد

لدى حامد كل ما تحتاج إليه كامرأة وأنثى. بل على أخلاقياته النادرة. ولم يكن من الممكن تدوين الخلاف في أي قاعة أهلية أو حكومية. فالمجتمع يرفض ـ بلا نقاش ـ البحث في الذرائع والحجج الدفاعية لامرأة مثل ورد، أو غيرها. وبالمقابل فإنه يدين بأكثر المفردات صراحة، علاقتها بالمصري. ويطعن في جدارة حامد، أو كرامته. فما العمل؟!

غياب الجواب عن أفق حامد، بلبل تفكيره، ومشاعره. وسرعان ما وجدت الوساوس ثقوباً داخل الأنف، والأذنين، والعينين، وبدأت تتغذى من سماد مخمر قديم راسخ داخل دمه وعظامه. كان حامد جميلاً بالفعل، وقد رأيته أكثر من مئة مرة مصادفة، في أحد الشوارع. كان له شعر أشقر، وعينان زرقاوان، أخذهما من أخواله الآشوريين، على الأرجح. أذكر أننا حاولنا، أكثر من مرة أن نقلد مشيته المترنحة الشبيهة بمشية طائر، أو نرتدي ثياباً زاهية وملونة مثل ثيابه التي كان يشتريها من دمشق ـ هذه هي المعلومة التي استقرت بيننا ـ فيما بقي حامد السومري قادراً على ابتكار المشي الحي، أو الزي المختل المعارض الذي يضعنا في مأزق.

أعرف اليوم أن ذلك المظهر الزاهي كان يحجب انتفاخاً مهلكاً داخل أحشاء الرجل. مسكين! غمغمت لنفسي، فمنذ أن عجز عن الإذعان لذلك النداء الداخلي الذي كان يخفق داخل رأسه، مردداً الحديث عن براءة ورد، تخربط كيانه كله. الحقيقة هي أن يقينه أفلت منه. خرج فجأة من مربطه، أو من مهده، أو من مأمنه، أو من أي مكان آخر يمكن أن يؤوي اليقين في العادة، وغدا بلا رسن أو لجام، يعدو في طريق مكشوفة.

لن يستطيع طعمة الله أن يقنعني، كما يحاول أن يفعل منذ أيام،

بأن ضغوط الناس، وأقاويلهم، وثرثراتهم، هي التي عضت وجدان حامد. لا. لقد دمره كرب آخر غير مفهوم. شعور بالوحدة وعدم الانسجام مع العالم. بات يظن أن اهتمام ورد بعبد الله، ظهر الآن بسبب تراكم غضبها من عدم قدرته على الإنجاب. صحيح أنهما لم يخبرا أحداً بمصدر العقم، ولكن كلاً منهما كان يعرف الحقيقة. وصار يظن أيضاً أن ورد تزداد برودة، كلما اعترف لها بحبه، ثم بدأ يردد أن أحداً لا يحبه، وخامره الشك بأن أصحابه في شلة الورق، أو رفاقه في الاجتماعات الحزبية يسخرون منه. وسأل مرة ليلى إن كانت تحبه! فالتفتت نحوه مذعورة وهتفت: أنا؟! لكنها لم تقل له إن كانت تحبه، أم لا. لم تجد الكلمات، الأرجح أن السبب هو ذلك الميل الذي بدأ يتكون لدى بعض الفتيات للتقليل من التعبير، كان زمناً للفعل، وبدا القول يضعف، ويتخلى عن مواقعه. كانت مثل تلك القرارات تتخذ غالباً في باحة المدرسة، وتنفذ فوراً في الشارع، والبيت. لم تعد لمفردات الحب، والشوق، نكهات الطبيعة، بل رائحة المجاملة والرياء. أذكر أن رذاذاً من تلك المواقف أصاب أعداداً غفيرة من جيلنا. فبدأ الشبان يئنون تحت وطأة الحرمان من اللغة، ومن التعبير، وهناك احتمال - كما يقول وضاح - بأن يكون مشروع العصابة الشعري رداً على تلك الانحرافات! لكن حامد السومري كان خارج القوس، وليس لديه علم بذلك الميل السلوكي الغريب، فاستنتج أن ابنته لا تحبه أيضاً.

حاول أن ينتحر بالأسبرين. أخذ نصف علبة، ونام عند الظهر. ولكن الحبوب لم تدم في معدته أكثر من ساعة، فقد اكتشفت ورد العلبة الفارغة مصادفة داخل سلة الزبالة. صرخت دون أي تفكير: ليلى! يا ليلى! أبوك انتحر!.

في ذلك اليوم رددت ليلى وورد، وهما تجلسان قرب سرير المشفى، قاموساً من مفردات الحب للرجل الذي فاجأهما بالنية في الرحيل. كانت أي حركة، أو تمتمة، تستدعي كتاباً من العبارات الرقيقة العذبة المعدة لخدمته، أو لندائه من أجل أن يبقى، ويعيش.

حتى تلك اللحظة، كانت ليلى خارج المشكلة. وإذا كان حامد لم يشتك لها أبداً حكايته مع ورد، فالسبب هو قناعته بانحيازها المسبق إلى جانبها. ليس بسبب المواقف، أو الأفكار، أو المبادئ، وإنما بسبب النظافة، وهي مفردة يريد أن يقول من خلالها إن البنت لا تعرف الغش، وهذا يجعلها أقرب إلى السذاجة في تصرفاتها وسلوكها مع الآخرين. ليس لأنها تفترض أو توقن بأن الدنيا مطبوخة في قدر الملائكة، وإنما لأنها لا تعرف أي شيء عن الشيطان. ويدعي حامد أن ليلى لا تعرف أي معلومة عن مفردات مثل الريبة والشك والكراهية والحقد والنفور، وغيرها مما يمكن أن يستخدم في أعمال الملاك المطرود، ليس بسبب اقتصادها في اللغة، أو رغبتها في التوفير، وإنما بسبب غياب المعنى ذاته عن تفكيرها، أو عن مشاعرها وعن سلوكها. وكان هذا الادعاء (علماً أن تصديقه يتطلب الكثير من السذاجة أيضاً) يضعف دفاعاته أمامها باستمرار، ويبلبل أفكاره، ويخرب مشروعاته. ولهذا عجز عن استشارتها، أو إشراكها في جداله مع ورد بشأن عبد الله. ويمكن وضع عجزه في خانة الامتناع أو الخشية، وقد خسر في النهاية، وخرج باستنتاجه الجائر عن عدم حب ليلى له.

لم يعن جميل بالإضافات الطارئة على حكايته، قال إنها لا تصلح لتموين مشاعره بالتعاطف، أو لشحنها بالندم، أو لدفعها إلى المغفرة. لا يكفي التفسير اللاحق أبداً لإصلاح الأضرار القديمة التي تسببت له

بنزيف دائم، لم يشف منه حتى اليوم، فهو لم يعرف شيئاً عن محاولة الانتحار، وهي لم تذكر ذلك أمامه.

وماذا عن أفعالك أنت؟! ألم تضف إلى الحادثة تفصيلاً ما؟ بدا إجرائياً في ذلك الوقت. ثم صار وجودياً قاتلاً. ونسيت أن تضع رسالة ليلى في سلة العصابة؟! ماذا حدث؟ قل لي؟!

ليست مسؤوليتي. يدمدم جميل. وهو يراقب شجاراً في الشارع بين اثنين ما لبث أن تحول إلى عراك جماعي. يغلق باب المحل الزجاجي. تختفي الضوضاء. يضيف: فضلاً عن ذلك فقد كنا أربعة. ماذا تقول عن قيس أو عن وضاح، أو عنك أنت؟!

لا يريدُ قيس أن يستعيد الماضي إلا كنكتة. فكرت أن موقفه مستمد من خياراته السياسية، ولكن يمكن فهم الأمر أكثر حين نفكر أن خيار قيس الوحيد، هو قيس نفسه. الطريف أنه نظر إلي بطرف عينه، في آخر لقاء بيننا، وسأل: ماذا قال لك وضاح؟!. قال أشياء كثيرة، ولكنها غير مفيدة. عني؟!. لا، عن نفسه. ألم يحدثك عن السنونو؟! فرمقته وأنا أبتسم. من أين وصلت هذه النميمة إليه؟! لم أكن راغباً في عرض فكرة وضاح عن السنونو، لأني اعتقدت حينئذ أنها بلهاء وخالية من الدلالات، أو من الحكمة التي سعى إلى افتراضها من التغيرات المناخية، لهجاء النظام. ولم يعد ممكناً تجاهلها بعد الآن، أي بعد أن أشار إليها قيس: تنهض فكرة وضاح على سؤال يردده باستمرار كلازمة تحريضية، صيغتها كمايلي: هل رأيت سنونوة مهاجرة هذه السنة؟! أستنتج دائماً، حين أسمعه، أنه ما يزال يردد سؤاله هذا منذ أعوام، وهو على يقين من أن الجواب لن يكون سوى لا النافية. تختلف اللا من شخص إلى آخر، وغالباً ما يجيب المرء على السؤال بلا مندهشة، متسائلة، عن أمرين:

فحوى السؤال، وغياب السنونو بالفعل. لم أرَ سنونو منذ سنوات، والغريب أنني لم ألاحظ غياب السنونو. بينما كانت تشكل قبل عقدين واحدة من بهجاتنا المسائية. وعند هذه النقطة يستعيد وضاح المبادرة، ليشرح لنا أنَّ أمثال قيس لم يتركوا معبراً للسنونو. فهذا الطائر الباطني الوديع، لا يستطيع أن يحتمل رائحة البارود التي تفوح من فوهات المسدسات التي يحملها موظفو الأمن، والحزبيون الذين سمح لهم بحمل السلاح، أو اقتنائه لمواجهة المتطرفين الدينيين، ولكن وضاح لا يكتفي بهذه الحملة ضد التسلح، بل يتعدى ذلك إلى مناهضة الصيد الذي يضعه ضمن العوامل التي تؤدي إلى هجرة الطيور، وتخليها عن طرق المرور التي اعتادت أن تسلكها كل عام، عبر السماء المحلية. قلت: نعم لقد حدثني عن ذلك. وهو يحملني المسؤولية عن غياب السنونو؟! ما رأيك؟ قلت: إن الأمر مثير للقلق بالفعل. قال: لسنا المسؤولين عن ذلك. لا يمكن لبضعة مسدسات يحملها رجال الأمن، أو لجماعة من الصيادين الهواة، إرغامُ الطبيعة على تغيير مواعيدها، أو تبديل جداول سيرها. قلت له: إن وضاح يقول عبر المجاز، أشياء يخاف من قولها صراحة. قال: سمعت اليوم أنه يتحدث عن خراب الموسيقى. كنت قد سمعت وضاح يتحدث عن ثعالب الغناء الشبان الذي يغيرون على السلم الموسيقي، بدعم من شعراء بلهاء يدعون أنهم من سلالة الشعب. قلت لقيس إنه لا علاقة له بهذا الهجاء، وهو لا يستطيع أن يمنع أي شخص من أن يحب فيروز ويكره أحمد عدوية، أو موفق بهجت. فأذعن دون اعتراض، ولكنه بدأ يقهقه من جديد حين تذكر السنونو، قال إن أمثال وضاح سوف يحملونه بعد قليل مسؤولية اختفاء رمل البحر، أو تناقص عدد الأشجار في الجنة، أو خراب الطبقة السياسية. قلت: ممتاز! هنا حطنا الجمّال. فقال: هات

من الآخر إذن. قلت: متى تركت الشيوعيين؟!. فرفع حاجبيه مستغرباً. أنا؟ لم أكن معهم في أي يوم؟ أفكر بأنك تركتهم بسبب ليلى، من؟! زعق بازدراء. انْس الأمر، فقد مررت بهم وبها مثل سائح، أو مثل صياد، ولم أجد لديهم أي شيء يمكن الفرجة عليه، أو نصب الشراك له.

كذاب. كان قيس يحدثني مستنداً إلى فكرته عن الذاكرة المحوة. فقد آمن دائماً، منذ أيام الشباب، أنك يمكن أن تفعل أي شيء، وكل شيء، ثم ترتاح إلى أن الناس ينسون. ولهذا صار اليوم يقول إن العبر لا وجود لها إلا في الكتب. أما الحياة اليومية، أو الحياة عامة، فإنها تميل إلى المحو والحذف والإنكار والتجربة الدائمة. وذلك بسبب الأمل في أن يأتي السلوك المتكرر بالجديد والمختلف. الكتب تنهي عن التكرار، أما الحياة فإنها ترسل نداءً متواصلاً من أجل أن نعيد ونكرر.

ينكر قيس صلته بالشيوعيين إذن، متأكداً من أن مرور أكثر من عشرين سنة على تلك التجربة كاف لمسحها من سجل الماضي الخاص بتلك المرحلة. ربما يفكر بأن الأمر يشبه الاعتذار الحزبي عن الأخطاء (ذكرته بما قاله لي عن حب الاجتماعات الشبابية بسبب وجود ليلى) قال: لم يحدث هذا أبداً.

لكن طعمة الله كان قد دلني على شخص اسمه أحمد أبو سمرا، وصفه بأنه مضاد للكسر. قال إنه بلدوزر شيوعي قديم يعرف كل شيء عن المنظمة. فسألته: كيف يمكنني أن أحرك ذكرياته، قال: يكفي أن تبتزه بالمناكدة. اذكر له ما يقوله قيس عن المنظمة، أو عن الشيوعيين، وسوف تضطر بعد ذلك لحشو فمه بالمنشفة.

عثرت على أحمد أبو سمرا في المقهى، عرَّفته بنفسي فقال: أهلاً. قلت إنني أريده في موضوع خاص، فأبدى اهتماماً بي، قدم

لي سيكارة، وعرض أن نشرب الشاي. قلت: على حسابي، فقال: لا والله. فوبخت نفسي حين اكتشفت لهفته إلى المساعدة. كان طعمة الله الوطواط قد قال لي قبل أيام بأنه لم يبق لدى الشيوعيين ما يفعلونه سوى تقديم الخدمات الاستشارية. فوجئت أن لدى أحمد ما يشبه السجل داخل عقله، فقدم لي كأساً ثقيلة من الشاي، مع قضمة دسمة من نهاية الستينيات مرقمة بالأيام والشهور التي أمضاها قيس داخل المنظمة. انظر الشكل رقم سبعة، قال أحمد أبو سمرا، مقلداً صيغة الكتب المدرسية، ثم أخرج من طاسة رأسه، صورة عن طلب الانتساب الذي قدمه قيس إلى الحزب، مرفقاً بأشكال عديدة تؤرخ لاجتماعاته، ومشاركاته الناشطة في الصفوف الأمامية.

أخبرت جميل بذلك، فقال لي محذراً: إنك تشعل الأشجار يا صديقي! أجبته باستخدام نص أمريكي مفحم: إننا نشعل الأشجار كي تظهر الغابة. قال: أحمد أبو سمرا ضعيف البنية، والذاكرة، وما يقوله مجرد تأليف لتعويض الخسائر. فشربت ما تبقى من كأس العرق الذي كان يشربه. تأملني بسخط. وسف ما تبقى من السويق المخلوط بذرة مطحونة وفتات خبز وكعك، ثم جرع ماء حبة البندورة التي أكلها من قبل.

لا أعرف ماذا يريد جميل، ولكني استطعت أن أحاصر قيس بأرقام أحمد أبو سمرا، في منزله. كانت ميسورة تعد الطعام في المطبخ، فهددته بأن يعلو صوتي إذا خذلني، ورفض أن يفصح عن الشبكة التي رماها لأسر ليلى (أحببت أن أستخدم كلماته الأثيرة من أجل إثارة حماسته).

الموجز هو أن قيس عرض مساومة بسيطة بيني وبينه: يعترف

ويقدّم جميع التفاصيل المتعلقة بعلاقته بليلى، مقابل شطب جميع القرائن والآثار والأدلة التي تشير إلى صلته بالشيوعيين. وافقت دون أن يكون لدي التصور الكافي لإخراج العقد المبرم بيننا إلى التنفيذ. كنت آمل أن أتمكن (كما سيحدث بالفعل) من ابتكار مواقف مناسبة تعفي قيس من وزر ذلك الانتساب المبكر إلى مجموعة لا يحبها، أو لا يستسيغها (كما يحب أن يقول) ولم أعد أعتبر شهادة أحمد أبو سمرا دليلاً، استناداً إلى مدونة جميل عن ضعف البنية، كما أن وضاح أقسم بروح أمه، أن قيس الأكتع لم يطأ عتبة الحزب في أي يوم، ولم يجلس في أي مقعد من مقاعده.

كلام وضاح الذي أرفقه بسلة من النعوت التحقيرية التي تجعل من الحزب فردوساً محرماً على المشوهين والسفلة وعديمي الضمير من أمثال قيس (وهي الصفات التي لم أذكرها له في دليلي إلى نفي انتسابه) أفرحه كثيراً، «لأول مرة أجد هذا الرجل قادراً على أن يكون منصفاً وعادلاً ومجرداً من الرغبة في الأذى» قال قيس.

يدعي بعدئذ أنه التقى ليلى بالفعل بعد الاجتماع الاحتفالي لاتحاد الشباب، في غرفة يقطنها بدوي تعرف إليه أثناء صيد الحجل في الوعر الشمالي للمدينة. كان نهار (هذا هو اسمه المختار هنا) من طلائع البدو الذين بدؤوا يقتربون من أطراف المدينة، من أجل استعمار الضواحي، واكتساب أعمال مدنية تبعدهم عن الرعي وتربية المواشي. وحين ذهبت لمعاينة المكان، فوجئت أنه أقرب بكثير من المسافة المتخيلة، داخل الرسم الطبوغرافي الذي وضعه قيس، إلى قلب المدينة، من جهة، وأن معالم الغرفتين (اثنتان لا واحدة) اللتين بناهما نهار هنا، لم يبق منها، أي أثر. لقد أزيلتا من الوجود إلى الأبد، وبُني مكانهما

مجمع سكني قبيح ضخم، وسط مجموعات أخرى من البيوت، فيما شقت الوعر طرق عشوائية ضيقة متعرجة.

كيف تجرأت ليلى على مرافقة قيس، الذي لم يمض على معرفتها به أكثر من اجتماع واحد أو اثنين. حسب ذاكرته، إلى هذا المكان الموحش (كان موحشاً)؟

يعزو طعمة الله اندفاع البنت في تلك السن (كان عمر ليلى سبعة عشر عاماً) نحو قيس، إلى سلوك يسميه: تزاحم البنات حول الدون جوان. وهي نظرية بائسة تلوك رأياً سائداً، ومقلقاً يحتقر عقول النساء. ففي ذلك اللقاء، سمحت ليلى لقيس بأن يكتفي بإمساك يدها، والعبث بأصابعها البيضاء، وتمشيط كفها بضع مرات، بأصابع يده، وأن يبدي إعجابه بخطوط الحياة التي تتقاطع فيه، ويمسد قفا الكف أيضاً. وقبلت أن تسمعه وهو يلهو بكلام باهت عابث عن الملل من الدراسة، ومن البيت، ومن الوجود، وهي مجموعة الخطابات التي كان يعتقد أن الميول الوجودية لدى ليلى تحبذها، ويمكن أن تخدم في استرضائها، أو استمالتها، أو إعادة ضبط أعصابها المشدودة.

وبسبب جهله، وعدم إيمانه بأي من المثل التي كان يرطن بها، بدأ يخبص في الاستعارات، وقد ترك ذلك أثراً ممرضاً لدى ليلى. إذ إنها لم تأت إلى المكان رغبة في التعرف إلى وجدان شاب مكلوم، أو بحثاً عن حزن غامض. لقد جاءت لأنها كانت تريد أن تُحب، وأن يقول لها أحدٌ ما شيئاً عن شعرها، عن عينيها، عن أنفها، شفتيها، صوتها. وقد بدت لها لمسات يد قيس ترياقاً في البداية، شعرت أنها منومة، وامتلأ جسدها بحبيبات ناعمة شهية، ففكرت بجمال الحب. بلطفه. بكثافته. بسلاسته. برعشته. لكنها ذعرت حين اكتشفت أن اليد الأخرى كانت

تتسلل إلى المكان الآخر الذي لا يشبه الحب. وهو الاكتشاف الذي جعلها تقبض على معصم قيس بقوة، وتنتزع يده من بين فخذيها، وهي تصرخ: «انقبر!». هكذا مرة واحدة حازمة، ونهائية. كان يمكن أن تنشب أظافر يدها الأخرى في عيني، لولا مشيئة الله. ارتطمت ذراعها بمسند الكرسي المجاور، فأنَّت من الألم، واستكانت، وبدأت تبكي.

يروي قيس أنه، على الرغم من حنقه، ورغبته في تحطيم البنت التي رفضت معاشرته، شعر بالشفقة نحوها، الشفقة مع الاحتقار. لكن قل لي. لماذا رضيت أن تذهب معي؟ لماذا وافقت على الفكرة، والموعد واللقاء الذي تضمن تفصيلاً كاملاً عن جغرافيا المكان؟! يسأل قيس، ثم يدعم تقريره بالكثير من التأكيدات الأخلاقية التي ينفي فيها عن نفسه صفة الخداع، أو التغرير، أو الابتزاز. لم يكن هذا من عاداتي. لقد أتين جميعهن إلي بجناحي نحلة.

ومع ذلك فقد تمكن قيس، مستفيداً من خبرته الطويلة في هذا الباب، الذي كان يسميه الباب الأول في الحب، من امتصاص ثورة ليلى الاعتراضية. «إنها العادة» همس لنفسه، متظاهراً بالدهشة، ثم اعتذر عن الحركة الرعناء التي قامت بها يده بجملة، من طراز «إن شاء الله تنكسر». وادعى على غريزته البلهاء التي فُتنت بجمالها. وهو يعيد التأكيد لنفسه بأنها العادة؛ حيث يظهرن جميعهن رفضاً وحشياً في المرة الأولى، لأي محاولة للحفر أو التنزيل (يتحدث قيس عن الجنس بلغة الصناعة) في حين أنهن يرتمين في حضنك بعد ذلك لاهثات: تعال! هات! اضغط!

نظرية قيس المستمدة من التجربة عن النساء (عكس أمثولات طعمة الله المعتمدة على الكتب والأفكار الشائعة) تداعت في اللقاء الثاني

بينهما: كانت ليلى تومض مثل ضوء في الفجر. بدت جميلة وطرية أكثر من أي وقت آخر، وقد امتلأ جسدها بالعافية والصحة، وكانت تفوح منها رائحة غار. هذه المرة أكلا معاً. هكذا أرادت قبل يومين، حين رضيت أن يلتقيا: سنفطر معاً! لم يفهم ما علاقة الإفطار الصباحي بالحب. ولكنه وافق على ذلك، فيما انتابه الشعور الأول المباغت بأنه ينزلق إلى فخ. أكل بلا شهية، لأنها أحضرت معها من البيت خبزاً وزيتوناً. لقد رأى في هاتين المادتين تهديداً صريحاً للامتياز الذي ظن أنه فاز به، حين رافقته في المرة الأولى إلى هنا. وهو يعلم أن كلتيهما تشكلان ثنائياً يشير إلى رغبتها في تمثيل دور زوجين. يضحك. كان ينقص أن نستعير طفلاً. لكنه لم يستطع الرفض. فالنظرية لم تتحطم بعد، وما يزال بوسعه أن يدس داخل المخالفات التي ترتكبها ليلى، بعض المتفجرات الصغيرة، أو يشوش الفكرة المتسرعة التي تتبناها. ومع ذلك فقد شعر بسخافة كل شيء. خسر رغبته في تقبيلها، أو احتضانها، أو النوم قربها، أو تلمس شعرها، أو جسدها، أو حلمتي نهديها (حتى لو أمكن ذلك). وصار راغباً في الفرار فقط. ملَّ من التمثيلية الحمقاء التي أرادت ليلى فيها أن يؤدي دوراً خالياً من أي حقيقة. فكرتُ أنها تضحك علي. أو أنها تريد إجراء بروفة على نص مكتوب في ورقة ما. كانت ليلى تخلو من العاطفة، من الرطوبة الضرورية التي تُشَمُّ عن بعد، أو الحرارة التي تلفح الشرايين (هل عرف جميل بهذه الزيارات قبل أن يعلن مقاطعة ليلى؟).

هنا يلتبس موقف قيس من المسألة كلها: هل بقي هناك وفاء لمبادئه في الصبر على حَرَدِ البنات، آملاً في إذعانها الآجل، ولكن الآتي حتماً؟ أم إنه تراخى ورضخ أمام القوة الروحية البريئة ذات الطابع الهجومي لها؟.

لا يستطيع فحل جبلي مثل قيس إلا أن يجاهر بأنه كان يواصل إعادة تركيب مصيدته، وفق المستجدات: فيتظاهر بأنه زوج متغيب عائد من العمل في حقل، أو في مصنع (وهي من الموارد الهامة في الفكر الشيوعي) ويتلو مطلع النشيد الأممي، حين ينهي طعامه، ثم يبدأ التفكير من جديد في وسائله الخاصة باستمالة البنت إلى حضنه.

لم يجن أي مكسب. غصٍ بالمحاولات، وكاد يختنق من الرغبة المقرونة بالفشل والصد، وأُنهك من تقاعسها، ولا مبالاتها تجاه غواياته التي ظل يكررها طوال أكثر من ساعة ونصف، دون أن يظفر بأي نتيجة.

أسفت لأنني لم أعثر على الحب في حديث قيس. لاحظت أنه يتعمد سحب جميع القرائن التي تثير شجناً، أو تؤكد شعوراً ما خامره ذات يوم تجاه ليلى، ويؤثر، بدل ذلك، أن يعمم المواقف السخيفة والحمقاء عن لقاءاته بها. فهل خوى قلبه فعلاً من الحب؟

حسب المعايير والمثل التي تعاهدنا عليها من قبل، وتبعاً لأكثر من مرجع عشقي، لن يكون بوسع قيس تسوية المسألة، كما اعتاد أن يفعل من قبل، أي بالتهريج والاعتماد على نقص المعارف لدى محدثه.

هنا قال طعمة الله إن قيس يكذب، وأن الحقيقة عن مشاعرنا تظل قابعة، معظم الأحيان، في ركن خفي ظليل من حياتنا، وإن الأمر يكون على أكثر من شكل، فإما أن تشتبك بعظام الصدر، ويصبح من الصعب أن تقشرها، أو تسلخها، أو تزيلها، وإما أن نبددها على صورة ذكريات مزيفة.

ولكن طعمة الله يفكر بطريقة تقنية محض.

فماذا اختار قيس من الوجهتين؟ يعترف لي أنه أحب ليلى: لقد

كانت المرأة الوحيدة التي عرفت كيف تمسك بروحي. لا أعرف أين كان ذلك الطرف الفالت من الروح الذي وجدته، وتعلقت به. لكني رفضت الاستسلام، ليس هذا ما أردته من الحياة.

ماذا أراد إذن؟ لا يجيب قيس على سؤالي، أو يقول: لا أعرف. وهو جواب محير، يرفض الاستنتاجات التي يريد وضاح حشدها من أجل الإطاحة به. فالرجل (أقصد وضاح هنا) تضيع منه الحصافة، حين يحشر البشر داخل انتماءاتهم السياسية. فأقول له: من الحماقة أن نضع العواطف داخل مقلاع الرعاة لنرمي بها البشر. فيجيبني غاضباً: ومن الغباء أن تظن أن شخصاً يرى العالم فرجاً، يمكن أن يفكر بفراشة. كنت أريد أن أسأله: وهل ترى حضرتك أن الفراشة أهم من فرج امرأة؟!. ولكن لن يكون بالإمكان متابعة الحكاية. فقيس أحب ليلى: كنت أظن طوال هذه السنوات أنها قد أذلتني، وسلبت مني قوتي وفخري بنفسي، حين ركلتني، بين فخذيَّ بعد أن أخرجت عضوي المنتصب لاجتذابها إلى الفراش.

كان يعتقد أن رؤيتها له، يمكن أن تضعف جميع العناصر الرادعة أو تمحوها، إذ لم يصدق، حتى تلك اللحظة، أن رضاها بالمجيء معه إلى بيت الوعر، لم يكن مبطناً بالرغبة في الجنس. ولكنها جنت وهو يقترب منها، وهوت بقدمها الحافية على وسطه.

كان خطأً صريحاً، كسر حصانة القواعد التي اعتمدها. وفي وضع آخر يفترض أن يهبَّ الرجل (رجل من طراز قيس الجذاب الفحل) للرد على الرفض، والتمرد، إما بالشتائم، إذ بوسعه أن يصف المرأة التي رضيت أن يختلي بها، بالعاهرة، أو الساقطة، أو أي كلمة أخرى مأخوذة من قاموس المفردات التي اختارها الرجال لتهديد النساء، وإما

بالضرب، إذ يتمتع بالتفوق الجسدي الحاسم. لكن قيس لم يفعل شيئاً. شكا من ألم فظيع مقيت أصابه بالغثيان (المرجح أن الركلة أصابت خصيتيه) وكاد يغمى عليه، ولم يتردد في أن يقول:آآآه. مبحوحة، حانقة، وضعيفة، وخرقاء، ويقعد على الكرسي، وهو منكس الرأس، مهزوم، فاقد الأمل.

قال لها: آسف. وهي المرة الأولى التي يستخدم فيها تلك الكلمة بصدق وورع مثاليين.

هل كان يعني بها سامحيني؟! نعم. قال: تقريباً. استدرك بعد قليل، وهو يتأمل حقل ورود جديداً أعدته ميسورة في طرف الشرفة.

يرتد قيس إلى «تقريباً» بسبب فكرة متخيلة ترتسم أمام عينيه أحياناً، يعثر فيها على واقعة أخرى، يزعم فيها أن ليلى هامت بعضوه، أمسكت به حين رأته، احتضنته، جثمت قربه، مست به شفتيها، عنقها، نهديها. هل كنت سأقول لها سامحيني لو فعلت ذلك؟! أنت لا تأسف إلا على ما يرفضه الآخرون. ولهذا أفكر بأنني لم أكن آسفاً تماماً، بل حزيناً، وخائباً، وبلا حلم.

يريد قيس أن ينقل الماضي إلى الحاضر، ولكن التاريخ لا يفسر، ولا يقاوم بلو، أو بلولا. بل بنعم، وصحيح. وهذا ما حدث. وهكذا شاءت الأقدار أيضاً.

أخيراً يلتفت نحوي، يقرب جسده من الكرسي الذي أجلس عليه، ويلوي جذعه كي يصل إلى المسافة الممكنة، كي يقول همساً، بعد أن يرصد الحركة في بيته: «لا يمكن لأي رجل إلا أن يركع عند قدمي تلك المرأة».

لماذا؟! هل لأن للبراءة قوة جاذبة، كما يقول طعمة الله؟ أم لأن

للمرأة الرافضة حضورَ الممنوع المرغوب؟ يهتف قيس: لا، السبب هو الحب. لا يمكنك أن تتخيل ماذا حدث لي. لم أستطع النوم. نسيت الرد، وعدت أفكر بجلستنا الأولى، بحركة أصابعي داخل كفها، بملمس أظافرها، ورطوبة معصمها، بلون ثوبها، وشكل قميصها، بتلك المساحة البيضاء وراء فتحة الصدر. لكن ليلى لم تعد تنظر إلى الوراء. استدارت ومضت.

يحرج تصريح قيس وضاح وجميل معاً، يحرجني أنا أيضاً. أردت أن أكتب أن ما يقوله ليس إلا آلية دفاعية يكسب من خلالها النقاط اللازمة لكسر هجاء وضاح، وإلغاء ذاكرة جميل المدعية. لكن المفاجئ هو أن وضاح لا يهجو قيس فقط ويحاول تبديد روايته، بل يقدم روايته البديلة.

اتهامه له، يتمركز حول عجزه عن الحب: شُقَّ صدره ولن تجد في أي مكان فيه، سوى ذلك العضو الذي يضخ الدم فقط إلى الشرايين. يؤكد وضاح أن قيس بلا شغاف، لقد أتلف ذلك الغشاء الرقيق المرتعش منذ شبابه، وصار حجراً. ثم يدعي أنه قواد، ولديه ملف كامل («ملف؟! ماذا؟» وصرخت به: صرت تعد ملفات عن الناس يا وضاح؟! فابتسم ابتسامة فاترة وقال: لا تستطيع أن تمنعني من الاستخدام المجازي للكلمات، لأن غيري يستخدمها كحقيقة) يتضمن تفاصيل عديدة عن مساع قام بها لتأجير فتيات عاهرات للمسؤولين والأثرياء. يعتقد وضاح أن جميل كان صاحب الفكرة، وقد تعاونا مع أحد أصحاب المكاتب السياحية.

كان وجه وضاح جامداً وبلا ملامح. شعرت بأنني آسف، وأنا أستمع إلى الهراء الذي يلوكه. لا أدري لماذا يريد أن يحوِّل نفسه من عازف

عود، وهو الآلة التي اختارها بعد انهيار فرقة الأفق، إلى مُشعل حرائق. يقسم إنها الحقيقة، بلا أدلة ولا وثائق يبرزها من أجل إثبات الاتهام. وقد سخر طعمة الله من الرواية، وعلك لسانه داخل طيات حلقه الفارغ وقال: صارت الطبقة العاملة تتبع أخبار العاهرات؟! اللعنة عليك يا طعمة يا وطواط. قلت في نفسي. في حين شد يدي، وقال: اجلس بجانبي! فجلست، قال: اسمع! قلت: نعم! قال: وضاح وحده هو الذي أحب البنت، ألم تكتشف ذلك بعد؟! قبضت على عنق ثوبه العتيق بيدي، ونددت به: كنت تعرف؟ أنت تعرف؟!!

من بيننا نحن الأربعة، وضاح كان أكثرنا صبراً، وجسارة. لقد انتظر على الناصية طوال الوقت، مثل نمر، يراقب الغزال الشارد بين الأعشاب الضارة المتوحشة. لم يكن يتنفس، ينظر وينتظر إلى أن جاءت المناسبة: لا يعرف لماذا أرسله المعلم عبد السلام، إلى دار حامد السومري لإحضار نوتة كان نسيها هناك. اختيار عشوائي، بلا أي ظل: السنفونية الخيالية لبيرليوز. كان المعلم قد درسنا الحركات الأولى منها كتمهيد. هل سمعتها؟! تسأل ليلى. نعم. أين؟ في الراديو؟ هل تعرف عن أي شيء تحكي؟ الموسيقى لا تحكي. تضحك ليلى: هذه قصة حب، يحب بيرليوز فتاة اسمها هيلين، ويكتب لها هذه السنفونية. تضيف: لماذا تقول إن الموسيقى لا تحكي. كل الأشياء في الدنيا تحكي. أراد أن يقول لها: لا. الحجارة لا تحكي مثلاً، أعمدة الهاتف، والكهرباء. ولكنه يفكر أنه غبي ومتهالك، وأن بوسع هذه البنت أن تقول له إن أرصفة المدن، والنوافذ، وألوان الثياب تحكي، وأن الحمير تحكي أيضاً.

لم يكن وضاح قد نسي فوز في ذلك الوقت. كانت آثار ضربة تلك الفتاة ما تزال متقرحة داخل قلبه. ولكنه كان قد كف عن توبيخ النساء،

أو الطعن في سلوكهن، أو تعنيف تصرفاتهن منذ أكثر من ستة أشهر. لاحظت ذلك في مشاويرنا المكوكية إلى مقر فرقة الأفق، قرب ثكنة سلاح الهندسة، أسفل القلعة، إذ امتنع عن استخدام تلك الألفاظ الجارحة التي تبناها منذ أزمة الإجاصة، في العام الفائت. لم يقل أي كلمة حين أشرت إلى بنتين تعبران الشارع، وفضل أن يبدي إعجابه بشجرة صنوبر عملاقة تجاور الطريق. أخبرت جميل عما حدث، حين عدنا، فأخذ يضحك. وبعد ساعة من التأمل قال: ممتاز! فرتر!

وعلى الرغم من مناسبة لقب العاشق الألماني لوضاح من الناحية النفسية، فإن من غير المحتمل، آنذاك، أن يعمل جميل على نشره وتعميمه في الشارع، لا بسبب الوقار أو النبل اللذين تفرضهما الصداقة، وإنما بفضل قوة الروح التي كنا نعد بها الأسس النظرية لنشوء العصابة.

الحقيقة هي أن وضاح لم يكن يمشي في المنطقة المحايدة المنزوعة السلاح، كما يزعم جميل، ولكنه كان قد أخفى عنا المنحى الآخر الذي بدأ يطبخ فيه خياراته. اكتشفت الأمر منذ أيام حين عثرت وأنا أراجع ملفه المدرسي، على تقرير غريب، كتبه الموجه في دار المعلمين عن وضاح، حين كنا في السنة الثانية. وفيه تحذير خطابي واحتجاجي (لا أعرف لمن يوجهه) من التدخل الفظ الذي يقوم به شاب اسمه عامر الحجري، في حياة وضاح!

يبدو غريباً أن يكون بوسع الموجه في الدار، إجراء مسوح خارجية عن طلاب الدار. فمثل هذه الأنشطة كان ينفذها المكتب الثاني، أو المباحث في الخمسينيات وبداية الستينيات، والمخابرات العسكرية، أو أمن الدولة والأمن السياسي في المراحل التالية. أذكر أنني رأيت عامر الحجري بضع مرات في غرفة وضاح. كان فتى ريفياً له وجه جميل مليء

ببثور حب الشباب، ونظرة ثور مترقب، وخدان ناتئان فوق أخدودين عميقين. وعدا ذلك فقد بدا دائماً متأهباً، كأنما يريد مغادرة الغرفة.

عرفت من وضاح أنه يدرس البكالوريا في ثانوية شكيب أرسلان، ولكن الموجه يكتب إن عامر أخطر الدعاة الشيوعيين بين الشباب في المدينة كلها. أما طعمة الله فيدعي أنه اليوم صاحب شركة للتعدين في الولايات المتحدة الأميركية، بعد أن سافر إلى هناك، ودرس الهندسة في إحدى جامعاتها. أظن أن عامر أخضع وضاح لعملية تجميل دؤوبة، تمكن خلالها من قص، وتشذيب، وإعادة تدوير مجمل بنيته الفكرية، لا ألفاظه وعباراته فقط. انتزعه من لائحة الشتم وتجريح النوع الإنساني، ليضعه في مقام التبجيل.

يكتب الموجه في تقريره عن الصياد عامر الحجري، يؤكد أنه نصب الشباك لعامر في غرفته. يكتب الموجه عن عمل الدعاة في تسويق الفقر. يقرع الأجراس محذراً: إنهم يستغلون الحاجة من أجل اغتصاب الفتيان، وسرقتهم ودفعهم لتأييد الحمر، أو الانتساب إلى حزبهم، أو العمل من أجل انتشار أفكارهم. يتحدث الموجه عن وضاح، كما يتحدث عن كلب. يفتقر وضاح في التقرير إلى القوة، ويظهر مثل تابع، ملحق، يقوده الحجري بسلسلة من الأفكار الخادعة، والتدليس الناعم. يرفق الموجه التقرير بصورة فوتوغرافية تضم وضاح، وعدداً من الشباب والشابات يقفون معاً قرب المقابر الأثرية في قنوات. وعلى قفاها تعليق قصير يشير إلى تاريخ الرحلة الموافق ليوم تأسيس الحزب الشيوعي. كان عامر في الصورة أيضاً، أعتقد أنه استخدم الصورة كدليل. ولكن من أين جاء بها؟ من التقط الصورة، ولماذا أعطاها لموجه الدار، بدل أن يقذفها إلى إحدى الجهات الأمنية؟

ما يهمني في الأمر هو ظهور وضاح إلى جانب فتاة سوداء الشعر، سمراء. ما يعني أن مواقفه من النساء كانت قد تبدلت قبل لقائه بليلى. غير أنه كان ما يزال بحاجة للغة، من أجل المرور إلى الصف الجديد. وقد أوقعت به ليلى. وضعته على الفك الآخر للكماشة وحيداً، مجرداً، يفكر في احتمالات الحكي، والكلام، محاطاً بلحاف من الحيرة، وقد كثفت تفكيره العبارة المجازية التي اعتقد أنها غير موجودة.

يأخذ النوتة من يدها. يقول إنه يحب الحكي، تبتسم: الحكي مثل الملح، لا تستطيع أن تلاقي أحداً، أو تقعد معه بلا حكي. لكن كيف عرفت أن الموسيقى حكي؟ تقول: كل مرة أبقى وحدي أسمع الموسيقى، وفي إحدى المرات تحدثت الموسيقى معي. ماذا قالت؟ كل موسيقى تقول أشياء مختلفة عن الأخرى. يتركها واقفة عند البوابة. لا يتركها. يلتفت نحوها مثل أي رجل مباغت، مفزوع، من جملة مزدحمة، وبارعة، ومبشرة، ومفترسة يقول لي. لأنها عضت أذنه بكلماتها، وتركت أثراً محمراً فوق شحمتها.

باختراع هذه المحادثة، أو بإجرائها، يوصل الرسالة إلى نفسه. يقرع الجرس داخل صدره. وحين يستيقظ في الصباح التالي، يكتشف أنها إلى جواره. تقول: الأمر بالنسبة لي يشبه الحلم. يقول: وبالنسبة لي. لكن الطائرات توقظه. يسمع صيحات في الشارع، وفي الحي، يرى آلاف الشظايا من الزجاج المحطم، لقد اخترقوا جدار الصوت. خربوا حلمي، قال لي: الطائرات الإسرائيلية خربت حلمي. ولكن تمكن منذ ذلك الوقت من تأريخ حالته. لقد أحببت ليلى يوم حطمت الطائرات جدار الصوت. وهي حذلقة رمزية أخضع وضاح مشاعره بها لما يحبه من المواقف. لكنه لم يستطع منعها من التراكم والحضور في حياته، أو

في يومياته، إذا ما أردنا الدقة. لذلك فأنا أصدق بأنَّ وضاح لا يخترع أي حكاية عن ليلى. وإذا قال إنه صادفها بعد يومين في الشارع، وإنها ابتسمت له، فإنه يقول الحقيقة. وإذا ما روى إنها عرضت عليه أن يعزفا معاً، أو أن يتدربا على العزف معاً، فهذا صحيح. وهذا ما حدث في الواقع. والمؤكد أن والديها لم يعترضا على وجود الفتى الغريب في حجرة ابنتهما. فوضاح لم يلتزم بالأصول الأخلاقية، أو بآداب الزيارة وحسب، بل تمسك بأي جزئية، أو تفصيل بروتوكولي تفرضه الأعراف. يعترف أنه بدأ يبتكر لنفسه عادات جديدة، ليثبت لليلى وحامد وورد أن التزامه بالرفقة يعلو على جميع تلك الترهات الساقطة التي تهيمن على أبناء جيله من الشباب الذين لا يرون في المرأة سوى زمالة الفراش: لم ينظر إلى ساق ليلى المكشوفة، مثلاً، مرة واحدة. لم يحفظ لون عينيها (وقد خُذلت البنت حين سألته عن ذلك، ووبخته) كما أنه لم يلمس أصابعها، وهو يحاول أن يدلها على موقع دو على أوتار الكمان، الذي كانت تخطئ به قليلاً، بسبب انهيار طفيف في سلامية الإصبع.

غير أنه كان يصفع وجهه، حين يختلي بنفسه، لاعناً انحيازه المفرط إلى الاستقامة، وتخاذله المرير أمام فتنة البنت، رائحة جسدها، خفق شعرها، التواءات أناملها، لغتها المعوجة المنتزعة من أسنانها الصغيرة. بكى بضع مرات باحثاً عن مخرج، عن منفذ إلى الحقيقة، يستطيع أن يتخلص فيه من عبء التردد والاحتضار والكسل والإعياء في حضرة الأنثى.

كنت قد كتبت في النسخة الأولى افتراضات معاكسة لما يحدث: هناك كان وضاح يختلق حكايات أخرى عن غش تؤديه ليلى من أجل اجتذابه، وهو ما جعل النص يلتوي، ويعجز عن أداء المشاعر.

ومشكلة وضاح أنه إذا كان قد أحب ليلى، وقد أحبها بالفعل، فقد امتنع عن التصريح بحبه. الأرجح أنه عجز عن ذلك، كان فيه موضع ما، هش قابع في أحد أجنحة رأسه، أو صدره، أو أحشائه. لا يستطيع أن يعلن عن ذلك الحب؛ ففي كل مقابلة مع ليلى، كان أحد تلك المواقع يتهدم، أو ينشق ليخرج منه هلام غامق ورخو يطيِّن تصرفاته، وأفعاله، ويحوله إلى صنم. لاحظ مثلاً أنه كان يعزف الموسيقى، كما يعزف الصولفيج مجرد علامات منسوجة على السلم، بلا مفتاح. لاحظ أنه يجيب بنعم، أو يوافق على كل ما تقوله «ماذا كانت تقول؟!» بهزات غبية من رأسه، وهو يبتسم ابتسامة بلهاء.

وعلى الرغم من هذا الفشل المتكرر المرهق، فإن مواعيده مع ليلى، بدأت تتخذ طابعاً مقدساً، ومليئاً بالشوق والانتظار والترقب. صحيح أنه كان يخاف من تذكيرها بالموعد التالي، كل مرة. ولكنها لم تكن تنسى، تحدد الزمان بنفسها دون أن يسأل. يغادر البيت سعيداً، مهادناً نفسه العاجزة. فالمرة القادمة هي الأمل المدعوم بالسند الصريح الذي يراه في رغبتها الأكيدة في لقائه. لا بد إذن أن يقول شيئاً في المرة القادمة، يعظ نفسه من أجل المبادرة، ليقول ما يختلج به قلبه. لكنها تصير أحياناً عبارة تأبينية خالية من الود حين يتذكر الفرص والمناسبات الضائعة. يغشاه غلٌّ ساخط مندد تجاه نفسه. تستبد به لماذا عشرات المرات، تزلزل كيانه، يفرط في نقش الأوزار والأخطاء، حيث أحجم، أو تردد، أو تراجع، أو استنكف، أو تعطل، أو ارتد، أو عجز، أو امتنع عن التقدم خطوة واحدة تجاهها. خطوة واحدة فقط تستجيب لنداءاتها الصارخة. لابد أنها حين ابتسمت له دون مناسبة، إنما كانت تناديه، وأنها حين مست بأصابع قدمها الحافية، حافة قدمه إنما كانت

تجسُّ رغبته. فماذا فعل؟ لا شيء؟ لا! لقد تجاهل الابتسامة، أو رد عليها بابتسامة أخرى، حاول أن يملأها بالصداقة، والأمان، والطمأنينة، ثم سحب قدمه بلطف مبتعداً عن قدمها، كي تعرف أنه يعرف أنها لامسته دون قصد. لا يدري لماذا يريد إيصال رسائل من ذلك النوع إليها. قوة ما غريبة كانت ترغمه على تجاهل تحرشاتها الصغيرة. الغريب هو أنه كان يوبخ نفسه دائماً حين يعود. يوبخها برعب. يوبخ قسميها المتنازعين اللذين يشطرانه من الوسط، أحدهما يشجب الآخر، واحد ينتصب ويتقد باحثاً عن الشريك، والثاني يجلس متأنياً يتملس أنظمة الأمان التي تحثه على عدم مس البنات، لاغياً الآخر بلا رحمة. ثم أنهكه أن شطره الثاني بدأ في الهجوم على يقينه. يعترف وضاح بأنه استسلم أكثر من مرة لأحلام اليقظة التي يظهر فيها نصفه: أتخيل إذن أن ذلك الجني يتسلل إلى خلواته البيضاء، ويأخذه إليها طالباً منه أن يعريها، ينفذ ذلك بحياء، ينزع عنها قميصها، صدريتها، حمالة الثديين، ولكنه حين يزورها بعد يومين يشعر بالرعب. لقد رآه حامد بالتأكيد، أو هجس بما كان يتخيله، يتعثر عند الباب كي يزيد من جرعة الشك، أو اليقين لدى والدها. تستقر نظرات الأب الحانق على قفا الزائر، فيذعر، ويفكر بالنكوص والعودة من حيث أتى. لا يستطيع، ويستمر في طريقه خلف ليلى التي تمشي أمامه كالحجل. يخجل من نفسه، من المكان المقدس الذي يلجانه لعزف الموسيقى، وحين يعود إلى البيت يتناول عصاه التأديبية، وينهال بها ضرباً على قفا ذلك العذري العاجز.

مأزقه الأعظم هو أنه ظل مبدداً بين يقين لا يتزعزع أنها كانت تحبه، وشك مدمر بأنها كانت تتلاعب به، وأنه لم يتمكن قط في أي يوم، من اكتشاف الحقيقة.

لا تهم الحقيقة كثيراً في مثل هذا الموقف. ولم تكن مهمته، أن يكتشفها، على أي حال، في مواقف أخرى أيضاً. ليس بسبب النقص في امتيازاتها، وصفاتها، وإنما بسبب وجود بدائل أخرى، أبرزها الأمل. كان الأمل المبطن بالكثير من العتبات، يشكل رافعة كبرى في المهام الملقاة على عاتق وضاح الجديد الذي استهواه عامر الحجري، قبل ذلك بعدة أشهر، ومن بينها الصبر مثلاً. وقد وجدت في أحد ألبوماتي صورة قديمة له، ستينية على الأرجح، كتب على ظهرها يقول:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

سنرى أنه لم يلتزم إلا بالمفردة الأخيرة من هذا البيت. فقد انسحب مثل جدي إلى الناصية حين لاحظ أول دور من أدوار التعارف بين جميل وليلى. صحيح أنه ظل يتردد على منزل آل السومري، مستجيباً لعروض ليلى المتكررة من أجل التدريب، (كنا بدأنا ننتقل من رتابة الصولفيج إلى بضعة تنويعات موسيقية يقتطعها عبد السلام عثمان من مقدمات السنفونيات أو السوناتات أو المؤلفات الأوروبية الخفيفة المعاصرة لموسيقيين من غير المشاهير) أو عاجزاً عن اختلاق الذرائع للرد على العتب الأبوي لحامد على الغياب الطويل، أو التأنيب الأمومي لورد الحريصة. لكنه صار يذهب إلى هناك كي يثبت لنفسه أنه أكثر رزانة من مجرد فتى مراهق مغرور، يتعمد أن يتأنق بما يتوفر له من ثياب (أشهر تلك الملابس التي ارتداها قميص وجاكيت وبنطلون جينز من البالة اللبنانية) ويكتفي بكأس شاي واحدة (بدل مشاركة ليلى في شفط الإبريق كله كما كان يحدث أثناء التدريبات التمهيدية) ثم يرفض أن يتبادل أحاديث مستلة من الحياة اليومية، مثلما كانا يفعلان من قبل. لا يقول لا، بالطبع، إذ لم تكن لديه الجرأة، في أي يوم، ليقول

لا، لأي شخص، ولكنه يستطيع أن يراوغ، ويخذل ليلى بجواب مختصر، وخال من المحرضات، وينجح في إشاعة الملل داخل أي نص يمكن أن تبدأ به الكلام من أجل الحكي المقدس الذي كانت تروج له، بأن يسهو بشد أحد أوتار الكمان، أو يشرد متتبعاً علامات السلم الموسيقي في النوتة المتكئة إلى المسند الخشبي. يكتشف بعدئذ أنه خبيث، وحاذق في القدرة على تبديد حرارة الغرفة المدفأة بحركة ليلى وثرثراتها، وموسيقى آلتها الناعمة، وصوتها، ليضع بدل ذلك برودة الصمت، أو التباس الغموض العصي على الترويض.

كان سعيداً بهذا الإنجاز، أو الانتصار المذهبي على نهج ليلى الخيالي الذي لا يلتزم بأي عهود. لكنه اكتشف في البيت، حين عاد، أنه لا يجد نصفه الأسفل، كي يرتدي البيجاما، تهدلت أطرافها دون الساقين، أراد أن يصرخ، ويستغيث طالباً النجدة من جيرانه، ولكنه بدأ يثغو، ويزحف على يديه، ورأسه منكسة على الأرض. كانت حواف البساط تحرق بطنه، وصدره، وكوعيه. وأخذ يفقد الإحساس بالحضور، وهو يمتلئ بالرعب من الخسارة المذهلة التي مني بها. في البداية اعتقد أنه يحلم، فنام قليلاً آملاً أن يتمكن من الاستيقاظ ببطء، وطمأنينة. آثر أيضاً أن يلغي الشهور السابقة كلها، وقدم لنفسه جردة تفصيلية عن التلفيق الذي اختلق من خلاله قصة ليلى، والموسيقى، وحامد، وورد. يكتشف بعد لحظات أنه لم يكن نائماً، وأنه موجود، وناقص بالفعل وسط غرفته المعتمة التي يتسرب إليها شعاع خفيف من نور مصباح الشارع المجاور. يضفي الشعاع على مشاعره الصفة الواقعية التي تزيد من هلعه. وحينئذ يعود لتلمس نصفه الأسفل. فلا يجد هناك سوى الفراغ: الآن فقط تمكن من الصراخ. لم يصل إلى باحة الدار، فقد

أحس أن حنجرته مجرحة. تذكر أنه التهم أكثر من ثلاثة قرون من الفليفلة الحمراء، كانت لذيذة جداً بجانب البيض المقلي، والبندورة الحامضة. وهذا هو السبب، ولهذا بدأ يزحف نحو الجدار، وأخذ يدق على الحائط الطيني بقبضته. لم يكن هناك أي حائط، كان شكلاً، صورة طبيعية ملونة بالكلس. ومع ذلك فقد سمع رنين الخبطة، واعتقد أن أصداءها سوف تتردد في الخارج حيث الناس، وأصحاب الدار، وثلاثة من الطلبة المستأجرين. لكنه لم يسمع أي حركة إنقاذية، ولم يرَ أي واحد من جيرانه. فأخذ حبتين من الأسبرين، واستلقى على فراشه بانتظار أي شيء (منذ تلك اللحظة لم يستعد وضاح ذلك الجزء المطمور) لكنه عند الظهر أحس أن بيجامته تنتفخ من جديد، وتمتلئ بجسم ما.

استطاع أن يتلمس فخذيه وساقيه بيده، لكنه لم يرَ شيئاً. كان نصفه الآخر شفافاً ومدفوناً داخل ثيابه. يأخذ حجمه دون صورته. ومنذ ذلك الوقت لم يعد يسمح لأحد أن يرافقه إلى غرفته في أوقات القيلولة، أو النوم. وإذا اضطر لاستقبال أحد فإنه يظل بكامل زيه، أو يمكن أن يسمح لنفسه أحياناً، بارتداء قميص بيتي، أو سترة البيجاما.

الأصعب من ذلك أنه ظل مضطراً للمواظبة على زيارة ليلى، وتنفيذ التمارين الموسيقية برفقتها. تقوده الذرائع التي كان يعيد ترتيبها واحدة بعد أخرى، أمام نفسه (من أجل الالتزام) ليضمن التواطؤ المطلوب لاستمرار الزيارات. منها ولاؤه للأستاذ عبد السلام عثمان الذي شجع التدريبات المشتركة، على السلالم الغربية، مقابل تلك الخروقات البائسة التي كان ينفذها أعضاء الفرقة الآخرون، لتعليماته، بتزوير دوزنة الآلات، وتحويلها إلى الوزن المشرقي الفاسد. ومنها إصراره على

استمرار الوفاء لجزئه العلوي، الذي ظل صامداً، ينظر بازدراء، حين يكتشف مغازلات جميل وليلى.

لكن وضاح - يعترف بحياء - لم ينتبه إلى أن ما ظن أنه مجد الرأي والالتزام، إنما كان مجرد عطب تفوح منه رائحة رياء. سرعان ما بدأ يزكم أنفه، وقد وجد نفسه مرمياً، أو مشلوحاً، بالضبط، على الرصيف، والأرجح أنها كانت ناصية بعيدة معزولة لا يراه فيها أحد.

هل كان راضياً هناك أيضاً؟ لا أستطيع أن أصدق ادعاءاته في هذا الباب، على الرغم من أنه أقسم لي، إن شعوره بالنظافة من أخطاء الشباب آنئذ، أو من خطاياهم، حين كان الواحد منهم يتخلى عن الآخر، دون أن تهتز شعرة من ضميره (من يعني؟) يمنحه رضى كاملاً عن النفس. أظن أنه يقول الأشياء تحت وقع الضغينة، فأقول له إن ذلك الجزء المتبقي فيه يكذب، ويشهد زوراً ضد الزمن. وإن جيلنا (لا أعرف كيف أفلتت مني هذه المفردة الناشزة) لم يكن نغلاً خالياً من المبادئ، كما يدعي وضاح، أو يخرف. وإن ذلك النصف الأسفل المختفي الذي ظل يشتمه طوال عمره، أكثر صدقاً وعفوية من رأسه المتبلة بالترهات.

غير أن وضاح ظل في ذلك الزمن راضخاً لتقاليده، يقف على الأرصفة، واحداً بعد آخر، صباحاً، عند مجيء ليلى إلى المدرسة، أو ظهراً عند انصرافها، ليختلس نظرة مفعمة بالحب منها. لم يتقدم خطوة في هذا المضمار، ليس بسبب الخوف من الرفض، أو الصد، كما حدث معي حين ألقيت تحية الصباح (لم أذكر هذا لوضاح آنئذ) ولا بسبب الخجل، أو الحياء، ولا بسبب النقص في البراعة، وإنما بفضل روح الانتظار. كان وضاح قد اكتشف الدلالات الطرية لهذه الكلمة، حتى

صار يقول: الانتظار خميرة الانتصار، أو الانتظار عزاء، أو الانتظار سكين لتقطيع الفشل. عبارات ملمعة كان يرددها أمامنا. دون أن يقرنها بأسبابها. أذكر أننا دهشنا بقدرته على ابتكار العلاقات اللغوية بين مفردات المعجم العربي، فأطلق عليه جميل اسم ابن المقفع، تيمناً بالكلمات.

كان وضاح يخرج صباحاً باكراً من غرفته، لكي يستطيع الذهاب إلى حي الشوق، حيث تقطن ليلى، فيرافقها من هناك، يختفي في الجانب الآخر، باللجوء إلى شجرة كينا، أو ركن حجري، ويتلصص على لحظة خروجها من بوابة المنزل. في الغالب كانت إحدى زميلاتها تقرع الجرس العتيق، هند، أو سعاد، أو ياسمين، أو رجاء وعندئذ يتفرغ وضاح للبحث عن جميل في أركان الشارع. لم يجده في أي يوم (اعترف لي) ولكنه كان متأكداً، مثلما أراك الآن، أنه موجود في محل ما.

الغريب أنه كان عليه أن يطمئن إلى وجود غريمه، لكي يتأكد من أن شكوكه صحيحة. فوجود ذلك المنافس، يجعله أكثر ارتياحاً إلى حالة عقله. لقد رأى الحقيقة إذن، حين لاحظ الحديث المتبادل بين جميل وليلى أثناء المظاهرة. أي مظاهرة؟ لا أذكر. أنت تعلم أننا كنا جيل المظاهرات (لم أسأله عن هذا، بل عن استنكاري للواقعة، فهنا كان قيس هو الذي يصطاد البنات) ولكني رأيتهما معاً يمشيان على رصيف شارع الشعراني، ويتهامسان. لا يمكن، يستحيل أن يتهامس اثنان في مظاهرة صاخبة للطلبة. كان يقول لها أشياء حميمة. عرفت ذلك من اعوجاج رقبته، وانفراج شفتيه الخفيف، الشبيه بابتسامة. فكرت أن أتدخل وأقتل فرصة جميل، قبل أن يتمكن من نصب الفخ، ولكنها كانت تنصت إليه برضى، بتواطؤ، بهيام، غير خائفة من كُتَّاب التقارير

المكلفين بمراقبة الطلبة، وتسجيل أسماء المشاغبين (أي أولئك الذين كانوا يخرقون لائحة الشعارات المقررة) وغير المشاركين (ممن بدأت الجهات الأمنية تطلق عليهم اسم: السلبيون) لقد رأى ما يحدث. وسجله هنا. يشير إلى رأسه. كي لا ينساه.

المؤسف أنني كنت أراه يلتهمها تقريباً. أنت تعرف بما كان يفكر قيس وجميل في ذلك الوقت (هل كانت هذه هي المناسبة التي طلبت فيها الكتاب من جميل أم غيرها؟) فالمهمة الأولى الجديرة بالمديح لدى أي شاب هي افتراس الفتيات. اللعنة عليهما. ولكن صخب الطلاب، واندفاعهم، وازدحام الشارع الضيق، أبعده عنهما قليلاً. وفي تلك اللحظة فقط أدرك الوضع، إنه يحب تلك البنت، يعشقها، وإن التسوية الوحيدة الممكنة هي انتظارها. وإن المكان الوحيد الصالح لذلك هو الرصيف. اكتشفت أن حبي العفوي لها قادني إلى هناك. كنت أقف على الجهة المقابلة حين رأيتها من جديد، مع جميل، وهي تبعد عن الحشد المتدفق إلى ساحة السير بلاطة واحدة، هي حافة الرصيف، وفكرت: ليس الآن. يجب أن أثبت لها أنني أنا وحدي أحبها. وأنا وحدي من تستطيع أن تحبه أيضاً، لأنني لا أريد منها شيئاً الآن، بعكسهم جميعاً، (من يقصد؟) حين كانوا لا يفكرون إلا بالرغبة، والغريزة، أنا أكثر أصالة منهم.

كنت أعتقد أنه نسي معظم عروضه الفكرية الصاخبة التي كان يعرقل بها طريقنا أيام الشباب. خاصة موضوعة الأصالة. فبسببها رفض، قبل الحرب، أن يستبدل بنطلونه ذا الفتحة الواسعة، بالموضة الجديدة للبنطلون ذي الفتحة الضيقة التي كنا نتغاوى بها. أما بعد الحرب فقد انحاز فجأة إلى فتحة البنطلون الضيقة، ضد فتحة

الشارلستون التي هيمنت على الواجهة، بالتزامن مع السوالف العريضة التي تغطي ثلث الخد، والشعر الطويل المسرح الذي يصل إلى الرقبة.

المؤكد أن خياراته الشكلية لم تؤثر على أنشطة العصابة، بعد تأسيسها. والفضل في ذلك يعود إلى مزاجه المتقلب سريع الملل. لدي الرغبة الآن في أن أطابق بين ضجره، ونظرياته. ففي تلك السنوات كان متطلباً، لا يكف عن تأنيب الظروف، والأحداث، والبشر، واتهامهم بالتقصير في كل شيء. انظر! يشير إلى كومة أو أكداس من النفايات في ركن بناية: «بلد خراب». أو: «شوف! كأنه يقود في مزرعة أبيه. كأن الناس حشرات، عناكب يجب دوسها، والتخلص منها». عندما يرى سائقاً يمر مسرعاً في أحد الشوارع. لكنه في اليوم التالي. لا يتورع عن إعلان تعاطفه مع الزبالين، والمطالبة بحقوقهم من الدولة، أو من المجتمع، ولا يتوانى عن تبني حقوق السائقين في إنشاء نقابة تدافع عن قضاياهم، كانت شروحه تذهب سدى أمام سخرياتنا من التناقض: يمكن أن نهاجم زبالاً ونتهمه بالتقصير، والعبث، والخيانة، ولكننا لا يمكن أن نشتم الزبالين. كما يمكن محاكمة سائق أرعن، ويجب الدفاع عن السائقين. لم نستطع أن نفهم الفرق، وقال جميل، وهو يقهقه: إذا كان الزبال كلباً فالزبالون كلاب. ولا يمكن أن يكون جمع كلب أشرافاً مثلاً ومناضلين. يثور وضاح، ويلعننا جميعاً، ثم يهدأ ويقول: لن ينتهي هذا العام قبل أن أبدل المعجم العربي كله.

حبه لليلى، صار هياماً فيما بعد. وقد اعترف طعمة الله أخيراً بأن وضاح اشترى الكتب التي تضم رسائل الحب. ولكن لم يثبت لي أبداً أنه أرسل رسالة واحدة من تلك الكتب إلى ليلى. لن أكذب طعمة الله، ولكني أتساءل: ماذا فعل بها؟ ولمن أرسل أي رسالة؟

كنت أراه هائماً على الأرصفة. وكان يتركني في طريق عودتنا من دروس الموسيقى، في بيت الأستاذ عبد السلام عثمان، ويمضي إلى اللاشيء. في البداية صدقتُ ذرائعه، ولكن إفراطه فيها، حرك شكوكي، فلحقت به. عندئذ رأيته في ذلك المكان، بدا مثل جندي يحرس الأشجار، أو النوافذ، أو الأبواب الموصدة. يقف متأهباً، بصندوق كمانه الأسود، مراقباً منزل آل ليلى المهيب، وسط غابة الكينا الصاخبة. لم أجرؤ على مخاطبته، إذ إن ذلك يعني أنني أراقبه، أو أتجسس عليه. كانت هذه واحدة من الرذائل التي لا يستطيع أي واحد منا أن يغامر بإعلان استخدامها دون أن يهلك تحت ضربات الآخرين اليقظين تجاه الانحرافات. إنها القواعد، كنا نصرخ في اجتماعات التأسيس، أو النشاط للعصابة. وقفت أتأمل وضاح في الظلمة، رغبتُ أن تكون لدي القدرة على تصوير ذلك المشهد، إما بالضوء أو بالحبر أو بالألوان. لم أفعل بالطبع، وربما كانت اللمحة التي سأذكرها هي التعويض الممكن من الأقدار لي: يقف وضاح بجوار حائط من حجر غير مشذب، ولا منحوت. تخرج من الحائط أغصان ونباتات معرشة، أو نعناع، لا أدري. فالغبش لا يتيح لي أن أتبين الحقيقة. يمكن لصندوق الكمان أن يكون بجانبه، مستنداً إلى الحائط، أو محمولاً بيده. وهما الاحتمالان الوحيدان أمامه من أجل الحركة السريعة، فيما إذا فوجئ بأحد والديها (أو بها هي) يخرج من البيت باتجاه الشارع.

لم تكن تلك الصورة وحيدة، أو نادرة (وقد ظلت حرة ونزيهة على الرغم من شطوب الأيام) فقد رأيت وضاح مرات أخرى، وفي أمكنة أخرى، يقف مثل حجر على أحد الأرصفة، يجوس الهواء، أو الفضاء بعينيه. كنت أفكر أنها لوثة.. ثم صرت أظن أنها إحدى المهام الفانتازية

التي يكلف بها الشيوعيون، لكنه قال لي إنه كان ينتظر ليلى، ويدعي أنه يحرسها. قلت له إن الانتظار يحمل الأمل، أما الحراسة فهي ملزمة بالانتباه، والتجرد من العاطفة. فقال إنني ألعب بالكلمات. قال إنني لن أتمكن أبداً من تفهم ما كان يحدث، لأنني لم أعشق، أنا؟! أحسست أنه يريد الثأر من أمر ما يخبئه داخل صدره. هذه هي عادة وضاح في الانتقام: يضع أفكاره داخل جبته، ثم يُخرج المدية من حزامه، مدعياً أنه يدافع عن عقاله. يقول جميل إن وضاح مثل ذيل الكلب، تضعه في القالب أربعين سنة، ويبقى معوجاً. أسأله (وضاح طبعاً) لمَ لمْ يعترف لها بحبه؟ يتأوه، لأنني عرفت أنها لا تحبني. لا يهم. حاولت أن أشرح له أن الرجل يعترف بالحب أمام المحبوبة، كما يعترف أمام الرب. لأنه لا يستطيع أن يحبس ذلك في صدره. حدثته عن أولئك الذين يضعون رسائل حبهم في قارورة، ويرسلونها في البحر حين يعجزون عن رؤية الحبيبة، وقول كلمة: أحبك. ولكنها أحبت غيري. صرخ في وجهي، كأنما يريدُ أن يهزمني بالصوت وحده، فصورته كانت تشي بالتعب، والأسى، والحزن على تلك اللحظات التي ضاعت (هذا ما اعتقدته. لكني وجدت حقائق أخرى) وقد كتبت بياناً عن براءته، وصدقه في المخطوط الأول، أعلن فيه، أن الزمن كان عدواً لوضاح، وأن عجزه عن التصريح بحبه، سببه حضور غول مزروع داخل رأسه، استطاع أن يكبل لسانه.

هذا ما آمنت به من قبل، ولكن كان علي أن أكون أكثر حذراً. فمن الواضح أنني صغتُ تقريراً إنقاذياً أردت أن أعفي فيه وضاح من أي وزر، أو خطيئة. ولكن الكتابة (كما اكتشفت حين قرأت أوراقاً جديدة في ملفات ليلى) لا ترى كل شيء. الأرجح أنني نظرت إليه في كسرة

واحدة من كسور المرآة التي كنت أنظر فيها، فليلى تسرد في مكان آخر (الصفحة الثالثة عشرة من أوراقها) حادثة لم يروها وضاح لي قط: اتفقنا أخيراً أن نغش الأستاذ، وحولنا كمانينا إلى الدوزان الشرقي، ثم بدأنا نتدرب على أغنية عبد الحليم «صافيني مرة»، أحب هذه الأغنية، صوت عبد الحليم فيها ناعم، وحنون. لا أصدق أنه غناها دون أن يحب، ويعشق. أعجبني عزف وضاح، فتركت الكمان وبدأت أغني. يا الله! هذا الولد يعزف مثلما يحكي (كان وضاح قادراً في تلك السنوات على إنتاج بضع طبقات من الصوت أثناء الحديث. والجديد فيه هو أن تلك التبدلات كانت تحدث بحسب المستمع، لا الحكاية، أو الكلام، والمرجح أنه كان يظهر كوضاح آخر لا نعرفه أمام ليلى. وهذا هو وجه الخديعة في شخصيته، ولكني أظن أن ذلك حدث بسبب تأثير ليلى عليه، وأنَّ كل ما تقوله في ورقتها، عن استجاباته كان مؤشراً على أنه لم يكن يبغي شيئاً سوى إرضائها. إذ لا أعتقد أنه أحب عبد الحليم في أي يوم، ولا أصدق أنه يمكن أن يغني أغنية عاطفية، كما ادعت ليلى في ذيل الكتابة. فالموسيقى، يجب أن توضع في الخدمة فقط، بعيداً عن المتع العابرة، والغوايات الطارئة) لأنه حين يحكي، يبدل وضعيته. يرتاح جيداً. يستند إلى الكرسي، أو يضع يديه فوق فخديه، ثم يبدأ الكلام. وحينئذ يأخذ في استخدام جميع أعضائه، يضيق عينيه في المواقف المربكة، أو الصعبة، وينظر إلى البعيد (أي إلى البيوت المجاورة، أو إلى شجرة الكينا الضخمة) إذا أراد أن يتحدث عن شخص غائب. ثم قد يضع أصابع إحدى يديه المضمومة، على شفتيه، حين يريد أن يفكر. وهذا غريب، فالصور التي أراها في المجلات تظهر الرجال وهم يتكئون برؤوسهم إلى أيديهم أثناء التفكير. ولكن وضاح مختلف عنهم.

وقد ضحكت عندما كان يحكي لي بالأمس عن صفه. لديهم شبان مرحون جداً، ومشاغبون، ومتآمرون أيضاً. أعجبتني مؤامرة صغيرة قام بها شابان، فقد وضعا ممحاة اللوح المليئة بذرات الطباشير على حافة الباب، قبل دخول مدرس الزراعة، فسقطت على رأسه. أتصور شعره ورموشه وأنفه وشفتيه وكتفه بعد شتاء الطباشير. ضحكت من قلبي. ولكن وضاح ينقلب فجأة، دون سبب. زعل لأنني ضحكت. قال حرام. وهي كلمة غريبة جداً، وجميلة جداً، لكنه يقطع الحديث وينتقل إلى حكاية ثانية. وهو يبدأ كل مرة من مكان مختلف، وغامض. ملعون! يجذبني إلى الاستماع إليه. لكن هل يفعل ذلك من أجلي أم من أجل نفسه. أحب هذا وأحب الحيلة التي يستخدمها من أجل أن يبقى عندنا. فبقاؤه يعني أنني يمكن أن أعزف، وأغني، وأستمع إلى الحكي. يعني أيضاً أنه يربحُ ثقة والدي. هذا جيد. وأنا أفكر منذ أيام، في طريقة ما، للاستفادة من وجوده في نشاطات أخرى. وقد قلت لماما إنني أرغب في الذهاب إلى السينما برفقة وضاح، لم أقل لها إنني مللت من وجودها بجانبي كل مرة. ولكني قلت إن وضاح صار مثل أخي. رأيت وجهها يتغير في البداية. أعرف هذا. ماما يتغير وجهها، حين تعرف أنني أريد شيئاً آخر غير ما تريد.

تنتهي الورقة هنا. ولكنها تستكمل في الورقة /17/ بالخبر التالي: ذهبنا إلى السينما معاً، أحب السينما أكثر من أي شيء آخر، ووجود وضاح معي، كان يعني أنني صرت قادرة على أن أتنهد حين يقبل عبد الحليم نادية لطفي، وأبدي إعجابي بفتنة عمر الشريف. وضاح لا يزعل ينظر إلي فقط، لا يقول شيئاً. لا يعترض فيما إذا تمنيت أن أكون زبيدة ثروت، أو ماجدة، أو أن يحبني واحد مثل شكري سرحان، أو

أحمد رمزي، وهذا جيد. لم يبد أيضاً أي ملاحظة حين وقفت مع جميل المطر في بهو السينما، وتحدثنا. ظل صامتاً، يبتسم فقط. كان جميل يحدثني عن فتاة يحبها، وطلب مني أن أوصل إليها رسالة، فوافقت ولكني قلت له لا أستطيع أن آخذ الرسالة أمام الناس، فقال لي إنه سوف يضعها داخل كتاب في الغد. فوافقت. وضاح لم يسألني أبداً عن حديثنا. مشى إلى جانبي إلى أن وصلنا إلى البيت. كان برد فدعوته للدخول، لكنه اعتذر، وتركني أمام البوابة، ومشى مستعجلاً.

بالمقارنة مع ما يقوله وضاح من أن جميل كتب رسالة الحب الأولى لليلى ذلك اليوم، مستخدماً مزايا الإعارة، فقد صار لدي أكثر من رواية عن موضوع كتاب البؤساء (لا تذكر ليلى هنا اسم الكتاب) ولا أعرف إن كانت ليلى طلبت استعارة الكتاب، فانقض جميل على المناسبة، وكتب رسالته، وحشاها بين الصفحات. لا أعرف لماذا اختارت هذا الكتاب؟! لا أعرف لماذا ارتأى جميل أن يضع الرسالة المزعومة، في طيات كتاب البؤساء الذي يعرف مقدار أهميته لدى والده؟ لا أعرف لماذا يهتم والد جميل في ذلك الزمن بهذه الرواية دون غيرها؟ هل اختار جميل الكتاب عشوائياً؟ هل أراد أن يقارن حبه لها بحب بطل الرواية الشاب لكوزيت؟

تنعطف ليلى بالحكي إلى مدار آخر انعطافة مفاجئة، تروي لأول مرة عن الأستاذ المصري هكذا، بعد عودتها من السينما. أعتقد أن الرواية هنا تكمل زمن الليلة السابعة عشرة: «لم يكن أبي موجوداً في البيت حين جئت، قالت لي إن لديه عملاً في دائرة النفوس. وكانت تشرب المتة مع الأستاذ. أحس أنني متعبة. ولكني أرغب في الجلوس معهما. لا أدري ما هي المزايا التي تجعل الأستاذ قريباً مني، يبتسم لي دائماً، يسألني عن الدراسة، عن الكتب. يسألني عن أصدقائي. أشعر

بالخجل. ليس لي أصدقاء. أشعر أنني أريد أن أبدو نظيفة وعذراء في نظره. ولكنه اليوم وبخني بسبب كلام قلته، فحين ذكرنا اسم وضاح الذي رافقته إلى السينما. قلت إنه معتم. ماذا؟ سألني. ليس فيه أي ضوء. يبدي إعجابه بالصورة، يرفع حاجبيه، ويميل رأسه إلى جهة اليمين. أعرف هذه الحركات الساحرة. أعلم أنها تؤدي إلى اقتناعه بما أقول. ومع ذلك أنَّبني: أحياناً يظهر بعض الأشخاص معتمين، ولكني أعتقد أن لديهم فتيلاً صغيراً مبللاً بوقود ما، ينتظر أن تُقدَح بجانبه نارٌ. وعندها سوف ترين. اقدحي الزناد وتفرجي! قلت له: لا يهمني. فنظر إلي بعينين ناعستين، وقال لماذا؟ لا أعرف لماذا؟ أشعر أنني أريد شيئاً آخر، أريد شخصاً آخر. لكن الأستاذ لا يرغب في المتابعة، يبدو متعباً. لا أشك أنه يفكر في نفسه. إذ لا يعقل أن تكون كلماتي، أو عنادي الصغير هما السبب. عبد الله أكبر من ذلك (يا إلهي كم يعجبني إيقاع اسمه) ولكنني أعتقد أن الدسائس هي السبب. إذ لا شيء يبلبل روحه، ويتعبها، ويحيرها أكثر من معرفته بأن اسمه صار متداولاً في السوق. تلك هي النميمة: تكتشف ذات يوم أن اسمك مرمي على الأرصفة، والزوايا الرثة، وحلقات الزبالة، فماذا تفعل؟ لا الماء، ولا الصابون، ولا العطور، ولا أوراق البقدونس قادرة على إزالة آثار الرائحة التي تعلق بك. أقول له: أعرف ما يقال يا أستاذ ولا أعرف الحقيقة. لا أقول له هذا. بل أقوله لنفسي. فأنا في حيرة. أشعر أنني أسبح في الغموض، أكتب داخل الغموض نفسه».

لا أعرف لماذا خُيِّل إلي أن ليلى كانت معجبة بالأستاذ. فكرت أن مثل هذه التعابير الملتبسة عن الغموض ومناطقه تضمر رغبة مكبوتة في قول أشياء أخرى. لكن طعمة الله نصحني أن أتريث قبل أن أرمي

(أو أبذر كما قال واصفاً آرائي بالشيطانية) جملي وتقديراتي بهذه الخفة. استنتاج مستعجل، والأرجح أنه ميل مراهق وعرضي يحجب توقها الظامئ إلى الحب. فيما رمى وضاح المخطوط باشمئزاز وقال بحقد إن الأوراق ملفقة، وإن الرواية التي أكتبها مجرد أكذوبة فظة وخبيثة، تحقن نفسها بالأوهام، أو الخيالات التي تفترضها، أو تختلقها بلا أصل. قال إنني لم أستطع أن أكتب عن جوهر واحد من جواهرنا، عن لون وجوهنا، أو طول قاماتنا، أو طريقة عيشنا. رواياتك عنا، تخريصات مقلدة تتغذى من النمائم والفساد ونهش الحياة. هل يعقل أن تكتب فتاة صغيرة في السابعة عشرة من عمرها، تصريحاً تعلن فيه عن ميلها إلى رجل في الأربعين في العمر؟ هل تخرج إلى السينما علانية مع شخص غريب؟ تتمشى في البهو، تأكل الفستق أو تشرب القهوة في كافيتريا مضاءة بأنوار شحيحة؟ قلت: هل تنكر أنكما زرتما السينما معاً؟ قال: بالطبع. لم أذهب برفقتها إلى أي مكان، وقد زرت منزل أبويها مرة واحدة بتكليف من عبد السلام عثمان. ولهذا أقول إنك ألبست المكان ثوباً فضفاضاً من زمن آخر، فقد كنا، آنئذ، نعجز عن خمش الهواء، أو لمس جدران بيوت البنات اللواتي نحبهن. لماذا أنشأنا العصابة إذن؟. أظن أن السبب هو الحرمان، والكبت، وغواية الأسرار، وتطرف المحيط الاجتماعي (نسيتُ أن أذكر أن وضاح يلفظ الجيم قريبة من السين. ولهذا بدت المفردة الأخيرة محملة بظلال غير عادية، حين أضحت خليطاً من الاجتماعي والاستماعي) وعجزنا جميعاً عن فعل أي شيء نتمناه.

كرهت وضاح حين ندب نفسه لإعادة صياغة الأحداث، ثم اكتشفت أنني ما كنت أحبه من قبل أيضاً. فرفضت أن أحذف الملحق الذي كتبته

عن تطور علاقته بليلى. فقد اعترف لي أنه أراد أن يخطبها. ليس بوسع شاب مثل وضاح، أن يحب فتاة دون أن يفكر بها كشريكة عمر، ولكنه يهمس لي بحزنٍ: ليتني لم أفعل. ليس بسبب ما عرفته من أسرار، أو ما أشيع عن ليلى، بل لأنني لم أستطع أن أمنع والديَّ من القيام بالإجراءات المعتادة، حيث كان عليهما أن يستعلما عن ليلى وعائلة ليلى، ثمة موظفون سريون يتطوعون للقيام بجمع المعلومات. وعليك أن تصدق أنني حاولت أن أمنعهما من القيام بذلك. كان علي أن أقول لهما إنني أنوي الزواج من البنت لا من أبيها ولا من أمها. وإنني غير مهتم بأن تكون مؤدبة أو عاقلة أو سمعتها حسنة. ما يهمني هو أنني أحبها. كانت جملي وعباراتي تظن أنها مخلصة للفكرة، ولكنها لم تكن مخلصة للزمن. لا شيء يمكن أن يزحزح تل الرأي الثابت: لن يزورا بيت حامد السومري، قبل أن يتحققا من سمعة العائلة. في تلك الأيام تساءلت: من نقل جرثومة التحقيقات إلى الآخر، السلطة أم المجتمع؟ (قلت له إنني سوف أقدم تأملاً جدياً في هذه المسألة. فنظر إلي بطرف عينه وقال: إي.) ماذا وجدا؟ لست حديداً يا صديقي، ولست مسيحاً أيضاً. لم تستطع المبادئ أن تحررني مما سمعت، كنت بحاجة إلى عشرين عاماً أو أكثر كي أستطيع أن أقول للكلام: طز! لأن الرجلين اللذين تحريا عن العائلة، توصلا إلى أن ليلى بنت أم عاهرة وأب قواد. هل تصدق؟. لم أصدق، ولكني لم أستطع أن أكذّب. من أين لي أن أقدم مرافعة تتضمن البراهين على أن حنان ليست قحبة، أو أن القبو الذي تعيش فيه ليس كرخانة، وأن السائق العمومي حسن السومري ليس قواداً.

يدعي وضاح أنه إذا كان قد رفض منطق التلصص الذي تجريه العائلات، فإنَّه لا يعرف كيف لم يستطع أن يصمد أمام الوثائق التي

قدمها التحريان. لا يعرف كيف تتراكم حكايات الناس، وتتكدس، وتتخمر، لتنتج عشرات الحقائق. وإذا كان قد قال في العلن إنه ضد تلك الحكاية، فقد بكى في الليل. بكى مرة لأنه خسر ليلى، وبكى مرة لأنه خسر المعركة، وبكى مرة لأن حكايات الشارع استطاعت أن تبتلع نداءات الفكرة. هل تصدق أن سكرتير الفرقة في الحزب قال إنني لا أستطيع رفض الحكاية، لأن الحكاية بنت الشعب. قلت له إنها يمكن أن لا تكون صحيحة. فقال بالطبع، ولكنك لن تغامر بتكذيبها أبداً، لأنك لن تستطيع فيما بعد تقديم أي حقائق أخرى لهم. عليك أن تصغي دون أن تصدق. إذ لا يمكنك أن تحرض ضد حكاية. كنت أريد أن أسأله: هل الرجلان اللذان جمعا المعلومات هما الشعب؟ لكني ابتلعت ذلك السؤال، لأنني خفت من الجواب الذي لا أعرفه. وفي نهاية الأمر لم يكن لدي سجلات أو بحوث بديلة لأثبت كذب الحكاية، فانتصرت علي. ما رأيك؟ طعمة الله قال لي إن هذه الحبكة حقيرة. لا يمكنك أن تحل مشاكل الكتابة بتلويث سمعة امرأة سجينة لم تعرف النور منذ أربعين سنة. ولكن متى كانت الحبكة تتسم بالبراءة أو النزاهة؟ لا أعرف لماذا نعت الحبكة الأخيرة بالحقارة، فقد وجدت أن شهادة الرجلين لم تكن غريبة، فمن الطبيعي - دون أن يكون الطبيعي صادقاً - أن يرسم وضع حنان الغامض ظلالاً مريبة: فوجود امرأة محجوبة وصامتة، في قبو معتم، تحت سيطرة رجل انطوائي مثقل بالعبوس مثل حسن، سوف يلهم الجماعة تكهنات عديدة، من بينها موضوع الجنس. الجنس هو اللحظة شبه الوحيدة المرافقة لفقدان الأجوبة.

وفي الليلة ذاتها، حلمت أن طعمة الله أخذني إلى بيت حسن السومري. صعدنا إليه عبر درج لولبي مزروع بأصص من الفخار

والتنك، وولجنا إلى باحة واسعة مرصوفة بالحجارة، وثمة شجرة توت ضخمة في أحد الأركان، وأرتال أخرى من أصص الورد. من يزرع الورد؟ سألت طعمة الله، فخرج إلينا رجل يرتدي زي المتدينين وقال أنا حسن السومري. وشدني من كم قميصي كي آكل من نبتة شوكية أذكر أنني رأيتها في أحد أفلام الغرب، ثم شرح لي أنهم يستخدمون تلك النباتات من أجل الحفاظ على الأرشيف. ثم فتح باباً جانبياً وأدخلني إلى القبو، رأيت الآلاف من زجاجات النبيذ المصفوفة خلف بعضها، وفي صدر القاعة وجدت حنان، كانت امرأة ضخمة، تجلس على سرير هائل وتلد، ولاحظت أن وضاح كان يشجع الداية نخلة على التقدم، ثم أمرني أن أشرب من النبيذ كي أرى الحقيقة، وقدم لي كتاباً ضخماً قال إن اسمه البؤساء، وطلب أن أتصفحه، فتحته لأقرأ، فانبثق نور غريب غمرني بالكامل، ولم أعد أرى.

سخر مني طعمة الله حين رويت الحلم له. قال إن علي أن أضبط معاييري الفكرية قبل أن أنام. فمن الواضح أنني أرغب في تبرئة ليلى من اتهامات وضاح: كان عليك أن لا تصدق أكاذيبه، كي لا تحتاج إلى تلميحات الأحلام.

هذا صحيح، فقد وجدت المحقق يشير في أرشيف العصابة إلى الملاحق والمرفقات أكثر من مرة. لم أولها العناية اللازمة في البداية، غير أنني لم أجد تلك الملاحق داخل الملف. وبسبب يقيني من جودة التنفيذ، في مجال الدراسات الأمنية، كنت متأكداً من أنها موجودة في مكان ما. وقد عثرت عليها على سطح الخزانة الخشبية تحت الاسم نفسه: ملاحق أرشيف عصابة الكف الأسود «تقارير العيون» وفيها عشرات التقارير التي كتبها مخبرو الأمن تحت أسماء مستعارة.

من الواضح أن أحد المخبرين أثار البلبلة في الدائرة، منذ أن كتب تقريراً غريباً، فيه الكثير من الشطحات بخصوص آل السومري. ولهذا فقد قرر رئيس دائرة التحقيق تنفيذ الإجراء الشهير المعروف في الأجهزة الأمنية باسم: تقاطع المعلومات. وهو ابتكار سردي يهدف إلى ضبط المعلومات والبيانات والأخبار وتصنيفها، وإعادة جدولتها، بما يضمن أن تكون أقرب إلى الصدق والحقيقة.

أثار انتباهي تقرير كتبه مخبر اسمه الشمعة، يصف فيه دار آل الحسيني وصفاً حزيناً أقرب إلى المرثية، حيث لا يظهر في باحتها أحد من البشر، لا حسن ولا أولاده، فيما يقدِّر (لأنه لم يرَ بعينه أبداً) أن حنان ما تزال محجوزة في قبو الدار. يصف الكاتب الشمعة القبو بأنه حبس نتن، مضجر، بلا نوافذ ولا مداخل، سوى درج حجري غبي مستدير يغلق الضوء عن المكان برمته.

يكتب مخبر آخر اسمه المفكرة، وصفاً أكثر حيوية للدار، ويلاحظ أنه رأى حنان (يمكن الشك هنا بكلامه) تنشر الغسيل في باحة الدار، يكتب أنها سمينة، بيضاء مثل الشبَّة.. تنفذ عملها بطريقة آلية، فلا تكلم أحداً، ولا تلتفت إلى أي جهة. يركِّز المفكرة على التصوير الفوتوغرافي، فيقدم وصفاً لحسن أيضاً: متوسط الطول وممتلئ، يعتمر قبعة أمريكية، يظهر تحتها شعره الكثيف الأسود. كما يقدِّم وصفاً شاملاً لبقية الأسرة، الأخوة والأخوات. وأظن هنا أنه يخلط بين حنان، وبين إحدى بناتها، حين يظن أنها هي التي كانت تنشر الغسيل.

الوحيد الذي قدم الجردة الإعلامية (إذا جاز التعبير) عن الأسرة، هو المخبر الذي سمى نفسه الأندلسي. وقد أورد في تقريره الذي زاد على ثلاث صفحات مكتوبة بخط صغير منمنم، جميع الاتهامات

والأقاويل التي تتردد في الحي، وفي المدينة عن بيت حسن السومري. ومن ضمنها بالطبع، الاتهامات التي تلصق به صفة القواد. لا يرجح المخبر أي معلومة، بل إنه يبالغ قليلاً في سرد الوقائع والإثباتات والبراهين التي تؤكد براءة حسن من تلك المهنة المشينة، دون أن ينفي أنه يحبس زوجته في القبو (الحقيقة أنه يستخدم عبارة أخرى أخف وقعاً هي يجبر) ولكن بلا لوعة.

لا أعرف إذا كان نقص التعاطف لدى المخبر ناجماً عن تأييد حسن، أم عن ضرورات الكتابة الأمنية التي تنشد الموضوعية.

يسجل التقرير الرابع الذي كتبه المفكرة أيضاً، جدول الدخول والخروج إلى منزل حامد السومري. لا يلاحظ أي حركة غريبة. ومن الواضح أنه يعرف من يتردد إلى الدار، أو أنه عرفهم من المراقبة الحثيثة. غير أن أهم الاستنتاجات التي ثبتها بقوة هي أن الأستاذ عبد الله المصري، لم يأت لزيارة الأسرة الصديقة خلال أكثر من شهر، ثم جاء، وبقي ساعة تقريباً، وغادر الدار مسرعاً. يصف المفكرة ما الذي حدث عند خروجه: هرول في الشارع. قذف حجراً بقدمه. ورفع قبضته وهدد بها شخصاً ما، غائباً.

فماذا حدث؟!

الواضح أن ذلك المساء شهد أول خلاف جدي بين عبد الله وورد. وأن موضوع ذلك الخلاف كان السؤال التالي الذي طرحه عبد الله أمام ورد: ماذا علينا أن نفعل تجاه حامد؟ ليس لدي أي إشارة إلى المفردة التي استخدمها لوصف حالة صديقه، فالناس كانوا آنئذ محبطين، ومنكسرين، ومتعبين، وحائرين. غير أن من الصعب أن نقبل دخول مفردة مثل الكآبة (كما يقترح طعمة الله) على السؤال، لأنها لم تكن قد

استولدت بعد لوصف المزاج السيء أو الرديء أو المضعضع لأي شخص، كما يحدث الآن. أي بعد ثلاثة عقود من زمن تشكيل عصابة الكف الأسود. وأرجح أن الأستاذ سأل سؤالاً مجرداً من الأحكام التقييمية، ولكنه مليء بالمشاعر المساندة، والزاخرة بالأسى، والأسف، على ذلك الصمت الغريب الذي دلف إليه صديقه. ولكن عبد الله ارتكب فجأة خطأ مريعاً، حين سأل ورد: هل زعل منك في أمر ما؟ إذ بدا السؤال، في صياغته المباشرة التي تضمنت كلمة «منك» اتهامياً. ولم يتمكن عبد الله من إعادة توجيهه، أو شرحه، أو نزع الصفة العدائية التي هيمنت عليه. وانتظر مثل الأبله (وهو يظن أن الصمت قد ينشط ظنونها ببراءة سؤاله) جوابها. وكان موقفه هذا، حماقة أخرى، أوحت لورد - كما سيعرف - بأنه يستغفلها. فنظرت إليه بملامة. كانت هذه أول مرة (أول مرة. كما ردد عبد الله في الشارع بعد نصف ساعة) تنظر إليه تلك النظرة المركزة المتسائلة المعبأة بالتأنيب. قالت: بدل أن تتهمني، حاول أن تفهمني. وهي إجابة محرجة لذلك الرجل الذي نظر إلى نفسه دائماً كمظلة، أو كحارس. وقد لاحظ أنه كان يدخل إلى حالة حامد من الخارج، وأنه كان يطرح سؤالاً متعجلاً، لم يبن على أساس. ولذلك فقد بلبله جواب ورد الساخط، وحيَّرته دعوتها إلى المناصرة. هذا هو تفسيري لحالة الارتباك، لتلك البلاهة، لذلك الخمول الذي ظهر عليه. ولكن طعمة وصفه (أي تفسيري) بأنه مجرد هراء. (صرت معتاداً على نعوت المكتبي الوطواط) وقال إنني لا أنقل من الأرشيف المعلومات المتحجرة الشبيهة بالمستحاثات المتحللة فقط. وإنما أكتب تحليلاً لا يستطيع أن يتجاوز فواصل الزمن. إنك تكتب كولد أخرق لا يرى إلا الظاهر، والمعلن، عاجزاً عن النفاذ إلى ما وراء الأحداث. فإذا

كان عبد الله المصري، قد ابتلع، وفق رواية طعمة الله، آل السومري، فمما لا شك فيه أنه غص بحامد وحده. لم يستطع أن يقيم معه اتصالاً حقيقياً مبنياً على ود محايد بعيد عن ورد. أو عن ليلى. كان حامد مجرد إضافة إلى المشهد. شيء حاضر وموجود داخل الديكور. ولذلك لم يره من قبل، أو أنه رآه وأزاله دون مشقة، ودون أي مصاعب نفسية، أو فكرية عاطفية. لم يكن السبب نقص الحب. فعبد الله المصري كان يهتف دائماً أنه يبذر الحُبَّ حوله كما يُبذَر الحَبُّ. حبي يبرعم بلا ماء. ولكن ما لم يستطع أن يعلنه أبداً، إنما هو غياب الصداقة مع ذلك الرجل، وإحساسه أنه لا أحد جدير بالحب أكثر من شخصه هو نفسه. وقد أحب عبد الله نفسه حين اكتشف أنه كان دائماً في المكان الذي أراده. كان دائماً ضد الموضة. لأن الموضة هي عين الآخر. يمكنه مثلاً أن يدافع عن الجبن إذا كانت الشجاعة برنامجاً جماهيرياً، يمكن أن يمدح الجدائل حين يبدأ الناس في هجاء الشعر الطويل، ثم يثني على أي شاب حليق الشعر. المخالفة هي معبودته. المخالفة هي القوة. والقوة هي الأمر الوحيد الذي يمنح الإنسان الحق في الولوج إلى جوهر الأشياء. لهذا بدا له ضعف حامد تداعياً رخواً لا أمل فيه، دون أن يعني ذلك أنه لا يحبه. هذا أمر آخر. فتراخي ذلك الرجل، واستقامته أيضاً، ونزاهته، كانت بسبب الضعف لا المبادئ.

طلبت من طعمة الله أن يصمت هنا. قلت له إنك تخلق شخصية متناقضة لا تشبه تلك التي كانت تمشي في شوارع المدينة، في نهاية الستينيات، ولا تماثل الشخصية التي وضعتها في النص، قال: هل خفت؟ هل تظن أن ما يظهره أي إنسان هو لحمه، أم هو جلد مستعار من أجل المناسبات؟ يقشعر جسدي من السؤال، لا أجرؤ على اختيار جواب، حين أعرف أن في حوزتي جدولاً من الأجوبة الملائمة. أشعر

بالضغينة على طعمة الله. أظن أن السبب هو الحسد. فالعطب الذي أصاب حياته، جعله يرى أكثر منا جميعاً. إنه يرى ما خلف المرآة مثلاً. يرى ما وراء الكلام. يرى حسب المسافة. قف هنا، قال، سوف ترى ما تريد أن تراه. اخط خطوة إلى اليمين أو إلى اليسار وسوف ترى ما لا تعرفه. أما إذا ذهبت إلى الخلف، فسوف ترى ما لا تريد أن تراه. يتهمني طعمة الله بعد هذه العظة المكرورة، أنني اخترعت عبد الله المصري بحسب المواصفات القياسية للموجهين. عبد الله المصري في نصك يصلح للكتب الدينية، ومؤلفات الإرشاد، بينما هو في الحقيقة كلب متجول لا يهمه سوى الفريسة، وقد رآها بالعين الخبيرة المدربة جيداً. ورد؟! سألته. فضحك الشيطان، ضحكة ملتبسة صفراء. ولم يجب. ثم التفت نحوي وقال: تشرب عرق؟ قلت: لا. قال: خائف مني يعني؟ قلت: نعم. قال: الحق معك. لابد أنك صرت تعرف أنني سأقول.. قلت: كفى أرجوك. شربت ماء، واستلقيت على جانبي متكئاً إلى إحدى وساداته المحشوة بقشر القمح، غرق كوعي حتى لامس الأرض الصلبة الباردة.

لا تعجبني رواية طعمة الله عن المصري. الواقع أنني لم أضع في مخيلتي أي احتمال أخرق من هذا النوع. وفي الغالب، لم تقدم لي الاستقصاءات التي قمت بها، معلومة واحدة تساعد في دعم الاستنتاج الذي يصف المصري بأنه كلب. وبالعكس فإن الصور العديدة التي عثرت عليها في ألبومات معارفه، وطلابه، تؤكد أن الرجل حافظ طوال السنين على حضورٍ خال من المخازي، والفلتات. ولذلك فإن الخيال لم يتحرك كثيراً، للإفراط في منح الرجل أكثر من صورة الراعي، وهي صورة غبية على كل حال، وتفتقر إلى الجموح، لا لأنها لم تكن

متوفرة في تلك الحقبة، وإنما لأنها كانت منتشرة كالفطر، إذ تستجيب لعناصر المرحلة، أو لمتطلباتها، حين كان الناس صوراً عن الأفكار. ولهذا أخذ عبد الله المصري ينتحل صفة المشرف الحكيم، المزدحم بالحلول البارعة، والاقتراحات الفاعلة في مواجهة أي طارئ، أو مباغتة، أو مشكلة. غير أنني ظللت طوال الوقت مبلبلاً إزاءه، ففي أعماقي كنت أحس أنه كذاب، مراوغ، كتيم يستعير الأسماء دون أن يتمكن في أي يوم من انتزاع حقائق النفس الداخلية لديه. بل إنني وجدت، حين تصفحت المخطوط الأول، أن عبد الله المصري يتخذ شخصية شعبية (شعبوية كما هي في أدبيات الساخرين) استحوذت على إعجاب الناس. بحيث صار بعد بضع سنوات، أظن أنها لا تزيد على ثلاث أو أربع، من الشخصيات الأرفع والأسمى والأكثر احتراماً في الأوساط الاجتماعية. أذكر أنني سحبته من ذكرياتي. لقد سرقني. أخذني من يدي لأنضم إلى جوقة المنشدين البلهاء المولعين بالحراس، بحيث إنني لم أجرؤ هناك على المس بمشاعره، أو التحديق داخل أوعيته الدموية، أو فحص حمضه المكون. أشعر أن عبد الله ذاك، لم يكن سوى فكرة، بلا أهواء ولا زوائد. عبد الله متحف من الصفات المحبوبة. فأين الحقيقة؟

لم يكن المصري كلباً بالتأكيد. قلت لطعمة الله شمس الدين بلا مواربة. فهذه التهمة مستلة من المختصرات الأخلاقية فقط. ولعل التشبث بها، كما يفعل المكتبي العزيز (سوف يثير شهية قيس وجميل ووضاح) كارثي تماماً. إذ إن صفات الرجل الكلب معروفة: فعيناه يجب أن تكونا ضيقتين صائدتين، وأذنه عريضة، ونافرة، وأنفه مدبباً، وشعره إبرياً قصيراً، وشفتاه رقيقتين ملساوين، وحجمه صغيراً، وله ذراعان ناحلتان وساقان خفيفتان لينتان. لم أكتب كلمة واحدة عن سمات عبد

الله المصري، ولم يكن ـ كما أذكر ـ يماثل هذه الصورة، وليس في كلتا النسختين أي إشارة إلى هذا النعت المهلك المريع. ولذلك فإن لدي احتمالين لاستنتاجات طعمة عنه، الأول: افتراضات شخصية وضعها المكتبي لتلويث سمعة الأستاذ. والثاني: قراءات سرية حصل عليها من تحرياته التي أجراها من أجل مساعدتي أثناء التنفيذ.

في الاحتمال الأول، لم يشمت جميل بحكاية طعمة وحسب، بل أعلن للمرة الأولى، أن السيد أمين سري (هذا وصفه للمكتبي) طعمة الله شمس الدين عرض على ورد أن تتزوج منه بعد وفاة حامد. كان هو الآخر قد فقد زوجته في نهاية الستينيات في حادثة الباص الشهيرة التي أودت بحياة أحد عشر راكباً. هل تذكر؟. قلت له إنني كنت قد صرت معلماً في الجزيرة. فأشار بيده إشارة غامضة نحو المجهول. كان طعمة الله قد أطلق مشروعاً للقراءة (يقهقه جميل) سماه خطة الطوارئ. لم تعرف؟ قلت: عرفت وكتبت عنه. ألم تعرف لمَ أطلق الفكرة؟ قلت: لا يحتاج الأمر إلى تأويل أو أسباب. إذ إنَّ أغراضه النبيلة وحدها تحميه من نزعة التشكيك السائدة. يضحك جميل مرة أخرى. ورأيه هو أن الهدف الوحيد لطعمة الله هو اصطياد الفتيات. كان يعرف أن الجيل الثاني من القراء، بعد جيلنا المهزوم، والمحطم، هو البنات. وبفضل خبرته الطويلة وتجاربه، أدرك أنه سوف يغدو منبوذاً، وفائضاً عن الحاجة، في خضم الزمن الذي بدأ يسرع ابتداءً من الهزيمة. كأن الهجوم الإسرائيلي على العرب مرتبط بدقات الساعة. فبدلاً من الزمن الإيقاعي الجميل، حلت أوقات السرعة الهاربة، وليس على طعمة إلا أن يفهم. ولذلك فقد استبدل الكتب بالمجلات المنوعة التي بدأت تتكاثر من أجل الترفيه عن العرب. هذه هي خطة الطوارئ اللئيمة التي اتبعها

لجذب النساء، وهي اللحظة التي ساقت ورد إليه، بعد أن أحكم نصب الشراك.

ليس لدى جميل أدلة تشير إلى أن طعمة الله حاول إغواء ورد بهذا المظهر الملون، ولكنه يؤكد أن المرأة وجدت بالفعل في المنوعات الأسبوعية، ونصف الشهرية، والشهرية، ملاذاً من الوحدة والخيبة اللتين تعرضت لهما.

المرجح أن ورد زارت مكتبة طعمة الله مئات المرات قبل أن يأتي عبد الله المصري لزيارته، لا أحد يعرف ماذا حدث في الداخل؛ فقد فوجئ الشارع بطعمة الله، وهو يخرج من مكتبته ويصرخ: هات كاسة كشك يا عطا! ثم شاهدوا عبد الله يتبعه، ويمسك به من كتف جاكتته الجلدية، ليرغمه على العودة، أو الالتفات نحوه. عندئذ فقط استخدم طعمة الله يده: طراخ!

في الشكوى التي تقدم بها المصري إلى الشرطة، ذكر أن المكتبي لكمه، في حين أن الشهود جميعاً أكدوا أنه صفعه على خده. ما الفارق؟! اعتقد أن الصفعة إهانة، بينما تظهر اللكمة كشجار. ولهذا فقد تمسك بها عبد الله، دون أن يتمكن من إثباتها. ولم يتسرب من ضبط الشرطة أي معلومة أخرى، لكن الشارع تكفل بالحكايات كالعادة. ومنها هذه التي يرويها جميل، ويزعم فيها أن الأستاذ زار المكتبي كي يوبخه، بسبب البضاعة الفكرية المنحطة التي بدأ يروِّج لها في السوق. بعد أن كانت مكتبته منارة المدينة، أو أنه أراد أن يؤنبه بسبب تحرشه بورد، ويعلن له أن ورد تحبه هو وحده. وأنهما بصدد أن يرتبطا بعقد زواج. لم يرد طعمة الله على خطاب الأستاذ، اكتفى بالنظر إليه صامتاً، ثم خرج ليطلب الشاي من عطا كعادته.

وفي الاحتمال الثاني يدعي طعمة الله أن عبد الله المصري اطلع ذات يوم على كتابات ليلى. لا يعرف كيف، أو متى فعل ذلك. والمرجح أنه غافل المرأتين أثناء العزاء في موت حامد، وتسلل إلى المكتبة، فقرأ هناك ما باحت به البنت في السنتين السابقتين.

يجزم طعمة الله (مازال يزعم في رأيي) أن عبد الله أخذته النشوة، وهو يقرأ التقريظ المراهق الذي كتبته ليلى عنه. لم يصدق عينيه، واكتشف فجأة أن مشاعره الدفينة التي حاول أن يخبئها أو يخفيها تحت أغطية الحراسة، أو أردية الرعاة، كانت صائبة وصحيحة (هذه هي الصفات الكلبية لدى عبد الله ـ حسب طعمة الله ـ الذي رأى في التعبير الحر عن العواطف العابرة المشبعة بالامتنان تجاه حضوره، طعاماً جديراً بالالتهام) وإن كل ما فعله، في علاقته بورد، إنما كان لهواً وطيشاً وخواء، إذ إنه لم يحب أحداً سوى ليلى، وإنه إنما كان ينتظرها على قارعة الزمن دون أن يعرف أنها هي. كانت الكلمات مثل جرس، مثل رنين ساعة، مثل صياح ديك، مثل صوت بائع الحليب، مثل لفظ غامض ومنبه يوقظه فجأة، فينظر من النافذة، ويرى الشمس: «يأتي الأستاذ مساءً، يمر على غرفتي للسلام، أفتح الباب فأراه واقفاً بأبهة غزال. ترتجف أوصالي، أشعر أنني أدوخ، وأكاد أقع، فأتمسك بمقبض الباب وأنا أبتسم له». «أنا عاجزة عن التنفس، تصيبني الموسيقى وصوت الأستاذ معاً بنشوة عميقة، تُكثِّف الهواء من حولي. أحس أنني مسيَّجة مثل حديقة». لكن عبد الله لم يختلس القراءة وحدها، بل سرق بضعة أوراق حشاها في جيب قميصه.

وفي البيت أذهلته الاعترافات، صُدم تماماً وظل ساعة يتأمل الأحرف والمفردات والجمل والعبارات، وهو لا يصدق أنها موجهة

إلى شخصه، بل إلى بديله الروحي السابح في الأثير، إلى حلمه، إلى أمنياته.

وعند هذه اللحظة كانت المفاجأة مروعة. هل كان يتمنى ذلك في ضميره، أو في أخيلته؟ سوف يُدهش حين يستعيد ذكريات السنوات الماضية، وسوف يُذهل من حجم الرذيلة التي خبأها داخل لحمه، وتحت ارتعاشات جلده. ولم ينس بالطبع أنه لم يسوِّق أحلامه المختصة بها في اليقظة. لقد رفضها آنئذ كما يرفض ذبابة، أو كما يطرد بعوضة مصاصة للدماء. أمرها أن تتوارى، أو تغيض تحت طبقات من الفروض والواجبات والمذاهب المعتَّقة، ثم طمرها تحت أكداس من اليقين (الكاذب) بأن ما يحدث عابر، وملوث، وبعيد عن العقل. اللعنة على العقل! يهتف هذه المرة من وراء المدونة، حين يقرأ من جديد: «أجن حين تلمس أصابعي كف يده». أفكر أن لعبد الله المصري الحق في أن يرثي لنفسه، أو أن يشتم الغباء، والبلادة، وفقدان البصيرة الذي كان يسم سلوكه وتصرفاته. يدرك أنه لم يكن أكثر من مراوغ كذاب روض نفسه كما تروض الحيوانات على الرضى، والقناعة. لهذا يمكن القول الآن، إن ما سماه طعمة الله صدمة، إنما كان نوعاً من التصادم الذي أخذ يقعقعُ داخل صدره مثل التنك. ماذا يفعل؟

التقرير الجاهز في جعبة طعمة الله يقول إن تبدلاً عاصفاً انتاب كيانه. وهذا تعبير مبتذل وعمومي، أظن أن المكتبي الصديق قد نقله من أحد الكتب المترجمة. ومع ذلك فإن من الضروري فحص طبيعة ذلك «التبدل العاصف» الذي يشير إليه طعمة، بعيداً عن رواية جميل من جهة، واستناداً إلى اعترافات ليلى التي اطلعت عليها في أوراقها المصادرة، والمحفوظة داخل الملف. تكتب مثلاً: «خمسة عشر يوماً ولم

يأت بعد!» وهي عبارة ملغزة بوجود مفردة «بعد» في نهايتها. هل تعني أنها كانت تنتظره؟ هل تعني أنهما بدأا يتواعدان؟ هل تعني أنهما اختصما، وتمزق النسيج الخفيف بينهما؟ ليس لدينا أي دليل يشير إلى الجواب الصحيح. وهي مأخوذة بالكامل، آخر الأمر، من حكاية طعمة الله، لا من الشخصية التي يمثلها عبد الله المصري في تاريخ آل السومري. إضافة إلى أنني أسجل هنا، في أعلى الصفحة المسودة، سؤالاً آخر محيراً هو: من الذي لم يأت بعد؟ أليس من المحتمل أن يكون قيس مثلاً، أو جميل، أو وضاح، أو أنا؟!

يلفت طعمة الله انتباهي هنا إلى الدور «الخبيث» الذي قام به عبد الله المصري، في قضية العصابة. «ما هو؟». لم يرد اسم المصري في الملف حتى الآن. ولكن التحذير حرضني على البحث، فأعدت القراءة بتمهل. أمضيت أكثر من عشر ساعات في السرداب أبحث عن المصري. إلى أن وجدت اسمه في لائحة اللجنة الأهلية التي تشكلت لدعم الجهود الأمنية في ملاحقة نشاط العصابة[6]. ثم اكتشفت مساءً وأنا أتسكع

6ـ اللجنة الأهلية لمساندة الإجراءات الأمنية، هو الاسم الذي عرفت به لجنة الأهالي للمراقبة والتنسيق، التي أسست بعد ظهور منشورات العصابة بأسبوع واحد، وقد بادر إلى إنشائها العقيد المتقاعد سلامة أبو شحرور. واسمها الشائع غريب ولم يتكرر في السنوات التالية، ولكنه يلخص ـ في الحقيقة ـ جوهر العمل التطوعي الذي انخرط فيه أكثر من مئة رجل وامرأة من أجل مناهضة النشاط العصبوي للكف الأسود.

كان من بين أفراد هذه اللجنة مدرسون في الثانويات والإعداديات، ومهندسون، وأطباء، ومحامون، ورجال أعمال وصحفي واحد، وتجار كبار وصغار، وأصحاب حوانيت، وحلاقون، وحدادون، وغيرهم من المواطنين. وأعتقد أن تشكيل اللجنة جرى برعاية من أحد رؤساء أجهزة الأمن، وأن تسمية أعضائها تم بمعرفته، وهذا يعني أنّهم مختارون جميعاً بعناية، دون أن يشير الكلام هنا، إلى احتمال تقربهم من المخابرات.

في المدينة، أنني ميّال جزئياً إلى المعاني التي يؤكدها طعمة الله. كأن الوجه الفاسد المجهول يشد الكتابة أكثر من السطح القريب المتوهج، أو كأن للمعنى الثاني (لأي شخص أو سلوك أو حدث) مصداقية وواقعية تضيّع المعنى الأول، أو تكشفه، تعريه، تقرر أنه ليس سوى هامش عضلي، خالٍ من الصحة.

يغريني أن أكتب أن عبد الله المصري تغيَّب عن منزل آل السومري بسبب الارتباك. لم يدر ماذا يفعل! وبدت خبراته الحياتية كلها كومة من الزبالة المتخلخلة التي يفوح منها عطن حريق. لا يمكن أيضاً أن أنفي أنه عانى من انقسام مريع بين مثله المعلنة، ومواعظه، وجهوده، أو بين الصورة المرسومة، والمعلمة بقلم أسود صريح، (يمكن أن يرى، ويقتفي، ويحب أيضاً) وبين الوجه الخفي الملعون. وفي رأي طعمة الله (يكرع العرق، ويتلمظ، ويبتلع نصف حبة بندورة ممسوحة بالملح) فإن عبد الله الذي رأى وجهه في كتابات ليلى، قرر أن يبادر إلى الاستجابة له، ويعلن الحقائق الروحية التي كانت كالماء تحت الطبقة المتحجرة لصخرة حياته. لكني لا أوافق طعمة الله على هذا التبسيط الذي يرغم البشر على التبدل والانقلاب بسبب النصوص والكلمات. والأرجح أن الرجل المسكين قد شقي وتعذب في تلك الليالي الفظيعة المهلكة التي أعقبت قراءة الاعترافات. لم يعد بوسعه أن يتغيَّب عن زيارة آل السومري، أكثر من ذلك. لقد صنع الحكاية بنفسه، وعرض تفاصيلها، ووقائعها على الناس كي يصدقوا أنها تحدث كما تُرى (والآن يجد نفسه

والحقيقة الثابتة أن الجميع أبدوا حماسة أخلاقية استثنائية في الاستجابة للعمل الأهلي، وهذه من المزايا التي لا يمكن الإزراء بها، في التأريخ لأشكال التعاون بين المجتمع والسلطة.

أول شخص يكذب تلك الترهات)، وبسبب الحياء (رأى طعمة الله أنه جُبن وخمول) عاد إلى هناك. لكن. ماذا يقول؟ بم يمكن أن يتذرع من أجل تبرير الغياب؟ يكتشف أنه (ربما بسبب الزيف والخداع) يتحوَّل إلى تلميذ هارب يبحث عن الأكاذيب لسد الغياب. ولأول مرة يشعر بأن القدر يضعه أمام لحظة حقيقية تضطره إلى الكذب. مفارقة مذهلة، ومغوية، حرضت خياله المتردد ليقول للمرأتين اللتين كانتا بانتظاره إنه ذهب إلى حلب لزيارة شقيقه، لا. سيقول إنه تغيَّب بسبب الحزن، والعجز عن مواجهة المكان في غياب حامد. يبدو الكذب أكثر قرباً إلى الحياة، إذ لا يمكن قول الحقيقة، دون أن نهز اليقين المريح. لكنه هنا لم يكن كاذباً لئيماً فقط، بل حزيناً بلا شرف، أو ضمير. أقول لطعمة الله إن مثل هذه المفردات لا يمكن أن نكتبها في وصف الشخصيات، لأنها مؤشر على الانحياز والتطرف، وعدم الفهم. لكنه يرد علي بموجة من الأسئلة: ألم يكن المصري يعلم شيئاً عن أزمة حامد؟ ألم يفكر يوماً أنه كان السبب فيها؟ هل يمكن لأحد أن يصدق أنه لا يعرف أن وجوده المتكرر في البيت، قرب ورد وليلى، ضعضع كيان ذلك الرجل الرخو (الطيب، قلت له) الطيب الرخو المثقل بالخطيئة. الخطيئة؟! لماذا؟! أحس أن طعمة الله أضحى راغباً في إضفاء المشاعر المتفجرة على شخص حامد، لكي يدعي أن شعوره الذي وصفه بالثقل، ناجم عن حقائق نهائية. أفكر أن حامد كان يرزح تحت وطأة ثلاث قصص: الأولى قصة ورد وعبد الله، والثانية: التكهنات التي بدأ يرددها الناس همساً في قبو النبيذ. فالظاهر أن تقارير العيون لم تبق حبيسة أدراج الأمن، لا لأن أحد الموظفين هناك سربها. لا. لم يحدث هذا، لا من قبل، ولا من بعد. بل لأن من بين المواطنين من يمكن أن يكون عيناً دون

مهام أمنية، أو أذناً في العمل الأهلي، أو أنفاً يشم الهواء للأغراض الشخصية. والمؤكد بحسب طعمة الله (الذي أقسم لي إنه لم يسمع، في ذلك الوقت، كلمة واحدة من هذه الأقاويل) أنها وضعت حامد في مأزق. لم يستطع أن يدافع عن المرأة الحبيسة، لأنه لم يجد منصة، أو قاموساً يقف وراءه لإلقاء المرافعة التي يعرف عنها أكثر مما يعرف أي شخص آخر. ولم يكن بوسعه زعزعة الأقاويل والحكايات (أفكر أن الحكايات تصنع مصيرنا، وتحدد رؤانا، تقرر أقدارنا) التي بدأ يرددها الناس. الثالثة: هو اعتقال ليلى (الترتيب هنا لا يخضع للتسلسل الزمني) والتحقيق معها من قبل المخابرات.

لا يستطيع طعمة الله أن ينكر أن عبد الله لم يتخلَّ عن حامد في المأزقين الثاني والثالث. صحيح أنه كان عاجزاً أيضاً، عن رد الكلام، أو قص الحكايات، أو تحطيم الأقاويل. ولكنه لم يتردد أبداً في الإعلان عن أن اتجاه الألسن لتأليف السمعة السيئة، هو واحدة من أكثر رذائل المجتمعات المحافظة. أذكر أنني استمعت إلى الأستاذ وهو يلقي محاضرة في هذا الشأن في المركز الثقافي، لم أفهم حينئذ هذا البعد السجالي المباشر، بل فكرت أن الأستاذ، يحاول أن يغرد خارج الأسراب المحلية المشغولة بالاقتصاد، والسياسة، والصراع الطبقي. وأظن أنه يتحمل قسطاً من المسؤولية بسبب الغموض، والتعميم، والاضطراب الذي وسم محاضرته. وبالمقابل، أو إلى جانب ذلك، واظب على زيارة بيت حامد طوال الأيام العشرة التي كانت ليلى فيها محجوزة، حسب تعبير قيس، في فرع الأمن. سيخرج من هناك ليلاً. يلاحظ أن رجلاً يتبعه، يحاول أن يتملص منه، دون جدوى. ففي كل مرة كان ذلك الرجل يظهر ويقف صامتاً، مراقباً أو يمشي متتبعاً خطاه كذئب صياد. يرتجف، يجزع من

ذلك الرصد الصارم الدؤوب الذي يلاحقه. ولهذا يسرع إلى بيته، يدخل، ويغلق الباب خلفه (هنا يمكن أن نضع الشخصية في مأزق: هل يبقى الضوء مطفأ، كي يتسنى له التلصص من خلف الستارة، والتأكد من خلو الشارع من المراقبين؟ هل يشعل الضوء، ويحرم نفسه من الطمأنينة لعجزه عن الظهور داخل مربع الضوء؟ هل يقفل الباب؟ هل يتركه مفتوحاً؟ هل يستمع إلى نشرة الأخبار أم إلى أحد برامج الموسيقى؟ سوف يلاحظ أن البيت كان مراقباً أيضاً، ففي نهاية الشارع كان يقف رجل طويل، ناحل، يدخن سيكارة) كانت زياراته يومية، تبدأ في السادسة مساءً، وتمتد إلى منتصف الليل. الغريب أن أحداً غير عبد الله، لم يأت إلى هناك، لا من بين الأقرباء، ولا من الأصدقاء. وعلى الرغم من خيبة الأسرة، فقد دافع وضاح عما حدث. وادعى أنه أمر علمي من الناحيتين الاجتماعية والإنسانية، اجتماعياً: من المنطقي أن يقاطع المجتمع بيتاً يضم فتاة معتقلة بتهمة لا أخلاقية. إنسانياً: من الطبيعي أن يخاف الناس بيتاً مشبوهاً وموضوعاً تحت المراقبة، قلت لوضاح أن يشرح لي كيف سيحل مسألة براءة ليلى؟ (التي نعرفها نحن الأربعة أعضاء اللجنة التأسيسية للعصابة، وعلمية موقف الناس؟) وفي هاتين الحالتين فإن موقف عبد الله كان ملتبساً، فمن جهة بدا كأنه يرتكب مخالفة متعمدة وصريحة ضد الوسط الاجتماعي الذي يحترمه. ومن جهة ثانية أثبت أنه يرفض معاييره الصورية، بقدر ما يرفض الخنوع أمام التقدم الحثيث للمرحلة الأمنية. فمن هو عبد الله المصري إذن؟ يقهقه طعمة الله، يضرب أخماسه بأسداسه ثم يقول لي: فكر بالفراغ! أفكر بالفراغ. يحدث أن أرى وسط الدائرة التكليف الحكومي لعبد الله المصري بحل (أو العمل على حل) الشفرات

المدسوسة داخل نصوص العصابة، ومنشوراتها. يحدث أن أرى الأستاذ يباشر عمله ابتداءً من لحظة استلام الرسائل، المنشورات.

وجدت كتاباته، وتحليلاته في الأرشيف. ولكن معظم تلك التحليلات، بدت، أو كانت في حقيقة الأمر، مفتعلة، بسبب الهدف أو الغاية التي توخاها المصري. ومن الواضح أنه استعان بنصوص مخطوطة كتبها أحد المفسرين المولعين بترجمة الحروف والنقط إلى أرقام وحسابات. وقد تلقى الأستاذ توبيخاً من رئيس الدائرة على ذلك الميل الديني. فأنكر عبد الله بقوة، أن يكون تفسيره أو تأويله مستنداً إلى أي سقف مستعار. وقال إنه استعان بتلك القراءات الرقمية تقنياً فقط، ليكتشف مقاصد أفراد العصابة.

أقدِّر الآن أن مشاركة عبد الله المصري في اللجنة الأهلية، أو قبوله يقراءة المنشورات، كانت وسيلته لتضليل التحقيق. وهذا وحده قد يفسر الالتباس الظاهر في كتاباته. أقدِّر أيضاً أن الالتباس كان في داخله، في أعماقه، حين عرف أن عليه أن يتضامن مع الأسرة المنكوبة. التزام أخلاقي وضميري، لم يستطع الفقه الحكومي أو الأمني أن يقلل منه، أو يزعزعه. وهكذا بدلاً من تلك الرؤية الشعبية التي أخذت تقر بأن الاعتقال يعني الإدانة، والبرهان على الجريمة، ظل المصري صامداً يجاهر بأن العدالة هي الوحيدة المخولة بإصدار الأحكام. يرى عبد الله غير ما يراه الآخرون: يرى وجهاً موشحاً بالحزن الدفين المذعور، يرى صديقاً يقف قبالة النافذة المطلة على الشارع، بحثاً عن وجه متعاطف. يرى العزلة المقبلة، يرى الخوف المتسلل، يرى أناساً يروضون أنفسهم ليحسنوا الجلوس وراء القضبان المعدة لهم في السيرك، يرى كل ما يحتاج إليه المرء من أجل أن يصمت، ويطيع، ويسكت.

يقرأ طعمة الله الصفحات السابقة، ويهز رأسه آسفاً، ويقول لي: إنك ترى الوجه الآخر المزوَّر، المشيَّد وفق متطلبات الآخرين!

يدعي طعمة الله أن الحياة دار للمسرح، وأن الناس يتوزعون فيها بحسب الأدوار المطلوبة. فمنهم من يمضي عمره بين الكواليس، ومنهم من يظل في غرف تبديل الملابس، ومنهم من يبقى في مخازن الأقنعة، ومنهم من يتخشَّب في مرحلة البروفات، منهم من يظل داخل النصوص، أو من يتسلل إلى الأسطر. وجميع هؤلاء لا يجرؤون على الصعود إلى الخشبة بسبب الوجل من المواجهة، أو بسبب الخجل من الرهبة والعظمة والقوة التي تعبِّر عن الله، أو بسبب الارتياب من الحقائق الساطعة، أو بسبب اليأس المبكر. يزعم أنه لم يتحدث عن عبد الله إلا حين رآه يصعد إلى الخشبة دون أن يكون ممثلاً. ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟! ما الذي دفعه إلى الصعود؟! ما إنجازه في هذه الحياة؟ لم يكن عبد الله في نظر طعمة الله إلا مجرد بدوي متسلل يهرِّب إلى الحياة روثاً وبعر جمال. قلت: لا أفهم، قال: لا يمكن أن يكون عبد الله عضواً في اللجنة الأهلية، ومكلفاً بقراءة الشفرات، ومتعاطفاً مع المتهمة في آن واحد. إنه هنا من أجل التعتيم فقط. ما بك؟! لقد وضعوه من أجل تدارك النواقص، وسد الثغرات.

يزعم المكتبي أن عبد الله المصري كان يمثل الحضور المضمر للأمن، الحضور الذي يأتي ولا يظهر، يكون ولا يكون، يرى ويسمع ويشم دون أن يعلم أحد أنه يسجل ما يحدث. يزعم المكتبي أن عبد الله ظل يزور آل السومري من أجل أن يلتقط الإشارة الخفية التي لم يستطع المحقق أن يلتقطها من البنت السجينة، عن أحوال العصابة.

يظهر طعمة الله أحياناً مثل صدى. ويظهر أحياناً أخرى مثل

ضمير، ولكن ليس لدي أي التزام أخلاقي تجاهه، بخصوص فواتير الذكريات، لكني أظن أن المشهد قد اكتمل: فحين خرجت ليلى من المعتقل، كانت الدنيا متغيرة. لم يكن في خروجها أي مظهر رومانسي من تلك المشاهد التي رأتها في الأفلام المصرية، أو الأمريكية، حين ينتظر الحبيب الحبيبة، أو الحبيبة الحبيب عند البوابة الضخمة. لم تسمع شعراً أو هتافات مؤيدة، وقد أُرغمت على النزول من السيارة البيضاء، بعد مغيب الشمس في أحد الأزقة الخاوية، بالقرب من عين الزمان. طفرت دمعتان من عينيها، كان مذاقهما مالحاً، على الرغم من غموض الأسباب. إذ لم تستطع أن تمسك بأي شعور محدد يمكن أن يمنح الدموع مذاقاً خاصاً كي تدمجه باللحظة. لا الفرج. لا الخيبة. لا الإحباط. لا الخواء. لا الغرابة. لا الملل. لا الرغبة في الاستحمام مثلاً أو شرب الشاي، أو النوم على الحصيرة. لا شيء أيضاً. ومع أنها كانت تمتلك الوقت الكافي للتفكير في معنى اللحظة، إذ يلزمها ثلث ساعة على الأقل للوصول إلى بيتها، فقد آثرت أن تكبح أي سؤال من تلك الأسئلة المحتملة التي يغيرُ بها الناس عادة على أنفسهم، في أعقاب التجارب المريرة. وحين وصلت، وجدت أن رأسها فارغة، لا من الأسئلة وحدها، بل من القدرة على التصريح، أو البوح، أو وصف ما حدث، على غرار أي معتقل يجدر به أن يتغنى ببطولته، أو يشكو الظلم الذي لحق به. لا. لا شيء من هذا، أو من أي أمر آخر.

ما أراحها، أنه لم يأت كثيرون للاطمئنان عليها، ولم يكن بين من جاؤوا، من يرغب، عدا هند أبو علوان وأنا، في الاستماع إلى ملاحظات السجينة. وهذه واحدة من الصفات أو الطباع الجديدة التي اكتسبها السوريون بالفطرة من واقع حملات الاعتقال العشوائية أو المعدة جيداً،

التي بدأت تنفذ في البلاد. هذه هي استنتاجاتي اللاحقة، خاصة أنني لم أستطع أن أفسر اندفاعي وحيداً (فقد رفض قيس وجميل ووضاح مرافقتي إلى منزل حامد السومري) لتحية ليلى. كما لم أتمكن من تفهم موقف أفراد العصابة إلا في ضوء المعطى السابق. ولأني لم أكن أعلم سبب الاعتقال، فقد غادرت المنزل جاهلاً كما جئت، وهو ما منحني القدرة على التأويل لاحقاً لكل حركة، أو همسة، أو إشارة، أو مفردة نائية، استطعت أن ألاحظها، أو أسمعها، في ذلك المنزل الحزين، عصر ذلك اليوم.

اللافت مثلاً أن ليلى استقبلتني بلا رتوش. أهلاً قالت، ثم سحبتني من يدي، دون أن تنزع كفها من كفي إلى الداخل، وقادتني مثل طفل إلى غرفتها، غرفة الضيوف فيها نسوان، قالت لي دون حماسة. وحين جلست، وقبل أن أجيل نظري في المكان، قالت: أشتهي القهوة، سنشربها معاً. كانت تقاليد القهوة الحلوة امتيازاً لأعراف الضيافة الرسمية آنئذ، ولم تتحول بعد إلى أن تُصبح خياراً جماهيرياً. ولكن ليلى قدمتها لي كإعلان عن الصداقة. لقد مرت أكثر من خمس وعشرين سنة، شربتُ خلالها صهريجاً من القهوة. دون أن أنسى طعم الرشفة الأولى من فنجان البورسلان الصيني الحليبي اللون الذي قدمت لي فيه قهوتها. لا أبدد الكلمات، ولا أسفحها مجاناً، ولكن ربما كان الطقس الذي أحاط بي أثر في ترسيخ مذاق تلك القهوة، أقول ربما، فالغرفة التي كنت أدخلها لأول مرة، كانت مفروشة بأرائك من خشب الجوز المحفور بزخارف نباتية، وصور حيوانات (غزلان على الأرجح) وحروف عربية. أذكر أيضاً أن الستائر أثارت إعجابي. كانت تلك أول مرة أرى فيها بالعين المجردة، ستائر من المخمل الزيتي، لها

شكل بتلة مقلوبة. كانت هناك على الحائط لوحات مشغولة بالكنفا، وواحدة مرسومة بالزيت على قماش نضر، تمثل منظراً طبيعياً لجبل مجهول. ثمة في الزاوية خزانة خشبية مطعمة بالصدف البحري، وفيها أكثر من مئتي كتاب. لم تترك ليلى لي فرصة قراءة العناوين في تلك المرة، فقد انخرطت وحدها تقريباً، في الأحاديث. بدت مثل قطة جائعة تموء في محيط الكلام، تبحث عن أي لقية، أو نتفة شاردة، كي تلتهمها، وقد قلت لها شيئاً من ذلك، أثناء الحديث، دون تخطيط، أو تفكير في إحدى الفرص التي أتيحت لي للكلام: أنت جوعانة للحكي؟! فقالت: إي والله. لم تكن ثرثرة النساء تزعجني، بالعكس. فقد اعتدت أن أكتب وظائفي، أو أرسم خرائطي، أو أغفو أحياناً قرب حلقاتهن حول فراش أمي المريضة. لكن ليلى جعلتني أكثر يقظة، تلكمني في كتفي، أو تطلق عياراً عالياً من النبر، أو تضع كفها فوق كفي، كلما أرادت إثارة تشكيل جديد في الحديث، عرضت علي نقاشاً مقارناً مثلاً بين التوفير والمتعة. وهي نظرية جديدة، ادعت أنها توصلت إليها: فالإنسان ـ بحسب ليلى الخارجة من المعتقل ـ يجد نفسه مبدداً بين هذين الدافعين اللذين يخلقهما المجتمع. فالسوق مثلاً مليء بالسلع، والحاجات، والألبسة، والأحذية، والأثاث، والأدوات التي تمنح الإنسان متعة غير محدودة، ولكن الانضباط والأفكار تنبهنا إلى ضرورة التوفير والاقتصاد في النفقات. لذلك ينقسم الإنسان حائراً: إما أن يصير غراباً، أي ينسى مشيته، ولا يعرف تقليد مشية الهدهد، وإما أن يصير مثل معايد القريتين (وهو مثل أعرفه يلخص قصة رجل ترك قريته آملاً أن يجد عيداً مغايراً في قرية أخرى، لكنه وصل متأخراً فعاد، ولم يجد العيد في قريته، فخسر العيدين، أو شيئاً من هذا القبيل)

يعني إما أن تنتصر المتعة، فتدوسه عجلات السوق، وإما أن ينجح في السيطرة عليها، ويمسك برسن التوفير، وعندئذ يحزن، ويكتئب.

استمعت إليها ذاهلاً. وأكثر ما أدهشني هو أنها كانت تمسح شفتها السفلى بسبابتها ووسطاها معاً، كل بضع دقائق. أردت أن أقول لها إنَّ الموضوع لا يعنيني، وإنني لا أحب الألغاز، ولكني لم أجرؤ، إذ كانت تحاصرني تقريباً، فمقعدي كان في صدر الغرفة، فيما جلست هي من جهة الباب. وهذا يعني أن من واجبي أن أشارك في الحديث، بما يناسب المقام الذي حشرت نفسي فيه. وبسبب الارتباك أو الجهل، عجزت عن إدراك المغزى الكامن في التحليل الذي تقدمه ليلى. هذا ما أفكر فيه الآن، أما في تلك اللحظة فقد سألت: أنت مع من؟ فأجابتني بأنه سؤال سخيف. (الطريف أنني وجدت تأريخاً لهذا اللقاء في واحدة من أوراقها تنعتني فيه بأنني متحذلق) فقررت أن أغادر المنزل، خاصة حين تمطت، وغمغمت: أحس أن جسمي مثل النايلون! غير أن ليلى أرغمتني على البقاء، حين قالت إن مغادرتي الآن تعني أنها سوف تبيت الليلة بلا عشاء، وأنها لم تأكل شيئاً منذ عشرين ساعة، وهو ما أثار مشاعري، وجعلني أتحطم تقريباً تحت وطأة الشفقة من جهة، والإيمان بأنني قد أكون المنقذ من الجوع من جهة ثانية. وهكذا جلست من جديد، حتى إذا جاء العشاء، أطعمتني بيدها من البيض المقلي مع اللحم والكمون، وظلت تصب الشاي لي كلما فرغت الكأس، ورفضت اعتذاري عن تناول مربى المشمش مع الزبدة الهولندية (لا أذكر لماذا اعتذرت، فقد كنت أعبد مربى المشمش مع الزبدة). أحسست أنني أتناول وجبة فردوسية، طعام عشاق، صار الخبز رسالة، بدت حبات الزيتون التي تناولناها، مع قضمات عابرة لرؤوس الأصابع، إشارات عن المشاعر، وصارت عبارات مثل: كل من هذا! أو من هذا!

شفرات للنشوة، والاستمتاع بالمعنى الدفين المختبئ وراء فعل الأمر، واسم الإشارة (كنت أريد أن أهتف: اللعنة على التوفير) وأظن الآن أننا تمكنا ـ في تلك اللحظات ـ من إكساء المفردات العادية الأخرى بشحنات دسمة من الرموز الغنية بالمثيرات التي كانت تتغير، وتتبدل مع كل تغير في النبرة أو الطريقة أو حركة الشفاه، أو العيون، بحيث، قد يبدو أنه ليس من الحكمة أن يكشف أي منا أي غطاء آخر لها. حتى إنني لم أرو شيئاً مما حدث لأحد، وهي واحدة من المخالفات التي ارتكبتها بحق العصابة، إذ كان من بين مواثيق الشرف التي تعاهدنا عليها، ألا يخفي أحدنا عن الآخرين أسراره. وقد أمضيت ليلة أو ليلتين، وأنا أحاول أن أجد مفردات أخرى غير قابلة للدخول في المفاوضات، أو عظات التأنيب، أو سخط الرفاق، دون جدوى. لهذا اكتفيت بالصمت، والكتمان. وفي كل الأحوال فإنني اليوم أنكر أن يكون ما حدث في تلك الساعة، ينتمي إلى عائلة الأسرار التي تعاهدنا على عدم إخفائها، ولا إلى المسائل التي يُسمح بتداولها، ولا إلى الأحداث الجاهزة للنشر، ولا إلى النصوص المعدة للتحرير، ولا إلى الدوارق الممتلئة بالحبر السائل، ولا إلى الصفحات القابلة للتفسير، ولم آبه في الحقيقة لغضب قيس بالأمس حين قال: «الآن عرفنا الخائن!». لأن قيس لا يملك أي صلاحية أخلاقية في هذا الشأن، وقد بت أعرف أنه حسود، ومبطن بالعداء لكل إبداع، أو ابتكار في الأمور الدنيوية. (والمفارقة اليوم هي أن يكون الكتوم خائناً) ومن الصعب على رجل من هذا الطراز أن تكون لديه القدرة، أو القوة الروحية، لتقمص حالة مشابهة للحالة التي كنا عليها أنا وليلى. فقد اعتاد أن يرى ما يؤكل دون أن يرى الجوهر الذي جعله صالحاً للأكل، ثم تدرب على السطو، دون أن يهتم بقيمة الأشياء التي تجعلها مغوية (لن أنس قول وضاح الشهير: لا تنس السنونو). ولذلك

فإنَّ قيس وأمثاله عاجزون عن استيعاب الخفاء الروحي الذي يضمره ذلك العشاء. ولعل رد فعله، وهتافه الدّاهم، أفضل تعبير عن صحة موقفي الأول المناوئ لأعمال الجماعة. فالثابت، بناءً على اعتراضات قيس، وتعليقات وضاح، وجميل أنهم بلا خيال، أو أن التشابه المطلوب لديهم بيننا، يزحزح حدود الاختلاف، ويلغي فرضيات المخيلة اللامحدودة. ولهذا فإن اتهام قيس لي بالخيانة، بدا مثل أمر العنزة التي تعتقد أن ناي الراعي، هو الغصن الذي لم تطله في الشجرة التي تسلقتها، وحطمت فروعها. هراء - كما يردد طعمة الله - ولهذا السبب بالذات، فكرت أن أكتم ما تبقى من سيرتنا المشتركة أنا وليلى، بما في ذلك بالطبع رغبتي المجنونة في معرفة رأيها بالرسالة التي كتبناها لها (وقد كنت أظن أننا أرسلنا لها رسالة الحب). لا أذكر لماذا لم أفعل، ويبدو لي أنه الإلهام الرباني الذي ارتأى أن يحميني من الزلل، ويحميها من الدمار.

أذكر - أو أتخيل - أنني التقيت بها صباح اليوم التالي في الطريق، ابتسمت لي، وسرنا معاً، بعد «صباح الخير» المستلهمة من عضات المساء. وفي طريقنا، سألنا عن الأفلام التي ستُعرض مساءً في داري السينما المتجاورتين. اتفقنا أن نشاهد الفيلم الأمريكي الذي يمثل فيه روك هدسون. غير أنها لم تف بوعدها في المساء، وتذرعت بأنها متعبة، وأن معدتها تؤلمها بسبب البرد أو الإرهاق، وهو ما جعل وضاح يبدي رضاه عن الأحداث. الغريب أن السبب لم يكن اعتذارها عن مرافقتي (وإن كنت أعتقد أن وضاح يحقد علي وعليها) بل امتناعها (حسب ادعائه) عن مرافقتي لحضور الفيلم الأمريكي. لا أعرف كيف استخلص رفيقنا تحليله الغريب (الطريف) عمَّا سماه الرفض المبكر للثقافة الأمريكية

في الوعي الشاب، استناداً إلى اعتذار ليلى. ولهذا السبب أجد نفسي مضطراً لإفشاء سر خبأته في ذلك الوقت عن العصابة. فقد فُتِنَت ليلى بالممثل الأمريكي الشاب الذي كان يملأ أفيش الفيلم الملون الملصق على واجهة سينما سرايا بابتسامته الماكرة، ونظرته الأكولة، وأسنانه المتوعدة. وعلى الرغم من محاولاتي الجادة للتقليل من أهمية حضوره الفني في السينما، فقد أعلنت بوضوح أنه ينظر إليها شخصياً من الصورة، وهو ما أرقني طوال ذلك اليوم (لم يلاحظ قيس انشغالي بسبب طيشه، ولم ينتبه جميل إلي بسبب لامبالاته، ولم يعرني وضاح انتباهاً بسبب أفكاره) وأدى إلى خسارتي خمس درجات، من سلم علاماتي الذي كان يحقق ارتفاعاً في مادة التربية الزراعية. علماً أنني أنا الذي فكرت في الاستراحة، أن بوسعي أن أتفوق على الممثل في الكثير من القضايا المحلية الخاصة بليلى، حيث يستحيل عليه أن يؤمن بجمالها لاختلاف معايير الجمال في ثقافتنا، أو يمتدح غناءها، لغياب الخبرة لديه بالمقامات الشرقية التي تحتفي بربع الصوت، أو يتفهم لونها الأسمر، في ظل تشبعه بالتفرقة العنصرية. ومع ذلك فإنني لم أجد حتى اليوم جواباً على سؤالي لنفسي: لم لمّ أفش، أو لم أش بهواجس ليلى لأي من رفاقي في التنظيم. أفكر أحياناً في أن هذا الخلل الحسابي قد أضر بالعمل، عن طريق غير مباشرة، ربما أقول، ربما يجب أن أقول، هل كان السبب غضبي (إحباطي، خيبتي) من اعتذارها عن مرافقتي إلى السينما؟ المؤكد أنني لم أصدق ذرائعها التي لم تكن تشبهها، فتسكعت في الشوارع بلا هدف. كان برد، ولم يكن أحد يجوب الطرقات والأزقة، باستثناء بضع عجائز من الرجال والنساء الذين كانوا يقصدون بيوت العبادة. وحين عدت إلى المنزل كانت أمي

نائمة، فتمنيت لو كان باستطاعتها أن تنهض كي ترى السينما التي لا تعرف عنها شيئاً، ثم قرأت دروس التربية الزراعية، آملاً في تعويض الخسارات. كان الدرس يتحدث عن تربية النحل، ويقدم مديحاً للعسل، لم أفهم منه شيئاً لأنني لم أرَ النحل، ولا ذقت العسل. ثم اكتشفت أن القراءة بلا نفع، إذ كانت المعلومات تتلاشى كالغبار، أو تتسرب كالماء من بين أصابعي، فيما كانت ليلى تظهر وراء الكلمات (كنت قد كتبت تتلألأ، غير أنني أميل الآن إلى إلغاء المفردات الملونة، المثقلة بحمولة زائدة من العاطفة) وتمنعُ عيني عن رؤية المعنى، أو حفظه أو نسخه إلى ذاكرتي، أو إلى عقلي الذي انشغل بكل تفصيل أو جزئية، أو حركة يد، أو انزلاقة لسان مما أبدته ليلى في الأيام الماضية. شعرت أنني مريض، وأنني لا أقوى على القيام من مجلسي، وليست لدي الرغبة في أي شيء. وما زاد في تعبي هو أنني كنت كلما حاولت أن أستعيد قصة سعيدة من لقاءاتنا الأخيرة، أحشر بداخلها لقطة متقرحة من ردود ليلى، أو تصرفاتها الجارحة. لماذا؟ لا أعلم. ولم أتمكن من استعادة الدرجات المشطوبة من سلم علاماتي، بأي حال. وفي الليل جفاني النوم، فسهرت أتسلى بالكتابة. نسخت بيت العباس بن الأحنف: خذوا لي منها جرعة في زجاجة/ألا إنها لو تعلمون طبيبي، أكثر من مئة مرة، ثم نسخت بيتاً آخر له هو: أبكي الذين أذاقوني مودتهم/ حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا، مئة وسبع عشرة مرة.

الغريب أن ليلى كانت تكتب في تلك الليلة أحد بياناتها، أو استفساراتها، أو تساؤلاتها عن غياب رسالة الحب. وجدت المكتوب بين أوراقها التي أخذتها من ألف ليلة في صفقة طعمة الله مع ورد. وقد لاحظت التاريخ الذي ختمت به الورقة. أفترض أنه يطابق الليلة التي

نسخت فيها نداءاتي إليها، مع فارق جارح، وحزين، هو أنها كانت تنادي مجهولاً، غائباً، غريباً، محتجباً، لتسأله: لماذا لم ترسل لي رسالة حب؟! وقبل أن أقتطف بعض الفقرات من تلك الورقة أقر بأن نصوصها ترمي بنشاطي النسخي المتواضع إلى المزبلة، وأهمها بلا شك جرأتها على التدوين بعد خروجها من السجن بثلاثة أيام فقط، في الوقت الذي كان يمكن أن تكون مثل هذه الكتابات، أخص بالذكر منها رسائلها العشقية إلى نفسها، أحد الأدلة على إدانتها، بجرم تشكيل العصابة، وتوزيع منشورات الحب. وثانيها هو يقينها بأنها تعرضت لظلم فادح أحمق، لا من قبل المخابرات وحدهم، بل من قبل أفراد العصابة أنفسهم، (وهو ما يدفعني لأن أسأل: لماذا لم نرسل لها رسالة حب؟!) وثالثها هو أنها بدَّلت اتجاه الكتابة، من العشق إلى الشبق، من السؤال إلى النداء، من الرمز إلى المباشرة، من المجرد إلى الحسي، من الضعف إلى القوة، وهي سمات أسلوبية مناقضة ومغايرة، لما اعتادت عليه كتابة ما بعد السجن العربية، وهي كتابة تميل إلى الصورة، والرسم، والمحاكمة، وتقديم الثبوتيات اللازمة لتكبير الضحية، وإدانة الجلاد، واتسمت عموماً بالميل إلى العاطفية، واستدرار الدموع، وترهيب الوجدان.. الخ، وقد أمضينا، أنا وطعمة الله، بضعة أيام، نناقش أهلية النصوص، لا للنشر فقط، بل شرعية نسبتها إلى ليلى، دون أن نصل إلى يقين. بل إن طعمة الله شكك بصحة ذلك وحجته (أشعر أنه يتخابث) هي أن الكتابة العربية لم تكن قد شهدت بعدُ، هذا المنحى الشبقي الراغب في توثين الجسد، فقلت: إنه سينشر الآن ضمن نص آخر، ينزع عنه فكر التاريخ، ويمحو منه شروط الزمان والمكان، لكنه لم يوافق، قال إنها - أي النصوص - قد تشوه الصورة المفترضة لأهواء بنت في الثامنة عشرة من العمر، أو إنها قد تدمر كتاب الحب المفقود الذي تنهض عليه

أناشيد كتابي، أو إنها قد تبلبل قصة الرسائل التي أرادت أن تدعو إلى العشق في الزمن الذي تدفق الناس فيه على الإيديولوجيا. فصرخت به: توقف. كفاكَ إذ لا يمكننا أبداً أن نخلق مواجهة بين العباس بن الأحنف، أو قيس أو جميل بثينة، أو عمر بن أبي ربيعة، أو نزار قباني، وبين ميشيل عفلق أو ماركس. قلت له: إن البحث في الأرشيف أراد أن يحدق في الوثائق الملغاة، والملفات المضيعة، والخصوصيات المدفونة في السراديب، لا أن يخوض حرباً ضد أحد. لهذا فإن ما أرغب فيه هو ضمان الحقيقة، لا تسجيل النقاط. ويشجعني على ذلك أن كتابات ليلى لا تأتي من جرن التاريخ هذه المرة. ولذلك فإن من غير المعقول أن توضع جداول مقارنة مع أي معطى تاريخي. إذ لا تزيد عن كونها تعبيراً عن رغبات جسد مقهور، يحاول أن يتنفس وحيداً على الورق، بعد أن زفرت الروح من قبل. وسوف يتمكن أي شخص يطلع على هذه الكتابات من فحص صحة تقديري لها على هذا النحو، ومنها هذا المقتطف: «أعرف أنك حاضر وموجود، فتعال إذن! تعال لترى، أو تأخذ، أو تلمس، أو تجمع، أو تجس، أو تشم، أو تلج، أو تمزق. فإذا ما جئت فسوف ترى شعري، وجهي، عنقي، كتفيَّ، ذراعيَّ، اللذين سأطوق عنقك بهما، بطني المشدود مثل دفتر رسم، وركي، أشيائي السرية، فخذيَّ المدورين حيث يمكنك أن ترى على حافة الأيمن شامة مربعة سوداء مدهشة. سوف ترى ركبتي، ساقيّ. تعال لترى مشط قدمي الذي كسمكة». أو هذا المقتطف: «وإذا ما جئت فسوف تأخذ قبلة من شفتي اللتين لم يقبلهما أحد قبلك، خذ لساني، أسناني، أنفاسي، خذ حلمتي نهدي اللتين بلون اللوز، خذ خصري، وركي، مياه أحشائي» يتطور النثر هنا صاعداً، نحو معظم الاحتمالات التي يمكن أن تقدمها الأفعال المضارعة التي كتبت بها أوراقها، وهناك مثلاً جردة ترشيحات لفعل تلمس مثل: «تستطيع أن

تلمس هناك ما شئت. تجوب المكان كله بيدك. من أقصى جسدي حيث شعري المترامي، نزولاً إلى صدري، وبطني، وردفي وأطراف فخذي. ومن هناك يصل مشوارك المتلمس إلى حيث يمكن أن تمضي ما شئت من الوقت، كي تعد شعر عانتي، وتحس بدفء مائي، وسخونة جوفي الذي ينتظرك. لتملأ بطنك بعدئذ من بستاني».

لم أفهم هذه العبارة تماماً، وأظن أنها مجاز رديء، لتجسيد الشهوة، بينما رجَّح طعمة الله أن تكون ناجمة عن جهل البنت بالجنس والجماع، واعتمادها على الأخيلة المجردة.

لا أستطيع أن أثبت العكس، فليلى، امتنعت عن استقبالي في الأيام التي تلت نكسة السينما، كما رفضت تبادل الحديث معي حين لحقت بها في الشارع صباحاً. ابتسمت لي دون حماسة ثم همست «ممكن؟!» فتركتها حالاً، إذ إن الممكن يعني استعدادي للتخلي عن الرفقة. أذكر أنها بدت حزينة، ومتعبة، وبدا كأنها نعسانة، لأن صوتها كان بلا رنين، ونبرتها كانت متراخية، ومشيتها كانت بطيئة دون إيقاعاتها المعتادة. وهي أوضاع لا تساعد على الرفقة، أو المحادثة. غير أنني عدت عند الظهر، فابتسمت لي من بعيد حين رأتني، تهامست مع فتاة أخرى تمشي قربها، ثم انفصلت عنها، وودعتها بإشارة رقيقة من أصابع يدها اليسرى. أسرعت نحوها، لا أصدق ما يحدث. يبدو لي أنه صورة مستعارة من الحلم، أو من هوامش الأفلام. لا أذكر ما هو شعوري، ولكني أعتقد أن مقدار السعادة كان ضخماً إلى مرتبة الحنق. وأظن أنني كدت أختنق، ويمكن أن أكتب جملاً عن العجز، والذهول بحيث أنني لم أجد وسيلة للتعبير عن مشاعري، لا بالصوت، ولا بالحركة. وقد نسيت المفردات المحفوظة في دفتر تعليمات قيس، لكني تمكنت

أخيراً، أي قبل أن تصل إلي بخطوات من ابتكار ابتسامة حب، أجزم اليوم، أنها كانت بلهاء. لكن ليلى تجاهلتها، وقالت «مرحباً» المعتادة، أو أنها قالت «ولك مرحبا» التي لم أسمعها منذ ثلاث سنوات، أو أكثر، ثم أحسست أنها تدفعني: «امش!» لأنني، بحسب النبرة الآمرة الخالية من الود، كنت ما أزال واقفاً.

عبرنا الجسر ببطء، سألتني: هل تحب هذا المنظر؟. وأشارت إلى الوادي الذي كانت تجري فيه مياه الشتاء متدفقة من الجبال، قلت: جداً. دون أن أعلم لماذا في الحقيقة، إذ لم أتخيل أن تكون بيني وبين المياه الطينية أي علاقة. قالت: تعرف؟ أفكر أحياناً أن أرمي نفسي من هنا. الحقيقة هي أنني أشتهي ذلك. شيء ما بداخلي يغريني بأن أجرب هذا السقوط. فقلت بلا تفكير: سأزعل كثيراً، ثم أضفت: سأزعل منك وأزعل عليك. كانت هذه العبارة واحدة من أكثر العبارات أهمية خلال فترة إعادة تأهيل علاقتنا.

فرمقتني بعينيها العسليتين، وابتسمت ابتسامة قصيرة، وحزينة، لا، لم تبتسم، وإنما راقبتني فقط. أو إنها راقبت ذلك الفتى الغريب الذي لا يفهم كلمة مما تقول، أو لا يدري شيئاً عن العالم الذي ترنو إليه. وهو ما كتبته في الليلة التالية عن حلم راودها: من هنا صعدنا درجاً لولبياً. وولجنا إلى غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها على أربعة أمتار، كان هناك رجل يجلس على كرسي، ويمد رجليه مستقيمتين إلى الأمام، بحيث يسد الطريق إلى الباب. وآخر يجلس على كرسي حمام، داخل نطاق ضيق. كانت الرائحة قاتلة، رائحة زيت، فرفعت أكمامي وغطيت فمي وأنفي، وخرجت. رأيت باحة واسعة مبلطة بالحجارة السوداء، تسطع فيها عشرات البقع الممتلئة بالماء، وكانت نساء يجلسن بالقرب

من الحيطان قبالة الشمس، فسألتني: عم تبحثين؟. فقلت: أبحث عن حبيبي.

لا أعرف أي تفسير. وإذا ما وضعت الحلم داخل الزمن، أكتشف (يقول طعمة إن هذا ما أريده لنفسي) أنني لم أكن أعني لها شيئاً.

سرنا إذن باتجاه بيتها، وسألتها: كيف حالك؟ قالت: ليش؟. لأنني رأيتك حزينة منذ أيام؟. قالت: بحسب ما أتذكر أظن أنني كنت حزينة على حالي. فأكتفي بالصمت، وأتابع المشي قربها، إلى أن تقول: احكِ! وهذا يضعني في متاهة. فأسأل: عن أي شيء؟ تضحك: إذا لم تعرف الآن أن تحكي فلن تعرف أبداً (وذلك كان تحريفاً وهذراً). ففكرت عندئذ أن أقول لها إنني أحبها، ولكني لم أفعل، ويبدو لي أحياناً، الآن، أن كل ما أفعله هو أن أثبت لها أن بوسعي أن أظل أحكي إلى الأبد، وأن النتائج الفكرية التي تصل إليها، كلما تحدثنا، ليست صحيحة، وأنه إذا لم يتمكن العاشق من اختراع الأحاديث، أو التعليق على الأمكنة، أو إصدار الأحكام، أو الحلم، أو التحليق، أو عدم الخوف من الملاحظات البائسة التي يبديها المعشوق عن الرغبة في رمي نفسه إلى الماء، فهذا لا يعني أن عليه أن يسف التراب. ومع ذلك لم أقل شيئاً. ولم أجرؤ على أن أقول إنني خاو، وفارغ، وليس لدي رصيد كاف من الحكي كي أستخدمه في اللقاء. والأدهى من ذلك أن ما أريد قوله، أعجز عن قوله، أخشى أن أخسره إذا ما قلته في لحظة غير مناسبة. ولهذا فإن من الأفضل، في تلك اللحظات، أن أبقى صامتاً كالحجر، على أن ....[7]

7ـ أخيراً لاحظت أن القبو أخذ يخلو من الموجودات الورقية التي كانت مكدسة فيه. بدأت النتائج المرجوة تتجلى في الفراغ، مضفية عليه نكهة الإنجاز. كنت أسجل أسماء الملفات التالفة، دون إحصاء الأعداد. وبوسعي الآن أن أزهو بوضع الرقم ثلاثة آلاف ومئة وخمسة عشر ملفاً وإضبارة ومصنفاً ووثيقة ومحفوظة تالفة إزاء اسمي،

على الرغم من أنها ما عادت تزيد عن عبوة برميل من الرماد الهش. ومع أنه يمكن للمرء أن يحزن، أو يأسف على هذا التحول المخزي للتاريخ المكتوب، فالحقيقة هي أنني كنت بلا مشاعر، أواجه الأمر بحس التقني المخلص في التنفيذ، وهو ما أثار حفيظة خالد الطبال الذي أطلق صفارة فمية متقطعة من النوع الذي أبغضه، وتحدث بطريقة ملتوية عن أنه لم يكن يتخيَّل أن باستطاعة شخص ما، فرد، ووحيد، ومعزول أن يحرق الماضي المكتوب كله بقشة كبريت!. وهي ملاحظة حصيفة، إذا ما تغاضينا عن مضمونها العدائي ضدي. قلت له إنهم تركوا هذا الماضي تأكله العثة، وتعشش فيه العناكب. قلت له إن الرطوبة محت الكتابة عن أكثر من ألف وثيقة، وإن الجرذان التهمت أكثر من خمسمئة محفوظة، أو حوَّلتها إلى فتات من الأوراق الهالكة. قلت له إنني أحرقت ما لم يعد فيه أي أمل، أو أي صلاحية للحنين. لم يجب. لم يعلق. وأمضى بضع دقائق في مراجعة الأكداس الحية الباقية، ثم غادر القبو. ندمت لأنني داريته. ثم قلت إنها نوع من مداراة الحمقى. وما لبثت أن فكرت إنها نوع من المسايرة، والرغبة في الاحتماء وراء الكلمات. كان بوسعي أن أمنعه من التنقيب في الملفات والوثائق بقوة القانون الذي يمنحني المسؤولية الحصرية عن الأرشيف، كما يقدِّم لي الحق في السرية الكاملة من أجل حصانة العمل. لم أفعل. لم أجرؤ على إغضابه، أو استفزازه، وأنا أفكر أنني لا أريد اختلاق عدو. ومع ذلك فقد كتبت من جديد في ملاحظاتي أن من الصعب أن تعرف الحقيقة عن مثل هؤلاء الأشخاص بسبب قدرتهم الفذة على التحول والانتقال، أو بسبب نفاقهم، أو بسبب الجبن الذي يحكم حياتهم. وكتبت أيضاً: إن اندفاع هذا الرجل لإظهار الشفقة أو الحزن أو التعاطف مع التاريخ المدمَر، يخلو من العمق أو الفهم أو المهابة. كتبت: إن مثل هذه المشاعر المعلنة قد تكون مقدمةً أو تمهيداً لإزالة الحرج عن رغبة بعض الناس في الإخبار عما يحدث حولهم من أشياء لا يعرفون لماذا تحدث. أو لا يريدون أن تحدث، أو يخافون أن تحدث. ثم حددت مجموعة من السمات التي يتسم بها أمثال الطبال: المداهنة، الوصولية، الانتهازية، المزايدة الأخلاقية، ادعاء حب التاريخ والوطن، إلى آخر ما هنالك من وصفات كنت أريد أن أعممها على الإنسان السوري في الحقب الأخيرة من القرن. ولكن، على الرغم من أن أوصافي لم تكن تتضمن الشجب والإدانة، وإنما كانت مجرد محاولة لكتابة الصفات الشفوية التي يتداولها الناس عن الوضع العام، وعلى الرغم من أنني لم أذكر أي اسم،

فإن خالد الطبال أظهر غضباً ساحقاً حين عثر على الملاحظات. كيف حدث ذلك؟ ادعى الطبال أنه كان يمسح الطاولة من الغبار، ويرتب الأوراق المبعثرة. لم يكن هذا عمله، وليس من واجبه، أو من حقه أن يعمل في الأرشيف أي عمل. والمرجَّح عندي أنه كان يتلصص عل الشغل غير الميداني الذي أقوم به، وذلك بفضل الطابع السري والكتيم للنص الذي اشتغلت عليه، أو بفضل طبيعتي المغلقة غير الراغبة في الثرثرة، أو بذر الكلمات. ولذلك اعتقدت أنه لن يتمكن من قراءة المخفي والمستور. لكنه ادعى أنني أعنيه بتلك الصفات. أنكرت الادعاء. قلت إن الاسم ليس اسمه، ولن يستطيع أن يثبت وجود أي تطابق بين سمات الشخصية التي سميتها، وسماته. (أدرك الآن أن خيار تبديل الأسماء كان خياراً حكيماً). حاولت أن أقنعه أن المتحول والمرائي والمنافق والكذاب أشخاص من ورق، أبتكرهم من أجل تلخيص الأفراد، وتقديمهم في عروض خاصة توجز كل واحدة منها وصفاً للعشرات من البشر. لم يفهم كلمة مما قلت، وأعلمني بما يشبه الهتاف أنه يصنع هناك - أشار إلى الأعلى حيث الشارع - الحياة، فيما أنا محال هنا إلى الأضابير والملفات. اعتذرت له ثانية. وأقسمت إنني لا أعنيه. قال: بالطبع، فأنت لا تجرؤ على المس بي، أو النيل من سمعتي. قلت: نعم! ثم أقسمت هذه المرة لنفسي ألاَ أترك كلمة واحدة مكتوبة على طاولتي، أو في أدراجي، فأمرني الطبال ألا أتلف أي وثيقة دون موافقة مسبقة من قبله. كما تريد، قلت. لم أكتب شيئاً ذلك اليوم، إلى أن أعد لي فنجاناً من الشاي الثقيل، وقدمه لي مع الاحترام. تأكدت من سذاجة أفكاري عن البشر (أو هرائها كما يقول طعمة الله). بل يمكنني الآن أن أقول إن الشاي السيلاني الأسود الذي أعده الطبال، كان حاسماً في إظهار المدى الضروري للتعقل في فحص البشر، وعدم الحكم عليهم استناداً إلى الأوهام المستمدة من الملاحظة الخارجية وحدها. المفاجأة الداعمة هي أن الطبال حمل كأسه، وقرَب كرسيه، بحيث صار صدره ملتصقاً بحافة الطاولة، ومط رقبته نحوي وقال: «احذر! أنا الوحيد الذي يعرف كل شيء». عبارة واثقة ومطلقة صادرة عن روح اليقين التي اعتدنا أن نسمعها في تلك الأيام من كل جهة. ومن العجيب أن يتمكن منظف مستودعات، ومتلف متقاعد من اصطيادي داخل شراك الكلام! هذا ما حدث. وقفت مذهولاً أستفسر عن السر وراء الجملة القاطعة. فمن النادر أن تعثر على شخص مثله قادر على صياغة جملة قوية لها هذا الرنين الفلسفي، دون أن يكون لديه ما يقوله. طعمة

الله شجعني قائلاً إن علي أن أكتشف ما يحدث بالإخلاص للواقع. قال إن السوريين هم أكثر شعوب الأرض رغبة في الفلسفة، أو في تلخيص الموجودات داخل الأفكار. كان طعمة الله يتحدث عن الأمر، كباحث، أو مكتشف، وبفضله سألت الطبال في اليوم التالي: «أنت تعرف كل شيء عن أي شيء؟». فنظر إلي مواربة، وقال بازدراء: «لا تتغابى». هكذا مرة واحدة. دون أي قدر من التهذيب. هزني النهي. ويجب أن أقول إنني ابتداءً من هذه اللحظة أدركت أن لدى الطبال أشياء مهمة جداً. ثم فكرت أن من الصعب على موظف من الدرجة السابعة، أن يوجِّه كلمات جارحة إلى موظف من الدرجة الرابعة، دون أن يكون مسنوداً من قبل مرجعيات قادرة ومهددة.عليَ إذاً أن أتوخى الحذر، وأن أتروى، وأن أفكر في مغزى التنبيه الموجه إلي. غير أن الطبال كان يحمل أمراً آخر. عرفته حين أخرج علبة الدخان، وأشعل لفافة، وقال: «أنا زوج صفية». أذكر أنني ألغيت وجود صفية من النص منذ البداية. لم يكن لها مكان للحفظ أو للعمل، وهاهي تعود إلى هنا بسبب هذا التصريح المباغت الذي ألحق به الطبال معلومة أخرى هذيانية تقريباً، أخبرني فيها أن منزله كان الملجأ لليلى بعد موت حامد السومري!

أعترف أن هذا الاحتمال لم يخطر ببالي قط. فالخطة الأصلية كانت تتضمن بضع نهايات، أو خواتم، منها مثلاً زواجها من أي شخص يتقدم لخطبتها بعد التخرج من الدار، أو فرارها مع عاشق من مدينة أخرى، أو انتحارها، بعد ثلاث أو أربع سنوات من العمل. وهي الخاتمة التي سخر منها طعمة الله وقال إنها تحاول أن تُبرئ المذنب، وتُعدم الضحية، فقلت إن الضحية لا تكون كذلك، إلا إذا انتهت نهاية مأساوية، وإنني بهذه الخاتمة أدين اللامبالاة والسطحية والغموض والابتذال.

رأيتها تخرج من المدرسة التي تُعلِّم فيها، في دمشق، بعد أن دلني الطبال عليها، بدت مضيئة أكثر مما رأيتها في أي يوم. كانت ترتدي قميصاً بنفسجياً، وتنورة زرقاء، وجزمة جلدية سوداء طويلة الساقين، تحجز في الوسط، بالتعاون مع التنورة، استدارة ركبتها السمراء الفاتنة. وقد أُتيح لي، حين وقفت في ظل شجرة الأكاسيا التي تنصف الرصيف المقابل للمدرسة، أن أتأمل الثنيات الفاصلة بين الفخذين والساقين، بعد أن لحقت بها. لكن لم يسبق لي أن جزعت طوال عمري من امرأة قدر جزعي منها، في اللحظة التي صرت فيها خلفها، أحسست أن لديها قوة جذب غامضة، قد تتسبب بشلل

لساني، وتعطيل قدراتي وحرماني من التعبير عن نفسي.اكتفيت بالمشي خلفها، في الشارع المزدحم. لم تلاحظني، بسبب كثرة المارة، والسيارات. ثم غامرت بالمرور من ورائها، حين وقفت للفرجة على واجهة زجاجية تعرض تنزيلات على الملابس النسائية. خُيِّل إلي أنها التفتت نحوي. التقت نظراتنا فجأة في البرهة التي غطت مروري السريع المرتبك، فتجاوزتها وقد عراني الخوف، وانتفضت غددي وأغرقتني بسيل من العرق. نشف ريقي أيضاً، وكدت أعمى قبل أن أصل إلى كشك يبيع الجرائد، قرب أحد مواقف الباصات. وقفت هناك، وتنفست بعمق، ثم التفت إلى الوراء. كانت ما تزال تحدق إلى المعروضات وتثرثر مع رفيقتها، أعترف أنني خذلت وشتمتها في السر، ثم بدأت أتصفح عناوين المجلات ومانشيتات الصحف، وأنا أتلصص على تحركاتها، وتنقلاتها البطيئة من محل إلى آخر، إلى أن مشت باتجاهي من جديد. عندئذ درت حول الكشك، مذعوراً من احتمال إعادة تجربة لقاء العينين الفاشل، ثم سرت خلفها. لا حظت أن مشيتها صارت أكثر ثباتاً على الأرض، تقرع جزمتها الرصيف بخبرة ومعرفة وحضور مخلفة وراءها ذكرى مرورها الحصيف.

الغريب أنه لم تكن لدي أي مهام، وبقدر ما سارعت إلى مدرستها دون خطة، تبعتها بلا تفكير أو إعداد أو نهج، كأنني كنت أتبع حلماً. وبسبب هذا الخواء، لم أجرؤ على تقليص المسافة بيننا، متيقناً من أن أي محادثة هوجاء أو اعتباطية، قد تفترس آمالي في البحث، أو تخرب ما تبقى من عزاء أو رحمة أو تدبير ممكن لأي شيء. لكن ما رأيته أمدني بالاستنتاجات التالية: لا يمكن لأي امرأة تتقصى الملابس، وتفحص ألوان الربيع، وأحذية الصيف، أو تتبع آخر الموضات في السوق، وهي في الأربعينات من العمر، أن تكون محطمة أو بائسة أو تعيسة، كما كتبت في بداية النص. وسوف أتذكر دائما أنها التفتت نحوي، وابتسمت (حين افترقت عنها رفيقتها) وقالت: مرحبا زيدون! قلت في نفسي: يا غشاشة! ثم غفرت لها لأنها اختصرت طريق الحكي. لكنها قالت إنها لا تحب الحكي، لأنها لا تحب الماضي. وسألتني فجأة ونحن نمشي، ما هو أفضل ما يفعله الإنسان؟ كان لدي أكثر من عشر إجابات، ولكني قلت: لا أعرف. قالت: أنا اخترت واحدة، ومشيت عليها: لا تنظري إلى الوراء أبداً!.

أسجل هنا، أن أفضل ما فعلته ليلى هو أنها لم تطلب قراءة النص، لذلك لن تعرف أبداً أنني كنت من بين أولئك الذين أحبوها ذات يوم، ولم يرسلوا لها رسالة حب.

مؤلفات ممدوح عزّام

الروايات:

1ـ معراج الموت، الطبعة الأولى: دار الأهالي، دمشق 1989 ـ الطبعة الثانية: دار البلد، دمشق 2003.

2ـ قصر المطر، الطبعة الأولى: وزارة الثقافة، دمشق 1998 ـ الطبعة الثانية: المركز الثقافي العربي، بيروت & دار البلد، دمشق 2003.

3ـ جهات الجنوب، دار ورد، دمشق 2000.

4ـ أرض الكلام، دار المدى، دمشق 2005.

المجموعات القصصية:

1ـ نحو الماء، وزارة الثقافة 1985.

2ـ الشراع، وزارة الثقافة 2000.

سيناريو فيلم:

اللجاة، إخراج رياض شيّا، المؤسسة العامة للسينما 1993.

غير أنني لاحظت، فيما بعد، أن علي أن أشير، مثلما أفعل الآن، إلى بضعة أمور تتعلق بالموضوع ذاته، لا يجوز تجاهلها، أولها : انعدام الأصالة في ذلك الاختبار الخفيف المتعجل الذي أردنا أن نمتحن به مزاج البنات من جيلنا، وثانيها : حماقة السلوك الذي اتبعناه، كي نلعب بالمشاعر الغضة لهن، وقصدنا الوحيد، هو المتعة، والإثارة، وسحر المفارقات.

وقد غاب عنّا (وهو ما لفتني بقوة حين عثرت على الملف) أمران : الأول هو أننا كنا ندوس بلا حذر، ولا تفكير، ولا حرص، ولا عناية، ولا رحمة، ولا تفهم، فوق الأضلاع الطرية، والرخوة من الروح الإنسانية، والثاني هو أن مثل تلك الفكرة، لا ينفذها، في ذلك الزمن، (وفي أي زمن آخر أتى من بعد أيضاً(أحد، سوى البلهاء، أو المجانين، من أمثالنا، بعد أن أفسد الطيش (على الأرجح) عقولنا، بحيث صرنا عاجزين (بل كنّا) عن رؤية الأخطار المهلكة التي (لن يعرف أحد كيف نجونا منها) كان يمكن أن تضيعنا، لو انكشفت خطتنا التي نفذناها بروح مزهوة جديرة بالأغبياء والجهلة وحدهم .

أطلس . بيروت